المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

تأليف
مرثيدس غارثيا أرينال
جيرارد ويغرس

بين الإسلام والغرب

حياة صمويل باياتشي يهودي من فاس

ترجمة: ممدوح البستاوي

مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن

836

المشروع القومى للترجمة

بين الإسلام والغرب

حياة صمويل باياتشى
(يهودى من فاس)

تأليف: مرثيديس غارثيا أرينال
جيرارد ويغرس

ترجمة: ممدوح البستاوى

مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٣٦
- بين الإسلام والغرب
- مرثيديس غارثيا أرينال
  جيرارد ويغرس
- ممدوح البستاوى
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

Entre El Islam y Occident:

Vida de Samuel Pallache, judío de Fez

Por: Mercedes García–Arenal

Gerard Wiegers

شارع الجبلاية بالأوبرا ــ الجزيرة ــ القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦
فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

المحتويات

تصدير

نُشر هذا الكتاب باللغة الإسبانية عام ١٩٩٩ ثم تُرجم إلى اللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٣. وقد تنبّه المؤلفان ـ بعد صدور الكتاب إلى بعض الأخطاء فتداركاها في النسخة الانجليزية وأضافا إلى هذه النسخة بعض المعلومات، ولا يعيب النسخة الإنجليزية إلا أنها لم تترجم الوثائق الواردة في النسخة الإسبانية. وعندما بدأنا ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية وضعنا في الاعتبار الإضافات التي أدخلها المؤلفان، بل وبعض إضافات أخرى وردت إلينا عبر البريد العادي والإليكتروني.

وعليه تكون هذه النسخة التي نضعها بين يدي القارىء أكمل من النسختين الإسبانية والإنجليزية.

(المراجع)

مقدمة المراجع

الكتاب الذى نقدم له الآن ثمرة بحث دؤوب فى الأرشيفات الأوروبية لرسم صورة شخص كان يمكن ألا يلتفت إليه أحد، وهو نموذج لما يمكن أن يثمر عنه التعاون بين باحثين من بلاد مختلفة.

الباحثان اللذان وضعا الكتاب من أبرز المتخصصين فى الدراسات الموريسكية، وقد أتيحت للقارئ العربى فرصة للتعرف على أحدهما – الدكتورة غارثيا أرينال – واليوم نتعرف على الباحث الثانى، وهو الهولندى جيرارد ويغرس الأستاذ بجامعة ليدن والذى التقيت به منذ سنوات فى مؤتمر علمى حول الدراسات الموريسكية.

يستند الباحثان إلى خزائن المحفوظات فى كل من إسبانيا وهولندا لرسم صورة صمويل باياتشى اليهودى وبيان تأثيره على مجرى الأحداث فى الفترة التى عاش فيها. وحين يجد المؤلفان فراغا فى الوثائق الخاصة بصمويل باياتشى فإنهما يسدان هذا الفراغ باستخدام وثائق خاصة بيهود آخرين تتطابق حالتهم مع حالة باياتشى. إنهما يفعلان ذلك مثلاً لرسم صورة للبيئة التى عاش فيها باياتشى، سواء فى المغرب أو فى إسبانيا أو فى هولندا. وقد استطاع الباحثان فى النهاية أن يقدما لنا صورة تكاد تكون كاملة لصمويل باياتشى، وأن يعرضا فى الوقت نفسه بعض وثائق تلك الفترة.

شخصية الكتاب رجل يهودى عاش فى القرن السادس عشر ودرس الواقع المحيط به واستغله لصالحه. استطاع صمويل باياتشى أن يوطد علاقته بالبلاط المغربى وبأصحاب السلطة فى أوروبا، وحصل من هنا ومن هناك على مكاسب له ولذويه.

كان صمويل باياتشى عميلاً مزدوجا. كان يهوديا متدينا وعضوا فى طائفة السفارديم، لكنه أعرب فى أحيان كثيرة عن رغبته فى التحول إلى الكاثوليكية. كان

صمويل وذووه يعيشون في الهامش ويستغل كل منهم قدراته الخاصة على تعدد الانتماءات في الوصول إلى ما يريد.

كان باياتشي «مخلصا لجهات متعارضة»، كما يرد في الكتاب، وإن كنا نرى أنه لم يكن يعمل لصالح سلطان المغرب ولا لصالح التاج الإسباني، بل لتحقيق مصالح شخصية له ولذويه من اليهود.

أعترف أننا عرضنا إدراج هذا الكتاب ضمن إصدارات المشروع القومي للترجمة بهدف إلقاء مزيد من الضوء على أبعاد قضية مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة. والكتاب يتضمن بالفعل بعض الأمور المتعلقة بالموريسكيين، لكنه يتضمن كذلك موضوعات أخرى نحسب أنها بالغة الأهمية.

الكتاب يتضمن وثائق لم يلتفت إليها أحد من قبل على حد علمنا، وتتعلق بتاريخ المغرب العربي، وتوضح بعض الحقائق التي يمكن من خلالها أن نصحح بعض المعلومات الخاطئة.

١- اليهود والموريسكيون:

يتحدث المؤلفان عن دور اليهود في مساعدة الموريسكيين على إخراج ثرواتهم من إسبانيا بعد صدور قرار الطرد عام ١٦٠٩، فقد كان ذلك ممنوعا على الموريسكيين بحكم القانون، أما اليهود فكان بإمكانهم الخروج من إسبانيا وهم يحملون أموالهم. وغني عن الذكر أن اليهود استفادوا من تقديم تلك المساعدة للموريسكيين.

هناك شخصية موريسكية لا تشير إليها الكتب التي ترجمناها حتى الآن في مصر. أتحدث عن أحمد بن قاسم الحجري[1]. الكتاب الذي بين أيدينا الآن يشير إلى هذه الشخصية، وإن كان بشكل عابر.

---

(١) الموريسكي احمد بن قاسم الحجري الأندلسي ولد في احدى قرى غرناطة عام ١٥٦٩ / ١٥٧٠، وهو مؤلف كتاب (ناصر الدين على القوم الكافرين) ومترجم كتاب (العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع)، وهو عبارة عن كتاب يتناول صناعة المدافع. كان موظفا من قبل مولاي زيدان وممثلا للموريسكيين. ونظرا لاطلاعه على ثقافة عصره فقد كان ممن اشتغلوا بالجدل الديني بين المسلمين والمسيحيين.

في كتاب آخر من إصدارات المجلس الأعلى للثقافة ــ الموريسكيون في المغرب[٢] ــ كتبت في المقدمة أتساءل عن سر استخدام السلاطين المغاربة لليهود كمترجمين بدلاً من الموريسكيين، والكتاب الذى بين أيدينا يجيب عن هذا التساؤل ويبين أن السبب لا يعود إلى عدم الثقة في الموريسكيين بل لأن هؤلاء كانوا ممنوعين من دخول شبه الجزيرة الأيبيرية. الدليل على ذلك أن أحمد بن قاسم الحجرى قد أوفد إلى هولندا وأن عددا كبيرا من الموريسكيين كانوا موضع ثقة السلاطين المغاربة وقد عهدوا إليهم بمهام خطيرة.

يلقى الكتاب الضوء على اتفاق تم بين المغرب وهولندا تزود بمقتضاه هولندا المغرب بمائة سفينة حربية لمهاجمة سواحل إسبانيا. تم ذلك أثناء ثورة موريسكيى فالنسيا.

من ناحية أخرى يبرز الكتاب أن صمويل باياتشى حاول أن يلتقى بملك فرنسا عن طريق السفير الفرنسى فى مدريد، وقد أوصى السفير بأن يستمع الملك إليه فقد يحصل منه على أخبار تفيد فى التعامل مع تركيا. الخبر إلى هنا عادى، لكن إذا وضعنا فى الاعتبار أن باياتشى قد ذهب بعد ذلك بفترة قصيرة إلى أراغون، حيث كان مسلمو أراغون يقومون بثورتهم وكانت لهم مفاوضات مع ملك فرنسا، فإن الخبر يكتسب أهمية كبرى، إذ يشير إلى احتمال قيام باياتشى بدور ما فى الاتصالات بين مسلمى أراغون وملك فرنسا.

الكتاب يتحدث أيضا عن إمكانية الاستيلاء على أسرى وثروات من ملقة باستخدام ألفى جندى مسلحين بالبنادق وثمانية سفن، وكيف أن مولاى زيدان كان يرغب فى أن تزوده هولندا بالسفن، وكان الاتفاق يتضمن أن يحصل مولاى زيدان على ربع الغنيمة التى يحصل عليها كل من باياتشى والموريسكيين الذين يرافقونه. الغريب فى الأمر أن يهوديا آخر اتصل بأم السلطان وجعلها تثنى ابنها عن القيام بتلك العملية.

---

(٢) الكتاب من تأليف الدكتور غوثالبيس بوستو، ترجمة مروة محمد إبراهيم، مراجعة جمال عبد الرحمن.

هناك حديث فى الكتاب عن رغبة بعض الموريسكيين الذين وصلوا إلى أمستردام فى التحول إلى اليهودية، ونظن أن ذلك الطلب — إن صح — لم يكن سوى وسيلة للمحافظة على الإسلام، أى أن الموريسكيين أرادوا أن يتحولوا إلى اليهودية للاستفادة من الحرية الممنوحة لليهود آنذاك مما يمكنهم من أداء شعائر الإسلام سرًا دون التعرض لمضايقات محاكم التفتيش. ونذكر فى هذا الصدد أن الموريسكيين قد انخرطوا بين جماعات الغجر فى إسبانيا، أملا فى أن يساعدهم ذلك على الاختفاء عن أعين محكمة التفتيش[٣].

يبرز الكتاب سعى الموريسكيين إلى الإقامة فى فرنسا واستزراع أرض جدباء فى مقابل التصريح لهم بممارسة شعائر الإسلام بحرية. كم ضحى الموريسكيون من أجل دينهم!

الملاحظ أن المراسلات بين الدول الأوروبية والمغربية خلال القرن السادس عشر والسابع عشر كانت تتم باللغة الإسبانية، ويرجع ذلك إلى تواجد عدد كبير من الموريسكيين واليهود فى المغرب، وكانت المجموعتان نازحتين من إسبانيا وكان أفرادهما يتحدثون الإسبانية.

٢ــ كتب مولاى زيدان:

الكتاب يلقى مزيدًا من الضوء على قضية بالغة الأهمية هى قضية كتب مولاى زيدان التى استولت عليها السلطات الإسبانية ولم تشأ أبدًا إعادتها إلى المغرب رغم تكرار المحاولات المغربية.

حينما كان وضع مولاى زيدان فى خطر عهد بأملاكه — ومنها الكتب الشهيرة — إلى قبطان فرنسى لكى ينقلها إلى مكان آمن، لكن سفينة إسبانية استطاعت أن تأسر السفينة الفرنسية وتستولى على ما بها وتحمله إلى إسبانيا.

(٣) انظر: جمال عبد الرحمن: «حول كتاب حكايات غجرية لجارثيا لوركا»، مؤتمر «لوركا والثقافة العربية»، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨، ولم تنشر أعمال المؤتمر بعد.

الجزء الأكبر من حمولة السفينة كان عبارة عن مكتبة مولاى زيدان الخاصة، وكانت تبلغ نحو أربعة آلاف كتاب كان قد جمعها أبوه السلطان أحمد المنصور الذهبى. فى مارس من عام ١٦٢٦ طلب رئيس دير الإسكوريال أن تستعير مكتبة الدير تلك الكتب على سبيل الوديعة، فوهبها فيليبى الثالث إلى الإسكوريال، وهى لا تزال موجودة إلى اليوم وتشكل واحدة من أهم مجموعات المخطوطات الدينية فى أوروبا[٤]. يذكر الكتاب أن مولاى زيدان قد حمّل ملك فرنسا مسئولية ما حدث، وأن ذلك أدى إلى توتر فى العلاقات بين المغرب وفرنسا لفترة طويلة، وقد بذل مولاى زيدان جهدا جهيدا من أجل استعادة الكتب، وقد لعب كل من أحمد الغزالى وصمويل باياتشى دورا بارزا فى المفاوضات التى جرت. الجدير بالذكر أن جهود المغرب لاستعادة الكتب لم تتوقف طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر نظرا لأهميتها الكبرى لكل من المغرب وإسبانيا على حد سواء.

من المناسب أن نذكر أن سفارة أحمد الغزالى هذه قد استخدمها كاتب إسبانى ينتمى إلى القرن الثامن عشر هو خوسيه كادالسو الذى جعل من الغزالى شخصية أدبية فى كتاب «رسائل مغربية»، وهو كتاب شهير ويعد أحد معالم الأدب الإسبانى الحديث.

٣ـ اليهودى صاحب النفوذ وخائن الأمانة:

يبرز الكتاب أن اليهود كان لهم دور بارز فى صياغة علاقات المغرب مع العالم الخارجى خلال القرن السابع عشر. كانت هولندا هى المورد الأساسى للأسلحه بالنسبة للمغرب، وكانت ــ إلى جانب ذلك ــ هى الحليف الأساسى للمغرب فى مواجهته مع إسبانيا، وكان ليهود هولندا دور بارز فى كل ذلك.

يتحدث الكتاب أيضا عن دور اليهوديين خييرى وخودا سينافى فى

---

(٤) دكتور براوليو خوستيل «مكتبة الإسكوريال الملكية ومخطوطاتها العربية: نظرة تاريخية وصفية» المعهد الإسبانى العربى للثقافة، مدريد، ١٩٨٧.

المفاوضات التي أجراها مولاى الشيخ مع الإسبان للتنازل عن العرائش مقابل دعمهم له في حروبه ضد أخيه.

وكان بمقدور اليهود أيضا التحكم في مقابلات السلاطين المغاربة، وقد استخدموا هذه الإمكانية لصالحهم حتى عندما كان ذلك على حساب السلطان نفسه. وليس بوسعنا فى هذا الصدد سوى أن نبدى انبهارنا بفصاحة اليهودى موسى باياتشي، فقد كتب تقريرا عن رويل الهولندى، ظاهره العطف عليه ومضمونه يشكك فى قدرة الهولندى على القيام بأى عمل مهم، وكانت تلك مكيدة دبرت لرويل الذى كان يحتج على الصلاحيات الواسعة الممنوحة لليهود فى المغرب.

كانت دول أوروبية ــ هولندا وإسبانيا على وجه التحديد ــ ترغب فى أن تكون لها السيطرة على ميناء المعمورة المغربى من أجل التحكم فى نشاط القرصنة، ويذكر الكتاب أن مولاى زيدان كان يدرس عرضين لبيع ميناء المعمورة، وأنه كلّف باياتشى بالتفاوض مع الأسبان فى هذا الشأن. والمتابع لسيرة مولاى زيدان يتعجب من هذا الموقف، وربما كان هناك خلط فى الأوراق. عموما فإن الوثائق تتحدث عن عروض إسبانية، وهو أمر لا يعيب مولاى زيدان الذى لم يكن صاحب العرض ولم يرد ما يدل على قبوله العرض الإسباني. لكن باياتشى كان يتجاوز صلاحياته ويستغل ضعف موقف مولاى زيدان بعد استفحال أمر ابن أبى محلى.

يتحدث الكتاب عن وساطة باياتشى بين الإسبان ومولاى الشيخ عام ١٦١٠ (سلم بمقتضاها ميناء العرائش إلى الإسبان)، ويتحدث كذلك عن وساطة باياتشى بين الإسبان ومولاى زيدان عام ١٦٠٩. إذا وضعنا فى الاعتبار أن الوسيط فى هذه الأمور الشائكة يكون موضع ثقة السلطان عادة، وأنه خلال الأعوام المذكورة كان هناك صراع دموى على السلطة بين كل من مولاى زيدان ومولاى الشيخ، فلنا أن نشك فى صدق رواية الأحداث. إننا إذ نعرض الوثائق كما هى نأمل أن يقوم أحد المتخصصين العرب بشرح ما غمض علينا فهمه، أو بإجراء عملية نقد

علمى لبعض الروايات التى لا تتفق مع ما نعلمه من حرص مولاى زيدان على انتهاج سيرة أبيه أحمد منصور الذهبى.

الكتاب يلقى الضوء كذلك على حركة ابن أبى محلى فى المغرب وتهديده لعرش مولاى زيدان ودور اليهودى باياتشى فى الصراع على السلطة. الجدير بالذكر أن ابن أبى محلى كان قد وعد بالحد من نفوذ اليهود وباتخاذ إجراءات ضدهم. لم يتأخر رد فعل اليهود، فكتب موسى باياتشى تقريرا بالهولندية يدافع فيه عن شرعية حكم مولاى زيدان ووجوب تقديم الدعم له.

هذا عن دور اليهود فى علاقات المغرب بالدول الأجنبية، وفى المجال الداخلى يوضح الكتاب أيضا أن اليهود كانوا يعملون فى الوظائف والمهام التى لا يأتمن الملوك المغاربة عليها مسلمين. وإذا كان الشىء بالشىء يذكر فلنا أن نضيف هنا أن بعض الملوك المسيحيين قد استخدم المسلمين كحراس شخصيين لهم من باب ثقتهم فيهم. وفى القرن العشرين، عندما استخدم الجنرال فرانكو حرسا خاصا من الجنود المغاربة وسط استهجان الشعب لذلك، أعلن فرانكو أنه لم يبتدع شيئاً وأن الملوك الإسبان فى العصور الوسطى كانوا يستخدمون حراسا مسلمين[٥].

لا ندرى مدى صحة الأخبار، ولا ما إذا كان اسلام بعض اليهود كان نتيجة دراسة أم لأسباب أخرى، فالكتاب يذكر أن كثيرا من اليهود فى المغرب قد تحولوا إلى الإسلام، وأن أحد اليهود ـــ وكان اسمه سيباستيان باييث ـــ قد أسلم وأصبح اسمه سليمان باشا وتولى منصبا رفيعا فى جيش السلطان مولاى الشيخ.

الأمر المثير للانتباه أن الوثائق تكشف أمرا خطيرا، وهو أن أحد اليهود كان

---

(٥) تتحدث انا ايشيباريا عن وجود حراس مسلمين لملوك قشتاله المسيحيين خلال القرن الخامس عشر: خوان الثانى (١٤٠٦ – ١٤٥٤) وإنريكى الرابع (١٤٥٤ – ١٥٧٤). أنظر مقالها.
La guardia morisca: Un cuerpo desconocido del ejercito medieval castellano
ونذكر فيه ان الوثائق الموجودة فى ارشيف سيمانكاس العام تتضمن أسماء الفرسان المسلمين الذين كانوا يقومون بالحراسة.

بإمكانه "أن يقلد توقيع مولاى الشيخ مثل مولاى الشيخ نفسه "، ولنا أن نتخيل عدد وأهمية الوثائق التى يمكن أن يكون قد وقعها ذلك اليهودى.

لم يكن ذلك هو المظهر الوحيد لخيانة الثقة، إذ يبرز الكتاب أن اليهود قد أساءوا استغلال الصلاحيات المخولة لهم من قبل ملوك المغرب وأنهم كانوا ينسبون إلى أنفسهم ألقابا تظهر فى النصوص الاجنبية للاتفاقيات ولا تظهر فى النصوص العربية.

يبرز المؤلفان فى خاتمة الكتاب فرقا واضحا بين دور اليهود فى قصور المسلمين وفى قصور الملوك الأوروبيين: لم يثق ملوك أوروبا مطلقا فى اليهود ولم يعهدوا إليهم بمهام ذات طابع خاص. أما الملوك المسلمون فقد قلدوا اليهود مناصب حساسة وأولوهم ثقتهم. هناك فرق آخر: كان الملوك الأوروبيون يوثّقون كل شيء، فحينما رغب الملك الإسبانى فى الاستفادة من موقع ومعلومات باياتشى تم تحرير وثيقة تبين حدود وشروط التعامل بين صمويل باياتشى والتاج الإسباني، فهل كانت هناك وثيقة تحدد شروط تعاونه مع السلطان المغربي؟ مرة أخرى نلفت الانتباه إلى أن أمتنا أهملت التوثيق في مراحل من تاريخها.

٤- اليهودى بين الحقيقة والأسطورة:

وثائق الكتاب تدعونا إلى التأمل فى مسألة صغيرة لكنها متكررة: خبر غير مؤكد يتعلق بيهودى يرد فى وثيقة ما، ثم يتناقله المؤرخون وينسجون حوله الأساطير حتى يصبح شيئا مؤكدا لا يجرؤ أحد على التشكيك فيه. وهكذا يصبح من المسلّمات أن اليهود هم الذين شيدوا هذا الأثر أو ذاك، وهم الذين أسسوا ذلك العلم، وهم أصحاب الفضل فى هذا الاختراع أو ذاك... كل ذلك على غير أساس. القصة التى يوردها الكتاب تقول إن صمويل باياتشى اصطدم بالسفير الإسبانى فى هولندا فى عام كذا. الجدير بالذكر أن "الخبر" قد ردده اليهود كثيرا من باب الإشادة بشجاعة باياتشى، وتناقل الناس الخبر حتى أضحى كالوقائع الثابتة، ثم تبين بعد ذلك عدم وجود وثائق أخرى تؤكد صحة الواقعة وأن الأمر لا يعدو كونه من باب المبالغات.

الذى يتأمل واقع اليهود اليوم يكاد يرى أنهم أقوياء أذكياء يحبون بعضهم بعضا... إلخ، وقد يتوصل الإنسان الى نظرية تقول بأن اليهود صنف من البشر يتفوق على الأخرين. لكن الوثائق التى يعرضها الكتاب تقول غير ذلك، وتؤكد أن اليهود فى القرنين السادس عشر والسابع عشر قد تجسس بعضهم على بعض، وكان بأسهم بينهم شديدا. إذن فوضع اليهود حاليا وضع مؤقت قد يتغير إن هم أهملوا أسباب القوة ولا يعود إلى اختلافهم كجنس عن بقية شعوب الأرض. هذا يعنى كذلك أن الأخذ بأسباب القوة والوصول إلى امتلاكها ليس حكرا على اليهود دون غيرهم، بل تستطيع الأمم أن تجد وتجتهد وتمتلك من أسباب القوة ما يمكّن لها من العيش بكرامة.

نعم كان كل فرد من عائلة باياتشى يعمل لصالح الأسرة كلها، لكن يجب ألا ننسى وجود صراعات يعرضها الكتاب بين مجموعات يهودية. فعلى سبيل المثال لم يرحب اليهود الإسبان كثيرًا بوصول اليهود البرتغاليين لأن وصولهم كان يعنى تعرضهم للخطر، إذ سيعيد إلى أذهان محكمة التفتيش مسألة محافظة الكاثوليك ذوى الأصول اليهودية على دينهم القديم.

هـ اليهود بين الإسلام والمسيحية:

هناك أمر يلفت النظر، فاليهودى صمويل باياتشى قد عاش بين ظهرانى المسلمين فى فاس وبين ظهرانى الكاثوليك فى إسبانيا، وهو يؤكد من خلال التجربتين أن اليهود ــ على الرغم من حالة الذل التى كانوا يعيشون فيها فى فاس ــ فإن ذلك كان أفضل من العيش فى أرض المسيحيين". لكن المؤلفين يعلقان فى جملة لاحقة بأن باياتشى لم يكن صادقا حين أعلن ذلك، ولا يوضح لنا المؤلفان الأسباب التى استندا إليها فى هذا الحكم.

حالة الانتقال من دين إلى أخر عند اليهود تدعو إلى العجب. تأمل مثلا حالة فرانثيسكو ديل إسبيريتو سانتو، فقد ولد لأسرة يهودية فى مراكش، وعندما بلغ عامه العشرين تحول إلى الإسلام فى مدينة فاس، حيث كان يعمل فى خدمة

السلطان المغربى، ثم ذهب إلى إسبانيا وتحول إلى المسيحية، ثم يؤكد بعد ذلك أنــه يعتنق دين موسى ويريد أن يموت عليه... وعموما فإن الكتاب يلقى الضوء علـــى قدرة اليهودى على إخفاء هويته الدينية عند عقد التحالفات السياسية.

يوضح الكتاب أن مدينة فاس المغربية كانت الملجأ الذى اختاره اليهود بعــد طردهم من إسبانيا عام ١٤٩٢، ففى تلك السنوات كانت الـــبلاد الأوروبيـــة التـــى تسمح لليهود بالعيش فيها قليلة: البرتغال وبعض المدن الإيطاليـــة. كانـــت القـــوة الإسلامية بالنسبة لليهود بمثابة المنقذ لهم من الاضطهاد المسيحى، ولذلك فعنـــدما انتصر المغاربة على الملك البرتغالى سباستيان احتفل اليهود بالنصر وأقاموا صلاة الشكر، وهى صلاه لا تزال تقام حتى اليوم.

تكشف الوثائق التى يعرضها الكتاب أن كثيرا من زعمـــاء اليهـــود كـــانوا يتحولون إلى الكاثوليكية، إذ أن التنصر كان وسيلة للإقامـــة فـــى إســـبانيا. وقـــد استخدمت عائلة باياتشى تنصر بعض أفرادها لكى يكون لها مكـــان بـــين الـــشرق والغرب، بين المسلمين والمسيحيين، بحيث يمكن استغلال ذلك الوضـــع المتميـــز لتحقيق مكاسب لها.

٦ـ اليهود والعامل الاقتصادى:

يوضح الكتاب سببًا اقتصاديا لوجود اليهود فى المغرب، فقد اشتهر اليهـــود بمهارتهم فى أعمال التجارة، ولذلك كان الملك والأعيان يستخدمون اليهود فى إدارة أعمالهم.

اليهود مهرة فى استغلال أى شىء لصالحهم. فعلى ســـبيل المثـــال انتـــصر المغاربة على البرتغاليين فى معركة القصر الكبير وأســـروا عـــددًا مـــن النـــبلاء البرتغاليين. أقام هؤلاء فى السجن انتظارًا لأن يأتى أحد فيدفع فديتهم، ولمـــا كـــان الأسرى من الأغنياء فقد اقترضوا أموالاً من اليهود لإنفاقها وهم فى الأسر، وفـــى المقابل أعطوا اليهود مستندات يمكن صرفها فى البرتغال.

من باب استغلال الظروف أيضا أن اليهود قد تخصصوا فى مهن يحتقرها المسلمون مثل شغل المعادن، فكان من بين اليهود صانعو الذهب وصنّاع الأسلحة.

٧ـ ملوك وملوك:

الكتاب فرصه للتعرف على أحمد منصور الذهبي، ذلك السلطان الذى جعل من مراكش عاصمه للثقافة والتجارة والتصنيع، وبذل جهودا جبارة للنهوض بدولته، بل وحاول أن يتحالف مع الإنجليز للاستيلاء على بلاد العالم الجديد وتقاسم السيطرة عليها، وقد وسع أحمد المنصور ملكه جنوبا وحصل على الذهب واستولى على مواقع استراتيجية.

ورد فى الكتاب ما يقوله مؤلف مجهول إن أحمد المنصور سلطان فاس قد أرسل إلى ملوك أوروبا يطلب منهم حرفيين مهره فى جميع أنواع الفنون وإن الملوك قد أرسلوا إليه ما طلبه. نحن نستغرب ذلك، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن مملكة فاس كانت فى حرب ضد البرتغال وإسبانيا.

إذا كنا نشيد بأحمد المنصور فان ابنه مولاى الشيخ كان على النقيض تماما، فقد نازع أخاه مولاى زيدان الملك، ولم يترفع عن التحالف مع الإسبان ضد أخيه، بل أراد أن يسلم ميناء العرانش إلى الإسبان مقابل دعم الإسبان له ضد أخيه بدفع مبلغ من المال ومنحه السلاح، وقد دخلت القوات الإسبانية الميناء بالفعل عام ١٦١٠ وأخلته من سكانه الأصليين.

٨ـ العامل الدينى والعامل الاقتصادى:

رغم صدور قرار طرد اليهود من إسبانيا عام ١٤٩٢ إلا أن السلطات الإسبانية كانت تستثنى من القرار بعض ذوى الثقة ممن كان بإمكانهم تقديم خدمات، ويوضح الكتاب أنه اعتبارا من عام ١٤٩٣ ــ أى بعد مرور عام واحد على قرار الطرد ــ أصبح بإمكان اليهود المطرودين العودة إلى إسبانيا.

الملفت للنظر أن الدوافع الاقتصادية كانت وراء منح تسهيل إقامة لليهود في أوروبا، ففي بعض الدول الأوروبية كان يسمح بحرية العبادة، وكان هذا التساهل يمنح لليهود. والمرء لا يستطيع الا أن يتساءل: هل كان للمسلمين نصيب من ذلك التسامح، أو بالأحرى، لماذا لم يكن هناك تسامح مع المسلمين أيضا؟ هل كان السبب أن المسلمين كانت لهم إمبراطورية عثمانية تحميهم، ومن ثم كانوا مصدر خطر محتمل، في حين أن اليهود لم يكونوا يشكلون خطرا حينذاك؟

أدى عدم اعتراض السلطات الاسبانية على عودة اليهود إلى أراضيها من جهة، وتشدد البرتغاليين في التضييق على اليهود من جهة أخرى، إلى هجرة اليهود من البرتغال إلى إسبانيا، وكان المهاجرون كثيرين لدرجة أن كلمة "برتغالي" في القرن السادس عشر في إسبانيا كان معناها يهودي.

كان فيليبي الثالث على استعداد لإبداء التسامح الديني مقابل أن تدفع إليه أموال، وعلى هذا فقد حصل اليهود المتنصرين في عهده على بعض الامتيازات عام ١٦٠١ بعد أن دفعوا مبلغا كبيرا من المال، وكان ذلك ضد إرادة الكنيسة، وقد وصل الأمر إلى أن الملك الإسباني توسط لدى البابا حتى تنقضي الدعاوى المقامة ضد يهود أمام محاكم التفتيش البرتغالية عام ١٦٠٥. من الغريب أن ذلك "التسامح" لم يشمل الموريسكيين رغم استعدادهم لدفع أموال. كان هناك مرسوم بابوي يحظر على المسيحيين إمداد المسلمين بالأسلحة، وعلى الرغم من ذلك تغلبت لغة المصالح وحصل المغرب على حاجته من السلاح.

٩- فرق تسد:

يأتي بعد ذلك موضوع اللعب على تقسيم العالم الإسلامي على أسس طائفية وسياسية، فقد كان المغرب هو البلد المسلم المتوسطي الوحيد غير الخاضع للامبراطورية العثمانية، وكان المغرب يخشى من احتلال العثمانيين له، وقد استغل الساسة الإسبان ذلك لمصلحتهم. استغلوا كذلك التنازع على العرش المغربي،

وكانوا يؤيدون بالتأكيد من يرونه أقرب إلى تحقيق مصالحهم... كانت هناك مفاوضات وتنازلات وتسهيلات. في كل هذه الأمور كان يبرز دور اليهودى صمويل باياتشى.

١٠ـ الأهمية الاستراتيجية:

تعرض وثائق الكتاب أهمية مدينتى العرائش والمعمورة المغربيتين وتأثيرهما على أمن الطرق المؤدية إلى بلاد العالم الجديد، وكيف أن كلاً من هولندا وانجلترا كانتا تنافسان إسبانيا الرغبة فى السيطرة على المدينتين. كان وضع صمويل باياتشى يؤهله للعب دور بارز فى المفاوضات التى جرت فى هذا الشأن بين المغرب ودول أوروبية.

١١ـ متفرقات:

الكتاب يلقى الضوء وإن كان بشكل عابر على نهج اليهود فى المحافظه على أصلهم والتزاوج فيما بينهم والمحافظة على شعائرهم الدينية وتفضيل الإقامة فى المشرق ـ الذى يحترم الخصوصيات الثقافية ـ على المخاطرة بالإقامة فى بلاد الغرب الكاثوليكى الذى لا يحترم العقائد الأخرى وتقديم مساعدات اجتماعية للفقراء اليهود.

يتحدث الفصل الثالث من الكتاب على أن كلا من الكاثوليك والبروتستانت فى أواخر القرن السادس عشر قد ادركوا أن النزاع بينهما لا يمكن أن يحسم فقط بالسلاح وأن ذلك أدى إلى وجود نمط سياسى فى العلاقة بين الطرفين يسمح بتواجد اليهود فى أوروبا بل وبقيامهم بدورهم.

ونظن أن من حق القارئ المسلم أن يتساءل: لماذا لم يستفد المسلمون من جو الحرية الدينية ؟

يبرز الكتاب أن أعضاء العائلة اليهودية الواحدة يتظاهرون بالانقسام

والاختلاف في العلن، بينما هم في السر يتعاطفون فيما بينهم ويعاون بعضهم بعضا. على أن هذا لا ينفي وقوع خلافات فعلية بين اليهود أحيانا.

الطريف أن الكتاب يشرح الفرق بين القرصان الحكومي والقرصان الخاص، فالأول يبحر في سفينة يملكها لكنها حاصلة على ترخيص من الحكومة وكانت تحمل علم الدولة التي منحته "رخصة قرصنة حكومية "، وكان عمل القرصان الحكومي يقتصر على مهاجمة السفن التي رُخص له بمهاجمتها، وهي سفن الدول التي لم توقع معاهدة مع حكومته، أما القرصان الخاص فلم يكن يهمه سوى الربح وكان يهاجم كل ما يقابله.الجدير بالذكر أن القرصنة الحكومية كان معترفا بها وكان من يقوم بها لا يقع تحت طائلة القانون.

الكتاب يشير ــ ربما لأول مرة ــ إلى أن عددا من اليهود الإسبان قد استقر بمصر.

ما أشبه اليوم بالبارحة، فرغم العلاقات الطيبة وعلاقات المصالح التي كانت تربط بين المغرب وهولندا، إلا أن هولندا كانت تكتفي بإمداد المغرب بالسلاح وكانت ترفض تماما أن يكون له أسطول بحري.

وبعد:

رأينا أن صمويل باياتشي كان بارعا في استغلال أي شيء لصالحه ولصالح أسرته، فهو قد استطاع الوصول إلى القصر المغربي، ووصل إلى قصور إسبانيا وفرنسا وأصحاب السلطة في هولندا... إلخ. وعندما نتصفح الكتاب نجد أنه لم يكن هو الشخص اليهودي الوحيد الذي قام بهذا الدور، بل كان هناك يهود كثيرون ساروا على هذا النهج ووصلوا إلى مواقع السلطة هنا وهناك.

لم تكن هذه التصرفات إذن حكرا على شخص معين، بل كانت تمارسها عائلة يهودية بأكملها ولمدة أجيال عديدة.إذا كنا نتحدث عن صمويل باياتشي فليس ذلك الا لأنه مؤسس العائلة.

المهم هو أن صمويل لم يكن اليهودى الوحيد الذى اتسمت حياته بتعدد الانتماءات واستخدام علاقاته الخاصة بأصحاب السلطة فى العالمين الإسلامى والمسيحى لتحقيق مصالح لنفسه ولليهود بشكل عام.

كان هذا الكتاب فرصة للتعرف على أحد جوانب الحياة فى مغربنا العربى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، ونحسب أنه أضاف بيانات مهمة لمن يريد دراسة القضية الموريسكية بكل أبعادها. لا يسعنا فى النهاية إلا أن نقدم جزيل شكرنا مرة أخرى للزميلين غارثيا آرينال وجيرارد ويغرس على تعاونهما فى سبيل صدور هذه الترجمة العربية للكتاب فى مصر، وشكرنا للمجلس الأعلى للثقافة لا ينقطع، فهذا واحد من كتب كثيرة تتعلق بمسلمى الأندلس يصدرها المشروع القومى للترجمة.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

شكر وامتنان

استغرق هذا الكتاب وقتا لا يتناسب مع حجمه الضئيل: لقد استلزم بين أمور أخرى ساعات طويلة من البحث فى الأرشيفات بحثا عما كان يُعد بيانات هى فى الغالب قليلة ودائمًا متفرقة جدا. على مدى هذا البحث أصبحنا مدينين بالشكر، على نحو خاص جدا لإيسابيل أغيرّى، رئيسة قاعة الأرشيف العام لسيمانكاس. ونحن الذين نتردد على هذا الأرشيف نعرف إلى أى حد تُسهم معارفها ولطفها فى إنجاز عملنا. يجب أن نشكر أيضا لويسا إيسابيل الباريث دى توليدو، دوقة ميدينا سيدونيا، التى سمحت لنا بالاطلاع على أرشيفها العائلى، وقدمت لنا إيضاحات بغرض إرشادنا إلى محتويات أرشيفها الثرى للغاية. هناك أرشيف خاص آخر، مجموعة إم.إتش.غانس القديمة بأمستردام، فتح لنا أبوابه بلطافة وريثه الحالى. نشكر كذلك موظفى الأرشيف التاريخى الوطنى والمكتبة الوطنية بمدريد، وأرشيف تورّى دو تومبو الوطنى بلشبونة، والمكتبة الجامعية بأمستردام، ومحفوظات روياومى العامة فى بروكسل، الذين اهتموا بطلباتنا العديدة، واستجابوا لطلباتنا بعمل الصور الضوئية. لقد أعطوا نماذج من اللطف والتفاهم إزاء تلك العجلة التى تصيب الباحث الذى يعمل لعدة أيام فى أرشيف بعيد عن المدينة التى يعيش فيها. من هنا يأتى امتناننا.

فيما يتعلق بمادة العمل، فإن مصدرها ينطلق من مناقشاتنا حول إمكانية القيام بعمل مشترك عندما عثر جيرارد ويغرس على وثائق موحية جدا عن باياتشى فى الوقت الذى كان فيه كلانا يبحث فى أرشيف سيمانكاس العام. استخدمنا هذه الوثائق كنقطة انطلاق، وقد عثرت غارثيا أرينال على كمية كبيرة من المراجع التى بدت لنا مُبهرة. هكذا أنشأنا قاعدة الدراسة الحالية. بدءا من هنا وبالتوافق مع الأماكن التى يعيش فيها كلانا، مدريد ولِيْدن على التوالى، تولت غارثيا أرينال الأرشيفات والمكتبات بشبه الجزيرة الأيبيرية، وتولى ويغرس أرشيفات ومكتبات هولندا وبلجيكا. على مدى السفريات والمقابلات فى العديد من المؤتمرات استطعنا أن نناقش ونقارن اكتشافاتنا وأفكارنا وتفسيراتنا وقراءاتنا الأولية التى تبادلناها أكثر

من مرة عبر الإنترنت، ذلك الاختراع الذى شجع كثيرًا على التعاون الدولى.إذا نظرنا إلى الوراء، يمكن القول إن الوزن الأكبر فى كتابة المجلد الذى يملكه القارئ الآن بين يديه، كان من نصيب غارثيا أرينال. ومع ذلك فقد قمنا سويًا بمراجعته وتنقيحه بحيث أن كلانا مسئول عن الكتاب بنفس الدرجة. أثناء الأعوام التى أعددنا فيها الدراسة الحالية، حظيَ جيرارد ويغرس على منحة من الأكاديمية الملكية الهولندية للعلوم (K.N.A.W)حتى أواخرعام ١٩٩٥ وعلى منحة من مؤسسة بنك بيلباو- بيثكايا (FBBV) أتاحت له أن يتواجد فى المجلس الأعلى للبحث العلمى بمدريد مدة ثلاثة أشهر من خريف عام١٩٩٧.

من السهل التخيل أن أقاربنا وأصدقاءنا المقربين قد ملوا من سماع الكلام عن صمويل باياتشى، وزيادة على ذلك وجب عليهم قراءة فصول فى مرحلة مختلفة من الإعداد. إن تعليقاتهم، دهشتهم أو عدم فهمهم أحيانا كانت بالنسبة لنا مفيدة جدا، وكذلك كان مللهم دافعا لنا لتخفيف إسهاب فصلٍ.

زملاؤنا ماريبيل فيّرو ومانويلا مارين وفرناندو مديانو من قسم الدراسات العربية فى المجلس الأعلى للبحث العلمى .C.S.I.C، سُجويرد ڤان كونينجسفيلد من جامعة لِيْدن ودافيد واسّيرستين من جامعة تل أبيب قرأوا مراحل متعددة من المخطوط وكانت تعليقاتهم مهمة للغاية. نشكر زميلنا هيرمان برينس سالومون (جامعة ولاية نيويورك) على لفت انتباهنا إلى المصادر فى بروكسل، ونشكر اليستير هاميلتون ويم دى بار على مساعدتهما فى فك رموز بعض الوثائق. كما نشكر كلاً من دريس منصورى، وعبد الإله بن مليح (جامعة فاس) وخوسيه ماريا بينيويلا، الذين أمدونا بالصور التوضيحية.

وقد ترجمت إيسبرانثا ألفونسو المقالات المكتوبة باللغة العبرية المذكورة فى قائمة المراجع.

وأخيرًا، نشكر كلاً من إيرنولد ڤان غوسليغا، وويلمويت بويندير، وهاننى سلوتمان - طلبة من كلية اللاهوت بجامعة لِيْدن - وكريستينا دى لا بوينتى، من المجلس الأعلى للبحث العلمى بمدريد على تقديم المساعدة التقنية فى المراحل الأخيرة من هذا الكتاب.

مدخل

هناك أشخاص تُعدّ سيرهم الذاتية نوعًا من التعبير عن الصراعات الكبيرة في الأزمنة التى كُتِب عليهم أن يعيشوا فيها. ليست الدراسة عن أبطالٍ لعبوا أدوارا أو أصدروا قرارات حددت ملامح عصرٍ بكامله، بل على العكس تتعلق بـ «سيَر صُغرَى»، سيَر أشخاص، ليسوا بالضرورة عاديين، يضطرون لمجابهة مجموعة من الظروف التى تحكمها أحداث سياسية واقتصادية تخرج عن نطاق سيطرتهم المباشرة. إنّ مأساتهم الشخصية والطريقة التى واجهوا بها أو تكيَّفوا أو سايروا بها هذه الظروف الخاصة لها قيمة نموذجية وتمثل حياة الآلاف من الأشخاص المجهولين. من ناحية أخرى فإن هذا النوع من السِّيَر النادرة له أحيانًا القدرة على أن يستدعى بإسلوب فعَّال موقفا سياسيا أو اجتماعيا محددا، وعلى أن يستحضر ماض بأكمله.

المشكلة هى أنّ هذه السير المتعلقة بأشخاص مجهولين بحكم طبيعتها الخاصة يكون من الصعب جدا توثيقها أو إعادة بنائها فى مجملها. ولهذا فقد أحسسنا بافتتان حقيقى — نأمل أن نعرف كيف ننقله — بالحياة الغامضة والمعقدة لصمويل باياتشى.

وُلِدَ صمويل باياتشى فى فاس وهو من عائلة يهودية من أصل إسبانى،وكان عميلاً تجاريًا ودبلوماسيًّا للسلطان المغربى مولاى زيدان فى هولندا حتى وفاته فى عام ١٦١٦. لكنه قبل ذلك، وفى نفس الوقت، كان أيضا عميلاً فى إسبانيا، حيث حاول أن يستقر ويحضر أسرته، وقد عمل طيلة حياته جاسوسا وعميلاً مزدوجا وتاجرًا وقرصانًا. فى هذه الشخصية تجتمع كل الأنشطة والوظائف الخاصة باليهود والموريسكيين المبعدين من شبه الجزيرة، وكذلك المواقف التى تتراوح بين الامتعاض والثأر من ناحية، والمحاولات المتكررة للعودة من ناحية أخرى، مرورا بالاستخدام الواعى ولمصلحته الشخصية لتلك العناصر الثقافية التى كانت تجعلهم متماثلين مع سكان شبه الجزيرة الأيبيرية. كان باياتشى يهوديا متأملاً وعضوا بارزا بجماعة أمستردام، مستعدا للارتداد للكاثوليكية فى إسبانيا وللعمل لصالح

التاج الإسبانى، ولم يهجر أبدًا أساسه العائلى فى المغرب، واحتفظ أيضا بعلاقات وثيقة مع إسطمبول. وكان أخوه جوزيف سفيرا للمغرب فى هولندا من بعْدِه، وكان ابن اخيه موسى مترجمًا للسلطان مولاى زيدان ولمنْ جاءوا من بعده. كان هو العضو الأكثر شهرة من بين عائلة لعب أعضاوها دورا مهمًا ليس فقط فى العلاقات بين المغرب وهولندا على وجه الخصوص، لكن أيضًا فى علاقات المغرب مع دول أوروبية مختلفة(إنجلترا، فرنسا) ومع الإمبراطورية العثمانية، خلال جزء من القرن السابع عشر:إن مسار هؤلاء الأعضاء الآخرين، والذين سنهتم بهم أيضا،توضح الخيارات الفردية المختلفة لكل منهم أمام نفس الظروف.

لم يكن صمويل باياتشى شخصًا مجهولاً. فقد كان هدفا لأبحاث جزئية مخصصة فى الأساس لدوره كعضو بارز فى طائفة السفارديم بأمستردام أو لدوره، الملتزم على حدٍ سواء، كعدوٍ نشط لإسبانيا. ولهذا عندما بدأنا العمل فى أرشيف سيمانكاس العام (كل واحد منا بمفرده) فى محتويات قسم «الدولة الإسبانية» التى تكشف بطريقة أكثر فعالية هذا العالم المدهش من جبهة البحر المتوسط بين إسبانيا والمغرب، تحولت دهشتنا إلى افتتان عندما كانت تظهر أوراق وبيانات متفرقة تشير إلى صمويل باياتشى وإلى أخيه جوزيف. إنها وثائق ترسم فى خطوط عريضة شخصية أشد تعقيدًا وخداعًا بكثير مما ألمحت إليه الدراسات التى تحدثت عنهما قبل ذلك، وتظهر القصور والطابع النشط لهوية فردية، وكذلك اللحظات المتناقضة لبناء تلك الشخصية. وقد حملنا هذا الافتتان على تمشيط أرشيفات عديدة بحثًا عن تفاصيل كثيرًا ما بدا العثور عليها فى الوثائق الموجودة أمرًا مستحيلاً.

فى بعض الحالات ــ وهذه واحدة منها ــ يكون عمل الباحث مشابهًا جدا لتحريات الشرطة وربما يكون من المناسب أن نكتب العمل الناتج عن البحث متبعين المسار والاتجاهات والآثار والاكتشافات التى توصل إليها البحث ذاته بنفس الطريقة التى تكتب بها قصة بوليسية أو قصة جاسوسية جيدة. لن نكون قادرين على فعل ذلك هنا لأن عملنا الأكاديمى يمنعنا من ذلك. وهو شيء مؤسف، حيث أن السيرة، كنوع أدبى، هى المجال المناسب الذى تطرح فيه الأسئلة والتقنيات الخاصة بالأدب فى كتابة التاريخ.

إن أكبر عقبة واجهناها تمثلت فى بناء قصة توضح العناصر المتناقضة التى تشكل هوية شخص، وإعادة صياغة وفهم شخصيته المعقدة حينما تتضمن الوثائق ثغرات كثيرة خاصة فى مظاهر سيكولوجية أو سلوكية، وفى أشكال وأفكار الحياة اليومية. وحيث أن هدفنا ليس عمل تسلسل تاريخى محض للأحداث فسوف نحاول أن نتتبع الأسئلة التى طرحها علينا الكشف التدريجى لحياة باياتشى.

لكى نملأ تلك الثغرات ـــ ولو بشكل جزئـى ـــ حاولنا أن نوسّع بقدر استطاعتنا عدد الأشخاص والحركات التى كان باياتشى على اتصال بها، وأن نعيد بناء بيئته من حوله، وأن نعدد الأمثلة لسير أخرى متشابهة ومتقاربة مع سيرته.

إن حياة باياتشى، العميقة فى تفردها، ليست مثالية بالمعنى الأخلاقى للكلمة. لقد كان باياتشى يتكتم ويتصنع، فقد كان يمثل أدوارًا مختلفة، كان يبتكر شخصيته الخاصة أمام العديد من مخاطبيه وحسب الموقف الذى كان فيه. إن سماته الشخصية هى القدرة على التكتم والتشكل والتكيُّف وروح العمل والمخاطرة بالنفس لشخص يفاوض دائمًا ويستخدم شتى الحيَل، لشخص يعيش فى الشك. إن باياتشى الملتوى والمراوغ يعيش، مثل آخرين ممنْ هم على شاكلته، وعلى الحد الأدنى، فى الهامش، مستخدمًا دائمًا قدرته هذه على العيش موزعًا بين بيئتين، المكان الأخير الذى يستطيع منه الحصول على مركز قوة: هذه السمات ربما كانت استثنائية، بيد أنها لم تكن فريدة مطلقًا. ولا حتى، كما سنرى، قاصرة على اليهود الإسبان المهاجرين: على مدى الصفحات سوف نجد أنطونى وروبرت شارلى، وچان كاستيلان وآخرين كثيرين كانت لهم صفات مشابهة.

من ناحية أخرى؛ فإن السلطات (وخاصة الإسبانية) التى كانت لها تعاملات معه استغلوا قدراته حتى فى الحالات التى كانوا يعرفون فيها إزدواجيته أو افتقاده للإخلاص الحقيقى، أو لنقل قدرته على أن يكون مخلصًا لعديد من الجهات المتعارضة. هذا يبدو أحيانًا، كما سنرى، شيئًا لصالحه لا ضده. ربما كان ذلك يكشف المظاهر الإيجابية فى النفاق والخيانة التى تدل على تغيرات العقلية فى عصر النهضة.

سوف نحتاج أن ندمج باستمرار حياة باياتشي ببيئته، لأن ما يعطي ثراء لشخصيته هو وضعه في وسط محدد اجتماعيا وتاريخيا. أيًا كانت أصالته الظاهرة، واختلافه عن القاعدة، فإن حياته لا يمكن أن تفهم من خلال سماته إذا لم تظهر البيئة إلى سمحت بها.

في المقام الأول، اهتممنا بالعالم الذى كان ينتمى إليه باياتشي. كانت عائلة باياتشي تنتمى إلى واحدة من المجموعات الدينية المطرودة من شبه الجزيرة في أواخر القرن الخامس عشر، وكانوا واحدة من الظواهر الأكثر أهمية لهذه المجموعة من المطرودين، حيث أنهم احتفظوا بخصائصهم الإسبانية خلال أجيال كثيرة في الأراضى المختلفة التى أقاموا فيها.

سوف نتتبع المراحل المتعددة لحياة باياتشي ونبدأ بتسليط الضوء على المدينة التى وُلِد فيها، فاس، وبالحياة هناك وخصائص مجتمعه اليهودى. سنهتم بوجه عام، بالدور البارز الذى كان لليهود، وعلى الأخص الذين هم من أصل إسبانى، في القصر المغربى وفى العلاقات الدبلوماسية والتجارية على حد سواء، للمغرب مع العالم الخارجى. فى كل هذا فإن ارتباط هؤلاء اليهود بإخوتهم في الدين فى البرتغال وهولندا وإيطاليا له دور مهم.

في المقام الثانى، سنشير إلى إقامة باياتشي فى إسبانيا وتعاملاته مع سلطات إسبانية مختلفة، وسنعرض محاولاته لتثبيت إقامته هنا مع أسرته، حتى تعيَّن عليه الرحيل بسبب مشاكل حدثت مع محكمة التفتيش.

في المقام الثالث، سنتحدث عن المرحلة الأكثر طولاً والموثقة جيدًا وهى ذلك الجزء من حياته الذى قضاه فى أمستردام، حيث عاش بصفته عميلاً دبلوماسيا وتجاريا «ليس سفيرًا أبدا» للسلطان المغربى، وسنتناول رحلات ذهابه وإيابه المستمرة للمغرب، واشتراكه فى حياة الجماعة اليهودية التى كانت تتخذ من هولندا مقرًّا لها.

كان عائدًا إلى هولندا حينما غيرت العاصفة اتجاه سفينته المحملة بغنيمة مسروقة من سفن إسبانية هوجمت بالقرب من لاس أثورس. توقفت سفينة باياتشي في إنجلترا حيث عَانى من محاكمة قضائية طويلة بتهمة القرصنة، بناءً على

دعاوى السفير الإسباني في لندن. وفي لاهاي مات باياتشي عندما كان يتباحث مع السلطات الإسبانية من أجل أن يكون في خدمتها ويتفاوض على العودة إلى إسبانيا.

لم نحاول في هذا الكتاب أن نقوم بعمل بحث مستفيض لكل الوثائق المحفوظة في أرشيفات أوروبية والتي تشير إلى باياتشي.فنحن لم نعالج بعمق، مثلا، المظاهر الاقتصادية لمهنته، على الرغم من أننا وصفنا نشاطاته التجارية الرئيسية. على سبيل المثال، فيما يتعلق بالوثائق العامة في أرشيف لاهاي، قررنا أن نقتصر على تلك الوثائق المنشورة في كتاب «**مصادر غير منشورة حول تاريخ المراكشي**».عكس ذلك كان سيقدم تفصيلا لبيانات لم تكن لِتُحْدِثْ شيئًا سوى التعتيم على الخط العام للكتاب. هذا النهج، مع أنه يسير وفق حياة صمويل باياتشي، لا يُعد سيرة فحسبْ بمعنى أنه لا يتناول فقط حياة صمويل وأسرته: لكي نبرز حياتهم أولينا اهتمامنا بحياة أشخاص معاصرين لهم ربما شاركوا في إحدى مراحل حياة باياتشي أو تعرضوا لمواقف مشابهة. تحدثنا على وجه الخصوص، عن يهود آخرين قدموا من فاس إلى إسبانيا أو البرتغال، ثم سافروا إلى هولندا أو إلى الشرق، وكانت لهم وظائف مشابهة لوظيفة باياتشي. البعض منهم حاكمتهم محاكم التفتيش وبالتالي تَوَجَّبَ عليهم أن يعطوا بيانا كاملا عن نسبهم وعن «قصة حياتهم».

إن حياة باياتشي، كما قلنا، ليست فريدة، ولقد أردنا أن نثبت كيف أن هؤلاء الأشخاص المنتمين لنفس المجموعة، الذين كانوا يواجهون ظروفًا مشابهة تحت ضغط وفي حالة من التهميش، قاوموا بطرق مختلفة جدا أو اختاروا مجموعة كاملة من أساليب البقاء. إن التنوع والاختلاف الداخلي في كل هذا العالم هو نقطة أخرى من النقاط التي يريد هذا الكتاب التركيز عليها والتي ينطلق منها طَرْحٌ آخر من أطروحاته.

كثير من الدارسين لتاريخ اليهودية في شبه الجزيرة الأيبيرية بعد طردهم في عام ١٤٩٢، يستعملون بكثرة مقولات أساسية حول مفاهيم الأمة أو الشعب اليهودي. إن التنوع والتناوب ليس فقط في الوسائل الشخصية التي اختارها أعضاء هذه الجماعات، بل تفاوت مستويات الالتزام الديني وإمكانية تَحَوُّل الانتماءات الدينية منفصلةً عن الانتماءات السياسية، وحتى الثقافية، كل ذلك يحملنا على

مراجعة المفاهيم عن جوهر خصائص المجموعة. على أية حال لقد بَدَت لنا تلك المقولات غير كافية أو موضحة، وكذلك بدا لنا مستحيلاً إدراك علاقات واضحة بين المعتقدات الدينية اليهودية والتحالفات السياسية.

توجد أيضًا سير مشابهة لسيرة باياتشى فى مجموعات أخرى لأشخاص. هكذا، سوف نبرز أيضا بعض الشخصيات الموريسكية فى مسارات متشابهة جدا حيث أن الموريسكيين وجدوا أنفسهم يواجهون نفس المشاكل التى يواجهها أبناء وطنهم من اليهود. وعلاوة على ذلك فقد نشأت أحلاف بين مويسكيين ويهود فى المنفى، وهو أمر لم يحدث إلا نادرًا عندما كانت كلتا الأقليتان تعيشان فى شبه الجزيرة. سوف نحاول بالتالى أن نوضح كيف أن الأساليب الجماعية والديناميكية للانتماء لدين، لا تقتصر فحسب على دينهم ومحتواه وبالأحرى لا تقتصر على عقيدة قانونية. ورأينا هو أن الإنسان ينتمى إلى ثقافة، بالمعنى الأنثربولوجى للكلمة، قبل أن يكون مدرجًا فى نظام دينى وأن هذا الانتماء الدينى قابل للتغيير فهو عبارة عن جملة من العناصر المختلفة. من هذا المنطلق فإن باياتشى ونظرائه يستبقون وضع اليهودية المعاصرة. وليس هذا فقط: أحد أهم الظواهر فى اعتقادنا، وأحد الطروحات الجوهرية لهذا الكتاب هو أن هذه المجموعات من الأشخاص استبقت بعدة أجيال التغيرات العقلية ومواقف وسمات هوية الإنسان الغربى الحديث الذى يرتبط على وجه العموم بحركة التنوير.

يتناول هذا الكتاب بصفة أساسية ثلاث أماكن: فاس ومدريد (وبطريقة غير مباشرة لشبونة) وأمستردام وكل واحد من هذه الأماكن لا يعنى فقط مرحلة خاصة من حياة باياتشى لكن يعنى أيضا على وجه الخصوص وجود مجموعات يهودية مختلفة.

كانت البداية فى فاس التى كانت مكانًا للجوء اليهود الإسبان بعد المطاردات فى أواخر القرن الرابع عشر، واستقبلت دفعات كبيرة من المنفيين اليهود عندما حدث الطرد فى عام ١٤٩٢. على مدى القرن السادس عشر تحولت فاس إلى مكان للعودة إلى اليهودية من قبل اليهود الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحية من الإسبان والبرتغاليين. فى الثلث الأول من القرن السابع عشر وبسبب يرجع فى الأساس إلى

حرب أهلية ضروس أصبحت الظروف قاسية جدا فى المغرب، وحاول عدد معين من اليهود المغاربة من أصل إسبانى العودة إلى شبه الجزيرة الأيبيرية حتى لو أدى ذلك إلى تحولهم إلى المسيحية. فى مدريد، كان يتنقل يهود ومسيحيون جدد و«خنازير»، اسم كان يُسَبُّ به منْ كانوا يهود فى الخفاء، سواء كانوا من الإسبان أو من البرتغاليين. يبدو مدهشا، من وجهة نظر مقبولة غالبًا وسوف يتعين علينا مراجعتها، الحضور الكبير نسبيا لعملاء ومخبرين وتجار يهود فى بلد مثل إسبانيا، كانت قد اتخذت تدابير مشددة لطردهم،ولم تكن تقبل الوجود القانونى لليهود داخل حدودها.

فى العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر بدأ يظهر فى الدول الأوروبية ميل إلى توطين وإدماج مجموعات يهودية. رسائل وامتيازات وهبات أنهت بالتدريج الموانع القديمة التى كانت تحد من قدرتهم على العيش فى معظم الدول الغربية، وكانت تحول دون نشاطهم الاقتصادى والثقافى. إنها مقدمات الفترة المحصورة بين عامى ١٦٥٠، ١٧١٣، التى شارك فيها اليهود فى الحياة الغربية بتركيز وتوسع غير مَعْهُودين.

فى أواخر القرن السادس عشر بدأ يتكون فى أمستردام ما سوف يصبح أهم جماعة لليهود الإسبان المنفيين. كان أغلبية أعضائها قد عاشوا فى السابق سنوات طويلة كمسيحيين فى شبه الجزيرة، وحصل كثير منهم على شهادات جامعية. فى أمستردام سيكونون «يهود جدد». «يهود»، «خنازير»، «برتغاليون».

هذه المصطلحات، التى سوف نستخدمها باستمرار، تستلزم توضيحًا مبدئيا موجزًا.

إن وجود مرتدين، أى «مسيحيين جدد» يُعَدّ واحدة من أهم المشاكل فى القرون الأولى من العصر الإسبانى الحديث. إن ظهورهم بهذه الصفة، أى كَمُشْكِلَة، عادة ما يتم تحديد تاريخها مع المذابح الكبيرة والملاحقات فى العام المأساوى ١٣٩١، التى أدت إلى هلاك عدد كبير من الجماعات اليهودية فى إسبانيا. وقد أدى كل ذلك إلى هجرة اليهود كما أدى إلى ظهور عدد كبير من المرتدين قسرًا إلى المسيحية. بعد مرور قرن، وفى عام ١٤٩٢، كان اليهود الإسبان هدفًا لمرسوم

ملكي يخيرهم بين الطرد أو التحول إلى الكاثوليكية. اختـارت الأغلبيـة العظمـى الطرد. كان نفس المرسوم الخاص بالطرد يقضي بعقوبة الموت لهـؤلاء اليهـود الذين يحاولون العودة للأراضي الإسبانية، لكن بين عـامي ١٤٩٣، ١٤٩٦ سُـمح بعودة اليهود المطرودين الذين فكروا وقرروا العودة إلى إسـبانيا بعـد أن كـانوا يعيدونهم من الحدود إلى حيث أتوا.

توجه المهاجرون اليهود أساسا إلى البرتغال وإلى أراض إسلامية، إما إلـى المغرب وإما إلى الإمبراطورية العثمانية. تعرَّض الذين ارتدوا وبقوا فـي إسـبانيا للريبة وللرفض من قِبل مجتمع الأغلبية وأيضًا من اليهود المرتدين المنحدرين من هؤلاء الذين كانوا قد ارتدوا من قرن مضى ولايريدون أن يروا أن هـذه الدفعـة الجديدة تزيد من عددهم وتضعهم من جديد تحت المراقبة.

وكانوا على حق في مخاوفهم. في إسبانيا عاني المرتدون والمنحدرون مـن مرتدين من الرقابة والقهر الشديد من قِبل محاكم التفتيش خلال النصف الأول مـن القرن السادس عشر، بالإضافة إلى التفرقة الاجتماعية المتعـددة والمـستندة إلـى اللوائح الشهيرة المتعلقة بـ «نقاء الدم». لاشـك أن كثيـرين كـانوا كـاثوليكيين مخلصين، ولكن ذلك لم ينقذهم من شيء. البعض والبعض الآخر، أيّ «المسيحيون الجدد» ممنْ كانوا كاثوليكيين مخلصين أو يهود في الخفاء (هـؤلاء الـذين كـانوا يُسبُّون باسم «خنازير») دخلوا، على الرغم من لـوائح طهـارة الـدم والـرفض الاجتماعي، ليشاركوا في كل مجالات الحياة الإسبانية، ومنها طبقة رجال الـدين، والوظائف الحرة، والمعاملات التجاريـة والمـصرفيه، والجامعـات ... وحتـى المصاهرة بالزواج من طبقة النبلاء.

في أواخر القرن كان يبدو أن المشكلة تكاد تكون قد حُلت، وأن اليهـود قـد ذابوا في المجتمع المسيحي. خلال العقود الأخيرة لـم تحـاكم محـاكم التفتـيش مُتَهوِّدين، وكانت قد أوقفت اهتمامها في الأساس على الموريـسكيين واللـوثريين. كانت قد ارتفعت أصوات ضد لوائح نقاء الدم وبدا أن مـشكلة المـسيحيين الجـدد كانت على وشك الانتهاء. كل ذلك سوف يتبدل بظهور المشكلة «البرتغالية».

ذكرنا أن دفعة كبيرة جدا من اليهود المطرودين كانت قد لجأت إلى البرتغال فى عام ١٤٩٢، حيث كان لايزال يُسمحُ حينئذٍ بوجودهم القانونى. وسرعان ما احتدمت المشكلة هناك بدرجة أكثر مما كانت فى إسبانيا: فقد أعلن الملك مانويل الأول ملك البرتغال فى عام ١٤٩٧ عن تحويلهم الإجبارى إلى المسيحية مانعًا من الناحية العملية خيار المنفى.وعليه، (بمجرد تعميدهم)، فإن المسيحيين الجدد البرتغاليين وأنسالهم مُنعوا من الخروج من المملكة. فى البرتغال شكل اليهود المستترين مجموعة متماسكة ونشطة ولا يمكن قهرها.

فى عام ١٥٣٦ أسَّسَ الملك خوان الثالث محكمة التفتيش فى البرتغال حيث كرست محكمة التفتيش كل جهودها لقمع الممارسات والعقائد «المتهودة» لمسيحييها الجدد. بدأت حينئذٍ هجرة ثانية نحو إسبانيا كانت فى البداية قليلة العدد وسريِّة، وكذلك إلى الأراضى البرتغالية فى أمريكا. المعاقل البرتغالية فى المغرب (سبتة، ماثاغان، طنجة) كانت أيضًا مكان حاول من خلاله اليهود البرتغاليون المستترون الهروب من وضعهم، والسفر إلى المغرب.

كانت هجرة «البرتغاليين» إلى إسبانيا على نطاق واسع بدءًا من عام ١٥٨٠ الذى حدثت فيه الوحدة بين التاجين. كانت محكمة التفتيش فى إسبانيا قد تخلت تقريبًا عن قمع اليهود المتخفين، وعلاوة على ذلك فإنه حتى عام ١٦٣٠ لم يكن واجبا تبادل تسليم للمتهمين بين محاكم التفتيش فى إسبانيا والبرتغال. ولذلك نشأت فى سنوات قليلة موجة هجرة حقيقية لمرتدين برتغاليين. هاجر هؤلاء أيضًا بأعداد كبيرة إلى فلاندس، التى كانت خاضعة للتاج الإسبانى ولم يكن فيها محكمة تفتيش حتى عام ١٥٦٥، ومن هناك هاجروا إلى هولندا. انضمت هولندا إلى اتحاد أوترتشيت فى عام ١٥٧٩، وهذا كان يعنى، بين أشياء أخرى، حرية العبادة فى أراضيها. وبدأت الجماعة البرتغالية فى أمستردام تتشكل فى العقد الأخير من القرن السادس عشر واكتسبت بسرعة أهمية هائلة، سواء من الناحية الاقتصادية أو الثقافية. فى الثمانينيات من القرن نشّرت مدينتان إيطاليتان (ڤينسيا وليڤورنو) رسائل تعرض فيها تسهيلات فى الإقامة وامتيازات اقتصادية لليهود. وقد استوطنت دفعات كبيرة من المهاجرين الإسبان هناك.

أثناء النصف الأول من القرن السابع عشر كانت كلمة «برتغالى» فى إسبانيا تعد مرادفا لـ «يهودى متخفى». إن وصول هذه المجموعة، الأكثر تأصلا فى تقاليدها اليهودية من الطبقة المماثلة من المسيحيين الجدد الإسبان، أدى إلى تفاقم هائل لمشكلة المتنصرين. كانت التناقضات الاجتماعية والسياسية عظيمة وخطيرة، لدرجة أن مؤرخين بارزين اعتبروا أن مشكلة المتهود والمشاعر المتنوعة والمواقف الاجتماعية والسياسية إزاءها فى إسبانيا والبرتغال، كانت واحدة من العوامل الأساسية التى أدت إلى فشل الوحدة. فى إسبانيا، فى أوائل القرن السابع عشر، لم يجد البرتغاليون استقبالاً سيئًا. من الأفضل أن نتحدث عن رجال الأعمال البرتغاليين، فإسبانيا لم يكن لديها طبقة أصحاب أعمال من أهل البلد. قصر البرتغاليون نشاطهم على وجه الخصوص على تجارة الصوف القشتالى مع شمال أوروبا وأيضا مع حكام المكسيك وبيرو. حاول القصر من ناحيته أن يستبدل الإيطاليين والألمان برجال بنوك «برتغاليين» وأن يخفف بهم الصعوبات الاقتصادية للمملكة.

فى سنوات حديثة، نشأ نقاش شديد بين المؤرخين حول وجود أو عدم وجود يهودية سرية فى شبه الجزيرة الأيبيرية بعد عام ١٥٥٠. مجموعة من المؤرخين تنفى نفيًا قاطعًا وجود يهود سريين، وتؤكد أن كل المتنصرين، على الرغم مما يمكن أن تشير إليه ملاحقات محاكم التفتيش، كانوا مسيحيين مخلصين. نحن نعتقد أن كثيرين كانوا مسيحيين، بيد أن وجود اليهودية السرية، خاصة بين البرتغاليين أمر مؤكد ويظهر بوضوح فى الوضع الذى سوف نصفه فى أمبيرس وأمستردام. باياتشى لم يكن ينتمى إلى هذه المجموعة، لم يكن «يهوديا جديدًا»، بل كان «يهوديا من الموطن»، أى أنه وُلِد وتربى فى اليهودية.

إن اتحاد التاجين، البرتغالى والإسبانى، فى شخص فيليبى الثانى، جاء نتيجة هزيمة برتغالية كبيرة حدثت فى المغرب. ففى أغسطس من عام١٥٧٨، فى شمال المغرب، وبالتحديد فى القصر الكبير، على ضفاف وادى المخازن، واجه الجيش البرتغالى يقوده الملك سباستيان، ويرافقه كل نبلائه، بالإضافة إلى أحد المتطلعين إلى عرش المغرب وكان أخا ومنافسا للسلطان الحاكم حينئذ، واجه الجيش المغربى يقوده السلطان عبد الملك السعدى. مات الملوك الثلاثة المذكورين فى ساحة القتال

وقد سُميت المعركة باسم معركة الملوك الثلاثة التى نتجت عنها هزيمة ساحقة للبرتغال. فقدت البرتغال ملكها الشاب الذى لم يكن له نسل وكان ابن شقيق الملك فيليبى الثانى وكل النبلاء وضباط الجيش، بالإضافة إلى عدد هائل من الرجال الذين قتلوا أو أُسروا. فى السنوات التالية للمعركة بذلت البرتغال المثخنة بالجراح جهدا هائلاً وكمية كبيرة من المال افتداءً لأسراها.

كان من نتائج هذه الحرب أن قامت الأسرة المغربية الحاكمة وبالأخص سلطانها الجديد، أحمد المنصور الذهبى بزيادة كنوز خزائنها بدرجة كبيرة. بالإضافة إلى ذلك، وعلى وجه الخصوص، فقد اكتسبت المغرب أهمية جديدة على الساحة الأوروبية وتحولت إلى ورقة توضع فى الاعتبار بالنسبة لأولئك الذين كانوا يكافحون ضد الهيمنة الإسبانية. فقد سارعت إنجلترا وهولندا على وجه الخصوص بإقامة علاقات دبلوماسية وتجارية طيبة مع السلطان المغربى. لقد تحولت مدينتا العرائش والمعمورة، وهما الميناءان المغربيان الرئيسيان اللذان لم يكونا حتى ذلك الحين ملكا لإسبانيا والبرتغال، إلى ملجأ للقراصنة الإنجليز والهولنديين الذين كانوا يهاجمون من هناك الطريق المؤدى إلى العالم الجديد وممر المضيق. إن الحصول أيضا على هذين الميناءين سيكون الشغل الشاغل لكل من فيليبى الثانى وفيليبى الثالث، وقد شارك صمويل باياتشى بفاعلية فى المفاوضات التى جرت لتحقيق ذلك الهدف.

كان لإسبانيا أيضا مصلحة كبيرة فى إقامة علاقات طيبة مع أحمد المنصور. فقد كانت المغرب البلد المسلم الوحيد على البحر المتوسط الذى لا ينتمى للإمبراطورية العثمانية، المنافس الكبير لإسبانيا فى هذه المنطقة، وكانت تعد أساسية فى الكفاح ضد القراصنة الأتراك والبربر. كان للمغرب كذلك مصلحة فى تحالف مؤقت مع إسبانيا فى كل مرة تضغط عليه التوسعات العثمانية الطموحة، وخاصة فى حالات الصراعات الداخلية. فقد لجأ العديد من المرشحين لخلافة العرش المغربى للبحث عن مساعدة برتغالية (كما رأينا فى حالة الملك سيباستيان) أو إسبانية. خاصة بدءًا من عام ١٦٠٣، العام الذى توفى فيه أحمد المنصور. فقد سببت خلافته حربا أهلية طويلة بين ورثته الذين حاولوا الحصول على مساعدة

مادية وعسكرية من أجل قضيتهم من دول عديدة خاصة إسبانيا وهولندا. فى تلك المفاوضات شارك أيضا صموبل باياتشى.

كان المغرب فى حاجة مستديمة للأسلحة والذخائر وللسفن. كان استحالة انشاء أسطول خاص بالمغرب يعتبر واحدة من أكبر نقاط ضعفه ويضطره إلى اللجوء إلى القراصنة وإلى السفن التى يستطيع أن يشتريها من دول شمال أوروبا. فى نفس الوقت كان يتعين عليه أن يجعل سواحله وموانيه وموارده الخام تحت تصرف منْ يقدمون له المساعدة، وهكذا دخل المغرب فى الفترة التى سوف نفحصها، فى وضع استعمارى أو مُمهّد لاحتلاله فيما بعد.كان المغرب يصدر السكر وملح البارود والجلود والملح والنحاس، وسوف نجد أن صمويل باياتشى يتاجر فى كل هذه المنتجات.

ينبغى الأخذ فى الاعتبار أيضا، أن إسبانيا طردت الموريسكيين (مسلمون فى الأصل وتم تحويلهم قسرا إلى المسيحية) بين أعوام ١٦٠٩ و ١٦١٤. استقر جزء كبير منهم فى المغرب التى كان يهاجر إليها مجموعات من المسلمين الإسبان منذ سنوات حرب غرناطة فى العقد الأخير من القرن الخامس عشر. وقد أدت الهجرة إلى التفاقم الشديد للقرصنة وغزوات السلب فى سواحل جنوب شبه الجزيرة، مما جعل التعاون مع السلطات المغربية أكثر ضرورة بالنسبة لإسبانيا خاصة وقد تحولت مدينة صالى إلى جمهورية حقيقية للقراصنة وإلى كابوس بالنسبة لبلاد الغرب الأوروبى. كان صمويل باياتشى على اتصال بالموريسكيين المنفيين وشارك بنشاط فى أعمال القراصنة.

هذا هو ــ بخطوط عامة وسريعة ــ العالم الذى عاش فيه باياتشى والذى سنتحدث عنه فى الفصول المختلفة لهذا الكتاب. وأخيرا يمكن أن تنطبق على باياتشى هذه العبارة التى قالها خورخى لويس بورخيس وهو يتحدث عن جد له فى إحدى قصصه: «كان من نصيبه، كما يحدث مع كل الناس، أن يعيش فى أزمنة رديئة».

الفصل الأول

من فاس إلى مدريد

الأسطورة

> حزن مولاى زيدان، ملك المغرب لأنّ فيليبى الثالث ملك إسبانيا رفض أن يُعيد إليه كتبه العربية التى استولى عليها الإسبان أثناء الإبحار من ميناء صافى إلى ميناء سانتا كروث فأرسل صمويل باياتشى سفيرا له إلى دول الأقاليم المتحدة لحشد سفن القراصنة التى جعل جوزيف باياتشى، شقيق السفير قائدا لها، فى مواجهة السواحل والسفن الإسبانية. خرج السفير المغربى المذكور منتصرًا من مواجهة عسكرية نشأت بينه وبين السفير الإسبانى حينما اصطدمت عربتاهما فى أحد شوارع المدينة الهولندية لاهاى. بعد ذلك مات السفير باياتشى فى عام ١٦١٦. وقد رافق ماوريثيو أمير أورانج ومعه نبلاء لاهاى جثمانه الذى دُفِنَ فى مقبرة اليهود بأمستردام.

تُعَد هذه الفقرة أول إشارة إلى الأخوين باياتشى تظهر فى حكاية تاريخية. وهى عبارة عن «التاريخ العالمى اليهودى» Historia universal judayca المنشور عام ١٦٨٣، وهو كتاب من تأليف ميغيل دى باريّوس أوْ دانييل ليفى دى باريّوس، وهو كاتب يهودى وُلِد فى إسبانيا عام ١٦٢٥ وعاش فى أمستردام بعد باياتشى بنصف قرن ونشر فى هذه المدينة العديد من المؤلفات النثرية والشعرية. وبغض النظر عن مميزاته الأخرى، فإن قلة المصداقية التاريخية لعمل باريّوس

ظلت قائمةً بوضوح[١]، غير أنّ ذلك لم يمنع أن كتابه كان ولا يزال يُستخدم كمصدر على نطاق واسع. إن هذه القصة نفسها التى يوردها دانييل ليفى دى باريوس هى التى تصلح لتقديم صمويل كعضو بارز فى الجماعة اليهودية بأمستردام لأنها تذكر صمويل وجوزيف بين رؤوس الجماعة فى عام ٥٣٥٧/١٥٩٧، وتوضح القصة أنهم كانوا يجتمعون فى منزل صمويل للصلاة. يوجد هذا الخبر أيضًا فى كتاب «انتصار الحكومة الشعبية اليهودية» لنفس المؤلف باريوس[٢]، ويتضمن قائمة الستة عشر شخصًا يهوديا الذين يبرز من بينهم «صمويل باياتشى بفضل تردد الناس على بيته لأداء الصلوات». بيد أن هذه الأخبار ليست أكيدة، كما أثبت بيترز وشوارتس[٣] حيث أن أفراد عائلة باياتشى لم يصلوا إلى أمستردام حتى عام ١٦٠٨، ومن المشكوك فيه جدا أنهم كانوا أعضاء بارزين فى الجماعة.

على الرغم من أن الفقرة المذكورة قصيرة إلا أنها تشتمل على نواة لسيرة رومانسية وبطولية: صمويل باياتشى موفدًا كسفير من قِبل السلطان المغربى مولاى زيدان من أجل مهمة تعد بالنسبة للملك غالية على وجه الخصوص، وهى استرجاع كتب مكتبته الخاصة التى كان الإسبان قد استولوا عليها أثناء الانتقال بحرًا ورفضوا إعادتها، خاصة عندما أدركوا كم كانت تلك الكتب مهمة للسلطان. قام صمويل مع أخيه جوزيف بمساعدة من الولايات العامة، وهى تمثل الجهاز الحكومى للجمهورية الهولندية بإعداد السفن لمهاجمة السواحل الإسبانية. حدث تصادم بأحد شوارع المدينة بين عربتى كل من السفير الإسبانى وباياتشى فقام باياتشى بإذلاله. كان باياتشى مقربًا وذا مكانة، سواء عند ماوريتيو أمير أورانج أو عند مولاى زيدان، وسوف يتم دفن باياتشى هذه الشخصية النبيلة بمراسم بحضور كل النبلاء الهولنديين فى المدفن اليهودى بأودركيرك آن دى أمستيل بالقرب من أمستردام. هذه المقابر المزينة التى خلّدها الرسام خاكوب ڤان رويسدايل، والتى يمكننا أن نجد فيها حتى اليوم مقبرة صمويل باياتشى.

إن بذرة السيرة البطولية هذه أثمرت وازدهرت حتى أنتجت نوعًا من الأسطورة، هيكلاً يطرز عليه الكتاب المحدثين[٤]، ويرسمون شخصية تتمتع بمكانة سياسية قريبة جدا من السلطة فى المغرب وفى هولندا، وتلعب دورًا دينيًا مهمًا فى الجماعة: يهودى نبيل ورع وبارز، لم يتأخر فى المواجهة ضد الإسبان، ليس فقط بتوجيه السفن ضد سواحلهم بل بالحصول على أسبقية المرور أمام سفيرهم فى أحد شوارع لاهاى. كان نشاطه ينطلق فى الأساس من أسباب معادية لإسبانيا، وهى أسباب كانت توحد الهولنديين والمغاربة ومن الضغينة التى شعر بها أحفاد المطرودين من إسبانيا، بلد محكمة التفتيش.

أخذت الأسطورة تنمو وتتجمل كثيرًا فى المراجع الثانوية، ومما يدعو إلى الدهشة أن مصدرها قاصر على الفقرة القصيرة التى ذكرها باريّوس. إن واقعة الاستيلاء على كتب مولاى زيدان والتى كانت، حَسَب باريّوس، السبب فى إرسال باياتشى كسفير إلى هولندا، هى فى الواقع متأخرة جدا عن ذلك التاريخ ولم يشارك صمويل فى الموضوع، بل اشترك فيه ابن أخيه موسى.

إنَّ ماضى جماعة يهود أمستردام الجدد خلق بينهم، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، رفضًا لذاكرة جماعية محددة متعلقة بفترة غامضة وأليمة وعلى الأخص المتعلقة بالأصل الدنئ للجماعة. إن رفض الذاكرة الجماعية هذا، هذا النوع من «فقدان الذاكرة الجماعى»[٥] يظهر فى رفض حدوث ارتداد، فى رفض حدوث «العودة» لليهودية. إنَّ هذا يُعَدُّ أمرًا لا ينبغى التحدث فيه، ولاحتى بغرض تمجيد ضحايا محكمة التفتيش الذين ينتمون لنفس الأصل. إنَّ أخبار إسحق بينتو العائلية (بالإضافة إلى الأخبار المذكورة عن دانييل دى باريّوس)، تثبت إلى أى حد تخلص يهود أمستردام من المظاهر المزعجة لماضيهم الأيبيرى: إنَّ فكرة سلالة يهودية وفكرة عودة إلى الدين الذى أُجْبِرَ أجدادهم على تركه، لم تكن أبدًا مستحبة[٦]. هناك سبب قوى آخر: ليس من الممكن أن يتحول إلى المسيحية شخصٌ وُلِدَ واستطاع أن يتربَّى فى اليهودية. تلك الشحنة العاطفية دامت وتغذَّت بعوامل عديدة، حتى كتابة التاريخ المعاصر.

المؤلفون الجدد، الذين عملوا فى أرشيفات إسبانية، وجدوا فى الأرشيفات بيانات عن صمويل باياتشى. فى دراسته عن إسبانيا والسفرديم الهولنديين، يرسم خ. إسرائيل لصمويل صورة لرجل، خدم فى البداية التاج الإسبانى، ثم تحول إلى عضو بمجموعة اليهود الهولنديين الأكثر التزاما، فى تناقض كبير مع مجموعة أخرى من اليهود الذين رفضوا اليهودية، وابتعدوا عن الحياة اليهودية وكانوا على استعداد، مقابل المال، لإمداد الإسبان بمعلومات خاصة بأنشطة اليهود خارج شبه الجزيرة وعن المرتدين فى داخلها[٧]. لقد بدا كل ذلك بالنسبة لنا أكثر تعقيدا، ولم يكن من السهل تصنيفه.

لكن لنَبْدأ من أوّل هذا البيان الوثائقى، وبخاصة، مهنة صمويل باياتشى، قبل أن نبحث فى أصل عائلته وأجداده فى المغرب، وهو ما سوف نفعله فى الحال.

مدريد

تشير البيانات الأولية عن عائلة باياتشى التى وجدناها فى مجموعة وثائق إسبانية أنهم جاءوا إلى مدريد لأول مرّة عام١٦٠٣[٨]. قبل ذلك بعام، فى يناير١٦٠٢، حصل الشريف أحمد المنصور- الذى كان يريد أن يشترى أحجارًا كريمة من لشبونة - على إذن من فيليبى الثالث لكى يرسل لهذا الغرض خادمين له من اليهود المكلفين بعقد الصفقات. بالإضافة إلى ذلك طلب الشريف الترخيص له بأن يُرسل إلى إسبانيامن المغرب، من ثمانمائة إلى ألف قنطار من الشمع ليسدد بهم ثمن الجواهر[٩]. فى خريف عام ١٦٠٢ طلب دوق مدينا سيدونيا جواز مرور ليهوديين مغربيين كانا فى سبتة ويريدان المجئ منها إلى إسبانيا لشراء جواهر للشريف ويعرضان كذلك تقديم معلومات عن المغرب. يؤكدان أنهما يتمتعان «بصلاحيات واسعة». رأى الدوق، وهكذا قال للملك، أنه لن يخسر شيئًا لو استمع إليهما[١٠]. وقَبِلَ الملك رأى الدُوق وأمر بإعطائهما جواز للعبور من سَبْتة، حتى إذا ما وصلا، استقبلهما واستمع إليهما[١١].

التمس اليهوديان الذهاب حتى لشبونة وطَلِبَ رأى ماركيز كاستيل رودريغو الذى حذر من أنه «إذا كان الشخصان اللذان يتوجب عليهما الذهاب إلى هناك من قبل الشريف يهوديين فإنهما سوف يسببان ضررًا كبيرًا لأقرانهم من اليهود كما بيّنت التجربة فى مرات أخرى»[١٢] كان يُخشى الاتصال بين يهود مرتدين إسبان ويهود شمال إفريقيا المتمسكين بعقيدتهم، لأن ذلك كان يعنى عودة المرتدين اليهود إلى الدين الذى كان يجب عليهم نسيانه. يكتب الملك إلى دوق مدينا سيدونيا يطلب منه بالتالى أن يكتب إلى الشريف ويخبره بألاَّ يكون الخادمان اللذان يرسلهما إلى لشبونة من أجل تلك الصفقة يهوديين[١٣]. ويرد دوق مدينا سيدونيا على ذلك قائلاً إن إعطاء جواز مرور لهذين اليهوديين لن يجلب أى متاعب، حيث أن المشكلة الأكبر تكمن فى وجود يهود من شمال إفريقيا مقيمين فى البرتغال، وسيكون من الأفضل طردهم، حيث أنهم «أذكياء جدا»، بمعنى أنهم يقومون بأعمال جاسوسية[١٤]. لا تذكر الرسائل المتكررة اسمَىّ هذين اليهوديين (كان الأمر الشائع فى وثائق تلك الفترة، الإشارة فقط لليهود بصفتهم اليهودية وليسوا كأشخاص ولكل منهم اسمه) لكن السياق وأنشطة هذين الشخصين تشير بلا أى شك إلى أنهما الأخوان باياتشى. كان الموضوع بالطبع من اختصاص دوق مدينا سيدونيا. كان ألونسو بيريث دى غوثمان (الدوق الذى وضعه فيليب الثانى فى عهده على رأس الأسطول) ــ بالإضافة إلى كونه ابن شقيقة الملك ــ قائد القوات البحرية فى سواحل أندلوثيا، وجيوش البرتغال، ولهذا كانت شئون المغرب من اختصاصه. كان رجلاً لطيفًا ضمن حاشية الملك، وكان واحدا من الأشخاص الأكثر نفوذًا فى إسبانيا، وكانت له أكبر مساحة من الأراضى (لدرجة أن حفيده غسبار ألونسو اعتقد أنه بمساعدة البرتغال يستطيع أن يعلن أراضيه بلدًا مستقلاً فى عام ١٦٤٠). كان أيضا عاملاً لا يكل وجعل من مقر إقامته فى سان لوكار دى باراميدا، نوعًا من قصر ملكى صغير وُضِعَ فيه كمية ضخمة من الوثائق مكتوبة خلال حياته الطويلة[١٥]. توفى فى يوليو من عام ١٦١٥. يؤكد عديد من الكتاب أنه فى عام ١٥٧٩ــ٨٠ استعان مولاى أحمد المنصور بصمويل وأخيه جوزيف من أجل بدء

مفاوضات مع فيليبي الثاني ملك إسبانيا[١٦]. لكن الأخوين لا يظهران في الوثائق الإسبانية الوفيرة، المتعلقة بالتعاملات مع المنصور، والتي تدور دائمًا حول العرائش[١٧]، ولا عائلة باياتشي تشير إلى شيء مشابه عندما تريد الافتخار بإنجازاتها في عام ١٦٠٥ ضد الإسبان.

الإشارة الوحيدة، التي يذكرونها هم أنفسهم، هو ما يرد في خطاب من السفير الفرنسي بارول الذي يقول فيه الأخوان إن لديهما خطابات من أنطونيو بيريث تثبت أنهما كانت لهما تعاملات سابقة مع التاج الإسباني كمخبرين[١٨]. هذا ممكن حدوثه، لكننا لم نجد أثرًا لذلك في الأرشيفات ولا في المصادر.

لم نجد أدنى إشارة إلى الأخوين باياتشي في الوثائق الإسبانية السابقة على عام ١٦٠٢ التي يظهران فيها كخادمين للسلطان ومبعوثين، ليس في مهمة دبلوماسية، لكن بغرض شراء جواهر وأحجار كريمة. وقد استغل الأخوان الفرصة ـ من تلقاء نفسيهما ـ لعمل اتصالات مع شخصيات مؤثرة في القصر الإسباني. بينما كانا في إسبانيا مات السلطان أحمد المنصور ونشبت الحرب بين أبنائه الذين تنازعوا على العرش. أصبح الأخوان باياتشي بلا سند، وأصبحا تابعين للشخصيات المؤثرة التي أقاما علاقات معها.

أول وثيقة تذكرهما باسميهما ولقبيهما ترجع إلى عام ١٦٠٥. في هذا العام وبناء على طلب الملك، فحص مجلس الدولة وناقش الأوراق المرسلة من صمويل باياتشي والتي يحاول فيها أن يتقدم إلى السلطات الإسبانية كوسيط ومخبر بخصوص التعامل مع مولاي الشيخ (أحد ابناء أحمد المنصور)، لكن ذلك تم بطريقة عفوية، ولم يكن باياتشي مفوضًا من قبل السلطان نفسه. كان من الواضح أنه يريد الإقامة في شبه الجزيرة ويبحث عن وظيفة بحيث يصبح ضروريًا للسلطات الإسبانية. أول ذكر يرجع إلى ١٤ مايو ١٦٠٥، وهو التاريخ الذي حدثت فيه مشاورات لمجلس الدولة «فقد أرسل صاحب الجلالة يطلب الرأي النهائي لمجلس الحرب بخصوص أوراق صمويل باياتشي» الذي كان يعرض نفسه كمبلّغ

وعميل في موضوع العرائش. فحص المجلس اقتراح صمويل، الذى قدمه كونت بونيو إنروسترو، للاستيلاء على العرائش، وعقد أعضاؤه مناقشات طويلة حول الشروع في المهمة. رغم أنهم كانوا جميعهم يتفقون على ضرورة الاستيلاء على الموقع إلا أنهم رأوا أن الوقت غير مناسب – بسبب الوضع في المجر وفي فلاندس – لإرسال قوات إلى المغرب. أما بالنسبة لباياتشي، فذكر المجلس «بالنسبة لليهودى فمن الممكن إعطاؤه شيئًا»، فقد رأى المجلس أن هناك عملاء آخرين (ذكروا منهم على وجه الخصوص المعروفين جيدًا خوانيتين مورتارا وخوان دى مارتشينا)(١٩) يتكفلون بذلك «وسيكون من الأفضل مصارحة اليهودى بأنه لن يسمح له بالمشاركة في الموضوع»(٢٠). بعد مرور شهر، كتب دوق مدينا سيدونيا إلى رئيس الخزانة يبلغه أمر الملك بأن يدفع ١٥٠ دوكادوس مساعدة إلى كل واحد من الأخوين باياتشي مقابل خدماتهما ولكي يستطيعا العودة إلى بلدهما(٢١). في شهر يونيو أبلغ المجلس الملك أنه اتفق على إعطاء ٣٠٠ دوكادوس إلى كل واحد من اليهوديين اللذين كانا قد أتيا بخصوص موضوع العرائش، واضعًا في الحسبان أنهما مكثا في المدينة ثمانية شهور. وقد كتب في الهامش: «حسنًا، ليضع برادا في اعتباره أن يرحلا بعد ذلك إلى بلدهما» لكن اليهوديين لم يعودا(٢٢).

في أغسطس فحص مجلس الدولة مذكرة جديدة قدمها كل من جوزيف وصمويل باياتشي أخبرا فيها عن الوضع في شمال إفريقيا: هناك يوجد جوع شديد، انخفض وزن الذهب، الشعب محمل جدا بالأعباء التي فرضها عليه السلاطين المختلفون، الصراعات على السلطة، إلخ. كان الأخوان يطلبان الإذن لكي يذهب واحد منهما إلى سبتة ليبحث عن زوجته وأبنائه و– أيضًا – لجمع معلومات أكثر عن الوضع في المغرب، وقد منحهما المجلس الإذن بذلك(٢٣).

في نفس هذه التواريخ كتب كونت بونيو إنروسترو إلى دوق مدينا سيدونيا طالبًا منه أن يتفضل بالإنعام على صمويل باياتشي، الذى يعمل في خدمته. كان الكونت يريد أن يسمح له الملك بالخروج لغزو العرائش وكان يبدو متحمسًا جدا

لخطة صمويل التى تصف بمنتهى الدقة (كيف يجب الاستيلاء على الموقع بمشاعل محمولة بالإضافة إلى تفاصيل أخرى) كان خطاب الكونت يعبر عن استيائه الشديد من مجلس الدولة، «أشخاص لا يعرفون شيئًا»[٢٤]. ويبدو أن باياتشى قد أوصل الخطاب باليد إلى سان لوكار دى باراميدا وهو فى طريقه إلى سبتة، حيث أن دوق مديناسيدونيا كتب إلى الملك مبلغا إياه بزيارة صمويل والعرض الخاص الذى قدمه للتفاوض مع مولاى الشيخ بأن يسلم العرائش مقابل المال. يعبّر خطاب الدوق بوضوح عن عدم الثقة فى باياتشى («... كل أفعاله خدع، لأنه ليس لديه أموال ولا يحظى بالثقة... »)[٢٥].

فى أكتوبر من نفس عام ١٦٠٥ طُلب من دوق مدينا سيدونيا أيضًا إبداء الرأى حول ما إذا كان يجب تكليف صمويل باياتشى «لمعرفة أمور عن شمال إفريقيا»[٢٦]. يعود الدوق ليبلغ كيف أن صمويل نفسه مثُل أمامه فى سان لوكار ليخبره إنه كان قد عقد محادثات مع مولاى الشيخ ومع قائد العرائش الذى كان يدعى «حامد بيتاوزى، وهو أندلسى من غرناطة». لم يكن يبدو للدوق أن باياتشى وسيط جيد لأنه يراه «فقيرًا وقليل الشأن وليست له صلاحيات». يجب فهم كلمتى «ليست له صلاحيات» و«قليل الشأن» بالمعنى الحرفى، أى أنه ليس له شفيع ولم يكن موفدًا بأوراق اعتماد تضمن مهمته. يعتبر الدوق أن باياتشى ليس الشخص المناسب لـ «صفقة العرائش»، وقد «بدا له أن ذلك اليهودى ليس الوسيط المناسب لهذا الغرض وهكذا قال الدوق إن عليه حاليًا أن يهتم فقط بأمور منزله». فى سبتمبر أُخطِر الملك بوصول خطاب الدوق وفرح لأن «اليهودى باياتشى رحل إلى هناك مذعنًا لأمر جلالتكم»[٢٧].

كانت هناك شخصيات أخرى كثيرة تتجمع حول أشخاص ذوى نفوذ فى القصر وتحاول بيع خبراتها كمخبرين ووسطاء. قام المكلف بعمل إجراءات افتداء الأسرى بطنجة، مارتين دومينغيث، فى ذلك التاريخ بإيصال «بيان عن شمال إفريقيا ومولاى الشيخ». حاول باياتشى أن يقلل من أهمية هذا البيان، وكتب الملك

للدوق بشيء من الدعابة «لا يدهشني أن اليهودي باياتشي يشعر بالغيرة من فكّاك الأسرى»[٢٨]. كان هؤلاء الأشخاص الفقراء يدبرون المكائد ويتشاجرون فيما بينهم من أجل الحصول على نذر قليل من «الرضا الملكي» الذي يعتمد عليه بقاؤهم، وهو أمر يدركه تمامًا أصحاب النفوذ الذين يستخدمونهم أو يستبعدونهم.

في أواخر نوفمبر كتب باياتشي من سبتة رسالة بخط يده إلى الدوق[٢٩] وفيها يتضح أن «الشئون الخاصة بمنزله» تلك هي بيع جواهر بيت دوق مدينا سيدونيا في المغرب. ليس هذا حدثا غريبا: كانت آنا دي سيلفا، الدوقة، قد طلبت قبل سنوات من بالتاسار بولو أن يبيع لها مجوهرات في المغرب[٣٠]. ونحن نعرف عن هواية الجواهر التي كان مولاي الشيخ – مثل والده السلطان ــ مولعًا بها كخبير جيد[٣١]. الرسالة دليل على الخدمات الجيدة التي كان صمويل باياتشي يريد بها أن يكون مفيدًا وأن يتقرب إلى أصحاب النفوذ: خليط من الأفضال الشخصية والتجارة والإبلاغ. في نفس هذه الرسالة يحكي باياتشي كيف استطاع أن يجلب إلى سبتة اثنين من أبناء أخيه، وينتظر الآن ابنه وابنًا آخر لأخيه. هذه هي إحدى خصائص عائلة باياتشي. إنهم يعملون لصالح الأسرة[٣٢]. يعتبر باياتشي أن الوقت الآن مناسب، بالنسبة للاستيلاء على العرائش – نظرًا للوضع الداخلي في المغرب ــ ويستحث الدوق على القيام بالمهمة. إذا كان الدوق لا يعتبر «الآن» أنه من المناسب أن يعهد إليه بأمر العرائش فإنه في نفس عام١٦٠٥ قد نظم من سان لوكار دي بارّاميدا رحلةً لصمويل باياتشي الذي سافر من جبل طارق مكلفًا من قبل الدوق بلقاء مولاي الشيخ[٣٣]. بعد ذلك بشهور أعطى دوق مدينا سيدونيا إذن مرور لأخوين يهوديين جاءا برسائل من مولاي الشيخ. الوثيقة لا تذكر اسم هذين اليهوديين، لكن بالسياق الذي حفظت فيه، يبدو بلا شك أنهما الأخوان باياتشي[٣٤].

في نفس هذه الشهور أرسل دوق مدينا سيدونيا إلى الملك مذكرة ينبهه فيها عن كمية اليهود الموجودين في سبتة، والذين يعيش الكثيرون منهم هناك منذ أحد عشر عامًا، والأغلبية منذ أربع أو خمس سنوات. جميعهم تجار يستغلون تجارتهم

لإدخال عملة فى شبه الجزيرة، وهو شيء ضار جدا، حيث أنهم هنـاك«يكوّنـون ثرواتهم». كان التجار اليهود يُدخلون إلى إسبانيا الذهب واللؤلؤ والزمرد والأحجار الكريمة دون دفع رسوم جمركية(٣٥). طلب الدوق أن تُتخذ تدابير جمركية، وطلـب أن يعيش أولئك اليهود الذين ليسوا فى الحقيقة ضروريين للخزانة خـارج المدينـة مثل المسلمين(٣٦). بمعنى أن يعسكروا فى خيام خارج أسوار المدينة، لكن اليهـود ضروريون جدا، وتعيّن على الدوق أن يعطى إذناً ليبقى فى سبتة «اليهود الأكثـر ثقةً»(٣٧). هذه قضية كانت تحدث أيضا فى مواقع إسبانية أخرى، فسوف تـستمر جماعة من اليهود فى التواجد بصفة قانونية زمناً طويلاً بعد أن صدر قرار الطـرد من شبه الجزيرة، كما حدث فى مليلة وعلى الأخص فى وهران، حيث كان اليهود مهمين جدا حتى أواخر القرن السابع عشر.

فى عام ١٦٠٦ ظهر الأخوان باياتشى من جديد فى مدريد يحاولان «بيـع» قدرتهما على الوساطة فى أمر العرائش لفيليبى الثالث(٣٨). كانا لايزالان هناك فـى أوائل عام ١٦٠٧(٣٩). فى رسالة للملك بتاريخ ١٥ من أغسطس لعام ١٦٠٧، يقول الكونت دى بونيو إنروسترو إن صمويل وجوزيف يعملان فى خدمته، كمخبـرين، ويعتقد أنه يجب أن يُطلب من دوق مدينا سيدونيا أن يستخدمهما كوسـيطين فـى مفاوضات العرائش(٤٠). يتضح بالتالى أن دوق مدينا سيدونيا لم يكـن الشخـصية البارزة الوحيدة فى القصر الإسبانى التى كان قد اقترب منها الأخـوان باياتـشى. لاشك أنه أمام تحفظات الدوق بحث الأخوان باياتشى عن شخص آخـر يـساندهما أمام الملك.

أمام النجاح القليل الذى تم إحرازه، وبطء المفاوضات ونقص المال أو لأنـه كان يبحث عن أفضل مُعين، يستغل باياتشى أيـضا إقامتـه فـى مدريـد لإقامـة اتصالات من جانبه مع ملك فرنسا إنريكى الرابع، من خلال سفيره فى مدريـد دى بارّول، الذى كتب إلى الملك يخبره بالعرض الذى يقدمـه باياتـشى. وقـد طلـب باياتشى إذناً بالذهاب لمقابلة الملك الفرنسى، ليعرض عليه التعاملات التى كانت له

مع فيليبى الثانى. يؤكد أن معه خطابات من أنطونيو بيريث تثبت هذه التعـــاملات. يقول أيضًا إن تلك هى العروض التى يحاول الآن تقديمها فى القصر، لكن احتياجه إلى المال ملح بحيث لا يستطيع الانتظار حتى يُحسم الأمر. يؤكد أنه فـــى الوقـــت الراهن لا يطلب شيئًا من إنريكى الرابع إلا أن يستمع الملك إليه، وإذا تعذر ذلـــك فعليه أن يعطيه جواز مرور للذهاب إلى أراضى فلورنسيا. أوصى السفير الفرنسى الملك بأن يستمع إلى باياتشى لأنه على الأقل سوف يحصل على أخبار من الممكن أن تكون مفيدة فى التعامل مع تركيا(٤١).

بعد ذلك بشهور يعود دى بارول لِيُلح على الملك أن يستمع إلـــى باياتـــشى. يقول إنه لم يره منذ فترة، لكنهم أخبروه أنه ذهب إلى أراغون. هذه معلومة مهمة، ففى تلك السنوات كان موريسكيو أراغون قد قاموا بالثورة، وكانوا قد تفاوضوا مع إنريكى الرابع ملك فرنسا. هل نستطيع أن نتحدث عن اتصال أول، ستكون بعـــده اتصالات أكثر وموثقة جيدًا بين باياتشى والموريسكيين؟(٤٢) كمـــا ســـنرى لاحقًـــا (انظر الفصل٦)، كان بالفعل أحد اليهود، الفونسو لوبيث، هو الـــذى تـــولى هـــذه المفاوضات بين إنريكى الرابع وموريسكيى أراغون. ومع ذلك ففى أغسطس مـــن عام ١٦٠٧، يؤكد دى بارول أن صمويل باياتشى لم يتحرك من الإسكوريال منـــذ خمسة أشهر، حيث كان يقدم مذكرات وتقارير إلى الملك الإسبانى(٤٣). وقد اضطر السفير الفرنسى أن يخبئ صمويل باياتشى فى منزله بمدريد لأنه كـــان قـــد أثـــار شكوك محكمةالتفتيش(٤٤). سوف نعود «للحديث» عن هذه الجزئية.

فى مدريد اتصل الأخوان باياتشى أيضًا بتاروجى الـــذى كـــان يمثـــل دوق توسكانا فى إطار محاولتهما بيع مشروع تسليم مدينة العرائش المغربية إلى إحـــدى الدولتين فرنسا أو توسكانا، وهو المشروع الذى لم يعره فيليبى الثالـــث الاهتمـــام الواجب. ليس من المستغرب أن ينفذ صبر الناس: إن مَنْ يقضى بعض الوقت فـــى قراءة مخطوطات من عصر فيليبى الثالث فى سيمانكاس أو مراسلات الملـــك مـــع دوق مدينا سيدونيا ينتابه هذا الإحساس بأن لا شىء يُحل أبدًا، كل شـــىء يـــسوَّف

ويوجل، تقارير تُكتب وتمر على مساعدين مختلفين وعلى المجلس، وتلفّ بدون نهاية. كل شيء يلفّ ثم يعود للبداية، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الإيقاع غاية في البطء.

بالإضافة إلى ذلك لم يكن لدى الأخوين باياتشى مال: هناك إشارات عديدة في الوثائق تبين كيف أنهما أضاعا ثروتهما في خدمة جلالة الملك، وكيف أن السلطات الإسبانية لم تسدد لهما ثمن الخدمات التى قدماها. في إبريل ١٦٠٧ يأمر دوق مدينا سيدونيا بإرسال مائة وخمسين دوكادوس للأخوين باياتشى «كمساعدة في النفقات»«كمصروفات» لكل واحد منهما نظرا للخدمات التي قدماها ومن أجل «أسباب أخرى عادلة»[٤٥]. ومع ذلك، يبدو كما لو أن الأخوين سيقيمان نهائيًا في إسبانيا، وسيُحضران باقى عائلتهما من المغرب ويتحولان إلى المسيحية: هذا يتحدد بوضوح في وثيقة بتاريخ ٢٧ مارس١٦٠٧ والتى يطلبان فيها تصريحًا ملكيًا لإحضار عائلتيهما يؤكدان فيها أن ابنين لجوزيف على وشك أن يتعمدا[٤٦]. في هذه الوثيقة يبدو بشكل مؤكد أن كل العائلة كانت مستعدة للتنصر. وقد مُنِحَ الإذن الملكي لهما في إبريل ١٦٠٧، في نفس التواريخ التى منحهما فيها الدوق مساعدة. كيف تفسر هذه الوثيقة؟. من الصعب أن نفكر أن الأخوين باياتشى اعتقدا أنهما بهذا سوف يستطيعان خداع السلطات الإسبانية. لابد أنهما كانا يعرفان بحكم إقامتهما في مدريد ومعرفتهما الوثيقة بالبلد أن إقامتهما فيها تعنى التنصر والتنفيذ التام للقواعد الدينية حيث أنهما سيكونان هدفا لمراقبة محكمة التفتيش. ليس من المصدق أن الإقرار بالكتابة في خطاب للملك بأنهما يريدان التحول للمسيحية كان شيئًا يظنان أنه ممكن عمله دون تفكير. تؤكد الوثيقة بوضوح أن كل العائلة مستعدة لخدمة «الرب وصاحب الجلالة الملك».

في تلك الأثناء تأتي واقعة محكمةالتفتيش التى يشير إليها كلّ من السفير الفرنسي دى بارول[٤٧] وصمويل نفسه في رسالة مكتوبة في سبتمبر١٦٠٧ من سان خوان دى لوث. للأسف لا نعرف شيئًا عن الأسباب التى أدت إلى شكوك

محكمة التفتيش. هل تتعلق بشكوك حدثت بسبب طلبهما التنصر؟. كانت محكمة التفتيش تبدو أحيانا ذكية جدا فى هذا الصدد: عندما أراد سالومون وصمويل ساسبورتاس، وهما من يهود وهران أن يتعمدا مع كل عائلتهما ويقيما فى إسبانيا، على ضوء خدماتهما للتاج، تدخلت محكمة التفتيش وأمرت بأن يستجوب كل واحد منهما على انفراد «سألتهما عن تفاصيل حياتهما بعد الخروج من وهران، من أين جاءا وبأى تصاريح [...] أى أسباب كانت لديهما لتغيير زيّهما الخاص باليهود، من أى أبواب دخلا، مع مَنْ تعاملا، وأى أسباب لديهما جعلتهما يريدان أن يتعمدا ويعيشا كمسيحيين»[٤٠].

على الرغم من أن محكمة التفتيش لم يكن لها ولاية على اليهود (كانت ولايتها فقط على المتنصرين الذين كانوا يعودون إلى اليهودية)، كانت محكمة التفتيش تظل متنبهة ومراقبة لكل تحركات أولئك.

أكد الأخوان باياتشى من ناحيتهما أنهما وجدا نفسيهما متورطين فى المشاكل التى كانت ليهودى آخر مع محكمة التفتيش على اتصال بالسفارة الفرنسية، وأن محكمة التفتيش قررت طردهما فى الحال من إسبانيا دون أن تضع فى اعتبارها أن الفتيين كانا على وشك أن يتعمدا، وأنهما كانا قد مُنِحا إذنا ملكيًا نظير الخدمات الجيدة التى قدمها الأخوان باياتشى للتاج. هذا هو فقط الذى نعرفه من الفصل الذى يتحدث عن خروج الأخوين باياتشى من إسبانيا. لا تحتفظ المحتويات الوثائقية لمحكمة التفتيش بأى ملف محاكمة لواحد من عائلة باياتشى، وليست هناك أخبار تتعلق بهم فى ملفات محاكمة أشخاص آخرين[٤٩].

سان خوان دى لوث

الواقع هو أن الأخوين باياتشى اضطرا للخروج من إسبانيا على نحوٍ عاجلٍ وغير متوقع. إن الرسالة التى كتبها كلا الأخوين من سان خوان دى لوث إلى الملك تنمّ عن إحباط وإحساس بالظلم: يتذكران الخدمات التى أسدياها خلال

سنوات، وكيف أنهما من أجل تقديم تلك الخدمات فقدا الوطن والمال، والآن لكونهما مطرودين يفقدان سمعتهما. يختتمان الرسالة قائلين: «فيما يتعلق بالروحانيات فالله موجود فى كل الدنيا وإذا كانوا لم يقبلونا فى إسبانيا فهناك أماكن أخرى كثيرة وحيثما نقيم، فنحن نكون وسنكون خدام صاحب الجلالة أطال الله فى عمره وحفظ ملكه».

فى الثانى من نوفمبر من نفس العام صدرت رسالة من القصر إلى مسئول البريد ليستعلم عن تعميد أبناء جوزيف باياتشى، وأن يتابع ذلك نائب الملك عن نافارّا Navarra وأسقف بامبلونا[٥١]. ويبدو أن هذا يشير إلى أن الأخوين باياتشى كانا يعتقدان أن العودة إلى إسبانيا كانت لا تزال ممكنة.

فى الحادى عشر من أكتوبرمن عام ١٦٠٧يُخبِر دوق مدينا سيدونيا عن عائلات موريسكية هربت إلى فرنسا، ومن هناك سافرت بحرًا باتجاه ميناء صافى المغربى، ويضيف «سيكون من المناسب جدا قطع هذا الطريق الذى يغلب على الظن أن الأخوين باياتشى وأبناءهما العبرانيين يعرفونه أيضًا، حيث أنهم نجحوا فى بلوغه وبقوا فى سان خوان دى لوث حسبما كتبوا لى من تلك المدينة»[٥٢] يبدو أن الدوق فهم أن عائلة الأخوين باياتشى توجهت أيضًا إلى صافى، بينما كانت فى الواقع قد سلكت طريق هولندا.

فى تلك الفترة لا يذكر فى الوثائق إلا القليل عن تكوين عائلات صمويل وجوزيف. فى وثيقة مؤرخة فى إبريل من عام ١٦٠٧، يطلب صمويل وجوزيف من أجل أبناء جوزيف الثلاثة، الذين جاءوا ليتنصروا «بعض المساعدة فى النفقة من أجل غذائهم ... وبعض المال لمعيشتهم لكى يستطيعوا أن يعيشوا بشرف، وفقًا لمكانتهم وللخدمات التى قدمها آباؤهم». يلتمسان أيضًا الإذن للذهاب للبحث عن زوجتيهما وباقى الأبناء الذين لايزالون يعيشون فى بلاد البربر[٥٣].

نعرف من خلال وثائق لاحقة أن جوزيف كان متزوجًا من بنفينيدا، التى كان له منها خمسة أبناء: الثلاثة الكبار، الذين كانوا مستعدين للتنصر فى هذه

اللحظة، هم إسحاق، وموسى وخوسيه. كان عمر موسى تسع عشرة سنة تقريبًا وقت إقامته فى مدريد. كان لجوزيف وبنفينيدا ابنان آخران هما أبراهام ودافيد،اللذان كانا حينئذٍ صغيرين. بالنسبة لصمويل؛ فقد كان متزوجًا من أمرأة تُدعى ملكة، وكان ابنه إسحاق صغيرًا جدا، حيث كان حَدَثًا عند موت أبيه فى عام ١٦١٦(٥٤). وقد انتقلت عائلة باياتشى من سان خوان دى لوث إلى هولندا.

لكن قبل أن نتابع ظروف عائلة باياتشى فى هذا البلد، هناك سلسلة من القضايا تطرحها علينا الوثائق التى رأيناها حتى الآن: على وجه الخصوص، كيف كان حال مدريد فى العصر الذى عاش فيه هؤلاء الأشخاص؟ فى أية مناسبة وصلوا إلى مدريد؟ ما المشاكل التى تعرضوا لها مع محكمة التفتيش؟. إن ما يثير فينا تساؤلات ليست قليلة هو ثبوت وجود عدد من اليهود يعيشون بصفتهم يهوذا فى مدريد (بل ويتنقلون داخل البلد)، فى عاصمة بلد كان يُصر إصرارًا شديدًا على طردهم، وكانت مشكلة التنصير فيه لاتزال على أعلى درجة من الأهمية. من الضرورى أيضًا أن نقول شيئًا عن مصالح التاج الإسبانى فى المغرب، ففى هذه المصالح بالتحديد حاول أن يتدخل الأخوان باياتشى.

قبل أن ننتقل للبحث عن إجابة، أو على الأقل عن سياق لهذه الإسئلة، وهو ما سنفعله فى الفصل التالى، نقول إن ما يبدو من المؤكد هو الأصل الإسبانى لعائلة باياتشى، فيبدو أن اسمها كان فى الأصل بالاثيو: صمويل بالاتيو وبالاثيو هو الاسم الذى وقّع به وثائق هولندية فى عام ١٦١٤(٥٥). إن أسماء بالاتيو، بالاتشيو، بالاتزو هى أشكال تظهر فى وثائق أمستردام الرسمية.

الوثائق المخطوطة المحفوظة والخاصة بصمويل لا تختلف عن مثيلاتها لأى إسبانى معاصر. مع ذلك لا نعرف شيئًا عن مسار هذه العائلة منذ خروجهما من إسبانيا، لا التواريخ ولا ظروف إقامتهما فى المغرب(٥٦). إن أول عضو من العائلة لدينا أخبار موثقة عنه هو إسحاق باياتشى، حاخام من فاس، وهو مذكور فى las Taqqanot (لوائح الطائفة اليهودية) لهذه المدينة فى عام ١٥٨٨، وهو حمو

للحاخام الأكبر خوداه أوزييل وأبو صمويل جوزيف. كان إسحاق أوزييل الفاسـى، فى أوائل القرن السابع عشر، واحدا من أوائل الحاخامات فى أمستردام، من الطائفة المسماة نيفى سالوم[٥٧]. إسحاق هذا سيكون إذن زوج أخت للأخوين باياتشى وبالتالى أحد معارفهما فى هولندا. عندما يذكر هيكتور ميندس برافو، وهو يهودى هولندى حاكمته محكمة تفتيش لشبونة، ١١٩ عضوا من طائفة أمستردام فإنه يتكلم عن «الحاخام إسحاق ايزييل الفاسى، الذى عاش فى إسبانيا»[٥٨] إنه واحدٌ، مثل صمويل، كان له نفس المسار، من فاس إلى أمستردام مرورًا بإسبانيا.

ينقصنا معرفة أمور كثيرة عن صمويل، لاشك أنه كان بإمكاننا التحقق من بعض المعلومات لو كانت هناك وثائق لمحاكم التفتيش فى هذا الصدد. على سبيل المثال (هناك شيء كانت المحكمة ستتحدث عنه بالتحديد) وهو كم كان عمره، وما هو مظهره الطبيعى، وكيف كانت ملابسه التى يرتديها فى سفرياته الأولى إلى إسبانيا. هل كان يرتدى ملابس مثل «يهودى موريسكى» أو ملابس مسيحى؟.

منذ أن تمت عملية طرد اليهود ؛ فإن الوحيدين الذين كان بإمكانهم الدخول إلى إسبانيا هم هؤلاء الذين يُدعون «يهود الإذن»، أى أولئك الذين التمسوا وحصلوا هم أو أسيادهم على إذن من أجل القيام بمهمة محددة، كما كان حال الأخوين باياتشى عندما كانا يأتيان لشراء جواهر من أجل الشريف. كان يجب على «يهود الإذن» وضع علامات على ملابسهم تتيح التعرف السريع عليهم وتجعلهم دائمًا واضحين. فى عام١٥٨٣، بدءًا من اتحاد التاجين، كان فيليبى الثانى قد صدق على القوانين البرتغالية التى تجبر اليهود الذين يدخلون إلى البرتغال على وضع طواقى صفراء على رؤوسهم. كان يهود شمال إفريقيا يستخدمون ملابس مميزة تسمى «جانيفىganephe» كانت تميزهم عن اليهود القادمين من أماكن أخرى. وقد رأينا أن محكمة التفتيش تسأل أفراد عائلة ساسبورتاس Sasportas، وهم من وهران «ما الأسباب التى جعلتهم ينسلخون من زيهم الخاص باليهود»، بمعنى، لماذا لا يرتدون ملابس اليهود. على العكس من ذلك، كان أفراد عائلة كانسينو

Cansino، يهوذا آخرين مهمين من وهران، كانوا أثناء إقامتهم في مدريد يحرصون على تمييز أنفسهم: «وصل إلى هناك اليهودى خاكوب كانسينو Jacob Cansino، مرتديًا ملابسه المميزة: عباءة وعمامة، وكان من وهران».

ويشير مراسل الأب بيريْرا Padre Pereyra ـــ وكان يكتب من العاصمة في مدريد – إلى يهودى على وشك الدخول للتحدث مع الملك، وقد رآه مرتديا «غترة بيضاء على رأسه». وفى محاكمة إسحاق الموسنينو Isaac Almosnino، والذى سوف نتعرض له لاحقا، يؤكد أحد المرتدين أنه عاد إلى المسيحية بعد أن عاش سنوات طويلة كمسلم فى المغرب، وأنه يُدعى سيباستياو بايس Sebastião Paes. كان ملف محاكمة هذا الرجل موجوذا وبمقتضاه أعيد قبوله فى كنف الكنيسة الكاثوليكية، وقد مَثَلَ أمام المحكمة «بالزى التركى المعروف، بشعر أزرق مستعار وخمار موريسكى كان يضعه على رأسه». جاء مرتدون آخرون معه من المغرب: نعرف عن سيمون منديث Simón Méndez أنه «جاء مرتديًا رداءَ إسلاميا بشعر مستعار ملوّن وبعمامة، وكانت جميع ملابسه موريسكية». وقد مَثُلَ غسبار راموس «مرتديًا زى مسلم بكساء وخمار موريسكى»، مثل لويس باريتو Luis Barreto ...(٥٩). كان الموريسكيون الأندلسيون الذين يأتون بالسفن للدخول إلى السواحل يرتدون «زيًا إسبانيًا» ولا يمكن تمييزهم(٦٠). وهكذا فإن الاحتمالات متعددة ولكن كان يجب على اليهود من حيث المبدأ أن يميزوا أنفسهم فى الزى إجباريا. على أية حال لا نريد أن نبالغ فى دهشتنا إلى الحد الذى نأسف فيه على أن محكمة التفتيش لم تحاكم صمويل المسكين.

نحب أن نعرف أيضًا كيف كان يتحدث القشتالية، وإذا كان يتحدثها بنوع من اللكنة التى تدل على حاله أو نشأته.

من خطاباته الخطية الأولى نعلم أنه لا يميز «السين» من «الثاء» فقد كان يكتب:

«rasion», «sierto», «Sueta», «serteça»

بدلا من: «ración», «cierto», «ceuta» y «certeza»

غير أن هذا يحدث أيضا فى أقاليم جنوب إسبانيا. أيضا تختلط عنده بعض الحروف المتحركة

«matiria», «hollo» (huyó بدلا من), «imbió», «ynpidimento», «sirvidor»,

بطريقة مشابهة للمغاربة المتكلمين بالعربية عندما يتحدثون بالإسبانية. هذه الخصائص تختفى فى كتابات لاحقة لباياتشى نفسه. بلاشك كان هناك شىء فى الكلام وفى الملبس يميز هويته كيهودى مغربى أو «يهودى موريسكى»، كما تصف الوثائق واحدًا من بنى جنسه، فى سفرياته الأولى إلى إسبانيا. نحب أن نعرف أيضا ما إذا كانت له لحية، كما كان شائعًا بين يهود المغرب وشرق إسبانيا. وعلى خلاف «البرتغاليين» الذين كانوا دائمًا حليقى الذقن، ولهذا كانوا يختلفون عن مجموعات يهودية أخرى. نعم نعرف على الأقل أن ابن أخيه إسحاق كانت له لحية فى هولندا[٦١].

من الوثائق الوفيرة التى حررها باياتشى، على وجه الخصوص أثناء مرحلته الهولندية، يمكن الاستدلال على أن اللغة الإسبانية كانت لغته الأولى. على سبيل المثال، حينما يشهد على صحة الترجمات، سواء إلى الفرنسية، أو بين العربية والهولندية، يفعل ذلك بخط يده، بالقشتالية وبكلمات كالآتى: «أقول إننى كتبت بصدق للملك مولاى زيدان كل ما تقدم ذكره ولكونه حقيقة، أُوقّع على ذلك فى نفس اليوم»[٦٢]. يدهشنا أن نجد هذا النوع من الصيغ فى ذيل الوثائق المكتوبة بالعربية والهولندية الموجهة إلى هولندا. كانت لغته الفرنسية ركيكة وصعبة الفهم، ومليئة بمفردات مشتقة من اللغة الإسبانية، وبكلمات إسبانية متداخلة، وعلاوة على ذلك كان يستخدم حرف «ñ» للكتابة فى الفرنسية، كما يمكن بسهولة ملاحظة ذلك

فى المراسلة من هولندا وفرنسا وفى الشروحات التى توجِب علـى ناشـرى تلـك الرسائل إدخالها لجعلها مفهومة(٦٣). ومن الواضح أنه لم يكن يعرف الهولندية، كما تقول الوثائق القشتالية، عندما وصل إلى هولندا. أما عن كيفية تمكُّنه من اسـتخدام اللغة الهولندية فى الأزمنة اللاحقة على وصوله لهذا البلد فسوف نتكلم عن ذلك فى الفصل الثالث.

خطه فى القشتالية لا يختلف عن خط وثائق العصر، ولديه سهولة وثبات يد شخص تعوّد على الكتابة. يحدث الشيء ذاته مع اللغة العربية، وهى اللغـة التـى يتقنها تمامًا.

وهكذا فإننا نضيف إلى الأسئلة التى قمنا بطرحها على أنفسنا سابقًا قـضية أى نوع من التربية تلقاها باياتشى، وفى أى وسط كان يتحرك. ومن أجل محاولـة التعرف أكثر على مظهره الجسمانى، وعن لغته وعن حياته قبـل وصـوله إلـى مدريد، وأيضًا بعد نزاعه مع محكمة التفتيش، لجأنا للبحث فـى وثـائق محكمـة التفتيش.

يهود فاس ومحكمة التفتيش

بحثنا، بين وثائق محكمة التفتيش، عن آثار النـزاع الـذى سـبب خـروج الأخوين باياتشى من إسبانيا فلم نجد شيئًا. يبدو أن الأخوين لم يتم إجراء محاكمـة لهما. لكن على العكس، وفى نفس السنوات، وجدنا محاكمات عديدة ليهود آخـرين من فاس كانوا مستقرين فى مدريد، وسوف نلخص قصص البعض منهم هنا لأنهـا موضحة جدا لبيئة باياتشى.

إن ملفات محكمة التفتيش المحفوظة عن تلك السنوات، التى تجـرى ليهـود قادمين من فاس، تستلزم أن نقف عندها. فى المقام الأول، لأنها تظهر يهودًا مـن فاس مطرودين من المغرب نحو نفس الأماكن التى سيجوبها باياتشى. فـى المقـام الثانى، لأنها موضحة للأسباب التى جعلت من باياتشى هدفًا لرقابة محكمة التفتيش.

تعد حالة فرانثيسكو دى سان أنطونيو Francisco de San Antonio أفضل مثال. كان يهوديا وُلِدَ فى فاس سنة ١٥٧٩ وسُمى أبراهام روبن Abraham Rubén. فى عام ١٦٠٤ (أى بدءا من موت مولاى أحمد المنصور) كان قد هاجر إلى ليفورنو Livorno ثم إلى اسطنبول حيث اشتغل بالتجارة خلال ثلاث سنوات. وانتهى به المطاف مهاجرًا إلى أمستردام حيث عاش كحاخام يعلِّم التوراة بمرتب قدره ٥٠٠ كروثادوس Cruzados. ثم مضى إلى أمبيريس Amberes، حيث تحول إلى الكاثوليكية فى عام ١٦١٦، ليعود بعد ذلك إلى أمستردام وإلى اليهودية. ومن هناك إلى لشبونة حيث كرس نفسه لفترة من الوقت لتعليم اللغة العبرية والشعائر والطقوس اليهودية لـ «أناس من وطنه». وقد ألقت محكمة التفتيش فى لشبونة القبض عليه فى يناير عام ١٦١٨، وفى شهر فبراير حُكم عليه بالسجن. وخرج فى «مشهد الإيمان» فى الخامس من أبريل عام ١٦٢٠ مُدانًا بعد أن حُكم عليه بأن يتوب عن ذنب صغير، وفى عام ١٦٢١ طُرِدَ من البرتغال مدى الحياة.

ذهب إلى مدريد حيث أسرع بإقامة علاقة مع يهود آخرين من فاس، مثل بدرو دى سانتا ماريا، المساعد الشخصى لكونت بينافنتى Conde de Benavente، وفرانثيسكو إنريكيث، الذى كان يعمل فى خدمة راهب من رهبانية الثالوث، هو الأب أورتينسيو، وكان يعلّمه دروسًا فى العبرية. كان إنريكيث هذا يدخر مالاً من أجل العودة إلى فاس ويحض فرانثيسكو دى سان أنطونيو على عمل نفس الشئ.

لكن بغض النظر عن ذلك، فقد تحول سان أنطونيو مرة أخرى إلى المسيحية فى يونيو من عام ١٦٢١ فى حضور صاحبة الجلالة الملكة بالكنيسة الملكية. يؤكد فى المحاكمة أنه تحول إلى المسيحية «لينعم بالصدقات التى يقدمها صاحبا الجلالة للذين يتعمدون» وبفكرة استخدام هذا المال فى العودة إلى فلانديس. من الواضح أنه لم يكن صادقًا عندما أكد فى حضور مسيحيين آخرين جُدد أنه، على الرغم من حالة الذل التى كانوا يعيشون فيها فى فاس، فإن ذلك كان أفضل من العيش فى أرض المسيحيين (٦٤).

في مدريد عاش حياة «الدعوة إلى الدين»: كـان يبحـث عـن الاتـصال بتجار «برتغاليين»، أى مسيحيين جدد، وكان يكرس نفسه «للتهويـد». كـان لديـه أبجدية مطبوعة بالعبرية، بحروف كبيرة الشكل واسم الحـرف بجـواره، برسـم قشتالى، وكشكول بحجم كبير مطبوع بالعبرية أيضًا، يشرح فيه كيفية إقامة العديـد من الشعائر والطقوس. كان يعلم الصلوات بالعبرية لمنْ يطلب منه ذلـك، وكـان يصف الصلاة كتابة، وكان يؤجر الأبجدية والكشكول بثلاثين ريال فى الشهر. كان يعلم أيضًا ذبح الدجاج والأغنام، وكان يقول «ملعونٌ منْ لا يذهب مع أنـاس مـن بنى وطنه». حاكمته محكمة طليطلة بتهمة «تعليم العقيدة اليهودية ولأنـه عميـل ومتواطئ مع الملحدين». بعد ذلك تم التصالح معه والحكم عليه بالسجن المؤبد فى عام ١٦٢٥[٦٥].

فى محاكمة سان أنطونيو هذه يظهر يهودى آخر من فـاس يُـدعى باسـم مسيحى هو بدرو دى كاسترو، أصبح «مترجمًا شفويا ومترجمًـا تحريريـا» فـى لشبونة. وقد أرسل هذا الرجل من لشبونة، شهادةً ضد سان أنطونيو فى مارس من عام ١٦٢٥ وقدَّم عدة معلومات ضده. عاش بدرو دى كاسترو فى مدريـد، حيـث تنصَّرَ، ومنها انطلق إلـى لـشبونة وهـو يعمـل فـى خدمـة خيرونيمـو دى غوبيا Jerónimo de Gobea، أسقف سبتة، الذى كان يدفع له مرتبًا قدره ريالان فى اليوم. كان قد أبلغ أيضًا ضد مُتنَصِّرين آخرين قادمين من شمال إفريقيا[٦٦].

هناك حالـة أخـرى مهمـة، وهـى: حالـة فرانثيسكو ديـل إسـبيريتو سانتو Francisco del Espíritu Santo، حاكمته محكمة التفتيش بين عامى ١٦١٥و ١٦١٨[٦٧]. كان فرانثيسكو فى الأساس مُتهمًا بممارسة السحر والشعوذة، ولكونـه قادرًا على العثور على كنوز مدفونة. غير أنه لم يُحاكم بتهمة الشعوذة أو الـسحر؛ بل كان الشيء الذى أدانه هو أنه من أجل هذه الممارسات كـان يحـتفظ بكتابـات سحرية وطلاسم مكتوبة باللغة العبرية. وبعد إلقاء القبض عليه، أقـرَّ بأنـه كـان إسكافيًّا، وعمره ٣٣ سنة،ومن أصل يهودى، وأنه وُلِدَ فى المغـرب فـى مدينـة

مراكش Marrakech، لأب وأم يهوديين. عندما بلغ عمره العشرين عامًا انتقل إلى فاس وتحول إلى الإسلام، وخلال حوالى عشرة أعوام عمل فى خدمة ملك فاس. فى عام ١٦١١ جاء إلى إسبانيا حيث تحول إلى المسيحية، وهو الآن يعيش فى مدريد فى بيت المراجع بدرو دى غوثمان Pedro de Guzmán الذى يقوم بخدمته. يؤكد فرانثيسكو أنه يعتنق دين موسى ويود أن يظل محافظًا عليه، وأن يموت على هذا الدين، لأنه ابن لوالدين يهوديين منحدرين من نسل هارون، ونشأ على هذا الدين. سألوه لماذا تحول إلى الإسلام، فقال فى البداية لأنه تشاجر مع والديه، وبعد ذلك أضاف: «لأن اليهود بين المسلمين ليسوا محترمين، ولا يمكنهم فعل شىء» وأنه أراد أن يكون محترمًا ويعيش ويأكل جيدًا. وقد أسلم ظاهريا فقط وليس بقلبه. عندما وصل إلى إسبانيا بدا له أن المسيحية لم تكن بعيدة جدا عن دين موسى لكنه سرعان ما رأى أنه قد أخطأ: كانت الصور والتماثيل تضايقه كثيرا، وأن المسيحيين كانوا يعتقدون أنهم يأكلون جسد الرب. فى المحاكمة تدرج صفحة محررة باللغة العبرية كان المتهم يحملها معه بالإضافة إلى طلسم أُدرِج فى ملف القضية مكتوبا بالعبرية أيضًا. وقد شهد خوان باوتيستا راميريث Juan Bautista Ramírez السجين فى سجون محكمة التفتيش لكونه يمارس شعائر اليهودية أن الصفحة عن نص من مزامير داوود، يقوم بترجمته. لخوان باوتيستا هذا ويوجد ملف محاكمة، وسوف نراه لاحقًا.

يوقع فرانثيسكو كل اعترافاته باللغة العبرية. يسألونه لماذا يوقع هكذا وليس فرانثيسكو ديل إسبيريتو سانتو، فيقول إنه لا يريد أن يُدْعَى بهذا الاسم بل باسمه اليهودى القديم. عندما يلحون عليه أن يوقع باسمه المسيحى يرفض ويقول: إذا كنتُ يهوديا، فكيف أوقع باسم مسيحى؟. يبدو أن الاسم المكتوب بالعبرية هو إيساكار Isacar بن إسحاق القاسم. حُكِمَ عليه فى عام ١٦١٨ بخمس سنوات تجديف فى السفن، وهى عقوبة مخففة جدا إذا وضعنا فى الاعتبار أنه فعل ما يوجب عقوبة الإعدام خاصة التصميم على الإلحاد. حينما كان فى السجن كان يصيح

ويسب أعضاء محكمة التفتيش، وكان يخرج عن طوره ويطلب صارخًا أن يحرقوه فى أقرب وقت، فقاموا بوضع كمامة له. ربما اعتقد أعضاء محكمة التفتيش أنه لم يكن سليمًا من الناحية العقلية، حيث أصروا على أنه عبارة عن رجل مختل. إن قراءة ملف هذه المحاكمة أمر شديد القسوة ؛ فهو رجل مسكين غير قادر على استراتيجيات الدفاع التى أجادها متهمون آخرون كثيرون.

بالنسبة لخوان باوتيستا راميريس Juan Bautista Ramírez، كان دارسًا للاهوت فى فاس وسافر إلى إشبيلية عن طريق مليلة فى عام ١٦٠٨. بعد تعميده فى هذه المدينة «أخذ يبيع لوحات فى الشوارع» حتى جمع مالاً كافيًا من أجل الذهاب إلى ليفورنو Livorno، حيث تزوج من يهودية برتغالية. ثم عاد إلى إسبانيا حيث أبلغ عنه يهودى آخر متنصر من شمال إفريقيا(٦٨).

لكن من بين أسماء المتهمين والشهود المشار إليهم فى المحاكمات، أو عن طريق الأسماء التى ذكرها الاتهام ليهود آخرين كانوا يحضرون اجتماعات أو كانوا أصدقاء للمتهمين، نرى أنه كان فى مدريد عدد من اليهود جاءوا من فاس وتحولوا إلى المسيحية ويعيشون فى خدمة نبيل أو شخصية من شخصيات القصر. أى أنهم كانوا على اتصال بذوى النفوذ وهو نفس ما فعلوه فى المغرب،وكما رأينا باياتشى يحاول أن يفعل. نفس الشيء كان يحدث فى لشبونة: خيرونيمو دى ميندوثا Jerónimo de Mendoça، الذى كتب «يوميات فى إفريقيا» Jornada de Africa فى لشبونة فى السنوات الأولى من القرن السابع عشر استعلم عن تفصيلات مختلفة لكى يقدم وصفًا للبلاد، وبخاصة مدينة فاس، وقد طلب هذه الملعومات من يهود من هذه المدينة «الذين نشأوا فى الأرض» (أى فى المغرب)(٦٩) وتحولوا إلى المسيحية ويعيشون الآن فى العاصمة البرتغالية. على مدى القرن السابع عشر تحاكم محكمة تفتيش لشبونة يهوذا عديدين من المغرب ويقيمون فى البرتغال حيث جاءوا برفقة أو فى خدمة إحدى الشخصيات البرتغالية التى كانوا يقومون بخدمتها فى أحد المواقع البرتغالية بالمغرب وقد أُجبروا على

التنصر ليستطيعوا العيش فى البرتغال،وحوكم العديد منهم على أنهم مرتدون يهود ولأنهم يُعلّمون العقيدة اليهودية لمتنصرين برتغاليين[٧٠].

عمومًا فإن هؤلاء اليهود المتنصرين، على الأقل الذين حاكمتهم محكمة التفتيش الإسبانية، كانوا متّصلين بأوساط مُتنصّرين برتغاليين ومُدرجين فى الرقابة التى كان هؤلاء هدفًا لها، وكانت خطورتهم تكمن فى أنهم كانوا يتمتعون بثقافة يهودية كبيرة ومعارف دينية أكثر عمقًا، وهو ما أدى إلى اتهامهم بتقوية العقيدة اليهودية عند المتنصرين بعد أن كانت قد اضمحلت. كانت هناك محاكمات ليهود من شمال إفريقيا متهمين بكونهم «معلمين للعقيدة اليهودية» وتظهر هذه الأسماء فى ملفات العديد من القضايا التى نظرتها محاكم التفتيش. كان يُنظر إلى معلم العقيدة على أنه مواطن يأتى من الخارج، وعلى الأخص من شمال إفريقيا أو على أية حال من أراضٍ يمكن ممارسة اليهودية فيها بحرية، وبالتالى اكتساب ثقافة يهودية متينة، وكانت مهمته تتمثل فى حض المتنصرين على العودة إلى الإلحاد. ويجب أن نتذكر أن أحد العوامل الرئيسية التى أدت إلى قرار الطرد عام١٤٩٢كان الرغبة فى منع المتنصرين اليهود من الاتصال بأتباع دينهم القديم. هذا الشعور كان لايزال له وزن كبير.

وتُعد حالة مدينة ملقة مثالاً جيدًا، حيث كانت تقطنها جالية من المتنصرين البرتغاليين: فى الستينيات من القرن السابع عشر كانوا يتحكمون فى جزء كبير من تجارة ملقة وفى إدارة العديد من الإيجارات الملكية، والبعض منهم كان قد تولى مناصب مهمة فى حياة المدينة. داخل هذا المجتمع كان هناك العديد من اليهود المستترين إذا وضعنا فى الاعتبار أنه فى عام ١٦٦٩كان هناك١٦٢ ممنْ يمارس الشعائر اليهودية مسجونين فى سجون المدينة. وبالرغم من قوة أو صلابة إيمانهم إلا أن المتهودين فى ملقة كانوا على وعى بضحالة شعائرهم، وهو ما كان يولد شغفًا كبيرًا إلى المعرفة. ان الرحلات المتوجهة إلى أحياء الجماعات اليهودية المغربية كانت وسيلة لاكتساب معارف ولشراء كتب، ومن بين وسائل اكتساب

المعرفة أيضا إجراء اتصالات مع اليهود المغاربة الذين كانوا يصلون إلى المدينة ويتمتعون بصيت ذائع بين مجتمع المتنصرين. هذا المجتمع كان بالإضافة إلى ذلك يرسل هبات للجماعات اليهودية «كتضحية يقدمها اليهود إلى حاخاماتهم ليغفروا لهم ما لا يؤدونه من شعائر دينهم». إن محاكمات ليهود من شمال إفريقيا مقيمين بين أهل ملقة تعطى نموذجًا جيدًا لهذه الاتصالات. هذه هى حالة بالتاسار دى أوران، الذى «كان يقول لهم متى تأتى الأعياد، ومواعيد الصوم وأشياء أخرى من دين موسى». كل ذلك جعل لبالتاسار شأنًا كبيرًا بين يهود ملقة، وقد استفاد هو من هذه المكانة لصالح مشروعاته التجارية[٧١].

لا نجد فى أيٍ من المحاكمات التى اطلعنا عليها ذكرًا للأخوين باياتشى. لكن من هذه المحاكمات، ومن محاكمات أخرى من سنوات سابقة[٧٢]، يمكن استنتاج أن نقطتين أساسيتين تثيران شكوك محكمة التفتيش، وقد تورط باياتشى فى كليهما: إقامة علاقة مع «برتغاليين»، والقيام بتعليم العقيدة اليهودية أو امتلاك أوراق مكتوبة بالعبرية. سوف نرى حالة أخرى فيما بعد. هذه المحاكمات تطرح علينا تساؤلات جديدة، وبخاصة، ما الذى أتى بهؤلاء اليهود القادمين من فاس، إلى شبه الجزيرة وجعلهم يتحولون إلى المسيحية؟ [٧٣].

هوامش الفصل الأول

1 Véase W:Ch. Pieters, Daniel Levi de Barrios als geschiedschrijver van de Portugees-Israelietische gemeente te Amsterdam in zijn "Triumpho del govierno popular". Amsterdam.1968.

2 Apud Pieterse. Op.cit.,p. 53.

3 Zwarts. "De eerste rabbijnen en synagogen". p. 200.

4 D. Corcos Abulafia. "Samuel Pallache and his trial in London"(en hebreo). Studies on the Jews of moroco. Jerusalén,1976. pp. 122-133; K. Heeringa. "Een bondgenootschap tusschen nederland en Marokko" Onze Eeuw. VII,3 (1907). pp. 81-119. M.H.Gans, "Don Samuel Pallache als moré en zeerover. grondlegger onzer gemeenschap". Opstellen opperrabbijn L.Vorst aangeboden. Rotterdam, 1959. pp. 15-23, M.H. Gans. Memorbock. Platenatlas van het leven der joden in Nederland van de middeleeuwen tot 1940. Baarn,1971,pp. 34-35; H.Z. Hirschberg. A History of the Jews of North Africa. Leiden, 1974-1981, vol.II. pp.212 y ss.

5 D. Swetschinski, "Un refus de mémoire. Les juifs portugais d'Amsterdam et leur passé marrane". en E. Benbassa (ed.). Memoires juives d'Espagne et du Portugal. Publisud. 1996. pp 69-79.

6 C.Lorenz Wilke, "Conversion ou retour? La métamorphose du

nouveau chrétien en juif portugais dans l'imaginaire sépharade du XVII siècle" en E. Benbassa (ed.), Mémoires juives…,pp.53-67.

7 J. Israel, "Spain and the Dutch Sephardim" Studia Rosenthaliana, XII,n° 1-2 (1978), pp.1-61.

8 Archivo General de Simancas (AGS), Estado, Leg. 208.

فى عام ١٦٠٧ يؤكد الأخوان (صمويل وجوزيف باياتشى) أنهما يقيمان فى العاصمة (مدريد) منذ أربع سنوات.

9 Archivo Ducal de Medinasidonia (ADM), Leg. 2405.

10 AGS, Estado. Leg. 2636, octubre, noviembre y diciembre de 1602. ADM, Leg. 2405.

11 ADM, Leg. 2405, رسالة من الملك إلى الدوق، بتاريخ ١٢ يناير ١٦٠٣

12 ADM, Leg. 2405, 6 de marzo de 1602.

13 ADM, Leg. 2407.

14 AGS, Estado, Leg 2636, رسالة بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٦٠٢.

15 المراسلات المستديمة مع فيليبى الثانى وفيليبى الثالث علـى حـد سـواء، محفوظة على نحو خاص فى سيمانكاس وفى أرشيف ميديناسيدونيا.

Véase L.I.Álvarez de Toledo; Alonso Pérez de Guzmán… Cádiz, 1994, 2vols.

16 يقول ذلك هيرتشبرج فى كتابه السابق ذكره، صفحة ٢١٣، دون أن يـذكر مصادر؛ نعتقد ببساطة أنه أخذ ذلك عن كوركوس الذى يرجع ذلك بـدوره

إلى فقرة خاصة بالسفير الفرنسي، بارُول، وهى الفقرة التى سوف نُدرجها فيما بعد والتى تعد البيان الوحيد فى هذا الصدد.

17 الحصول على هذا الموقع كان الشغل الشاغل لفيليبى الثانى، وقد أنتج الموضوع وثائق كثيرة جدا،

Véase Darío Cabanelas, "El problema de Larache en tiempos de Felipe II", Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos, 9 (1960), pp. 19-53.

18 Sources Inédites de L'Histoire du Maroc (desde ahora SIHM), France,II, p.344.

19 عن التاجر خوان دى مارتشينا، أنظر:

Juan luis de Rojas, Relación de algunos sucesos postreros de Berdería, salida de los moriscos de España y entrega de larache, Lisboa, 1613,F. 11.

عَيْن خوانيتين مورتارا عميلاً لإسبانيا عند مولاى الشيخ، أنظر

Fr. Marcos de Guadalajara y Xavier, Prodición y destierro de los moriscos de Castilla...disensiones de los hermanos Xarifes y presa de Alarache. Pamplona, 1614, f.96 y ss.

20 AGS, Estado, Leg. 493.

ملخص للجلسة. والمحضر الكامل لنفس الجلسة منشور فى AGS, Estado, Leg. 2637 لكن المستندات التى قدمها باياتشى لا تظهر بين الوثائق المحفوظة عن اجتماع مجلس الدولة هذا.

21 AGS, Estado. Leg. 208.

22 AGS, Estado. Leg. 2637. nº 59. 19 de junio de 1605.

23 AGS, Estado. Leg. 2637, nº 159, 13 de junio de 1605. انظر التذييل

24 AGS, Estado. Leg. 2637, nº 60, 16 de agosto de 1605.

25 AGS, Estado. Leg. 2637, nº 60 bis, 6 de septiembre de 1605.

26 AGS, Estado. Leg. 200.

27 ADM, Leg. 2406, 20 de septiembre de 1605.

28 ADM, Leg. 2406, 15 de noviembre de 1605.

29 AGS, Estado, Leg 200. انظر التذييل

30 ADM, Leg, 2757.

31 يبدو أن خوانيتين مورتارا كان قد ذهب إلى فاس فى المقام الأول "بغـرض التعامل فى الماس والجواهر القيمة مع مولاى الشيخ الذى كما قلنا، لم يسأم أبدا منها وقدّر البحث عنها والوقوف عليها ودفع قيمتهـا بـشكل جيـد ..." Rojas, op. Cit.,f.11.

32 يُعدُّ هذا أمرا شائعا بين العائلات اليهودية المعاصرة والذى يُتـرجم بـشكل اعتيادى بالارتباط بالشبكات التجارية التى كانوا يحتفظون بها. أنظر:

Swetschinksi, "kinchip and Commerce..."

33 **طبقًا لوثائق أرشيف دوق ميديناسيدونيا، مع أنه لا تُذكر إشارات، عند**

Luisa Isabel Álvarez de Toledo, Alonso pérez de Guzmán, General de la Invencible. Cádiz, 1994, vol. II. p.65.

34 AGS, Estado, leg.200.

35 ADM, Leg, 2406.

36 ADM. Leg, 2406, 22 de octubre de 1605.

37 ADM, Leg, 2406, 22 de octubre de 1605.

38 عن قضية العرائش، انظر

T.García Figueras y C. Rodríguez joulía: Larache, datos para su historia en el siglo XVII, Madrid, 1973.

39 AGS, Estado, leg. 208.

جوزيف وصمويل باياتشي يتلقيان مالا لأسباب عادلة.

40 Colección de Documentos para la Historia de España (CODOIN), vol. 81, P. 478

41 Carta de de Barrault desde Madrid, 29 de septiembre de 1606. SIHM, France, II, pp. 343-344.

42 Carta de de Barrault a Enrique IV, 26 de noviembre de 1606, SIHM, France, II, pp. 352-354.

43 SIHM, France, II, p. 375.

44 SIHM, France, II, p. 433.

45 AGS, Estado, Leg. 208.

46 AGS, Guerra y Marina, Leg. 679.

47 Véase carta de de Lisle a Enrique IV el 16 de abril de 1608, SIHM, France, II, p.433 y también AGS, Guerra y

Marina, Leg. 679.

48 Archivo Histórico Nacional de Madrid (AHN), Inquisición, Leg. 2643, año 1671.

49 هذا التنصر المقصود ينبغي دراسته كذلك من وجهة نظر الشريعة اليهودية. انظر على سبيل المثال،

H.J. Zimmels, Die Marranen in der Rabbinischen Literatur. Forschungen und Quellen zur Geschichte und Kulturgeschichte der Anusím, Berlin, 1932,

الدراسة الحالية ليست مكانا لمناقشة متعمقة فى هذا الصدد. نأمل ان نعـود لهذا الموضوع فى دراسة منفصلة.

50 9 de sept. de 1607. AGS, Estado, Leg. 208. انظر التذييل

51 AGS, Estado, Leg. 208.

52 AGS, Estado, Leg. 206.

53 AGS, Guerra y Marina, Leg. 679.

54 Según doc. notarial de 23 de septiembre de 1616, nr. 1000 en Studia Rosenthaliana X (2) (1976), p.221.

55 SIHM, Pays-Bas,II,p. 269.

56 Abraham ibn Daud (the Book of Tradition (Sefer ha-Qabbala), ed. G.D. Cohen,Filadelfia, 1969, pp. 48 y 52).

يذكر عائلة يهودية فى قرطبة فى القرن العاشر لها لقب مشابه، عائلة ابـن فاليخا، لكن هذه المماثلة غير محتملة للغاية. يذكر لاريدو، أنهم هاجروا إلى

المغرب عندما حدث الطرد فى عام ١٤٩٢

(A. Laredo, Les noms des juifs au Maroc, Madrid, 1978, p. 966).

لكنه لا يذكر مصادر يدعم بها هذا التأكيد.

57 Laredo,op. Cit., p.967. سوف نعود لموضوع إسحاق أوثيل فى الفصل الثالث

58 Apud Roth, art. Cit., p.243

59 "Reduction de cinco Erches renegados de Ververía y sus confesiones", AHN, Inquisición, Leg. 1821 nº 15. Apud F.R. Mediano, "Portugueses en Marruecos: cautivos de la batalla de Alcazarquivir"

60 ADM, Leg. 2409, خطاب من الملك إلى الدوق، بتاريخ ٢٣ سبتمبر ١٦١٤

61 Véase infra cap.3, "El pleito de Isaac".

62 SIHM, Pays-Bas,II, p.170

63 **انظروا على نحو خاص إلى خطابات باياتشى المنشورة فى**

SIHM, Pays-Bas II, passim.

64 AHN, Inquisición, Toledo, Leg. 134, nº 18, fol. 8.

65 **قام هـ. بينارت بدراسة هذه المحاكمة فى مقال باللغة العبرية**

"Halijatam shel yehudim mi Maroco li-Sefarad bereshit hameá ha 17"

أو "طريق اليهود من المغرب إلى إسبانيا فى أوائل القرن السابع عشر"

en Salo Wittmayer Baron Jubilee Volume on the Occasion of his Eightieth Birthday, Nueva York y Londres, 1974.

66 تؤكد ذلك الأوراق التى أرسلت من محكمة تفتيش لشبونة إلى محكمة تفتيش طليطلة،

AHN, Inquisición, Leg. 134, nº 18f. 13r.

67 AHN, Inquisición, Toledo, Leg. 145, nº 13.

68 AHN, Inquisición, Leg. 156, nº 4.

69 Jerónimo de Mendoça, Jornada de África del rey Don Sebastián, Lisboa, 1613, fol. 68v.

70 José Alberto Rodrigues da Silva Tavim, Os judeos na expansão portuguesa em Marrocos durante o século XVI, Braga, 1997, pp. 107 y ss, y Apéndice documental.

71 Apud B. López Belinchón,"Aventureros, negociantes y maestros dogmatizadores. Judios norteafricanos y judeoconversos ibéricos en la España del siglo XVII" (en prensa)

72 Véase Beinart, art. cit.

73 ينبغى الأخذ فى الاعتبار أنّ ليس كل اليهود الذين كانوا يعودون إلى شبه الجزيرة كانوا يتنصرون. انظر

Y. H. Yerushalmi, "Professing Jews in Post-Expulsion Spain and portugal", Salo Wittmayer Baron Jubilee Volume English

Section, vol.II, Nueva York y Londres,1974, pp. 1023-1058.

الفصل الثانى

شيءٌ آخر عن البيئة

عصر وأماكن صمويل باياتشى

نعرفُ أن عائلة باياتشى من أصل إسبانى، وأنها كانت مقيمة فى فاس فى أواخر القرن السادس عشر، ويُفترض أن صمويل وُلِدَ وقضى سنواته الأولى هناك[١]، لذا فسوف نتحدث عن مدينة فاس.

فاس

يبدو أن فاس، التى تُعدُّ واحدةً من أهم مدن الغرب الإسلامى فى العصور الوسطى، كان فيها عددٌ كبيرٌ من السكان اليهود منذ تأسيسها. إنَّ المدينة والأقلية اليهودية ازدهرتا على حدٍ سواء بداية من القرن الثالث عشر بعد أن اعتلت أسرة بنى مرين السلطة، وحولت فاس إلى عاصمة لمملكتها واستعانت بعمال ومديرين يهود فى قصرها. وكما حدث كثيرًا فى إسبانيا المسيحية فى العصور الوسطى، فإن الضغينة الشعبية ضد اليهود زادت بالتوازى مع الحماية والمعاملة الطيبة التى وفرتها لهم المملكة. فى أواسط القرن الخامس عشر نقل السلطان المرينى عبد الحق بن أبى سعيد كل السكان اليهود من فاس إلى المدينة التى اتخذها مقرا لقصره الجديد والتى كانت الأسرة الحاكمة قد أنشأتها عاصمةً لنفسها، وكذلك نقل السلطان قصره وحرسه إلى تلك المدينة الواقعة فى ضواحى فاس. فى هذه المدينة المسماة فاس الجديدة، وفى منطقة تسمى الملاح Mellah أقام السلطان ما سوف يكون أول حى يهودى بشمال إفريقيا، بهدف وضع اليهود تحت حمايته وإبعادهم عن خطر تكرار حدوث ثورات شعبية ضدهم، وهو أمرٌ كان قد حدث فى سنوات سابقة. لفظ «ملاّح» تحول فى المغرب إلى مرادف لـ «حَىّ يهودى». فى المائة وخمسين عامًا التالية أصبح الحى اليهودى فى فاس على غير العادة آهلاً بالسكان ومهمًا.

ملاحظون أوروبيون معاصرون للأحداث أمثال دييغو دى تورّيس[٢] ولــويس دل مارمول وخيرونيمو دى ميندوثا[٣] أو نيكولاس كليناردس (نيكولاس دى كلينارد)[٤] تركوا لنا أوصافا مفصلة عن الحى اليهودى فى فاس والذى كان يسكنه فى أواســط القرن السادس عشر، حسب مارمول، عشرة آلاف أسرة، أى حــوالى أربعــين او خمسين ألف مواطن، معظمهم من أصل إسبانى.

ويرجع السبب فى ذلك إلى أن فاس تحولت إلى مكان للجوء اليهود الإســبان منذ المطاردات فى أواخر القرن الرابع عشر، وقد استقبلت المدينــة علــى وجــه الخصوص مجموعات مهمة من اليهود فى لحظة الطرد عام ١٤٩٢.

يتحدث برنالديث، مؤرخ الملكين الكاثوليكيين، عن الموجــات الأولــى مــن اليهود الهاربين قبل الطرد وبالتالى قبل سقوط غرناطة، مؤكدا أنهم كانوا يلجــأون إلى أراضِ إسلامية، سواء غرناطية أو مغربية: «توجــه الكثيــرون إلــى أرض المسلمين، هناك وعلى الجانب الأخر، ليكونوا يهودا كما كانوا؛ وذهب آخرون إلى البرتغال وآخرون إلى روما»[٥]. لقد سلك نفس الطريق كثيرٌ من المطرودين فــى عام١٤٩٢. فى تلك السنوات كانت الأماكن الأوروبية التى تسمح لليهــود بــالعيش فيها بصفتهم يهوذا قليلة (عمليا وفى تلك اللحظة، كانت البرتغال فقط من بين الدول المجاورة، بالإضافة إلى بعض المدن الإيطالية)، وهو السبب الرئيسى الذى جعــل الأغلبية من اليهود يلجأون إلى أراضى الإسلام.

فى مختلف المجتمعات الإسلامية (العثمانية أو المغربية هى التى تهمنا الآن) اندمج اليهود فى تلك المجتمعات بمقتضى ما يُسمى ب «عهد الذمة» وهى لائحــة خاصة بالمحميين تسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم الخاصة والحفــاظ علــى سلطاتهم العامة واستقلال نسبى، لكن دائما داخل حالة من الخضوع والانقياد. كانت لائحة مشابهة جدا لتلك التى كان اليهود والمدجنون يخضعون لها فى الممالك المســيحية فــى العصور الوسطى بشبه الجزيرة الأيبيرية. سوف نرى لاحقا فى الوثائق العربيــة المغربيــة، أن صمويل وجوزيف باياتشى يوصفون دائما بأنهم «ذميون».

بالإضافة إلى ذلك فإن المطاردات التى كان اليهود هدفًا لها فى شبه الجزيرة الأيبيرية منذ أواخر العصر الوسيط، وبخاصة منذ أحداث عام١٣٩١، كانت سببًا فى وجود «نبوءات». فى الاضطهاد المفروض على اليهود من قبل المسيحيين، اكتسب الإسلام – الذى يُعد العدو التقليدى للمسيحيين بالنسبة لبعض الأوساط اليهودية – صفة المنقذ الذى أرسلته العناية الإلهية، وقد تحقق هذا الدور بفتح المسلمين للقسطنطينية. فى التعارض بين الغرب المسيحى والشرق التركى، يرى اليهود علامات تحررهم وبداية عهد الخلاص(٦). إن هذا المفهوم المبهم موجود ومشروح بصفة خاصة فى كتابات المبشر المفسر للعهد القديم أبراهام بن خاكوب سابا(٧)، وهو أحد المطرودين من إسبانيا، لجأ أولا إلى البرتغال، ثم إلى فاس، وبعد ذلك إلى فينيسيا، حيث نشر كتابه(٨). إن هجرة اليهود المطرودين إلى الشرق وإلى شمال إفريقيا كانت كبيرة للغاية، ليس فقط بسبب الإمكانية التى كانت تقدمها الأراضى الإسلامية لممارسة الديانة اليهودية بحرية، لكن أيضًا بسبب الأفكار المخلصة وبسبب رؤيتهم للإسلام كعدو منتصر على المسيحية. إن هذه المطابقة كانت لاتزال تظهر فى المغرب فى عام ١٥٧٨، إثر هزيمة الملك البرتغالى سيباستيان: (احتفل يهود فاس وتطوان بالهزيمة وأقاموا صلاة خاصة يقيمونها للرضا والشكر حينما يبتعد التهديد بالتدمير)، وهى تُقام حتى اليوم(٩). ومع ذلك فإن حظ الذين رحلوا إلى فاس فى عام ١٤٩٢ يبدو أنه كان فى البداية قاسيًا.

أبراهام بن سالومون دى توَّريتيل، الذى هاجر إلى فاس مع أسرته وهو يبلغ من العمر عشر سنوات، يروى فى كتابه «سفر كابالا» الذى ألّفه فى عام١٥١٠، المتاعب التى تعرّض لها هؤلاء الذين وصلوا إلى بلدٍ دمره الجوع والجفاف، على الرغم من المعاملة الطيبة تجاههم من قبل سلطان فاس.

فى عام١٤٩٣وصل جزء كبير من المطرودين إلى المغرب عَبْر موانئ طنجة والعرائش وأزامور وصافى وعلى وجه الخصوص عَبْر موانئ أرثيلا وسالى، وقد عانى اليهود كل أنواع المعاملة السيئة وبخاصة نهب ممتلكاتهم من قبل

البرتغاليين والمسلمين. مع ذلك فقد أرسل السلطان بغالاً ومؤناً ومرشدين وقادة إلى أرثيلا بهدف نقل اليهود إلى عاصمته، حيث شيَّد لهم مجموعة من المساكن المؤقتة خارج هذه المدينة وحول الملاَّح. استقرَّ الوافدون الجُدد إذن فى أكواخ من الخشب والتبن والخيام، وتعرضت هذه الخيام بعد ثمانية أشهر من وصول اليهود للحريق حيث فَقَدَ بعضهم حياته وتقريبا كل ثرواتهم وممتلكاتهم. تأسف المصادر اليهودية على وجه خاص على ضياع كتب عبرية كان اليهود قد أحضروها من شبه الجزيرة.فى ذلك الوقت حاول كثيرون العودة إلى إسبانيا(١٠).

لاشك كان الوضع قد استقر فى عام ١٥٠٨ ويحكى لنا الحاخام أبنير هاسَّارفانى – وهو مؤرخ يهودى من فاس – أنه فى ذلك العام استطاع اليهود الإسبان المعروفين باسم ميجوراشيم أو مهاجرين لتميزهم عن اليهود الأصليين المقيمين فى المغرب أو توشافيم، استطاعوا أن يبنوا بيوتًا من عدة طوابق ومزينة بالرسومات والفنون العربية. كان للجماعة الإسبانية بالإضافة إلى ذلك معابد عديدة ومدارس مليئة بالدارسين(١١).

وقد وصلت مجموعات جديدة من اليهود الإسبان إلى فاس ليس فقط فى السنوات اللاحقة مباشرة للطرد، بل على مدى النصف الأول من القرن السادس عشر، هذه المرة من خلال المواقع التى كانت لدى البرتغاليين فى الشاطئ المغربى. هذه المواقع كانت منذ البداية ملجأً للمتنصرين: فى أكتوبر من عام ١٤٨٨، حينما علم خوان الثانى ملك البرتغال، أن متنصرين قشتاليين كثيرين لاجئين فى البرتغال كانوا يذهبون إلى شمال إفريقيا من خلال المواقع ليعودوا لدينهم القديم، صدَّق على عقوبة الإعدام ومصادرة الأموال لمنْ يُقدم على فعل هذا الشيء(١٢).كانت مدينة فاس هى مركز الجذب لأولئك اليهود. إنَّ وصف مارمول الذى عاش فى فاس فى الأربعينيات من القرن السادس عشر، يضعنا تمامًا فى الحى اليهودى فى فاس:

«[فى الحى الثالث بفاس الجديدة ...] يوجد الآن الحى اليهودى، الذى كان يقع قبل ذلك فى فاس القديمة؛ ولأن المسلمين كانوا ينهبون أملاك اليهود عندما كان الملك يحتضر، لذا نقل الملك بوسعيد الحى اليهودى إلى هناك بشرط أن يدفعوا له الضريبة مضاعفة. فى هذا الحى يوجد ميدان كبير به محلات كثيرة ومعابد وبيوت مشغولة جيدًا، ويعيش اليهود كما لو كانوا فى مدينة؛ ويصل عددهم إلى أكثر من عشرة آلاف أسرة، أربعة أو خمسة فى كل بيت، والجزء الأكبر منهم هم الذين طُردوا من إسبانيا فى زمن الملكين الكاثوليكيين (فرناندو وإيسابيل). من بين هؤلاء يوجد بعض الأغنياء، ولهم شيخ بمثابة حاكم، يقضى بينهم ويوزع الضرائب التى يدفعونها للملك. وحتى لا يكون اليهود متضايقين جدا، فإن الحاكم المعين يستأجر من الملك العقوبات والغرامات، ويقوم بإحصاء الضرائب عما يبيعونه وعن الأعمال التى يقوم بها الموظفون، لأنهم يدفعون ضريبة عن كل شىء.

إن اليهود فى إفريقيا مذمومين جدا من المسلمين، وأينما ذهبوا يبصقون فى وجوههم ويضربونهم، ولا يسمحون لهم بلبس أحذية، إذا لم يكونوا من بين المقربين للملك أو للقادة؛ كل الآخرين يحتذون نعالاً من الحلفاء، ويتوجب عليهم الدخول من باب الملك حُفاة، ويجب أن يضعوا على رؤوسهم طواقى سوداء، وفيها أو فى القلانس قطعة قماش ملونة مخيطة كعلامة، ونفس الشىء فى ملابسهم، لكى يكونوا معروفين ومختلفين عن المسلمين. إذا كان أحدهم ثريًا، وعلم بذلك الملك، فإنه يُصادر منه أمواله، وفى أغلب الأحيان يأمر بقتله. لكنهم متغلغلون جدا ويعرفون التجارة جيدا، حتى أن معظمهم يديرون ثروات الملك وقواده؛ لأن الفرسان المسلمين، كما قلت لا يجيدون الربح ولا يفهمون فى هذه الأمور مثل اليهود، وكل واحد منهم يحاول أن يكون لديه من اليهود منْ يُدير له الثروة، ولهذا يغتنى اليهود كثيرًا.

بجوار قصر الملك توجد الدار التى يُسَمُّونها دار السّكة، حيث تُسك العُملة، وفى داخلها يقطن المدير جنبًا إلى جنب مع جميع الموظفين الذين يختصون بنقشها،

وبالقرب من هناك توجد ورشة الفضة والدمغة التى بها الخاتم وصورة العُمــلات وتُحدد الأعيرة بالقيراط على الفضة والذهب، لأنه ليس من الممكن شغل أيًـا مــن هذه المعادن فى فاس دون أن تكون مختومة بالدمغة أولا، وحينما تكون مختومــة يمكنهم أن يحولوها إلى عملة بالوزن.

إن غالبية اليهود من صُنَّاع الذهب لهم محلاتهم ويعملون فى فاس الجديــدة، ويبيعون ما يشغلونه فى فاس القديمة، فى موقع محدد لهم بجوار محال العطــارة، لأنه ليس من الممكن سك ذهب أو فضة فى فاس القديمة، ولا يهتم المسلمون كثيرا بهذه المهنة؛ وإذا كان هناك بعض الصائغين، فإنهم يقومون فقط بعمل مــشغولات بسيطة، مثل الخواتم والأقراط وخرز من الفضة للبدويات ولأنــاس آخــرين مــن الجبال»[١٣].

بعد ذلك، عندما يتحدث مارمول عن فاس القديمة، يضيف:

«يوجد فى هذه المدينة دار كبيرة جــدا يــسمونها ترســانة، حيــث اعتــاد المسيحيون الأسرى أن يعملوا ... لكن منذ وقت قليل وحتى الآن أعطـــى عبــدالله الشريف هذه الدار لليهود، حيث يمتلكون محلات المشغولات الذهبية والفضية»[١٤].

كان حى اليهود محاطا بسور، ونظرا لضيق المكان، كانت البيوت بها أدوار عديدة،وكانت الشوارع ضيقة ومتعرجة. وكان باب حى اليهود، الذى لا يزال حتى اليوم معروفا بباب الملاح، يطل على الشارع الرئيسى لهذا الحى، والذى كان يشقه (ولازال يشقه حتى هذا اليوم) من الشمال الشرقى إلــى الجنــوب الغربــى. كــان الشارع التجارى به المحال الصغيرة الخاصة باليهود. على يسار هذا الشارع كانت توجد البيوت الفاخرة لليهود الأغنياء التى كانت مجاورة لحديقة القــصر الملكـــى، وبجوارها كان يقع المدفن اليهودى الذى يصفه خيرونيمو دى ميندوثا بــــ«مكــان مميز جدا» والذى لايزال حتى اليوم واحدا من الأماكن الأكثر جمالا وجاذبية فـــى مدينة فاس. فى المنطقة السفلى كان يوجد الحى الأكثــر ازدحامــا وبؤســا، حـــى

الصنّاع. كان حي اليهود بالإضافة إلى ذلك هو المكان الذى كان يجذب كل الـذين لا ينتمون إلى المجتمع المسلم، كالمسافرين المسيحيين والسفراء والعملاء التجاريين والأسرى. فى ملاح فاس على وجه الخصوص كان يقطن البرتغاليون الذين أُسروا فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨ والذين ظلوا فيها خلال الوقت الذى تـم فيـه الاتفاق على فدياتهم. خيرونيمو دى ميندوثا الذى كان أيضا أسيرا، يـصف كميـة الأسرى البرتغاليين الذين انتهى بهم المطاف فى الملاح، وكيف أن هـؤلاء كـانوا الأفضل حظًا من كل الأسرى حيث أنهم عوملوا معاملة طيبة من قبل اليهود الـذين «كانوا يبكون ألف مرة نفيهم من إسبانيا». يشرح أيضا أن اليهود لم تكـن لـديهم سلطة ولا وسائل لممارسة القوة على الأسرى، وأنه بالنسبة لهؤلاء الأسرى كـان التفاهم مع اليهود عزاءً كبيرًا «لأنهم بصفة عامة كانوا يتحـدثون القـشتالية»[١٥]. كان كونت فيميوسو أسيرًا فى الملاح، ويبدو أنه كان فى وضع متميز،فاستـضاف فى منزله الراهب فيثنتى دى فونسيكا، وكان الاثنان يقيمان جدلا دينيًا مـع يهـود فاس. حسب مندوثا، كان يحضر إلى الاجتماعـات ٢٠ أو ٣٠ حاخامـا، وكـانوا يناقشون ويستمعون باعتدال كثير وبعقلانيـة، وكنتيجـة لـذلك أصـبح بعـضهم مسيحيين[١٦].يكتب الراهب برناردو دى كروث عن الأسرى النبلاء فيقول: «كانوا يعيشون ببذخ وكانوا يُعاملون كما لو كانوا سادة الأرض، وبالإضافة إلـى أن كـل واحد منهم كانت له فى بيوت اليهود حجرات خاصة رائعة بأسرّة فاخرة وسـجاد، كانوا ينفقون ببذخ على لبس الحرير الفاخر وعلى الأكل، وكانت لهم نفقات كبيـرة كما لو كانوا يعيشون فى البرتغال». من أجل هذه النفقات توجّـب علـيهم طلـب قروض من اليهود، أو كانوا يعطـونهم مـستندات لكـى يـذهبوا لـصرفها فـى البرتغال[١٧].

تخصص يهود فاس فى مهن يُحرمها أو يحتقرها المسلمون، والربا من بـين مهن النوع الأول (كما فى العالم المسيحى) وكان شغل المعادن من بين مهن النوع الثانى. لم يكن اليهود تجار ذهب وصائغين ويقومون بضرب العملة فقـط، لكـنهم

كانوا أيضًا حدادين وصانعي أسلحة وصانعي قباطين وأقمشة بها خيوط من الذهب والفضة.

وصلت فاس إلى عصرها الأكثر ازدهارًا سياسيا واقتصاديا في أواسط القرن السادس عشر وبذلك كانت مركز جذب ليهود كثيرين متخصصين في التجارة، أو الضمانات أو الإدارة. وفي أواخر القرن السادس عشر كان اليهود من ذوي الأصل الإسباني متواجدين بقوة في التجارة الخارجية والإدارة والدبلوماسية المغربية.

بالإضافة إلى ذلك، كانت فاس مركزًا ثقافيا وفكريا غاية في الأهمية للمسلمين واليهود على حدٍ سواء. على مدى القرن السادس عشر تحولت فاس ليس فقط إلى مكان عودة لليهودية بالنسبة لمنْ تحولوا إلى المسيحية في إسبانيا والبرتغال على حدٍ سواء؛ بل على وجه الخصوص تحولت إلى مكانٍ تُكتسب منه أو تُسترد فيه الثقافة اليهودية[١٨]. بين عامي ١٥١٦ و١٥٢٤ قام صنمويل إسحق بطباعة كتب باللغة العبرية: كان قد تعلم تقنيات الطباعة في لشبونة، التي أحضر منها الماكينات الضرورية. استمر وجود هذه المطبعة لفترة قصيرة، ربما بسبب حظر الورق الذي فرضه الإسبان على المغرب[١٩]. بدءًا من عام١٥٢٤ اضطر الباحثون في فاس إلى طبع كتبهم في إيطاليا، أو سالوني أو اسطمبول. ولم تعُد المطبعة العبرية إلى الظهور في فاس حتى أوائل القرن العشرين، وفقط في عام ١٨٦٥بدأت تُطْبع كتب باللغة العربية في هذه المدينة.

مصادر محكمة التفتيش ذاتها تتناول أمثلة عديدة ليهود ذهبوا إلى فاس بهدف تعلم اليهودية[٢٠]. ومن المعروف أن أحد اليهود من كاناريّاس، واسمه روى لوبيث، أرسل عام١٥٣٠ اثنين من إخوته إلى فاس للدراسة. في فاس أقاموا في المعبد وتعلموا توراة النبي موسى[٢١]. كانت الجماعة اليهودية تمد الدارسين المحتاجين بالمسكن والغذاء والملبس. مثال آخر هو حالة خوان روبليس، الذي حوكم غيابيًا من قِبل محكمة تفتيش طليطلة ما بين عامي ١٥٣٢ــ١٥٣٥[٢٢]. هذا

الشاب، الذى كان يتعلم مهنة صناعة الزجاج، ذهـب إلـى فـاس برفقـة معلمـه فرانثيسكو إيدوبرو. بعد أن وصلوا إلى هناك، انفصل عن صاحب العمل، وتحـول إلى اليهودية واختتن وتعلم اللغة العبرية ليعرف جيدًا تعاليمها، واتخذ اسم أبراهـام أجير، وتزوج من يهودية[٢٣].هناك حالات مشابهة موجودة فى أرشـيف محكمـة التفتيش البرتغالية بكمية أكبر بكثير مما فى محكمة التفتيش الإسبانية، وهذا دليـل واضح على أن هروب مسيحيين برتغاليين جُدد إلى فاس بغرض العودة لدينهم كان أمرا شائعًا[٢٤].

تبدو المستويات الفكرية عالية فى الحى اليهودى فى تلـك السنوات مـن منتصف القرن السادس عشر. كان نيكولاس كليناردو، وهو عالم فى الإنسانيات قـد أتى إلى فاس بهدف أن يتمكن من تنصير المسلمين، وانبهر بمستوى الثقافة التـى وجدها فى الملاح، حيث كان يقيم هناك، وزيادة على ذلك وجد وظيفة لكى يـدرّس لليهود اللغة العربية الفصحى واللغة اللاتينية واليونانية[٢٥]. خلال إقامته فى الملاح عقد صداقة مع طبيب يهودى ومع عالم فلك.

كل ذلك سوف يتدهور فى أوائل القرن التالى: أحد الأسباب التى أشار إليهـا خاكوب بن سور لاستمرار إعفاء الدارسين من الضرائب، هى أن عـدد الطـلاب كان يتناقص بسرعة. إسحاق بن سور، الذى كانت له مدرسة خاصة فى بيته، مات مقتولاً فى مدرسته عام ١٦٠٣ عندما كان يعكف على الدراسة[٢٦].كانت الظـروف تتغير إلى الأسوأ.

إن اتخاذ أحمد المنصور مراكش عاصمةً له، وتخصيـصه جهـودًا كبيـرةً لتوسيع هذه المدينة منذ لحظة توليه العرش (١٥٧٨)، لاشك كان له أثرٌ كبيرٌ فـى اضمحلال فاس. إن أنطونيو دى سالدانها، وهو شريف برتغالى أُسِرَ فـى معركـة القصر الكبير وعاش فى مراكش حتى تم إفتداؤه بعد سنتين من مـوت الـسلطان، يصف بكثير من التفصيل الجهود التى قام بها أحمد المنصور لتجميـل عاصـمته ولكى تكتسب أهمية اقتصادية[٢٧]. أراد المنصور فى الواقع بناء عاصـمة تكـون

المركز السياسى والاقتصادى للدولة، وأن تتمتع بكل الشعارات الممثلة لتلك السلطة. وقد قدّم المثل والنصيحة لقواده فشجعهم كلهم على انشاء مساكن رائعة وتزويدها ببساتين وحدائق جميلة. من أجل ذلك قام بشق قنوات مائية على نطاق واسع. قام أيضا بجهود كبيرة لجذب التجار الأجانب فقدم لهم كل أنواع التأمينات الاقتصادية، وأماكن الإقامة والحماية، فأنشأ «منازل ذات أسوار لحماية التجار، متينة ومحصنة بأسوار مزودة بأماكن حراسة ينام فيها الحرس المسلمون»: «فى الشوارع المخصصة للمحلات كانت تُباع كل البضائع الفرنسية والإيطالية والإنجليزية والإسبانية بأسعار أرخص منها فى البلاد التى صُنعت فيها ... لقد وصلت مدينة مراكش حينئذ إلى مرتبة عظيمة جدا لم تكن أبدا قد وصلت إليها من قبل ولن تصل إليها بعد ذلك». «ولتأمين هذه المشروعات العظيمة والتجارة، كتب إلى ملوك إنجلترا وفلاندس وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا وإلى دوق مدينا سيدونيا، وطلب منهم كل ما كان يروقه، وطلب منهم حرفيين من الطراز الأول فى كل الفنون. وقد أرسلوا هم اليه ما طلبه؛ فجاء الصنّاع المهرة ليكونوا إلى جانب الشريف ...»[٢٨].

أحضر من فاس أكثر من ألفى أسير، كان معظمهم من أسرى المعركة البرتغاليين، وبنى لهم أيضا منازل ومستشفى «وليس هناك شك أن كثيرين لا يتذكرون أرض المسيحيين ولو كان لديهم تأكيد أن حياة الشريف سوف تمتد، ما ود أحد منهم العودة إلى أراضيه لأنهم لن يستطيعوا العيش بهذا الترف ولا على حسب هواهم،...لأن جميعهم كانوا يعيشون كما يريدون دون أن يأتى أحد ليتدخل فى شئونهم»[٢٩].سالدانها يشعر بإعجاب واضح بالسلطان ويخبرنا أن هذا السلطان، لإدراكه أن ازدهار الممالك يعتمد على أن تكون قادرة على تصنيع منتجاتها الخاصة وتصديرها، أنشأ كل أنواع الورش والمصانع فى مراكش: بعضها لصهر قطع المدافع وتصنيع البارود، وأخرى للبنادق والسيوف ودروع للخيول، ومصانع للخزف والقيشانى. وأنشأ أيضا صيدليات حيث تُقطر السوائل وتُصنع الأدوية، «وكل هذه الورش كان يُديرها معلمون إنجليز ممتازون، وهولنديون وفرنسيون،

اما العمال فكانوا صبية أُسروا فى معركة القصر الكبير وعَيَّنهم الشريف فى منزله الخاص». أصبح الحى اليهودى القديم، الملاح بمراكش، أيضا مكتظًا بالسكان. هناك كان يُقيم نبلاء برتغاليون مثل سالدانها نفسه، أو مسافرون ومبعوثون أجانب، مثل أنطونى شيرلى، وكانوا يعيشون حياة فى غاية الترف والبذخ(٣٠).كان السلطان مولعا بالأشياء الفاخرة وخاصة الجواهر والأحجار الكريمة.

أحضر أحمد المنصور أيضا العديد من الغرناطيين والموريسكيين من الهاربين إلى المغرب نتيجة لحرب البشرات (١٥٧٠ـ١٥٧٢) ومنحهم أراضى فى غوطة المدينة، حيث زرعوا أشجار فواكه، وأشجار زيتون ونخيل،«زرعوا الحقول، وكانت لهم بساتين ...أخمدوا بها حنينهم لأرضهم»(٣١). أقاموا فى حى بجوار القصبة اسمه رياض الزيتون، كانوا يسمونه، حسبما يذكر مارمول، أورخيبا الجديدة(٣٢).

شرع أحمد المنصور فى بناء «أعظم قصر يمكن تخيله» لنفسه، القصر الشهير باسم «بديع مراكشى»، الذى يصفه سالدانها بتفصيل مُسهب، وكذلك مبان أخرى رائعة، رغبة منه فى مباهاة العواصم الأوروبية وفيليبى الثانى على وجه الخصوص: «لم يتوقف الشريف عن تجميل مراكش، ولأنها كانت قد وصلت إلى درجة من العظمة لم تحصل عليها أبدًا من قبل مع أحد، وبتلقيه أخبار من الإسكوريال تفيد أن فيليبى الثانى كان قد وصل إلى درجة الكمال، أرادأن يبدأ فى تشييد مسجد يمكن أن يُبارى كل الأعمال الرائعة المعروفة حتى عهده»، فوضع اللبنة الأولى لمسجد رياض الزيتون، وهو أثرٌ قد اختفى اليوم مثل قصر بديع(٣٣).

عمل على رفع قيمة العملات الذهبية والفضية واتخذ تدابير ضد خروج العُملة من المملكة. قام بإنشاء عدد كبير من مصانع تكرير السكر فى مملكة Sus لأن القصب كان ينمو جيدا فى ذلك الإقليم. عند وفاته فى عام ١٦٠٣، كان هناك ثمانية عشر مصنعًا لتكرير السكر فى كل واحد منها كان يعمل ألفا رجل كانوا ينقلون الحطب للنيران فى أكثر من مائتى عربة(٣٤). فى إدارة وتشغيل هذه

المصانع؛ كان يشارك عدد كبير من اليهود من أصل برتغالى[٣٥].من هنا يأتى السكر الذى سوف يتاجر به صمويل باياتشى خلال مرحلة كبيرة من حياته.

على الرغم من أن الشريف كان قد قرر عدم تصدير مواد أولية، فإنه كان يغض النظر عن النحاس. «ولأن فى هذه الأقاليم كان هناك نحاس كثير كان الملك مانويل أنطونيو يزود به كل أسطوله، فالإنجليز (وكان الشريف يتظاهر بأنه لا يعلم) كانوا يشحنون كميات كبيرة من شواطئ Sus القديمة، وكانوا يحققون مكاسب كبيرة من ذلك لأنهم فى المقابل كانوا يُحضرون إلى تلك السلاسل الجبلية كل أنواع الأسلحة والبنادق والسيوف وأسنة الرماح. والشريف الذى لم يكن يجهل شيئًا من هذا، كان يقول إنه من العدل أن يغض الطرف عما كان يحمله الإنجليز، حيث أنهم كانوا يُحضرون فى المقابل تلك الكميات من الأسلحة. بهذا النحاس كان المسلمون يصنعون غلايات كبيرة وقوالب السكر الذى كان أفضل من سكر جزيرة ماديرا»[٣٦].

نحو هذه المدينة المزدحمة والتى كانت فى حالة غليان، تلك المدينة المليئة بالأنشطة الاقتصادية والتجارية حيث يوجد قصر السلطان الذى كان بصدد القيام بنشاط دبلوماسى مكثف فى تلك السنوات، انجذب عدد كبير من العائلات اليهودية. كانت مراكش، بموت أحمد المنصور وبعد تقسيم المملكة على أيدى أبنائه: عاصمة مولاى زيدان وبالتالى المدينة التى كان يأتى إليها باياتشى من هولندا عن طريق ميناء صافى القريب.

البرتغال، إسبانيا، المغرب

لم يكن هناك فقط يهود إسبان كثيرون قد هاجروا منذ أواخر القرن الخامس عشر إلى ما كانت تسمى حينئذ «مملكة فاس»؛ بل كان هناك أيضا برتغاليون كثيرون. إذن فلنستعرض بإيجاز ظروف البرتغال التى تفسر هذه الهجرة: فى عام ١٤٩٧أصدر الملك مانويل الأول مرسوما يقضى بالتنصير الإجبارى لكل رعاياه

من اليهود جاعلاً بديل المنفى شبه مستحيل. بالإضافة إلى ذلك، حظر على المسيحيين الجُدد مغادرة أراضي التاج البرتغالى.

كان أغلب المسيحيين البرتغاليين الجُدد مطرودين من قشتالة ولهم روابط عائلية مع متنصرين إسبان.

وضع الملك مانويل فى حسبانه عدم صدق تنصر اليهود، ولذلك حظر عليهم ليس فقط الخروج من الأرض البرتغالية بل والحصول على كمبيالات أيضا، خشية أن يستطيعوا هكذا تحويل ثرواتهم إلى الخارج ثم الهرب. فى عام ١٥٠٧ رُفع هذا الحظر وسُمح للمسيحيين الجدد بالمشاركة فى الأنشطة التجارية للإمبراطورية والتحرك فى أراضيها[٣٧].لهذا، فالتوسع البرتغالى وهجرة المتنصرين اليهود كانت حركات متزامنة.استغل كثير من اليهود البرتغاليين الذين تنصروا عملهم بالتجارة للإقامة فى البرازيل أو فى بلاد الهند الشرقية. وقد أقام يهود من أصل إسبانى فى أراضٍ مسلمة بشمال إفريقيا، خاصة فى مصر، ولعبوا دورًا مهمًا فى التجارة البرتغالية فى المحيط الهندى[٣٨]. هناك يهود آخرون سيستخدمون حدود المغرب (طنجة، سبتة، مازاغان، آرثيلا، اثيمور) للذهاب إلى بلاد إسلامية وليستطيعوا هكذا العودة إلى اليهودية. لقدأصبح الهروب على وجه خاص كثيفًا بدءًا من إنشاء محكمة التفتيش فى البرتغال فى عام ١٥٣٦تحت حكم الملك خوان الثالث، الذى ألغى – بالإضافة إلى ذلك – الامتيازات التى كان مانويل الأول قد منحها لليهود فى عام ١٥٠٧. بدأت محكمة التفتيش البرتغالية عملها بنشاط كبير وترتب على ذلك، خلال الستين عامًا التالية أكبر خسارة بالنسبة للمتنصرين اليهود[٣٩].

فيما يخص المواقع البرتغالية فى المغرب، أرسى الملك مانويل فى موقع أرثيلا سياسة التعميد الإجبارى، غير أن الحاجة للحصول على جماعات يهودية فى المواقع المغربية نظرًا لدورها الذى لا غنى عنه بالنسبة للعلاقات مع الشعوب المسلمة المحيطة دفع وسمح بوجود أحياء يهودية على الحدود توجَّب على سكانها وضع علامة مميزة على ملابسهم[٤٠]. يُضاف إلى هؤلاء عددٌ غير قليل من المتنصرين الجدد.

باستياو دى بارغاس، وهو شخص برتغالى كان فى المغرب[٤١]، كتب رسالة شهيرة إلى الملك خوان الثالث من فاس فى يونيو من عام ١٥٤٢، يُطلق فيها صيحة تحذير فى هذا الصدد. يذكر كيف أن مسيحيين جُدد كثيرين يأتون من المواقع للتجارة فى فاس حيث يبقون ويعودون إلى اليهودية ويطلب أن تُتخذ إجراءات معينة، مثل ألا يسمح لهم بالخروج من المواقع، وأن يتاجروا فيها بدلاً من الدخول إلى الأراضى المغربية. وفوق كل ذلك، ينصح بألا يسمح لهم بالسفر عن طريق البر بين موقع وآخر، لكن عن طريق البحر فقط، لأنهم فى البر يهربون ويلجأون إلى فاس أو إلى تطوان[٤٢].هذه التدابير لم تُتخذ أبدًا. كان الوضع مشابها فى المواقع الإسبانية، حيث كانت توجد أيضا أحياء يهودية.

فيما يتعلق بإسبانيا، فى أوائل فترة حكم فيليبى الثالث تحسن وضع اليهود المتنصرين، وعلى عكس أبيه، كان العاهل الجديد ووزراؤه مستعدين لقبول أمور من خلال التعويض المادى. فى عام ١٦٠١حصل مسيحيو البرتغال الجدد على إذن بالهجرة مع وعد بأن الحظر لن يتجدد أبدًا. الامتياز تم شراؤه بمبلغ كبير من المال. وفى ظل الوعد بمبالغ جديدة، فإن التاج لم يتجاهل فقط شكاوى الكنيسة البرتغالية، لكن زيادة على ذلك توسط لدى البابا الذى منح عفوًا محدودا يغفر للمسيحيين الجدد الجرائم التى كانت تُنظر أمام محكمة التفتيش، وهو عفو نشرته محاكم البرتغال الثلاثة فى عام ١٦٠٥. فى ملفات محاكم التفتيش يُسجل نقص واضح لمحاكمات اليهود السريين: الشغل الشاغل فى تلك السنوات الذى وصل لدرجة الهوس، والذى أتى بقرار الطرد من ١٦٠٩ ــ ١٦١٤، كان هو المشكلة الموريسكية.

هذه هى السنوات التى وصلت فيهاعائلة باياتشى إلى إسبانيا والتى عرضوا فيها تنصرهم. إنها سنوات كانت تبدو فيها السياسة نحو اليهود المتنصرين أكثر تسامحا.

في البرتغال تفجرت قلاقل في لشبونة وفي كويمبرا بسبب الغضب الـشعبي ضد هذه الإجراءات، تمت هجرة المسيحيين الجدد إلى إسبانيا على نطاق واسع(٤٣). ومع ذلك فإن أسباب مجئ المتنصرين البرتغاليين إلى إسبانيا لايمكـن أن تقتـصر على الأسباب الدينية والخاصة بمحاكم التفتيش. ترجع الهجرة أيـضا منـذ عـام ١٥٨٠ إلى دواعي اقتصادية. كانت هناك حالة اقتصادية متردية فـي البرتغـال، حيث كان تعداد السكان قد زاد بما يفوق الموارد، وكان ذلك يـدفع الهجـرة نحـو قشتالة، التي كانت في أوج ازدهارها، والتي كانت تقدم فرصًـا كبيـرة وعديـدة لأصحاب الطموح.

وفي عصر فيليبي الرابع، أثناء فترة دوق أوليفاريس، سيتحسن وضع وتأثير المتنصرين اليهود بشكلٍ ملحوظ. أُشيع أنه سيُسمح من جديد بعـودة اليهـود إلـى إسبانيا، أي، بالوجود القانوني لليهود، مثلما كان على وشك الحدوث في إنجلتـرا، على سبيل المثال. يبدو أنهم علاوة على ذلك كانوا يعودون مـن المـشرق. أحـد مراسلي الأب بيريرا كتب إليه في عام ١٦٣٤: «من المعلوم أن اليهود يدخلون إلى إسبانيا؛ من المؤكد أنهم يدخلون ويخرجون للتحدث مع الملك وتقديم مذكرات إليه، واليوم رأيت واحدا، يضع غترة بيضاء، على باب حجرة الملـك، وقـد أحزننـي ذلك»(٤٤).و ماتياس دي نوفوا، مساعد الملك فيليبي الرابع، كتب في ذلـك الحـين: «سمعتهم يقولون إن يهود وهران والمقيمين داخل إفريقيا لديهم هنا مدافعون عـنهم لكي يقبلوهم في ضواحي مدريد ويعطوهم وطنا وأرضا يعيشون فيها على حريتهم وعلى دينهم هم وكل الآخرين الذين يودون السكن معهم، وسوف يسجلون أنفـسهم ويدفعون ملايين كثيرة من أجل الإذن. منْ الذي يشك في أنه لن يتبقى أحد منهم في مملكة البرتغال ولا في الأجزاء الأخرى التي لا تُسكن هنا؟»(٤٥).

بمعنى أنه، لو بدا لنا واضحًا، مع بُعد القرون، أن وضـع المتنـصرين (لا نقول وضع اليهود الذين كانوا يخططون للعودة) كان في مأزق، فإن هذا الوضع لم يكن واضحًا في أوائل القرن السابع عشر. إن توافد أعداد كبيرة مـن المتنـصرين

البرتغاليين إلى إسبانيا قد دُرس دراسة متأنية وقبل أن يبدأ قمع محكمة التفتيش فى إسبانيا ضد «البرتغاليين». إن السنوات الأولى من القرن السابع عشر شهدت تحسنًا واضحًا كان قد بدأ يتضح منذ الثلث الأخير من القرن السادس عشر.

لا يبدو لنا كافيًا إثبات أنه فى السنوات الأولى من القرن السابع عشر، أصبح الوضع الاقتصادى لليهود المتنصرين فى إسبانيا أقل سوءا، وزيادة على ذلك بدا أنه كان يتحسن. نحتاج أن نعرف من أية ظروف جاء يهود فاس الأصليين وماذا كان يحدث هناك لكى يشعر يهود فاس بأنهم مدفوعون لترك البلد بحثًا عما كان يُعتبر — فى أفضل الأحوال — مغامرة غير محسوبة وخطيرة فى وسط عدائى.

منذ أواسط القرن السادس عشر كانت تحكم المغرب أسرة السعديين، وهى أسرة أسست شرعيتها لمزاولة السلطة على حقيقة (أو ادعاء) أنهم منحدرون من نسل النبى محمد؛ وأنهم بالتالى من الأشراف. هذه الأسرة لجأت فى أوقات كثيرة إلى عقد تحالفات مع التاج الإسبانى، وخاصة مع فيليبى الثانى، لمواجهة التدخل التركى: كانت الإمبراطورية العثمانية قد وسعت حدودها حتى الجزائر، وكان فى نيتها ضم المغرب، وهو الشىء الذى كان يخشاه كثيرًا السعديون والإسبان على حد سواء[٤٦].

وصلت أسرة السعديين إلى عهدها الأكثر ازدهارًا مع فترة حكم السلطان أحمد المنصور(١٥٧٨ــ١٦٠٣). صعد هذا السلطان إلى العرش إثر معركة القصر الكبير التى أدت إلى هزيمة هائلة للجيش البرتغالى بقيادة الملك سيباستيان.

كان للبرتغال أيضًا خطة للتدخل فى المغرب بدأت بغزو سبتة فى عام ١٤١٥واستمرت بغزو أو إنشاء سلسلة من الموانئ على الشاطئ الأطلنطى المغربى، من سبتة وطنجة حتى سانتا كروث دو كابو دى غوى (أغادير حاليًا) وصافى، هذان الميناءان الأخيران تم غزوهما بين عامى ١٥٠٣و ١٥٠٨. إنها الموانئ التى يطلق عليها «حدود أو مدن بحر علم Alem mar»، والتى كانت

البرتغال تستخدمها للتزود بالقمح الذى كان يُزرع فى تلك الدولة وكموانئ تتوقف فيها السفن البرتغالية وهى فى طريقها نحو بلاد الهند الشرقية. إن وجود هذه المواقع فى أيادى مسيحية (كانت إسبانيا تحتل مليلة منذ عام ١٤٩٧) كان يؤدى إلى شعور كبير بالضيق فى المغرب بالإضافة إلى منع تجارتها البحرية. ولأسباب، من ضمنها هذا الضيق، غزا أحمد المنصورفى عام ١٥٩١الجزء الغربى من السودان، أى، بلاد جنوب الصحراء، حيث كان يُستخرج الذهب وحيث تنطلق الطرق التجارية التى كانت لها أهميتها منذ العصور الوسطى.

توفى أحمد المنصور فى أواخر عام ١٦٠٣ضحية لوباء الطاعون الذى خرَّب البلد، وبموته دخل أبناؤه فى صراع على الخلافة.

نودى بمولاى زيدان ملكًا فى فاس وبأبى فارس ملكًا فى مراكش. هذا الأخير أرسل ابنه برفقة أخيه مولاى الشيخ المأمون {يسمى مولاى الشيخ فى الوثائق الإسبانية لهذه الفترة } على رأس جيش إلى فاس، وقد بحث مولاى زيدان، المهزوم، عن ملجأ ومساعدة فى أراض تركية؛ لكن الوحدة لم تتحقق لأن مولاى الشيخ نصَّب نفسه سلطانًا فى فاس. نتيجة لذلك؛ فإن الوثائق الإسبانية تلقبه دائمًا بـ «ملك فاس».

أرسل مولاى الشيخ بدوره ابنه عبدالله لغزو مراكش، وقد غزا المدينة ونهب ثروات سكانها. مع ذلك، عاد مولاى زيدان بمساعدة تركية وغزا فاس ومراكش معًا. لجأ مولاى الشيخ إلى إسبانيا وفاوض على المساعدة الإسبانية لاسترداد عرشه مقابل التنازل عن العرائش.

كان ميناء العرائش واحدًا من الموانئ القليلة التى ظلت فى أيدى المغاربة، وكان مصدر قلق دائم بالنسبة للإسبان الذين قاموا بمحاولات متكررة طوال فترة حكم فيليبى الثانى من أجل الحصول على تنازل عنه دون هدم التحالف مع المغرب الذى كان يمثل بالنسبة لهم سدًّا أمام الزحف التركى. بالإضافة إلى ذلك، كانت العرائش قد تحولت إلى ملجأ للقراصنة المغاربة والموريسكيين، بل والإنجليز

والهولنديين كذلك، مع ما يترتب على ذلك من خطر على سواحل جنوب إسبانيا وعلى الأخص طريق بلاد العالم الجديد. اتفق مولاى الشيخ على تسليم العرائش الى فيليبى الثالث مقابل مبلغ من المال (٢٠٠,٠٠٠دوقية) و٦٠٠٠ بندقية لاسترجاع نفوذه. وقد دخلت قوات ماركيز سان جيرمان المدينة فى عام ١٦١٠وأخلتها من السكان الأصليين.

بمساعدة إسبانية استرد مولاى الشيخ فاس وشمال البلد، بينما كان مولاى زيدان يحكم الجنوب من مراكش. لم يكن أى من الاثنين يسيطر على كل أرضه. مولاى الشيخ الذى كانت فاس ضده، اضطر بالإضافة إلى ذلك أن يترك المدينة للذهاب لمحاربة حاكم تطوان أحمد النقشيش. غير أنه قُتل بعد ذلك بعدة شهور، فى أكتوبرمن عام ١٦١٣، على يد «أبو الليف» Abu Llif، وهو ابن أخ له كان حليفا لأبى فارس المهزوم. على الرغم من أن مولاى زيدان لم يستطع أن يُعيد توحيد كل الأرض، فإن القوى الأوروبية اعترفت به كملك شرعى مغربى.

لا يعنى تسليم العرائش القضاء على القرصنة فى المحيط الأطلنطى، وإنما انتقال عمليات القرصنة إلى أماكن أقرب للجنوب، مثل المعمورة La Mamora ورباط سلا. قام مولاى زيدان بتقوية المعمورة لإلحاق الضرر بالأوروبيين الذين كانوا حلفاء أخيه. وهكذا فإن الهوس الاسبانى بمدينة العرائش سينتقل أيضا إلى المعمورة. أول محاولة للقضاء على هذه الأرض قام بها ماركيز بيلافرانكا فى عام ١٦١٠عندما أغرق عدة مراكب محملة بالأحجار فى مصب نهر سيبو Sebú، فى ميناء المعمورة.

إن عام تسليم العرائش يصادف عام طرد الموريسكيين من إسبانيا، وقد هاجر هؤلاء ليقيموا فى بلاد عديدة من المغرب العربى. فى المغرب انضمت فرق من الجيش لصالح الأخوين المتنافسين، وقد تعاظمت فوق ذلك تلك القرصنة التى كثيرا ما كان يخشاها الإسبان. إن تشوق الموريسكيين للثأر، وصعوبة استيعابهم فى بلد غريب (حيث أن المغرب كانت بالنسبة لهم غريبة جدا، وفى غاية التفكك

الداخلى) قد نتج عنه التفاقم الملحوظ لأعمال القرصنة ضد إسبانيا. إن أفضل مثـال على ذلك هو القوة التى اكتسبتها القرصنة حول مـصب نهـر بـو رقـراق Bu Regreg،حيث أن مدن رباط سلا Salé—Rabat، التى يكاد يقطنهـا موريـسكيون فقط، كونت جمهورية قرصانية مستقلة عمليًا عن سلاطين فاس ومراكش.

فى أواخر القرن السادس عشر ازداد فى أوروبا عدد الأماكن التـى كانـت تضمن حرية العبادات، وتشجِّع علاوة على ذلك على إقامة طوائف يهودية. بـدءًا من عام ١٥٨٠، مع اتحاد التاجين (إسبانيا والبرتغال)، وفدت مجموعة مهمة جـدا من اليهود المتنصرين البرتغاليين إلى الأراضى الإسبانية فى فلاندس، ولذلك أخذت تزداد هناك المجموعات المهمة من اليهود ذات الأصل الإسبانى التى كانـت فـى هولندا. عندما انـضمت هولنـدا إلـى اتحـاد أوترشـت La Unión de Utrecht (١٥٧٩)الذى كان يمنع بين أشياء أخرى الاضطهاد لأسباب دينية، بدأ المتنصرون البرتغاليون يقيمون فى أمستردام[٤٧].

إن استقرار يهود أيبيريين فى أمستردام تصادف مع تجارب مماثلة فى مدن أخرى: استقبلت ميديل بورج Middel burg، وهـامبورج Ham burgo، ولنـدن وروين Rouen ، مجموعات برتغالية صغيرة بين عامى١٥٨٥ و ١٦١٠.إن ميديل بورج، التى كان لها موقع استراتيجى على مدخل ميناء أمبيريس Amberes، قـد ازدهرت إثر إغلاق هذا الميناء (١٥٨٥)، وهو إغلاق أفاد هامبورج بوجهٍ خاص، فحصلت كميناء محايد على منافع كبيرة فى الحرب بين إسبانيا والأقـاليم المتحـدة Las provinciones Unidos.[٤٨]

فى عام ١٥٩٣ قرر دوق توسكانا تحويل ليفورنو Livorno (Liorna) إلـى واحد من الموانئ الرئيسية للبحر المتوسط؛ ولهذا الهدف أصدر وثيقة، عُرفت باسم لا ليفورنينا «La Livornina» كانت قراراتها موجهة بوضوح لليهود الـسفرديم، وكانت مفيدة جدا بالنسبة لهم. اتجهت الوثيقة على وجه خاص لليهود «الـشرقيين» (أى يهود اسطنبول أوسالونيك) واليهود «الغربيين»، يهود البرتغـال أو المغـرب

العربى. احتوت وثيقة ليفورنو على نفس القرارات الهادفة للتشجيع على استقرار اليهود الإسبان والتى اشتملت عليها وثيقة فينسيا المساوية لها فى عام ١٥٨٩، لكن مع وجود امتيازات إضافية مثل الحرية المطلقة فى اختيار المهنة وسلسلة من الضمانات المالية(٤٩). كلا الامتيازين لم تنص عليهما وثيقة فينسيا ولا وثيقة أمستردام (حيث لم يكن لليهود حرية اختيار المهنة).

بمقتضى هذه الظروف، فإن الروابط بين اليهود البرتغاليين غطّت، كما سنرى، المسافات بين اليهود في لشبونة ومدريد، فى أمستردام والمغرب، وفى المدن الإيطالية والمستعمرات البرتغالية... وبوجه خاص، فإن الشباك التى حبكها اليهود الإسبان، سواء كانوا برتغاليين أم لا، كانت عوامل أساسية فى علاقات المغرب مع العالم الخارجى طوال القرن السابع عشر. تجار يهود هولنديون مثل دافيد ميندس ودافيد فارو،وكلاهما «برتغالى»، قاما بنشاط مهم فى المغرب(٥٠).

إن عام ١٦٠٨شهد بداية زيادة النشاط الهولندى فى المغرب، وهى عملية لعب فيها اليهود من كلا الجانبين دورًا مهمًا جدا. لقد تحولت هولندا أثناء العقود الأولى من القرن السابع عشر إلى المورّد الأساسى للأسلحة والصناعات إلى المغرب بالإضافة إلى كونها الحليف الرئيسى لهذا البلد فى مواجهاته مع إسبانيا. كان كل ذلك سببًا لقلق كبير للتاج الإسبانى، خاصة عندما نضع فى الحسبان أنه كان يوافق اشتداد عمليات القرصنة على سواحل إسبانيا والبرتغال وصقلية(٥١).

حاشية السلطان ورجال البلاط والتجار

من ناحية أخرى؛ كان اليهود يحتكرون تقريبًا التجارة الخارجية للمغرب(٥٢)،وكثيرًا ما كانوا يجمعون بين الأعمال الدبلوماسية والتجارة، وكانوا يستخدمون فى تجارتهم اتصالاتهم مع اليهود الإسبان المقيمين فى شبه الجزيرة الأيبيرية وهولندا وفى أراضى الإمبراطورية العثمانية. كانوا يزوّدون إسبانيا والبرتغال بالقمح المغربى، وكانوا يتاجرون أيضًا فى السكر ويشترون أسلحة من

دول شمال أوروبا البروتستانتية التى لم يكن يسرى عليها الحظر البابوى على بيع اسلحة للمسلمين. هذا النشاط التجارى الأخير، الخاص بشراء الأسلحة، جعلهم أشخاصا ذوى شأن بشكلٍ غير عادى فى عيون السلطات السياسية المغربية.

جلب اليهود المهاجرون إلى المغرب اللغة القشتالية وحافظوا عليها فى هذا البلد، وجلبوا كذلك سلسلة من المعارف. ولا يتعلق الأمر فقط بالكتب التى أحضرها المطرودون من إسبانيا، كما يؤكد شاهدٌ فى محضر لمحكمة التفتيش، لكن أيضًا بالمعارف التى اكتسبتها عائلات كانت قد لعبت بشكلٍ تقليدى أدوار موظفين وخدم فى البلاط القشتالى والأراغونى ككتبة عموميين وموظفين بالخزانة والضرائب وعملاء تجاريين ...إلخ. ولهذا كان كل هؤلاء يعرفون عادات القصور الأوروبية، وكانت لهم دراية بالإدارة والحسابات وبالعلاقات التجارية والدبلوماسية. وقد استثمروا هذه المعارف أيضًا فى المغرب، وكنتيجة لذلك ستتحول اللغة القشتالية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى اللغة المستخدمة للاتصال الدبلوماسى مع هذا البلد[٥٣].

بالإضافة إلى ذلك، فإنه منذ أواخر القرن السابق ازداد النشاط الدبلوماسى للمغرب مع أوروبا بشكل هائل إثر معركة القصر الكبير فى عام ١٥٧٨، فقد اكتسبت المغرب بانتصارها عظمةً جديدة فى عيون الدول الأوروبية التى بدأت فى إرسال بعثات سياسية وتجارية إلى السلطان أحمد المنصور. تحولت المغرب إلى قطعة ذات أهمية فريدة فى ألعاب التحالف ضد أو مع القوى الكبيرة التى بدأ اضمحلالها: نتحدث هنا عن التاج الإسبانى على وجه الخصوص، وعن الإمبراطورية العثمانية أيضًا[٥٤]. فى كل هذا النشاط الدبلوماسى سوف يكون لليهود دورٌ بارزٌ جدا كعملاء ومترجمين.

كما فعل بنو مرين وبنو وطاس من قبل، استمر السعديون الذين انتزعوا السلطة منهم فى تعيين اليهود فى وظائف بارزة فى القصر. فى معرض حديثه عن القصر الملكى وعن الأشخاص الذين لهم حق الدخول إليه، يوضح مارمول: «ولا

يستطيع أى مسلم الدخول فى القصر، حيث توجد النساء، إلا الطواشى، لكن يـدخل كل المسيحيين الأسرى واليهود لتقديم الخدمات الضرورية للبيت الملكى»[٥٥]هنـاك إذن ثلاثة مستويات من الأشخاص موجودون على هامش المجتمع؛ وبالتالى ليست لديهم إمكانية الحصول على مناصب ولا القدرة على ممارسة السلطة التى تخـول لهم الدخول إلى البيت الملكى فى حالة انتمائهم إلى طبقة أو مجموعة من مجتمـع الأغلبية.

فى أواخر القرن السادس عشر كان لأحمد المنصور مستشارٌ يدير له الأمور المالية يُدعى يعقوب روتى Ja'aqob Ruti[٥٦] أو الشيخ يعقوب روتـى Jeque o Jaco Rute فى الوثائق الإسبانية حيث يظهر بهذا الاسم فى معظم الوثـائق التـى تشير إلى المغرب فى أرشيف سيمانكس العام[٥٧]. كان ينتمى إلى عائلة من فـاس ذات نفوذ. كانت هذه العائلة قد أمدت الوطاسيين بعملاء ومترجمين شفويين. جده، يعقوب روتى، الذى كان مترجما شفويًا للسلطان أحمد الوطاسى، يُذكر بكثرة أيضا فى الوثائق البرتغالية، حيث كانت له علاقة وثيقة مع باستياو دى بارغاس Bastião de Vargas، الذى كان عميلا فى المغرب للملك خوان الثالث ملك البرتغال. أرسل بارغاس عددًا هائلاً ومفصلاً من الرسائل إلى القصر البرتغالى يخبر فيها عن كـل التعاملات التى قام روتى بتسهيلها؛ فقد كان يعرف البرتغالية جيدا[٥٨]. بالإضـافة إلى عمله كمترجم، تخصص روتى بشكل تجارى فى افتداء الأسرى، وحصل مـن ذلك على مكاسب كبيرة[٥٩]. كانت لروتى أعمال تجارية فى المدن الـساحلية مثـل أزمور Azemor والعرائش Larache والمعمورة Mamora وأرسيلة Arzila حيث كان عملاؤه يديرون الصفقات مع الحكام المحليين البرتغاليين. فى طنجـة Tánger وفى أرسيلة كان أخو يعقوب نفسه ويُدعى موسى، هو الذى يعمل كوكيل له. يبـدو أن يعقوب كان يخبر أخاه بانتظام عن كل ما كان يحدث فى بـلاط فـاس، وهـذا بدوره كان يخبر البرتغاليين[٦٠]. وكان بارغاس، كما قلت، مثابرا ومدققا على وجه خاص فى عمله[٦١]، كان يقدر روتى ويؤكد مرارا أن أعماله الطيبة كانت لـصالح

البرتغال. تولى يعقوب روتى – الذى كانت لديه سفنه الخاصة – حمل القمح المغربى إلى هذا البلد بين عامى ١٥٣٩ــ١٥٤٠ وخلال هذا السفر أقام اتصالات مع يهود متنصرين جدد فى البرتغال. يشير بارغاس باستمرار إلى يهود برتغاليين تخصصوا فى تجارة القمح مع المغرب ويشكو من أن كثيرين يستغلون السفر ليتاجروا فى بضائع ممنوعة، فى الأسلحة على وجه الخصوص(٦٢).

من بين عائلات أخرى، نجد أن بنى زاميرو أو زاميرّو Ben Zamiro o Zamerro، عائلةً من صافى Safi، متخصصين فى هذه التجارة. وقد عمل إبراهام بن زاميرُّو، وهو كبير الحاخامات بهذه المدينة، وسيطًا فى عام ١٥٢٦ بين برتغاليين ومغاربة لعمل اتفاقيات صلح بعد حصار المغاربة للمدينة التى كانت لاتزال حينئذٍ برتغالية. وقد قُبِضَ على ابن أخيه سالومون Salomón، الذى كان يتوسط أيضًا بين برتغاليين ومغاربة، وسُجِنَ فى قادش فى عام ١٥٥٦عندما كان متجهًا من لشبونة إلى المغرب ومعه خطابات إلى السلطان المغربى من خوان الثالث(٦٣).فى نفس الوقت كان ابن أخٍ أخر له وهو يهودا بن زاميرُّو Yehuda ben Zamerro، حاخامًا فى فاس.وفى أوائل القرن السابع عشر كان إسحاق بن زاميرُّو Isaac ben Zamerro حاخامًا فى تطوان وكان دافيد بن زاميرُّو David ben Zamerro نقيبًا لمجتمع فاس(٦٤) بينما سافر مويسن بن زاميرُّو Moysen ben Zamerro إلى إسبانيا ليتحول إلى الكاثوليكية فى الإسكوريال عام١٥٨٩(٦٥). بمعنى أن الأشخاص الذين كانوا يعملون كوسطاء أو لمصلحة البرتغاليين والإسبان، إلى حد أنهم أقدموا على التنصر، كثيرًا ما كانوا ينتمون إلى عائلات يهودية لها دور دينى ودور ريادى مهم فى مجتمعها.

فى المنازعات البرتغالية – المغربية حول المواقع، تدخل أشخاص يهود عدة مرات وعند توقيع اتفاقيات الصلح. فى أزمور Azemor على سبيل المثال توسط يهودى يُدعى أبراهام Abraham فى اتفاقيات الصلح التى أبرمت مع البرتغال(٦٦).وعندما هوجمت أزمور من قبل دوق براغانثا Braganza، عندما

أخلى المسلمون المدينة من السكان، كان يهودىٌ إسبانى هو الذى أخبر الدوق بهـذا الفعل فى الوقت الذى طلب حماية لنفسه وللجماعة اليهودية بـالموقع. كـان هـذا اليهودى يُدعى يعقوب أديبى Jacob Adibe: ويقول مارمول، إنه عندما احتل ملك البرتغال أزمور، كان لليهود بهذه المدينة أربعمائة منزل(٦٧).

إن حالة يعقوب روتى توضح جيدًا النفوذ السياسى الذى تمتع به اليهود الذين كانوا يتاجرون فى الغلال والأسلحة؛ فقد كان يعقوب لا غنى عنه لبنـى وطـاس والبرتغاليين وكان نقيبا لجماعة فاس، وهو منصب حافظ عليه أسـلافه(٦٨)، الـذين بالإضافة إلى ذلك، كما قلنا، ظلوا يتولون مناصب فى القصر حتى عـصر أحمـد المنصور.

هناك عائلة يهودية أخرى من فاس لها علاقة وثيقة بعائلة روتـى وهـم آل سينانسLos Senanes الذين كانت لهم مع عائلة روتى أدوارٌ مشابهة ومكملة. كان مناحم سينانس Menahem Senanes، أمين خزينة جماعة فاس، مخبرا وأمين سر أبى حسون الوطاسى Wattasi—Abu Hassun al نحو عام ١٥٤٠، بالإضافة إلى كونه سكرتيرًا ومبعوثًا شخصيًّا للسلطان(٦٩). بصفته هذه كانت لـه علاقـات مـع البرتغاليين مـن خـلال ألفونـسو دى نورونهـا Alfonso de Noronha حـاكم طنجة(٧٠). غالبية هذه العائلات الفاسية كان لها فرع مقيم فى تطوان، التى سافرت إليها عائلات كثيرة منها. كان أبراهام سينانس الحاخام الأكبر لتطوان فـى أوائـل القرن السابع عشر(٧١).

كان سالومون بارينتى أيضا وسيطا مع الإسبان فى اتفاقيات العرائش، وبعد أن احتل الإسبان المدينة استقرت العائلة كلها فى العرائش على الرغم مـن أنهـم أصروا على عدم السكن فى الحى اليهودى(٧٢). كان سالومون شخصا قريبـا مـن ألفونسو دى نورونها، وكان يتاجر فى المجوهرات على وجه الخـصوص، بـين طنجة وتطوان. كان يقدم خدمات للتاج الإسبانى يحصل فى مقابلها على راتب قدره أحد عشر ريالاً يوميًّا، وثلاثة مكاييل من القمح شهريًّا. بالإضافة إلى ذلـك كـان

يعرف «أن يقلد توقيع مولاى الشيخ مثل مولاى نفسه»[٧٣]. كان بارينتى يسافر باستمرار إلى مدريد ليرى دوق مدينا سيدونيا فى سانلوكار Sanlúcar وقد تدخل بفاعلية فى عام ١٦١٩ فى الاتصالات التى جرت بين موريسكيى سلا وإسبانيا مهمًا لتسليمهم الموقع[٧٤].

هناك وسيط آخر مهم بين المغرب وإسبانيا هو يعقوب كانسينو Jacob Cansino، كانت عائلته التى قدمت من إشبيلية قد استقرت فى وهران فى عام ١٥١٢.كان كانسينو قد أوفده الإسبان إلى القصر المغربى ولعب دورًا مهمًّا فى العلاقات الإسبانية المغربية نحو عام ١٥٥٠[٧٥]. ابنه إسحاق، مترجم للملك من اللغة العربية فى وهران، دُعِى إلى القصر بمدريد حيث قضى عدة أشهر فى عام ١٥٨٠، فى الوقت الذى تولى فيه فيليبى الثانى، بالاشتراك مع البرتغال، مسئولية سبتة وطنجة. وقد مكث حاييم بن إسحاق – الذى كان أيضًا مترجمًا من اللغة العربية ــ، بأمر ملكى سبعة شهور فى سانلوكار دى بارّاميدا فى عام ١٦٠٨ إلى جوار دوق مديناسيدونيا، الذى كان مكلفا حينئذٍ باتفاقيات حول العرائش والمعمورة[٧٦].

وكما قلنا سابقًا، فإنه عند موت أحمد المنصور(١٦٠٣) أشعل أبناؤه الذين تنازعوا على الخلافة حربًا أهلية طويلة وضارية. أتلفت هذه الحرب بشكل هائل الوضع الداخلى للمغرب، اقتصاديًا واجتماعيًا على حدٍ سواء. كانت سنوات رهيبة لكل السكان وقاسية بوجه خاص بالنسبة للأقلية اليهودية. وقد كتب ساول بن دافيد سيريرو Saul ben David Serero، وهو مؤرخ يهودى معاصر لتلك الفترة، كتب من فاس يقول: «منذ حوالى ثلاث سنوات ونصف [١٦٠٣ــ١٦٠٦] ونحن فريسة للجوع ولمصائب أخرى كثيرة...حوالى ثمانمائة شخص ماتوا جوعًا فى فاس. أطفال فاس منفوخون مثل القِرب ويبدون ضعفاء، تعرضوا للذل، يبحثون فى أكوام القمامة ليلتقطوا شيئًا مثل عظام الدجاج. أكثر من ستمائة [يهودى] خاطروا بحياتهم. الطرق لم تعد آمنة، الاتصالات انقطعت، منْ يبقى فى المدينة يموت من

الجوع، ومنْ يخرج منها يسقط ضحية لطعنة سكين. كل واحد يبتلع غيره حيًا. بنو إسرائيل وصلوا إلى حالة من الفقر الشديد...وبالإضافة إلى هذه المآسى لايزال يتوجب علينا أن نقاسى النتائج المشئومة للحروب..»(٧٧).

واحدة من هذه النتائج المشئومة هى أن المدعين كانوا يُعصرون أحياء المدينة بالضرائب الإجبارية لكى يستطيعوا الاستمرار فى تمويل حروبهم. لقد كان وضع يهود فاس إذن رهيبًا. وإذا كنا هنا نهتم فقط بمواطنين ظلوا على اليهودية على الرغم من كل ذلك، أو تحولوا إلى المسيحية، فإنه يجب الأخذ فى الاعتبار، كما يقول سيريرو Serero، أن حالات التحول إلى الإسلام كانت كثيرة جدا. ولكن هذه قضية أخرى(٧٨).

هناك مشكلة أخرى تُضاف إلى ماسبق وهى أن عائلات كثيرة بارزة من يهود فاس ساندت مولاى زيدان، الذى صعد إلى العرش بمجرد موت أبيه. عندما انتزع شقيقه، مولاى الشيخ، مدينة فاس ومعظم شمال المغرب (وهو ما حدث فى عام ١٦١٠بمساعدة إسبانية ناجحة فى مقابل التنازل عن العرائش)، أصبح بقاءُ هذه العائلات اليهودية فى المدينة أمرًا مستحيلاً. انتقل جانب كبير منها إلى مراكش، المدينة التى ستكون عاصمة مولاى زيدان، حيث تعاظم بشكلٍ هائلٍ دور وحجم الحى اليهودى الذى كان موجودًا هناك.

من ناحية أخرى، كانت هناك ظروف مادية واضحة حثت اليهود الذين كانوا قريبين من كلا المتنافسين على العرش، على أن يفضّلوا المنفى إذا هُزِمَ مرشحهم أو قُتِل. فيما يتعلق بفاس، يبدو أن الوضع وصل إلى الحضيض بعد موت مولاى الشيخ فى عام ١٦١٣: بدأت أحزاب متنافسة تتقاتل فى داخل المدينة،ازداد قطع الطرق بشكلٍ مُطلق، وكل منْ استطاع مغادرة المدينة غادرها. لعدة أشهر، لم تكن الصلاة تُقام فى مسجد القرويين Qarawiyyin، وهو الجامع الشهير الذى كان مركزًا ثقافيا ودينيا، وكان مَعلمًا حقيقيًا خلال قرون لكل دول المغرب العربى.

في بداية فترة حكم مولاي زيدان يُذكر اسم يهوديين كمسئولين عن الخزانة: ابراهام بن وايش وخودا ليفي، اللذين كانا تاجرين للسلطان. كان دورهما مهمًا أيضًا في إبرام صفقات مع هولندا: في عام ١٦١٧ ائتمنهم مولاي زيدان على شحنة كبيرة من بضائع مختلفة، من بينها سكر وجلود، كان عليهما بيعها في ميدلبورج Middleburg. ذهب معهم أشخاص يهود آخرين من أتباع مولاي زيدان: مويسيس ليفي وبنيامين كوهين، اللذان يصفهما مولاي زيدان في خطاب إلى ماوريثيو دي ناسَّاو بـ «خدامنا اليهود»[٧٩].كان أبراهام بن وايش قبل ذلك جليسًا خاصا لأبي فارس، وهو ابن آخر من أبناء أحمد المنصور وحليف في الصراع على العرش لأخيه من أمه مولاي الشيخ[٨٠].منذ عام ١٦٠٨يبدو أبراهام كما لو كان له تأثير على زيدان. إن العميل الهولندي في المغرب، كوي Coy، يشكو في هذا التاريخ إلى الولايات العامة من أن أبراهام يتآمر ضده لأنه، كوي، لم يكن يسمح له بالحصول على مكاسب كثيرة كما كان يريد أبراهام ولأنه كان يخشى منافسته. كان كوي يحاول أن يكسب صداقته بتقديم هدايا له. وقد اشتكى تجار مسيحيون آخرون أيضًا من أبراهام وقالوا إنه يحاول أن يحتكر تجارة البلد لمصلحته ومصلحة عائلته. كانت لهم سلسلة من المنازعات مع باول فان ليبيلو Paul Van ippeloo، ممثل تجار أمستردام، الذي تشاجر بدوره مع صمويل بايانشي. سوف نعود للحديث عن ذلك.

يامين بن ريموك Yamin ben Remmokh هو يهودي آخر استخدمه مولاي زيدان في مفاوضاته مع هولندا وفي عقد صفقات تجارية مع هولندا وإنجلترا على حد سواء. سافر الى هولندا عام ١٦١٥لبيع شحنة من السكر[٨١]وسافر إليها مرة أخرى بين عامي ١٦٢٤و١٦٢٨. كانت إحدى وظائفه في هذه السفريات تكمن في التأكد من أن الهولنديين لا يبيعون أسلحة لأولئك الذين كانوا يتمردون في المغرب ضد مولاي زيدان[٨٢]. وطبقًا لوثائق ترجع لعامي١٦٢٣و ١٦٢٤، كان خودا ليفي Juda Levi وكيلاً لأراضي الملك في

صافى[٨٣]. كانت رسائل التجار الإنجليز والهولنديين الذين حاولوا خلال تلك الأعوام الاستقرار فى المغرب تشكو دائمًا من الاحتكار اليهودى للتجارة المغربية ومن الصعوبات التى يجدونها فى التعامل مع هؤلاء اليهود، الذين لا يرغبون بوضوح فى أن يكون لهم منافسين. لكن ينبغى التفكير فى أن كثيرا من هذه المعلومات والشكاوى مبالغ فيها، إن رغبة هؤلاء التجار فى الحصول على مساندة حكومات بلادهم حملتهم على تضخيم الصعوبات التى يتوجب عليهم مواجهتها فى المغرب.

وكان لمولاى الشيخ، شقيق وخصم مولاى زيدان يهودٌ مهمون أيضًا يحيطون به.فى المفاوضات الأولى التى عقدها مع ملك إسبانيا حول التنازل عن العرائش يبرز رجل يهودى يُدعى خيبرى Gibre، ينتمى إلى عائلة مهمة من تطوان[٨٤]. بعد ذلك يتدخل يهودى آخر أكثر مهارةً وعدوٌ للسابق، ويُدعى خودا سينافىJuda Sinafé ويهدم كل ما تفاوض عليه خيبرى، وفوق كل ذلك يقوم بتقديم تنازلات مفرطة. هذا يجعل مولاى الشيخ يستاء فيأمر بسجنه فى عام١٦٠٦[٨٥]. كان ناتان بنترنى Natan Benterny هو اليهودى الأساسى المقرب للملك والذى كان يتمتع بثقته. إن كتب التاريخ والوثائق على حدٍ سواء تلقبه بـ «يهودى الملك». تكرر الوثائق بإلحاح الحديث عن الود والصداقة الطيبة التى كان يكنها له الملك، حيث كان قد ترعرع فى بيته، وكيف كان وسيطًا لا غنى عنه للتعامل مع الملك. قام ناتان بسفريات متكررة إلى إسبانيا للتفاوض بشأن العرائش[٨٦]، ورافق مولاى الشيخ خلال إقامته فى كارمونا Carmona. الوثائق تسميه إما أوليت ناتانUlet Natán، وإما ناتان بنترنى. يذكر فى أكثر من مناسبة أنه جاء من ليورناLiorna أو ليفورنوLivorno، لكن فى معظم الأحيان يُذكر فقط أنه «يهودى من فاس». يبدو أنه كان يؤدى عمله دائمًا بحماس شديد فى خدمة ملكه، وعلاوة على ذلك على حساب ممتلكاته.

يتحدث خوان لويس دى روخاسJuan Luis de rojas عنه مرارا وتكـرارا فى كتابه، وفى إحدى المرات يقول ما يلى[٨٧]: «من الصواب أن نعرف مـنْ هـو هذا المدعو ناتان الذى يعد اليوم شيخًا لكل اليهود. تربى منذ أن كان طفلا فى بيت مولاى الشيخ مع أبنائه، كَبُرَ بينهم وهو يخدم فى المهن التى يستخدم فيها الملـوك اليهود: لغات ووساطات وأشياء أخرى لم يكن الملوك يأتمنون عليهـا مـسلميهم. احتل ناتان موقعًا قريبا من مولاى الشيخ بتقديمه خدمات سرية ومشبوهة، ورافقـه وتَبِعَه، وتلقى دائمًا من الملك عطايا كثيرة، وأصبح له نفوذ أكثر من آخرين كبار. جاء يسدى خدماته له فى إسبانيا، وهناك كان لسانه السرى وبيده تم التعاقـد على كل الصفقات، وعلى الرغم مـن أن خـوانيتين مورتـارا Juanetin Mortara كان هو الذى أبرمها إلا أنه لم يكن ذا ثقة بالنسبة لهم بقـدر مـا كان ناتان أوليت. وقد أعاره الوزراء اهتمامًا وقدموا له عطايا بعضها مالية والأخرى مساعدة فى المصاريف ووعود بدفع خمسين إسكودو فى الـشهر وصلت إلى مائة، ومسكن يعيش فيه لمدة سنتين وتركه على دينه اليهـودى وقائمة أخرى مُسهبة من وسائل الراحة لأنه – كيهـودى حقيقـى – كـان يعرف كيف يحصل بالإلحاح على المكسب. ولأنه كان يذهب ويجئ مـرات كثيرة إلى إسبانيا، كان يُحضر ما كانوا يعطونه له هناك ويوظفه فى بـلاد البربر من بذور وأقمشة قطنية ويبيع جيدًا بضاعته ...» هذه الفقرة مهمـة وذات دلالة على العلاقات التى استطاع أن يقيمها المرتدون واليهـود علـى حدٍ سواء مع سيدهم المسلم، حيث كوّنوا دائرة مـن العلاقـات الشخـصية والودية فى صيغ عائلية وعلاوة على ذلك جنسية[٨٨].

كان اليهودى البرتغالى المتخلى عـن دينـه سيباسـتياو بابيـث دى فيغـا Sebastião Paez de Vega مقربًا جدا من مولاى الشيخ، وكان يتمتع أيضًا بعطفه وثقته الشخصية، وقد أسلم واتخذ اسم سليمان باشا وحصل على منصب رفيع فـى جيش السلطان[٨٩].

كان ناتان أيضا تاجرًا، وكان يستغل سفرياته الدبلوماسية لنقل بضائع كان يستثمر فيها المال الذى كان يعطيه له الإسبان: وقد قدم له مركيز سان جيرمان Marqués de San Germán بوجه خاص عطايا من أجل استرضائه، ويبدو أنه أوفى دائما بكلمته مع الإسبان، لكنه ظل مخلصا لسيده. إنها إذن حالة من الولاء المزدوج محققة بالكامل؛ حيث أنه استطاع أن يجعل كلا الجانبين اللذين كان يقدم لهما خدمات لا يدخلان فى نزاع.

بعد موت مولاى الشيخ، بدأ أوليت ناتان مساعى للإقامة فى إسبانيا، متعللاً أولاً بأنه «قام بسفريات كثيرة ذات خطورة كبيرة للتفاوض مع مولاى الشيخ ولم يحصل على أجره». وفى فبراير من عام ١٦١١يطلب إذناً «ليستطيع المجىء إلى هنا ليتفرغ للعبادة»[٩٠]. وكما يشرح روخاس، لم يحصل فقط على هذا الإذن، بل حصل أيضًا على مائة إسكودو فى الشهر وحصل كذلك على إذن بالعيش لمدة عامين فى اليهودية قبل أن يتنصر. لاشك أن أوليت ناتان كان يريد أن يظل مستترًا عن محكمة التفتيش وأن تكون له فترة سماح مدتها سنتان قبل قبول دين يتطلب امتثالا شكليًا كاملاً.

بالنسبة لعائلة خيبرى، قام أبراهام خيبرى بعدة سفريات إلى البرتغال لإنجاز مهام خاصة بافتداء الأسرى، وانتهى به المطاف بالإقامة فى طنجة حيث تحول أيضا إلى المسيحية[٩١].

نقدم هذه التفصيلات لكى نبين أنه بالإضافة إلى مولاى زيدان، فإن مختلف المطالبين بالعرش كان لديهم أيضا العديد من اليهود يعملون فى خدمتهم، هؤلاء رأوا أنفسهم بالطبع فى وضعٍ صعب جدا عندما هُزم أو مات المرشح الذى كانوا قد عملوا لصالحه. وقد أدى ذلك إلى محاولات متعددة للإقامة فى شبه الجزيرة الأيبيرية، وقد تُوّج كثير من تلك المحاولات بالنجاح.

إن الحرب الداخلية فى المغرب والصراعات بين الطوائف المتعددة للتحكم فى السلطة،لم تقتصر فقط على الصراعات بين أبناء وأحفاد أحمد المنصور، لكن

تدخلت أيضا شخصيات دينية، شيوخ جماعات دينية تُسمى «المرابطون» في الوثائق الإسبانية المعاصرة لتلك الفترة، أو شخصيات صوفية مثل ابن أبي مَحَلِّي Ibn Abi Mahalli، كل واحد منهم برأس حركته الخاصة.كان محمد العياشي واحدا من الذين كانوا أكثر نفوذا، وأصبح هو الحاكم الفعلي للنصف الشمالي للبلد في الثلاثينيات. كان عنده أيضا يهود بارزون يعملون في خدمته: كوهين Cohén، يهودي «برتغالي» كان يعيش في سالي، وكان له شقيق يُدعى جوزيف، كان يعيش في هولندا، ونجح بعد مفاوضات أن يجعل الحكومة المركزية تفرج عن شحنات من البارود للعياشي. وقد اشتغل كل من بنيامين كوهين وهارون كيريدو بالعلاقات بين الأراضي التي يحكمها العياشي وهولندا(٩٢).

إن ذِكْر يهود كثيرين يشغلون مراكز بارزة لا يجب أن يؤدي إلى تكوين صورة خاطئة؛ فلكونهم يهودًا كانوا ينتمون لمجموعة يمكن تحديد هويتها ثقافيًّا بسهولة كشريحة اجتماعية منفصلة ومستبعدة من إمكانية الحصول على مناصب رفيعة وغير قادرين على الحصول على مَعيَّة وطاعة؛ وبالتالي؛ فإن السلطة الخطيرة التي تمنحها هذه المراكز ظلت محايدة وجعلتهم بوجه خاص ذوي قيمة في لحظة التنافس الداخلي والصراعات على السلطة. كان وضعهم يخضع فحسب لعلاقتهم الشخصية وللفضل الذي يقدمه لهم مرشح للعرش أو حاكم محدد، ولهذا كان لِزامًا عليهم مغادرة البلد في حال اختفاء أو ضياع سلطة الشخص الذي توقف أمرهم عليه.

من ناحية أخرى، فإن القادة العسكريين على الحدود الإسبانية – البرتغالية، مثل ألونسو دي نورونها من طنجة، والعملاء الإسبان الموجهين إلى المغرب (بوجه خاص بالتاسار بولو Baltasar Poloوخوانيتين مورتار) قد استخدموا يهودًا كسُعاة بريد وكمبلغين وذكروهم في «تقارير عن بلاد البربر» إما تحت مُسمى «يهودي معروف لي» أو «يهودي جدير بالثقة»، وإما بأسمائهم وألقابهم. ويُعد من الشائع أن يستغل هؤلاء اليهود الخدمات التي يقدمونها ويطلبون تراخيص من أجل

المجئ إلى شبه الجزيرة الأيبيرية ومن أجل أن يتحولوا إلى المسيحية. يجب الإلحاح على الوضع الرهيب الذى اجتازته المغرب فى الربع الأول من القرن السابع عشر؛ فقد خربها الطاعون وتعرضت لحروب أهلية مدمرة ومستمرة.

تتضح إذن الظروف المادية التى دفعت أعداداً كبيرة من اليهود وبخاصة أولئك الذين كانوا مقربين لواحد أو لآخر من المتنافسين على العرش، على أن يفضلوا أحياناً البحث عن المنفى بعد أن فشل أو مات مرشحهم.

الخروج عبر الحدود ونحو شبه الجزيرة الأيبيرية كان طريقاً سعى إليه كثير من الموريسكيين المطرودين حديثاً[٩٣] وعددٌ كبير من اليهود لنقل «غير معروفين»، ليس فقط الذين ينتمون إلى عائلات مهمة أو ذات صلات جيدة. لدينا حالات موثقة بشكلٍ مفصل لبعض هؤلاء الأشخاص، مثل خوان لودوفيكو رودريغيث، وهو يهودى من تطوان، تقدم بخطط للاستيلاء على سالى والمعمورة فى عام ١٦١٤، وفى مقابل هذه الخدمات كان يريد إذناً للمجئ إلى إسبانيا مع كل أفراد عائلته ليقيموا جميعهم وليتحولوا إلى المسيحية[٩٤]. إنها خطة استراتيجية مماثلة إذن لما اتبعه باياتشى فى بداية مشواره.

لكن لا يجب أن نضع فى الاعتبار فقط أن الظروف فى المغرب فى تلك السنوات كانت قاسية جدا. فبغض النظر عن تلك الظروف، تُظهر الوثائق الأرشيفية عدداً كبيراً لأشخاص عبروا الحدود بين عوالم تبدو لنا الآن منفصلة كثيراً جدا. كانت الحدود فى القرن السابع عشر ـ على الرغم من أنها محددة بوضوح ـ، قابلة للاختراق من كل الاتجاهات، خاصة بالنسبة للأشخاص الذين كان لهم هويات متعددة. أى المنتمين إلى مجموعات مثل اليهود أو الموريسكيين أو المرتدين الذين كانت لهم ملامح ثقافية تحدد شخصياتهم وتوحدهم جزئيًا مع سكان شبه الجزيرة الأيبيرية. إن العمل فى تقديم خدمات بريدية أو كمبلّغ أو كجاسوس كثيراً ما كان الخطوة الأولى للإقامة فى إسبانيا أو فى البرتغال. لكن آخرين لم يلجأوا إلا إلى التنصر والتماس العفو الملكى. على سبيل المثال (وهناك أمثلة

أخرى كثيرة) حالة فرانثيسكو دى روبليس لورينثو Francisco de Robles Lorenzo، وخوان باوتيستا دى ثاياس Juan Bautista de Zayas، «يهوديان فى الأصل من مدينة فاس» وفرانثيسكو دى جيلباFrancisco de Guelba، مسلم فى الأصل وأمه مسيحية، مولود فى القصر الكبير: فى مايو من عام ١٦٠٩ يسافرون إلى شبه الجزيرة الأيبيرية ويطلبون التعميد من أسقف مالقة. وبعد أن تنصروا كتبوا إلى الملك يطلبون «منحهم فرصة فى لشبونة أو فى أى مكان يخدمون فيه جلالتكم، ليخدموا فيما تأمرون به، وأنهم سيعملون كمسيحيين مخلصين جدا وطيبين»[٩٥] ليس من قبيل المبالغة أن نعتقد أنهم ربما كانوا يهودًا «برتغاليين» مقيمين، مثل كثيرين آخرين، فى فاس حيث عادوا إلى اليهودية، وأنهم الآن يرغبون فى العودة إلى لشبونة أو على الأقل إلى شبه الجزيرة. داخل العائلة الواحدة كان من الممكن أن تظهر اختيارات مختلفة، وتحولات دينية صادقة، مثل حالة «رجل هولندى يُدعى أندريس أنطونيو Andres antonio، علم وهو فى فلاندس أن شقيقًا له يُسمى برناردو أنطونيو أصبح يهوديًا، قرر المجئ إلى المغرب حيث كان يقيم، للبحث عنه، وبعد أن وصل أخذ يبحث عنه فى الفنادق وفى محلات اليهود ...» وقد وجده.الأخ الضائع اسمه الآن،أوباديا إسرائيل Obadia Ysrael، متزوج من سمحا Simha، يهودية أيضًا.ويتناقش الأخوان فى موضوعات دينية، ولأن أندريس بطلت حجته فقد قرر البحث عن «راهب معلم عقيدة»، لكن الراهب لم ينجح فى إعادة أوباديا إلى المسيحية[٩٦].

نجد أيضًا حالات لمسلمين يأتون طواعية إلى المواقع الإسبانية يطلبون التنصر والسفر إلى شبه الجزيرة الأيبيرية[٩٧]. وتُعد محاضر محكمة التفتيش التى أشرنا إليها فى الفصل السابق دليلاً على تلك الظاهرة.

إن الحالات أكثر شيوعًا بكثير مما يمكن أن يُعتقد ومما تم إظهاره، وهذا دليل على مدى اتساع وتبدل الولاءات، أو من الأفضل أن نقول إنها تبين كيف أن التنصر كان أسلوبًا مُستخدمًا بكثرة للتكيف مع الواقع الاجتماعى الذى كان الناس

يتواجدون فيه وللإبحار وسط الظروف التى كُتب عليهم أن يعيشوا فيها. إن التحول لدين آخر يتحول إلى نوع من «جواز مرور» للأشخاص الذين كانت تجبرهم الظروف على العيش، فعليًا على الحافة.

سيرتان متناقضتان: ميلتشور باث دى أثيبيدو Melchor Vaz de Aceivedo وإسحاق الموسنينو Isaac Almosnino

نعود للاستعانة بمصادر محكمة التفتيش لإكمال المعلومات التى حصلنا عليها من الحكايات التاريخية والوثائق الدبلوماسية والتجارية. من أجل ذلك اخترنا القضايا الخاصة بشخصين يمكن أن تساعدنا سيرتهما على وضع وفهم أفضل لسيرة صمويل باياتشى.

القضية الأولى، من حيث التسلسل التاريخى، هى قضية يهودى - متنصربرتغالى اسمه ميلتشور أوبيلتشيور باث دى أثيبيدو، الذى حاكمته محكمة تفتيش لشبونة فى عام ١٥٦١[٩٠]. كان أثيبيدو خياطًا فى أرسيلة وناظر أملاك فى هذا الموقع وفى طنجة حتى عام ١٥٤٦.عمل بعد ذلك فى خدمة ملكىّ فرنسا فرانشيسكو الأول Francisco I وإنريكى الثانى Enrique II.

لدينا أخبار عن نشاطه فى عام ١٥٥٦لصالح إنريكى الثانى. فى هذا العام، عاد اليهودى سالومون بنثاميرّو الذى تحدثنا عنه من قبل، إلى المغرب قادما من البرتغال التى كان قد أُوفد إليها من قبل السلطان مولاى محمد بهدف التوصل إلى اتفاق تحالف مع خوان الثالث لمواجهة التهديد التركى. أُلقى القبض عليه فى قادش حيث اقتسم زنزانة فى السجن مع باث دى أثيبيدو، الذى كان قد قُبض عليه مع مجموعة من الفرنسيين كانت قد أثارت الشكوك. يُخبر بنثاميرّو خوان الثالث أن باث أثيبيدو كان فى طريقه لمقابلة شريف المغرب موفدا من قبل ملك فرنسا «للعمل ضد مصالح الإمبراطور كارلوس الخامس ولكى يتمكن من إحضار سفن ومراكب إلى موانيها [موانئ المغرب]». كان باث أثيبيدو يحمل معه رسائل معتمدة

للحصول على مساعدة فى موانئ البرتغال وقشتالة بحجة أنه كان يسعى للقبض على قرصان. لكنها كانت عبارة عن حيلة إذ أن الشريف «لابد أنه فرح كثيرًا بالتحالف مع ملك فرنسا للفائدة التى تعود على ممالكه عندما تكون مزودة بالبضائع والأسلحة الدفاعية».

سارع خوان الثالث بتحذير خوانا ملكة قشتالة من أجل ألا يتركوا باث دى أثيبيدو يخرج من السجن، وقد ظل فيه فيما يبدو سنتين. فى حوالى عام١٥٦٠ حاول أنطونيو دى بوربون — الذى أصبح ملكًا لنابارا بزواجه من جان دى البريه Jeanne d'Albret — أن يحصل من فيليب الثانى على نابارا الواقعة على الجانب الآخر من جبال البرانس مقابل إعطاء الملك الإسبانى موقعًا فى إفريقيا، كان أنطونيو دى بوربون بدوره يسعى للحصول عليه. فى ذلك العام أرسل الملك إلى ميلتشور باث دى أثيبيدو يأمره بلقاء الشريف ليعرض عليه خمسمائة رجلا مسلحًا ومجموعة حرس من ثلاثين جنديًا مسلحين بالحراب وعشر فرسان وذخائر ومواد حربية يستطيع بها الشريف أن يدافع عن نفسه ضد الأتراك، فى مقابل أن يسلمه الشريف موقع القصر الصغير الذى كان قبل ذلك موقعًا برتغاليًا(٩٩). أخطر سفير فيليبى الثانى فى قصر فرنسا العاهل بهذه الأنشطة التى يقوم بها باث دى أثيبيدو لصالح سيد نابارا.

فى نفس الوقت، أى فى عام ١٥٦٠، أخبر ألبارو دى كاربالو Álvaro de Carvalho، قائد مازاجان، الملكة كاتالينا أن ميلتشورباث، قائد لسفينتين أو أربعة سفن يسافر على متنها خمسمائة رجل، كان قد وصل إلى أغادير. من هناك سافر إلى فاس لمقابلة الشريف. يبدو أن تلك المفاوضات كانت غير مجدية لأن فيليبى الثانى لم يقبل عرض أنطونيو دى بوربون.

فى عام١٥٦١ كتب السفير الإنجليزى فى القصر الفرنسى إلى سكرتير الدولة الخاص به فى لندن يقول إن «شخصًا يُدعى كابتن ميلتشور»، أى باث دى أثيبيدو، وهو رجل يبلغ من العمر ستين عامًا وخبير جدا فى الاتفاقات مع بلاد

البربر التى عاش فيها اثنى عشر عاما، ومشهور فى فنون الإبحار، وكان يعمل فى خدمة فرنسا وملك نابارا، غير راضٍ عن راتبه، الذى لا يكفى لرعاية أسرته، وأنه يحاول تقديم خدماته للإنجليز. قدم نفسه بوجه خاص كمتخصص وعارف بكل أسرار التجارة مع المغرب، وقال انه يمكن شراء ذهب ونحاس ذى جودة ممتازة وصمغ عربى وشمع وجلود وسكر وخيول. يعرف أثيبيدو الأسعار والبضائع القيّمة التى تقدم فى المقابل: قصدير ونصول للسيوف ورماح ومجاديف ...أى، مواد ضرورية من أجل الحرب كان محظورا على الكاثوليكيين إمداد المسلمين بها بمقتضى مرسوم بابوى.فى عام ١٥٦١كان باث دى أثيبيدو فى لندن، وعلى الرغم من أنه لم يستطع كسب ثقة التجار ولا السلطان، إلا أنه فى شهر سبتمبر من نفس العام وصل إلى العرائش على متن سفينة إنجليزية ممتلئة بالأسلحة الهجومية والدفاعية. يؤكد السفير البرتغالى أن أثيبيدو بالإضافة لذلك كان يحمل فى هذه السفينة صندوقًا مملوءًا بالكتب العبرية من أجل يهود شمال إفريقيا(١٠٠).

لم تنجح الأمور مع لندن بشكلٍ كافٍ، وعاد باث دى أثيبيدو، الذى لم يقطع أبدًا صلاته مع البرتغال، إلى لشبونة وعرض خدماته فى القصر. تتدخل حينئذ محكمة التفتيش.

أول بلاغ يتلقاه باث دى أثيبيدو أمام محكمة التفتيش يتهمه بأنه بروتستانتى. عندما كان المبلغ دومنغو بايس أسيرًا فى الحى اليهودى فى فاس، تعرَّف على بلتشيور باث، وهو برتغالى من أرسيله، كان يحمل أسلحة للشريف من ملك نابارا. حسبما ذكر المبلغ، كان أثيبيدو لوثريًا، وأنه كان قد أعلن أمام الأسرى أنه «كان يعترف فى قلبه». مع ذلك يشهد رجال من طنجة أن أثيبيدو كان قد عاد لليهودية. ويشهد برناردو رودريغيس Bernardo Rodrigues، مؤرخ أرسيلة، على العكس من ذلك، بأنه كان صديقًا للمتهم فى هذا الموقع، وأنه كان كاثوليكيًا مخلصًا. من خلال الشهادات، ترتسم صورة رجل كان يمارس شعائر اليهودية فى طنجة وفاس، وكان كاثوليكيًا مخلصًا فى البرتغال ولوثريًا فى فرنسا وإنجلترا.

على الرغم من خطورة جرائم المتهم، والمثبتة جيدًا، حُكم على أثيبيدو بعقوبة رحيمة بشكلٍ يدعو للدهشة: التوبة عن ذنب صغير، والتعهد بأن يبعد عن نفسه كل بدعة والقبول بأن يكون متعلمًا بشكلٍ جيد فى الأمور الضرورية من أجل خلاصه. لقد كانت المعارف العملية لبيلتشيور باث قيّمة أكثر من اللازم بحيث أن القصر البرتغالى لم يسمح بأن يتعفن المتهم فى سجون محكمة التفتيش. إن كون باث دى أثيبيدو يحوز موارد ومعارف مفيدة جدا لدرجة أنه انتُشل من بين أيادى محكمة التفتيش، يعنى الكثير عن القيمة التى كان يمكن أن تمثلها المعرفة الجيدة للتجارة مع المغرب، والقدرة على التفاوض على موقع، والحصول على تصريح بالدخول لقصر السلطان، والمعرفة بالإبحار والقدرة على التدخل فى حرب القرصنة. كلها أسلحة ذات حدين، يمكن امتلاكها للصالح أو للضد وتضع باث دى أثيبيدو فى نفس المستوى الذى سيكون فيه بعد ذلك بسنوات صمويل باياتشى.

الحالة التالية التى اخترناها هى الخاصة بإسحاق الموسنينو Isaac Almosnino الذى كان فى القطب المعاكس؛ أى أنه عبارة عن شخص بعيد عن مهام الوسيط بين عوالم يلعب فيها أدوارًا مختلفة أو يبدى استجابات دينية مختلفة. يبدو لنا أن التعرف على ما كانت عليه حياة يهودى إسبانى من فاس من عائلة محترمة ومولود فى الثلث الأخير من القرن السادس عشر يُعد أمرًا مفيدا للغاية.

ما نعرفه عنه مُستمد من ملف قضية ضخم محفوظ فى أرشيفات محكمة تفتيش لشبونة[١٠٠] يبدأ بالأخوين إسحاق وأبراهام الموسنينو: فى فبراير من عام ١٦١٨، كانت سفينة قادمة من جوا Goa، قد أحضرت إلى لشبونة شخصين حاكمتهما محكمة التفتيش فى تلك المدينة، وكانا قد قُبض عليهما فى الهند قبل ذلك بعام. هذان الشخصان يُدعيان إسحاق وأبراهام الموسنينو، وهما شقيقان يؤكدان أنهما يهوديان فى الأصل وتاجران من مدينة فاس، ولم يكونا قد تحولا أبدًا إلى المسيحية.

فى جوا، وفى منزل السفير الفارسى فى الهند كان قد قُبض على رجل إنجليزى يُدعى روبرت شيرلى[١٠٢]، كان فى السابق سفيرا لبلاد الفرس فى إسبانيا وهو شخصية معروفة جيدًا. روبرت شيرلى، ذلك المغامر الإنجليزى الشهير، كان قد ذهب إلى بلاد فارس بصحبة شقيقه أنطونىAnthony. عندما أُوفد الأخير من قبل الشاه عباس إلى موسكو فى مهمة دبلوماسية فى عام١٥٩٩، بقى روبرت فى بلاد فارس كرهينة. خدم لعدة سنوات فى الجيش الفارسى وسعى لكسب ثقة الشاه، الذى أوفده فى النهاية سفيرًا إلى إسبانيا فى عام ١٦١٠، وبعد ذلك إلى إنجلترا، التى عاد منها إلى بلاد فارس فى عام ١٦١٣. فى إسبانيا أثار شكوكًا هائلة حيث كان يُشتبه فى أنه كان عبارة عن جاسوس يعمل فى الواقع من أجل إنجلترا. فى تلك الأثناء، كان أخوه أنطونى قد أُوفد من قِبل رودولفو الثانى ملك ألمانيا فى مهمة دبلوماسية وتجارية إلى المغرب، التى وصل إليها فى عام ١٦٠٥. كان روبرت شخصية متلونة جدا؛ فقد كان يلبس على الطريقة الفارسية، وكان متزوجًا من امرأة شركسية كاثوليكية تُدعى تريزا أماثونيتيس، كانت قد تحولت إلى المسيحية. فى القصر الإسبانى، بالطبع كان ذلك أمرا شائعا.

بعد أن أصبحا فى جوا، كان إسحاق الذى كان أكبر الشقيقين سنًا وطبيبًا وتاجرًا، هو أول منْ اعتُقل لأن مسيحيين عجوزين من أوبورتو أكدا أنه كان عبارة عن مانويل لوبيس، الذى كان طبيبا ومسيحيًا جديدًا جاء من إسبانيا، وكان قد مارس مهنة الطب فى أوبورتو لسنوات وعاش كمسيحى وهرب من هذه المدينة عندما كانت له مشاكل مع محكمة التفتيش. كان عندهما أخبار بأن مانويل لوبيس هذا كان قد هرب مع أخيه الأصغر سنًا إلى فلانديس، وبعد أن أمضى هناك بعض الوقت، ذهب إلى القسطنطينية. يتطابق الموسنينو مع لوبيس من حيث السن والخصائص الجسمانية (لحية شقراء، أنف كبير، قامة متوسطة...إلخ) وهو طبيب ويتحدث البرتغالية بشكل جيد والقشتالية بإتقان. كان قد ذهب إلى القسطنطينية

كتاجر، ومن هناك ذهب إلى بلاد فارس حيث أقام علاقة مع روبرت شيرلى، وقرر أن يصحبه فى رحلة عبْر مضيق هرمز حتى الهند.

فى إدلائه بأقواله للمرة الأولى، يقول إسحاق الموسنينو إنه يبلغ من العمر خمسة وأربعين عامًا، وإنه يهودى المولد والوظيفة، وابن وحفيد ليهود لم يتنصروا أبدًا (يهودى «منذ النبى إبراهيم حتى الآن»)، من الذين طُردوا من إسبانيا فى عام ١٤٩٢، مولود، مثل آبائه وأجداده، فى مدينة فاس فى المغرب. فى هذه المدينة تعلم الطب ومارسه كوظيفة خلال سنوات كثيرة فى فاس وفى مراكش، لكنه أبدًا لم يزاول الطب خارج إفريقيا. خرج من المغرب لأن الظروف، بسبب الحرب الأهلية، صارت قاسية جدا (عائلة الموسنينو كانت مناصرة لمولاى زيدان، الذى هزمه أخوه فى عام١٦١١) وقرر أن يكون تاجرًا، فالتجارة كانت وظيفة أبيه. أبوه، مع ذلك، لم يخرج أبدًا من إفريقيا بينما هو كان يتاجر مع مارسيليا، ومع إيطاليا (أراضى دوق فلورنثيا) والمشرق، وخاصةً القسطنطينية.

يفضح الموسنينو بدوره الذين اتهموه ويقول إنهم كانوا يكنون له ضغينة لكونه صاحب مكانة عليا لدى السفير الفارسى ولكونه منافسًا فى مواد التجارة. يصر على نقله إلى لشبونة لأنه يؤكد أنه إذا لم يُنقَل، فلن يكون لديه إمكانيات الدفاع ولا إثبات شخصيته.

نُقِلَ الشقيقان إلى لشبونة حيث وصلا إليها بعد سنة من إلقاء القبض عليهما فى جواء، ويشكل ملف قضيتهما ــ ربطتان سميكتان محفوظتان فى أرشيف لا تورّى دو تومبو وتمتدان حتى عام ١٦٢١ــ وثيقة استثنائية حيث أنهما لا تتعلق بمتنصرين ولا بمتهودين، بل بيهوديين لم يكونا أبدا شيئًا آخر ولم يكن لهما اتصالٌ مسبقٌ بشبه الجزيرة الأيبيرية التى نشأت فيها عائلتهما.

ينحدر آل الموسنينو من عائلة مشهورة فى فاس، العديد من أعضائها معروفون. على سبيل المثال؛ جدهم كان طبيبًا للسلطان مولاى عبدالله. وعائلة

الموسنينو مسجلة فى شبه الجزيرة الأيبيرية قبل الطرد عام ١٤٩٢، وهناك فروع أخرى من نفس العائلة حققت شهرة فى سالونيك.

أثناء الإدلاء بالأقوال فى هذه المحاكمة، سُئِل الشخصان عن عائلتهما ووظائف مختلف أعضائها؛ واللغات التى يعرفانها، وكيف تعلماها، وأى نوع من الدراسات قاموا بها منذ أن كانا طفلين فى فاس. كانا يذهبان إلى مدرسة المعبد مع أعمامهما وجيرانهما الأكثر قربا. جعلوهما يصفان الشارع الذى كانا يعيشان فيه فى فاس ومنْ كانوا جيرانهما، وأيضا تعاملهما مع غير اليهود من المدينة، وخاصة مع الأسرى البرتغاليين.

استدعى قُضاة محكمة التفتيش سلسلة طويلة من الشهود للإدلاء بشهادتهم: هم فى معظمهم من يهود فاس الذين تحولوا إلى المسيحية ويعيشون الآن فى البرتغال. يذكر آل الموسنينو أيضًا سلسلةً من يهود فاس وتطوان، من بينهم عائلتهم التى يمكن أن يثبتوا أنهم منها: تطلب محكمة التفتيش مساعدة أسقفية سبتة، ويُنقل هؤلاء اليهود للإدلاء بأقوالهم. حُررت هذه الإقرارات بالإسبانية ووُقعت بالإسبانية أو العبرية، عدا إقرارات نساء العائلة، اللائى وقعن بالعربية. فى المحاكمة تُرفق بالإضافة إلى ذلك ثلاثة خطابات باللغة الألخميادية، أى مكتوبة باللغة الإسبانية لكن بحروف عبرية، قام بكتابتها حَمُو وزوج أخت إسحاق الموسنينو، وأرسلت الخطابات إلى إسحاق على السجن فى لشبونة.

من هذه القصة الغريبة يهمنا هنا بالتحديد بعض النقاط التى يشدد عليها قُضاة محكمة التفتيش. كان القضاة مهتمين بشكل خاص بالمظاهر المتعددة لحياة المُدّعَى عليهم. فى المقام الأول، يريدون أن يعرفوا الدراسات التى قام بها إسحاق وكيف أتمّها. يسألونه فى أية مدرسة درس الطب، إذا ما كان درسه فى كويمبرا Coímbra أو فى سلمنكا Salamanca، ويُجيب هو بأنه تعلم الطب فى فاس. قضاة محكمة التفتيش يسألونه كيف يمكن أن يكون طبيبًا إذا لم يكن قد درس فى أي من هذين المكانين، ويسألونه ما إذا كان يعرف اللاتينية. إسحاق يمدنا حينئذ بمعلومات

رانعة عن ماهية التعليم فى فاس ليهودى من عائلة محترمة. تعلم القراءة والكتابة فى المدرسة اليهودية بالمدينة، مع صبية آخرين: يصرح بأنه لا يعرف اللغة اللاتينية، وأنه يعرف العبرية والعربية والقشتالية والكلدانية ((الآرامية))، وشيئًا من الإيطالية ويفهم بعض الكلمات من اللغة الفرنسية التى يتحدثون بها فى مارسيليا لأنه ذهب إلى هناك للتجارة، ويقول إنه يعرف اللغة البرتغالية جيدا لوجود برتغاليين كثيرين فى المغرب ولأنه كانت له تعاملات مع أسرى من معركة الملك سيباستيان وتعاملات مع الحدود البرتغالية فى إفريقيا عندما كان يذهب إليها. على وجه الخصوص تعرف على ابن كونت فيميوسو Conde de Vimioso، الذى كان يعيش فى الملاح. الموسنينو يفتخر بانتمائه لعائلة مهمة ومميزة ويؤكد أن «كل رجال عائلته الذين كانوا فى فاس كانوا إما حاخامات أو كانوا معروزين فى بلدهم وبين أبناء جيلهم».

كان قضاة محكمة التفتيش لديهم اهتمام كبير بمعرفة كيف تعلم هذه اللغات، ويشرح إسحاق أنه فى فاس نشأ على الحديث باللغة القشتالية وبالعربية مثل كل اليهود الذين ينحدرون من إسبانيا، وأنه تعلم العبرية والكلدانية أثناء دراسته فى المدرسة كما تُدرس اللاتينية هنا. يطلب قضاة محكمة التفتيش تفصيلات أكثر عن الآداب التى درسها فى فاس، وعلى يد منْ من المعلمين وبرفقة منْ من الأشخاص. ليس من المعروف إذا كان ذلك لفضول شخصى أو لاهتمام «أنثربولوجى» أو انتظارا لأن يذكر اسم شخص يهودى من أصل برتغالى. إذا كان المقصود هو الافتراض الأخير، فلا جدوى منه، لأن الموسنينو لا يُبلغ أبدا عن أحد ولا يحاول استمالة أعضاء محكمة التفتيش. الانطباع الذى تعطيه الأسئلة هو أن إسحاق سبب لأعضاء محكمة التفتيش حيرة لأنه قريب جدا (حيث أنه بالفعل ممكن اعتباره برتغاليًا) وفى نفس الوقت بعيد جدا ومختلف جدا، وفى النهاية «غريب» جدا، وهذه الحيرة تثير فيهم أيضًا فضُولا. يريدون أن يعرفوا، ويحددوا كيف يعيش عندما يكون الإنسان مثل إسحاق.

أعضاء محكمة التفتيش يريدون أن يعرفوا إذا كان قد عرف في فاس شخصا برتغاليًا عاد إلى اليهودية، ويُجيب الموسنينو على ذلك بالنفي. يسألونه ايضا ما إذا كان قد عرف يهودا تحولوا إلى المسيحية، ويذكر عدة متنصرين من طنجة في أزمنة السيد ألفونسو دى نورونها، مثل الإخوة كاموندو، أبراهام خيبرى، مويسِن بن ثاميرو. وأن كل هؤلاء المذكورين يعرفونه جيدًا.

في وقت لاحق من المحاكمة يُحضرون سالومون بن ثاميرو ليدلى بأقواله، وكان قد تنصَّر في لشبونة وعُرف باسم مانويل دى نورونها. لم يعد مويسين يظهر في المحاكمة، ومع ذلك لدينا أخبار عنه من مصادر أخرى: في عام ١٥٨٩تحول إلى المسيحية في الإسكوريال تحت اسم بابلو دى سانتا ماريا[١٠٣].

حسبما يحكي الموسنينو، كان الأخوان كامودو أو كاموندو– وهما يهوديان اسمهما يعقوب وسالومون – يسكنان في نفس شارعه بالحى اليهودى في فاس، وعلى مسافة صغيرة منهما عائلة خيبرى. يذكر الموسنينو أيضًا أنه متصاهر مع عائلة بارينتى، وأنه زوَّج ابنته لأحد أفراد هذه العائلة.

أى أنه إذا كنا قد كرسنا الاهتمام لكل أولئك الأفراد أو العائلات التى تعيش على الحدود، والتى تُعد هويتها حدودية بالتحديد، ومشاعر انتمائها مبهمة جدا، فإن عائلة الموسنينو تمثِّل نواة المجتمع اليهودى الذى ظل كما هو وعلى هامش شبه الجزيرة الأيبيرية.

درسنا حياتهم وسلسلة نسبهم في تحليل قمنا به في مؤلَّف آخر، يبين استراتيجيات المقاومة لمجتمع. تتمثل هذه الاستراتيجية في الحفاظ الصلد على عقيدة دينية وسمات ثقافية، ومن خلال أساليب شائعة مثل الزواج النظامى بين أولاد الأعمام وفى سن مبكرة جدا، وهذا أمرٌ ظاهرٌ بوضوح في سلسلة نسب عائلة الموسنينو، حيث انتقلت المعارف والتخصصات المهنية داخل العائلة نفسها. كل ذلك متطابق مع ما نعرفه عن مجتمعات يهودية بحرأوسطية من نفس القرن[١٠٤].

انه مجتمع كان يفضل فى حالة الضرورة الانجذاب نحو الشرق عن أن ينجرف فى التلوث الواضح والمخاطرة التى كان يفرضها الغرب الكاثوليكى.

بالنسبة للتعليم الذى يتلقاه يهودى من فاس معاصر لباياتشى، فإن بيانات منهجه تتكامل وتتأكد، فى نوع آخر من المصادر. الحكايات التاريخية العبرية للطائفة تشير إلى أن التعليم الرسمى لطفل يبدأ نحو سن الرابعة. كان التعليم يتم، كما كان الحال أيضا عند المسلمين، عن طريق حفظ نصوص (فى المقام الأول، التوراة) التى كانت مشروحة باللغة العربية، وكان التلاميذ يتعلمون أيضًا كتابة هذه اللغة(١٠٥).

بمعنى أن يهود فاس الذين كانوا يحضرون إلى مدرسة المعبد كانت لديهم معرفة باللغة العربية المكتوبة، بالإضافة إلى اللغة الأصلية التى يتحدثون بها. لا نعلم شيئًا عما إذا كانوا يتعلمون أو كيف يتعلمون كتابة اللغة الإسبانية التى تستلزم أبجدية مختلفة.

فى محاكمة الأخوين الموسنينو، اللذين أُعلنت براءتهما وأُعيدا إلى المغرب حيث لاتزال العائلة موجودة حتى اليوم يجئ ذكر عائلات أساسية من بين يهود فاس الإسبان فى ذلك الوقت: روتى، ثاميرو، كاموندو، خيبرى، بارينتى، سيناس ...إلخ. لم يأت ذكر عائلة باياتشى. وهذا دليل آخر يدعم ما تشير إليه الوثائق القشتالية التى رأيناها، والسبب أن الباياتشيين لم يكونوا عائلة أساسية؛ بل أناس «من الدرجة الثانية» وليست لديهم ثروة. وهناك تفسير آخر وهو أنه فى أوائل القرن، ومثل عائلات أخرى كثيرة من فاس، كان الباياتشيون قد انتقلوا للعيش فى تطوان. الوثائق الإسبانية تُطلق اسم فاس ليس فقط على المدينة لكن على «المملكة»، أى على كل المنطقة الشمالية من المغرب الحالى. لكن على الرغم من ذلك نعتقد أن عائلة باياتشى لم تكن تنتمى إلى مجموعة العائلات البارزة فى فاس. من المهم أن نضع فى الاعتبار مستواها الاجتماعى، حيث أن كونهم بعيدين فى الأساس عن دوائر السلطة السياسية والاقتصادية، فإن دخولهم لنفس هذه الدوائر

لترميد باستراتيجيات أكثر مخاطرة، وافعال أكثر شدة. ان المستوى الاجتماعي للفرد داخل الفئة يحدد درجة القدرة على الدفاع عن النفس في مواجهة الأحداث ومواجهة الأغلبية.

موريسكيون أيضًا: أحمد الحجرى وسيد الدوغالى

بدءا من أواخر القرن السادس عشر قام السعديون أيضا بتوظيف العديد من الموريسكيين في خدمتهم، كمترجمين وكعملاء موفدين في مهام في الخارج[١٠٦].

ان هجرة العائلات المهمة كانت قد بدأت منذ حرب غرناطة في الثلث الأخير من القرن السابق.

ان أبرز مثال لهؤلاء الموريسكيين الذين استخدمهم القصر المغربي هو أحمد بن قاسم الأندلسي، المعروف بالحجرى، وهو واحد من الشخصيات الأكثر تأثيرا في التاريخ الموريسكي في هذه الأزمنة الدرامية التي قُدّر لها أن تصل إلى ذروتها بالطرد الحاسم. ومن المفروض أن الحجرى قد وُلد عام ١٥٦٩ أو ١٥٧٠ في اسبانيا، ربما في إكستريمادورا، رغم أنه عاش أيضا في إشبيلية وفي مدريد. اشترك في موضوع الرّق المكتشف في برج توربيانا في غرناطة وفي الكتب الرّصاصيّة في ساكرومونتي. هذا الاكتشاف المزعوم لوثائق قديمة كان في الواقع تزييفا قام به موريسكيون متدربون: تدل الكتب المزيفة على أنه كان في غرناطة عرب في أزمنة الحواريين، وأن هؤلاء كانوا قد تنصروا على يد سانتياغو وتلاميذه. كان الهدف الواضح من التزوير هو تجنب الطرد الذى كان يُرى وشيكا عن طريق إبطال مفهوم «المسيحي الجديد»، حيث أن الموريسكيين استطاعوا أن يكونوا «مسيحيين قدماء»، وأبناء بلدأصليين أكثر من أى شخص آخر[١٠٧].

بعد ان نجح الحجرى في أن يصبح عند الناس مسيحيًا قديما، أبْحر من ميناء سانتا ماريا في قادش مستقلا سفينة متجهة إلى موقع مازاغان البرتغالى. نجح أيضا في الهروب من هذا الموقع وذهب إلى مراكش، حيث استقبله السلطان أحمد

المنصور فى عام ١٥٩٩.هناك تزوج وأسس أسرة. فى عام ١٦٠٨، عندما استقر مولاى زيدان فى مراكش، عيّنه سكرتيرا ومترجمًا للسلطان ولعب دورًا مهمًا فى الحياة الثقافية للمدينة. بعد ذلك بوقت قليل حدث طرد الموريسكيين، ورحلت مجموعة منهم إلى المنفى على متن أربع سفن فرنسية، تعرضت للسرقة والنهب من قِبل الطاقم. عندما وصلوا إلى المغرب قدّم هؤلاء الموريسكيون شكوى لمولاى زيدان الذى قرر، من أجل المطالبة بحقوقهم أمام السلطات الفرنسية، إيفاد أحمد بن قاسم إلى أوروبا حيث زار فرنسا وهولندا. كان أحمد بن قاسم رجلاً ذا ثقافة واسعة، فقد أقام علاقات وهو فى هولندا مع المستعربين الأوائل فى ليدين ومع الأمير ماوريثيو، وكذلك مع جماعة اليهود الإسبان والبرتغاليين الذين كان يشاركهم لغتهم، وأقام معهم جدلا دينيًا. كان باياتشى موجودا حينئذٍ فى هولندا، لكن للأسف ليست لدينا أخبار عن أى لقاء أو اتصال كان الحجرى بلاشك سيشير إليه فى كتابه، حيث أنه ألّف كتابًا غاية فى الأهمية عن سفره إلى أوروبا تناول فيه بالتفصيل الدقيق هذه التجارب(١٠٨).

لكن هناك شخصيات أخرى أقل أهمية من حيث المهام، وبخاصة، مهام المترجم مثل سيدى عبدالله دودار، وهو موريسكى «أندلسى مولود فى غرناطة» يتحدث الإسبانية جيدًا وشيئًا من الإيطالية، يرافق فى عام ١٦٠٠ السفارة المغربية إلى إنجلترا بصفته مترجمًا شفويًا(١٠٩). كان لأحمد المنصور مترجمٌ شفوىٌ أندلسى آخر هو عبدالرحمن الكتّانى، الذى نجده من جديد فى مراكش، فى عام ١٦٠٩، كمترجم لمولاى زيدان(١١٠). مع ذلك فإنه فى مهام بإسبانيا، أضطر السلاطين المغاربة إلى استخدام يهود وليس موريسكيين، حيث اشتد الحظر على أن يطأ هؤلاء الموريسكيين شبه الجزيرة الأيبيرية بعد الطرد من عام ١٦٠٩ــ١٤. تكررت أيضًا أوامر تمنع دخولهم إلى طنجة وسبتة والعرائش(١١١). مثال:عندما مات مولاى الشيخ لأسباب غامضة يبدو أنها تتعلق بصداقة سالومون بارينتى مع ألونسو دى نورونا، آلت ثروته وأغراضه الشخصية إلى طنجة. قام ابنه مولاى عبدالله بمساع عديدة لاستردادها، ومن بين تلك المساعى، إرسال قواده إلى سان

لوكار للتفاوض مع دوق مدينا سيدونيا. من بين القادة كان هناك موريسكيون: أمر الدوق باعتقالهم ونفيهم(١١٢). لكن سوف يكون هناك سفراء موريسكيون عديدون فى إنجلترا وهولندا: فى الفصول القادمة سوف نرى أحمد بن عبدالله المارونى ويوسف بيسكاينو.

لعب الموريسكيون المهاجرون إلى المغرب، قبل وبعد الطــرد فــى عــام ١٦٠٩ــ١٦١٤، أدوارًا مهمة فى كل أنواع الحروب، إما فى جيــوش الــسلاطين، وإما فى القرصنة، التى كانت تساعد بالإضافة إلــى ذلــك فــى النقــل الــسرّى لموريسكيين من شبه الجزيرة الأيبيرية إلى المغرب. تشكل سيرة سيد بــن فــرج الدوكالى مثالاً جيدًا عن سير هذه المجموعة من الناس. وُلِدَ سيد بن فرج فى مملكة غرناطة وهاجر إلى المغرب فى تاريخ سابق على حرب البشرات ١٥٧٠ــ١٥٧١. استقر به المقام فى تطوان حيث مارس أعمال القرصنة، ونحو عــام ١٥٦٣ عهــد إليه السلطان بتجنيد وحدة مدفعية من الجيش مكونــة مــن موريــسكيين. مــنحهم السلطان أراضى فى غوطة مراكش ليعيشوا منها. يبدو أنهم كانوا حــوالى ألفــى رجل وصاروا يكونون نوعًا من وحدة خاصة، بقيادة الدوكالى الذى شارك بــشكل بارز فى حملات عديدة للسلطان.

استمر الدوكالى يشارك فى عمليات القرصنة: فى عام ١٥٧١كان لديه فــى سلا سبعة سفن جاهزة ومستعدة لمهاجمة جزر الكنارى، قاد بهــا احــتلال شــهير ونهب لمدينة الرصيف Arrecife فى لانثاروتى. ظلــت الــسيادة المطلقــة علــى الجزيرة للدوكالى ورجاله خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر من نفس ذلك العام. فــى عام ١٥٧٣نهب الدوكالى مدينة لاس كويباس دى المنصورة فى إقلــيم غرناطــة، وأخذ كل سكانها أسرى إلى المغرب.

بالإضافة إلى ذلك، ظل الدوكالى وجنوده الموريسكيون (المصادر العربيــة تطلق عليهم اسم أندلسيون وهو الاسم الأعم) يشاركون من أجــل الــسلطان فــى عمليات ضد قبائل متمردة كانت ترفض دفع الضرائب، وكذلك فــى الاســتعدادات

لمعركة القصر الكبير. ولأن السلطان لم يكن يعرف أين سينزل الملك سيباستيان، أرسل السلطان عبدالملك فرقًا إلى أماكن مختلفة من الساحل، وأُوفد الدوكالى، الذى كان حينئذٍ برتبة «باشا» إلى سوس لحماية قائد ساحل أجير. مات عبدالملك،كما قلنا، فى المعركة، وكانت المغامرة الأخيرة والطموحة لهذا الموريسكى هى محاولة القيام بانقلاب عسكرى ضد خليفته، أحمد المنصور، والتى أُعدم بسببها فى عام ١٥٧٩[١٠٣]. فى الفصول التالية سوف نرى صمويل على علاقة وثيقة بموريسكيين مثل الدوكالى، فى الجيش وفى حرب القرصنة.

وأخيرًا، كان فى القصر والجيش السعدى مجموعة ثالثة منشأها شبه الجزيرة الأيبيرية كبيرة العدد ومهمة من حيث التأثير والنفوذ، وهى المجموعة المكونة من المرتدين عن النصرانية والذين عادوا إلى الإسلام. إذا كان تأثيرهم فى الجيش وفى القصر شديد التميز أحيانًا، فإن وضعهم كان غير مستقر مثل وضع اليهود. فقد كانت ثرواتهم تتكون بنفس السرعة التى كانت تتفكك بها وتبعًا لهوى أصحاب النفوذ.

كان المرتدون من المسيحية إلى الإسلام والموريسكيون واليهود الإسبان هم السبب الذى جعل دول شمال أوروبا، وخاصة إنجلترا وهولندا، تضطر إلى أن تكون اتصالاتها الدبلوماسية مع المغرب ومراسلاتها مع هذا البلد دائمًا باللغة الإسبانية. إن خبرة المعاملات مع المغرب جعلت إنجلترا وهولندا تتصلان بيهود، وتقرران إحضار بعضًا منهم للعمل فى خدمتهما. وكما فعل البرتغاليون من قبلهم، استعان الإنجليز بمترجمين ووسطاء يهود فى تعاملاتهم مع الشرق منذ بدايات شركة شرق الهند. وعلى سبيل المثال، ففى عام ١٦٠١ كانت هناك سفينة إنجليزية تابعة لهذه الشركة، فى طريقها إلى الهند، وكانت تحمل على متنها يهوديًّا أحضره الإنجليز من المغرب. قائد حملة فرنسية مشابهة يُدعى فرانسوا بيرارد، تقابل معهم مصادفة فى سورات على الساحل الغربى للهند، ويشير فى يوميات سفره إلى أن هذا اليهودى كان يعرف العربية والإسبانية والبرتغالية، وكان قادرًا على التفاهم مع

أصـــحابها الأصـــليين(١١٤).لَعِـــبَ أبراهـــام نابـــارو Abraham Navarroنفـــس الدور،ولنفس الشركة فى أواخر القرن(١١٥).

فى المجموعة الموريسكية المنفية إلى المغرب يمكن أيضًا ملاحظـــة نفـــس التنوع فى الانتماءات الدينية الممتزجة والاختلاط المتغير بـــين عناصـــر ثقافيـــة مختلفة. من المدهش أن نُثْبِت إلى أى درجة، فى هذا القرن الذى أولت فيـــه دولتـــا شبه الجزيرة الأيبيرية ظَهْرَيْهما إلى البحر المتوسط وإلى مواجهتهما مع الإســـلام، ظلت المغرب وشبه الجزيرة الأيبيرية متداخلتين بعمق. كانت الجبهة شديدة التداخل وشديدة التغير، بحيث لا تكاد تبقى على حال؛ بل هى عبارة عن منطقة شاسعة من مد البحر تتعاقب فيها المياه فى حركات بطيئة ومستمرة صعودًا وهبوطًـــا. إنهـــا منطقة ليست رمالها دومًا تحت الماء ولا هى جافة كليةً.

فى الفترة التى قمنا بدراستها رأينا حركة مزدوجة. فى المقام الأول وبـــدءًا من أواخر القرن الخامس عشر، هجرة ليهود إسبان إلى المغرب، وتشخيص معين لهذه الأرض كأرض مضادة للإسبان والبرتغاليين. هذا التشخيص يظل تقريبًا بـــلا ثغرات حتى أواخر القرن السادس عشر، كما تُثْبِتُ الاحتفالات اليهودية إزاء هزيمة الملك سيباستيان. فى المغرب، مع ذلك، يحتفظون بسمات ثقافية واضـــحة خاصـــة بسكان شبه الجزيرة الأيبيرية وبوجه خاص جدا اللغة. وُجدت القشتالية فى المقـــام الأول لكن البرتغالية ستتواجد أيضًا حسبما تزداد على مدى القرن الـــسادس عـــشر هجرة مسيحيين برتغاليين جدد من أصل يهودى إلى المغرب، ويتواجد برتغاليون، بوجه عام، فى المغرب العربى. تبدو اللغة إذن أساسية فى هذه الهويـــة الثقافيـــة، لدرجة أن الاتصال المكتوب فى داخل الجماعة اليهوديـــة يبـــدو أنـــه يـــتم عبـــر الأخميادية – العبرية والإسبانية وليس من خلال العبرية والعربية كما يحدث فـــى الجماعات اليهودية فى باقى العالم العربى المسلم. فلا يجب أن ننـــسى أن اليهـــود المغاربة، ومن بينهم اليهود من أصل إسبانى، كانوا بالإضافة إلى ذلـــك متحـــدثين بالعربية.

الحالات التى عرضناها تبين إلى أى حد كانت العناصر الثقافية المختلطة، تتعايش وتتناوب فى أسرة بعينها، وفى فرد بعينه وكيف كانت الهويات المتعددة منسجمة.

الحركة الثانية تحدث بعد ذلك بقرن، بدءًا من العقد الأول من القرن السابع عشر فى اتجاه معاكس: يهود مغاربة يهاجرون، بعد تحولهم مسبقا، إلى المسيحية، إلى إسبانيا والبرتغال، ولديهم معارف باللغتين العربية والعبرية أكبر بكثير فى هذه الحالة الأخيرة، من معرفة اليهود الذين يمارسون شعائرهم سرًّا الذين بقوا فى شبه الجزيرة الأيبيرية. إن هذا أمر واضح أكدنا على أهميته عدة مرات، حيث أن اليهود فى السر الذين يعيشون فى شبه الجزيرة الأيبيرية لم يكن بمقدورهم تلقى تعليم فى مدارس يهودية. وجدير بالذكر أن المنحدرين من اليهود الأكثر تمسكا بدينهم، أى هؤلاء الذين فضلوا الطرد على التنصر، اختاروا، بعد ثلاثة أو أربعة أجيال، التحول إلى المسيحية بهدف العودة إلى بلد لم يُولدوا فيه.

فى هذه الحركة المزدوجة لم يكونوا وحدهم؛ فهناك مجموعات أخرى قليلة العدد منشؤها شبه الجزيرة الأيبيرية مثل الموريسكيين والمسيحيين الذين أسلموا، اتبعوا مسارًا مماثلاً وفى نفس الفترات التاريخية.

هـوامش الفصل الثاني

1 في الالتماس الذي قدمه الأخوان باياتشي في الثامن عشر من شـهر إبريـل من عام ١٦٠٨ من أجل الحصول على تصريح بالسفر إلى هولنـدا، يُقـال بوضوح شديد أنهما كانا

"van natiende professie der Hebreeuwen, geborente Fees in Barbarije ..." أيْ: مولودان في فاس ببلاد البربر.

SIHM. Pays-Bas, I, pp. 273-275.

انظر التذييل.

2 Diego de Torres, Relación del origen y suceso de los xarifes y del estado de los reinos de Marruecos. Fez y Tarudante, Sevilla,1586.Ed.M.García Arenal, Madrid.1980. pp.192-194.

3 J. de Mendoça. Jornada de Africa,Lisboa.1607.Lib.II. cap. XV.

4 Nicolaas Claevnaerts (Nicolás de Clenard)

عاش في الحي اليهودي في فاس خلال عام ١٥٤١،

Véase R. Le Tourneau. "Notes sur les lettres latines de Nicholas de Clenard relatant son sejour dans le royaume de Fes (1540-1541)". Hespáris. XIX (1934). pp. 45-63: P.S. van Koningsveld. "Mijn Kharúf: Over de Arabische leermeester van Nicolaas Cleynaerts". Sharqiyyat 9/2 (1997). pp. 139-161, passim.

5 Historia de los Reyes Católicos. en Crónicas de losReyes de Castilla.III. (BAF.LXX) Madrid. 1953. p.601a. Véase también Chebet Yebudá (La vara de judá de Salomón ben Verga. Trad. F. Cantera. Granada.1927. pp.53 y ss.

6 J.Genot-Bismuth, "Le mythe de l'Orient dans l'eschatologie des juifs d'Espagne á l'époque des conversions forcées et de l'expulsion", Annales E.S.C. 45, n.°4 (1990), pp. 819-838 y D. B. Rudeman, "Hope against hope: Jewish and Christian Messianic expectations in the Late Middle Ages", Exilio y Diáspora. Homenaje al Prof.H. Beinart, Madrid-Jerusalén, 1991, pp. 185-202.

7 Véase H. Ben Sasson, "Exilio y redención a ojos de la generación de exiliados de Sefarad"(en hebreo), YitzhakBaer Jubilee Volume. Jerusalén. 1961, pp. 216-227.

يوجد عند سابا وصف عام لموقف اليهود المبعدين نحو المسلمين في تعارض مع موقفهم نحو المسيحيين.

8 Un comentario a la Torab, Zeror Hamor, Venecia, 1522. Véase especialmente fol. 47, apud j. Genot, Bismuth, art cit., p. 820.

9 Laredo, " Les 'Purim' de Tánger", Hespéris, XXXV (1948) pp. 193-203. F. Cantera, "El 'Purim' del Rey Don Sebastián", Sefarad V (1945), pp. 219-225.

من أجل معالجة أكثر استفاضة لكل هذه القضية، انظر :

L. Valensi Fables de la Mémoire La glorieuse bataille des Trois Rois, París, 1992, cap. IV.

10 F. Cantera (trad.). El Libro de la Cabala de Abraham ben Salomón de Torrutid. Salamanca, 1928, pp. 42-43.

يتناول برنالديث أيضًا خبر الحريق، ويصف حالات البؤس التى تعرض لها المهاجرون إلى المغرب وكيف أنهم بين عامى ١٩٤٣، ١٩٤٦ لم يتوقفـوا عن العودة إلى إسبانيا. "كل اليهود الذين عبروا إلى مملكة فاس وعادوا إلى هنا كانوا يأتون عرايا وحُفاة وممتلئين بالقمل، وموتى من الجوع ومعرضين للخطر بشكل سيئ جدا، بحيث أن رؤيتهم كانت تثير الألم...".

11 Y.D. Sémach, "Une chronique juive de Fès: le Yahas Fes de Ribbi Abner Hassafaty, Hespéris, XIX (1934), pp. 79-94, p.92

12 J.A. Tavim. Judeos em Marrocos. P.75

13 Luis del Mármol, Descripción general de Africa, Málaga, 1599, f.91r. y v.

14 Mármol, op. Cit.,II, 92r.

15 Mendoça, op. Cit., fol. 11v.

16 Mendoça, op. Cit., fol. 11r.

17 Bernardo da Cruz, Chronica de El Rei D., Sebastião, Lisboa 1837,p.371.

18 Cf. H. Beinart, "Fas, merkaz le giur we la sibat anusim la-yahadut"

("فاس، مركز هجرة وعودة لاعتناق اليهودية")، حيث تُدْرس بعض مصادر محاكم التفتيش المذكورة هنا.

19 T.F. Glick. "Moriscos and Marranos as Agents of Technological Diffusion", History of Technology, 17 (1995), pp. 113-125, p.119 Véase Joseph Tedghi, "Books. Manuscripts and Hebrew

Printing in Fez" (en hebreo) pe'amim, LII, pp.47-74

يقدم شرحًا موجزًا لتسعة كتب مطبوعة فى فاس فى تلك السنوات. فى مكتبة ساسُون اللندنية يحتفظ بثلاثة نماذج من كتب مطبوعة فى فاس باللغة العبرية فى عام ١٥٢١.

20 خولن نونييث، ترزى من طليطلة، ذهب إلى فاس مع المطرودين ثم عاد بعد ذلك إلى طليطلة. تمت محاكمته بين عامى (١٥٢١، ١٥٢٣). فى محاكمة بدرو سيرّانو أدلى بالتصريح رجل يهودى كان قد ذهب مع أبويه إلى فاس وظل هناك لمدة ست عشرة سنة، وعاد بعد ذلك إلى إسبانيا وتنصر.

يتحدث عن مُدّعى عليه " كان يريد العبور إلى بلاد البربر ... وحسم الأمر بذهابه مع مسلمين إلى أراضيها ... والاحتفاظ [هناك] بدين اليهود".

21 L. wolf. The Jews in the Canary Islands. Londres, 1926. P. 90.

22 AHN, Inquisición, Leg. 176, n.° 11,

23 " [...] وموجود فى الحى اليهودى فى فاس ويضع شارة يهودى على القلنسوة وختنه حاخام اليهود ... وتعلم العبرية ليعرف الدين بشكل أفضل مع اليهود الآخرين، كان مبتهجًا جدا ومسرورًا جدا لأنه عاد يهوديًا ... كان بصدد القراءة وكان يصلى فى معبد اليهود وكان يضع وهو فى المعبد أحزمةً يسمونها Tafelis، ... كان يضع شريطًا ضيقًا من الجلد كضمادة للجبهة كانت تتدلى من خلف ظهره حتى خصره وهناك كانت تُربط، وكان يحتفظ بها فى الفرن الزجاجى ..." الفعل "meldar" يعنى "يقرأ" و"يصلى".

24 J.A. tavim, Judeus em Marrocos. Pp. 108 y ss.

25 N. Clenardus, Correspondence, trad. A. Roersch. 3 vols.

Bruselas, 1941, vol.III. 73, carta de 21 de agosto de 1541.

26 Véase J.S. Gerber, Jewish Society in Fez. P. 78.

27 Crónica de Almancor sultão de Marrocos (1578-1603). Ed. A. Días Farinha. Lisboa, 1997, pp.70 y ss.

الحكاية لا يُعرف مؤلفها، لكن ناشرها ينسبها إلى سالدانها.

28 **Op. Cit., p. 85**

29 Op. Cit., p. 82.

30 Op. Cit., pp. 402 y ss.

31 Al-fishtali, Manabil al/safa, p.42.

32 Mármol, Descripción, II, f.33. Jerónimo de Mendoça. Jornada de Africa, f.125.

33 Saldanha, op., cit., p.183.

34 Saldanha, op., cit., p. 84

35 في محضر محكمة التفتيش الخاص بت بيثيتى لورينثو (AN/ TT, ... 18-20) يأتى ذكر لستة يهود برتغاليين يعملون فى مصانع تكرير السكر فـى سوس. انظر أيضًا:

Saldanha, op., cit., p. 78.

36 Op., cit., p.86.

37 J.C. Boyajian, "The New Christians Reconsidered: Evidence from Lisbon's Portuguese Bankers,1497-1647", Studia Rosenthaliana XIII,2 (1979), pp.129-156

38 José Alberto Rodrigues da Silva Tavim, "Os judeus e a expansão portuguesa na India durante o século XVI. O exemplo de Isaac do Cairo". Arquivos do Centro Cultural Calouste Gulbenkian, 33 (1994), pp.137-260.

39 عن كل هذه القضية نُحيل القارئ إلى:

A.J. Saraiva, inquisição e cristãos-moro Oporto, 1969.

40 María José Ferro Tavaros, "Judeus de sinal em Portugal no século XVI", Culture História e Filosofia, V (1986), pp.339-363.

41 عن باستياو دى بارجاس يمكن الرجوع إلى:

R. Ricard, "Bastião de Vargas, agent de Jean III de Portugal au Maroc". Al-Andalus, X (1945), pp.53-77 y "Datos complementarios sobre Bastião de Vargas. agente de Juan III de Portugal den la corte de Fez", id., pp.383-386.

42 SIHM. Portugal. IV, pp.55 y ss.

43 A. Dominguez Ortiz. La clase social de losconversos en Castilla en la Edad Moderna, Madrid, 1955, pp.87. y Kaplan. From Spanisb court to Italian Ghetto: Isaac Cardoso, a study in Seventeenth Century Christianity to Judaism. The Story of Isaac Orohio de Castro, Oxford 1989, Cap.I, "From Portugal to Spain"; Y. H. Yersushalmi Marranism and Jewish Apologetics, Londres, 1971, pp.8 y ss.

44 Apud Dominguez Oritz, op. Cit., p.114.

45 Apud Dominguez Oritz, op. Cit., p.114, nota 21.

46 بالنسبة لهذه القضية وللصفحات التالية أنظر:

M. Garcia y M. de Bunos. Los españoles y el norte de Africa, siglos XV – XVIII, Madrid. 1992.

47 J. Contreras. "Cristianos de España y judios de Amsterdam: emigración, familia y negocios en J. Lechner y H, den Boer (eds. España y Holanda Ponencias Leídas durante el Quinto Coloquio Hispano-holandés de Historiadores. Amesterdam. 1955, pp.187-213

48 D.M.Swetschinski, "Kinship and commerce: the foundations of Portuguese Jewish life in Seventeenth Century Holland", Studia Rosenthaliana, XV, I (1981) pp.52-74

49 عن وثيقتي فينيثيا وليفورنو، انظر:

B. Ravid, "The first Charter of the Jewish Merchants of Venice, 1589", AJS Review,I (1976), pp. 187-222.

50 عن عائلة منيديس، انظر SIHM, Pays-Bas, V, pp.31-33 etc.
H.P. Salomón, "Mendes. Benveniste, de Luna, Micas, Nasci: the state of the art", The Jewish Quarterly Review, LXXXVIII (1998), pp. 135-211.

51 J.Israel, Empires and Entrepots. The Dutch, the Spanish monarechy and the Jewish 1585-1713. Londres, 1990e idem, "A

conflict of Empires: Spain and the Netherland,1618-1648", Past and Present,76 (1977), pp.34-74.

52 Véase J.S. Gerber, Jewish society in Fez. 1450-1700, Leiden, 1980, cap. XV "Jews in commerce", pp.159 y ss.

53 انظر على سبيل المثال:

SIHM. Angleterre.II, doc. XXXVIII, p.117,

الذى يُدلى فيه سير كريستوفر باركينز بنصائح حول البروتوكول الذى ينبغي مراعاته في البلاط المغربي ويقول إنه يجب على السفير الإنجليزى أن يخاطب السلطان بكلمة "إمبراطور" (خطأ، بالإسبانية) وإلى ابنه بكلمة "سمو".

54 عن فترة حُكم أحمد المنصور، انظر:

D. Yahya, Morocco in the Sixteenth Century Problems and patterns in African foreign policy, Londres, 1981.

55 Mármol,op, cit., II, fol. 100v.

56 SIHM, Angleterre, II, p.11, nota2.

57 انظر على سبيل المثال المراسلات بين "الشيخ روت" وبالتاسار بولو فى عام١٥٩٥

AGS, Estado, Leg. 492, passim.

58 SIHM, Portugal,II, passim.

59 Gozalbes, Los Moriscos en Marruccos, Granada, 1992, p.103.

60 Por ejemplo, SIHM, Portugal, III, docs. XIX, XXI.

61 R. Ricard, "Notice sur Bastião de Vargas, agent de Jean III au Portugal", SIHM Portugal,III, pp.176-190.

62 SIHM, Portugal,III, p.20.

63 SIHM, Portugal,V, pp.50,52-54.

64 Laredo, op., cit. P.552.

65 "Baptême d'un Juif de Fès a l'Escorial (1589)", Hespéris (1937), p. 136.

66 Mármol, op. Cit.,II, 54r.

67 Mármol, op. Cit.,II, 55v.

68 Gerber, jewish Society in Fez, pp.94 y ss.

69 SIHM. Espagne, I, p.246: Portugal. II, pp. 562, 583.

70 SIHM, Portugal. IV. P.239.

71 A. Laredo. Les moms des Juifs du Maroc. Madrid, 1978. Senanes, pp. 906 y ss. Pariente, pp.980 y ss. Rute, pp. 375 y ss. Ben Zemiro, pp. 550 y ss.

72 J. Israel, "The Jews of Spanish North Africa. 1600-1669", Jewish Historical Society of England Transactions, vol. XXVI, (1979), pp. 71-72.

73 ADM. Leg. 2409, diciembre de 1614.

74 ADM. Leg. 2411, diciembre de 1619.

75 Véase Jacob Cansino, "Relación de los servicios de Jacob Cansino y los de su padre" publicado como introducción a la edición de Extremos y Grandezas de Constanemopla compuesto por Rabi Moysen Almosnino, Madrid, 1638.

76 انظر على سبيل المثال. ADM. Leg. 2407 خطاب من الملك إلى الـدوق، بتاريخ ٧ ديسمبر ١٦١٢.

77 G. Vajda, "Un recueil de textes historiques judéo-marocaines, Hespéris", XXXV (1978), p.326.

78 M. Garcia-Arenal. "Les bildiyyin de Fes: un groupe de neo-musulmans d'origine juive". Studia Islamica, LXVI (1987), pp.113-144.

79 SIHM. Angleterre,II, p.501, Pays Bas,III, p.14.

80 ابن وايش هو "تاجر الملك (أبو فارس)"، SIHM,Angleterre,II, pp.233-363.

81 SIHM,Angleterre,II,p.490.

82 SIHM, Pays Bas,III, p.532 y IV passim.

83 SIHM,Angleterre,II, pp.233-263,441, 468, Pays-Bas,I, pp.341, 441, 445, 500, 297-300, Pays-Bas,III, pp.283,286, 288,525.

84 Gozalbes, op, cit., p.131.

85 AGS, Guerra y Marina. Leg. 662.

86 AgS, Estado, Leg. 493، يطلب خوانيتين مورتارا إذن مرور من أجل

ناتان بينتيرنى، خادم مولاى الشيخ ومقرب جدا منه. يطلب إذن المرور لــه ولأسرته على حدٍ سواء لكى يستطيعوا المرور سواء إلى إسبانيا أو إلى أى ثغر من ثغورها. يعتقد خوانيتين أن هذا اليهودى مهم جدا وأنــه لا يمكــن التفكير فى عمل صفقة مع مولاى الشيخ إلا بواسطته.

87 Rojas, op, cit., fol. 67v.

88 J.de Mendoça es muy explícito al respecto. Véase su Jornada de Africa, fol.153v. Véase también Joelyne Dakhlia, "Réinscriptions linagéres et redéfinitons sexuelles des convertis dans les cours maghrébins (XVIe-XIXe siêcles" (en prensa).

89 F.R. Mediano, "Portugueses en Marruecos: cautivos de la batalla de Alcazar-quivir" (en prensa).

90 AGS, Estado, leg. 494.

91 Véase Mendoca, Jornada de Africa, lib.I cap.III y lib.II cap. V.

92 SIHM,Pays-Bas,IV,pp.352 y ss., 355, 482 y ss. 513 y ss. Etc.

93 يتحدث خوان لوبس دى روخاس باستفاضة عن هذه المشكلة، وحتــى عــن الحالات التى كان الموريسكيون مستعدين فيها للعودة بــصفتهم عبيــد، op, cit.,fols.60-61

94 AGS, Estado, Leg.495.

95 AGS, Guerra y Marina, Leg. 660, año 1606.

96 British Museum. Add. 10.719

97 AGS, guerra y Marina. Leg 645, 1505.

خوان ألونسو دى موسكوسو، مسلم المولد، اصله من سلاسل جبال مليلـــة، يمر حاملاً أسلحةً وممتطيًا حصانًا

AGS, Guerra y Marina. Leg. 670, año 1607:

خوان إينريكيث، تنصر فى مليلة، يأتى إلى إســبانيا مــع أســرته وأبنائـــه العشرة.

98 Arquivo Nacional de Torre do Tombo (AN/TT) Inquisicão, n. "4356 publicado por J.A.Tavim en Os judeus na expansão Portuguesa em Marrocos ... pp.569-572"

99 SIHM, France,I, pp.178-181.

100 SIHM,Angleterre,I, pp. 48-49.

101 AN/TT. Inquisição. Leg. 5393. Véase M. García Arenal. "Los judios de Fez a través del proceso inquisitorial de los Almosnino (1621)"(en prensa).

Véase E. Denison Ross. Sir Anthony Sherley and his Persion Adventure. Londres, 1933,

مع أن الكتاب مُنصبُّ على شقيقه، إلا أنه يُقدِّم أخبارًا كثيرة عن روبرت.

103 وثائق التعميد بالإسكوريال، المؤرخة فى الثالث من إبريل من عـــام ١٥٨٩ تقدم "رجلاً يبلغ من العمر أربعين سنة، يهودى المولد، أصله من فاس وكان يُدعى فى اليهودية موسى بن ثاميرُو ويدعى فى العماد بابلو دى سانتا ماريا ...".

"Baptéme d'un Juif de Fes a l'Escorial (1589)", Hespéris. XXIV (1937), p.136.

104 The Autobiography of a Seventeenth Century Venetian Rabbi. Leon Modernase y trad. M. Cohen, Princeton,1989, pp. 14-15.

105 Apud J. Gerber, Jewish Society in Fez… pp.78-80.

106 Véase por ejemplo G.A. wiegers, "Learned Moriscos and Arabic studies in the Netherlands, 1609-1624", en J. Lüdtke (ed.), Romania Arabica. Festschrift für Reinhold kontzizum 70. Geburtstag, Tubinga, 1996, pp. 405-417.

107 كانت هذه القضية الغاية فى الأهمية موضوع دراسات عديدة. يمكن الرجوع إلـى التلخـيص العـام لهـذه القـضية عنـد Julio Caro Baroja, Las falsificaciones de la historia (en relación con la de España), Madrid, 1991, cap.III.

108 Al-Hayarí, Kitab nasiral-din'ala l-qawm al-kafirin. Historical study critical edición and annotated translation, por P.S. van Koningsveld. Q. al-Samarrai y G.A. wie Wiegers, Madrid.1997.

109 SIHM,Angleterre,II,pp.166-203.

110 SIHM,Angleterre,II,pp. 214-215: Pays-Bas. I, p.644.

111 AND, Leg. 2409, Carta del Rey a los gobernadores de las plazas, 9 mayo 1613.

112 كل الموضوع، بما فيه وصف ممتلكات مولاى الشيخ التى كانـت تـشتمل بالفعل على أحجار كريمة كثيرة، موجود فى الربطـة رقـم ٢٤ بأرشـيف ميدينا سيدونيا. فى الخامس والعشرين من سبتمبر ١٦١٤ كتب الملك إلـى الدوق " فيما يتعلق بقيادة مولاى عبدالله الذين جاءوا من أجل المطالبة بثروة

أبيه وأقرُّ لكم كونكم مكّنتم للموريسكيين الذين جاءوا مـــع أولئـــك القـــادة، وسوف يكفي نفيهم وإخراجهم من هذه الممالك".

113 M. Garcia Arenal, "Vidas ejemplares. Sa'id ibn Faray al-Dugali (m. 987/157*) un granadino en Maruecos" en M. Garcia Arenal y M.J. Viguera (eds.), Relaciones de la Peninisula Ibérica con el Magreb, madrid, 1988, pp.453-486.

114 B. Lionel Abrahams, "A Jew in the Service of the East India Company in 1601", the Jewish Quarterly Review.IX (1897), pp.173-175.

115 W.J.Fischel, "Abraham Navarro, Jewish interpreter and diplomat in the service of the English East India Company(1682-1692)", Proceedings of the American Academy for Jewish Research, XXV (1956), pp.39-62.

الفصل الثالث

بين هولندا والمغرب

فى أواخر القرن السادس عشر حدثت فى أوروبا كارثة دينية وسياسية كبيرة سببت انهيار الثقافة الأوروبية. إن إدراك الكاثوليك والبروتستانت أن نتيجة حروبهم هي تعادل الطرفين، دون وجود غالب واضح، قد ولّد، بدءًا من عام ١٥٧٠، واقعًا ثقافيًا وسياسيًا مختلفا جذريًا بالإضافة إلى أزمة روحية وفكرية طويلة أحدثت تشككًا عميقًا، عبارة عن إلحاد تقريبًا. هذه الأزمة، بالإضافة إلى أنماط جديدة للعمل سياسية واقتصادية، هي التى تسمح، حسب خ. إسرائيل، بظهور الجماعات اليهودية فى أوروبا وبدورها الجديد(١).

كما قلنا سابقًا، عندما أصبحت هولندا تشكل جزءًا من اتحاد أوتريتشت فى عام ١٥٧٩، ضمنت حرية الاعتقاد فى أراضيها، طالما أن شعائر هذا الدين تمارس فى السر: كانت الشعائر الدينية للكنيسة الرسمية هى فقط التى تمارس علنًا. لقد استمرت المدن متمسكة بإخلاص بتقاليدها المضادة لليهودية واستمر منع دخول اليهود إليها(٢). وبالتالى، فإن الأعضاء الأوائل لـ «الأمة البرتغالية» اليهودية الذين استقروا فى مدينة أمستردام أقاموا تلك الجماعة بصفتهم مسيحيين.

من أين ولماذا أتى هؤلاء المهاجرون؟ إحدى نتائج إقامة طرق تجارية مع العالم الجديد ومع الشرق، فى أواخر القرن الخامس عشر، كان ظهور ونمو مدينة أمبيريس. أتاح لها موقعها الجغرافى وظروفها السياسية أن تصبح العاصمة التجارية لشمال أوروبا. احتفظ كارلوس الخامس بالامتيازات القديمة للمدينة، وضمن رؤساء بلديات مدينة أمبيريس الأمن لرأس المال وضرائب منخفضة وحقوق مدنية للتجار الأجانب الذين شكلوا فيها جاليات حقيقية.

إحدى هذه الجاليات كانت مكونة من يهود متنصرين برتغاليين، «أُناس من الأمة» أو من «الأمة البرتغالية» كما تقول الوثائق المنتمية لتلك الفترة. كانوا ينعمون في أمبيريس بالأمن التجاري وبالتحرر من رقابة محكمة التفتيش بينما كانوا مسيحيين صُورِيًا.

في عام ١٥٦٥ أسس فيليبي الثاني محكمة التفتيش في الأراضي التابعة له في فلاندس، وهَجّر عديد من التجار المدينة وكان ذلك لصالح هامبورج ولندن أو لا روتشيل La Rochelle. مع ذلك، لم يبدأ انهيار المدينة حقيقة إلا بعد أن حدث تمرد هولندا ضد التاج الإسباني. لقد سبَّب ذلك التمرد المذابح التي ارتكبها الإسبان في عام١٥٧٦ وأدى إلى اتحاد أمبيريس مع جمهورية السبع أقاليم المتحدة في عام ١٥٧٧. سبب سقوط أمبيريس في أيدي الإسبان عام ١٥٨٥موجة هجرة هائلة لأتباع لوثر وكالفينو نحو أقاليم الشمال المتحدة. مع هؤلاء اللاجئين وصل أعضاء مما كان يعرف في أمبيريس بـ «أمة برتغالية». الحصار الذي فرضته الجمهورية الجديدة في أمبيريس عام ١٥٩٥ انتهى بتفكيك تجمع رجال الأعمال البرتغاليين في هذه المدينة. استقروا لبعض الوقت في هامبورج. لكن عندما بدأت أمستردام تلعب دورًا بارزًا في التجارة الدولية، خاصة بعد توقيع الهدنة بين إسبانيا وهولندا عام ١٦٠٩، اختار تجار المهجر من اليهود المتنصرين هذه المدينة كمركز رئيسي لهم، وتخصصوا في التجارة مع شبه الجزيرة الأيبيرية ومع الشمال الشرقي البرازيلي، وطوروا سريعًا فروعًا كثيرة لتجارة ما وراء البحار وللصناعة، وعلى وجه الخصوص شغل الأحجار الكريمة. إن هدنة الاثني عشر عامًا (١٦٠٩ ــ ١٦٢١) فتحت فترة لازدهار غير عادي للتجارة الهولندية. إن استمرار حصار أمبيريس خلال تلك السنوات أتاح لهولندا في ظل إنعدام ضوابط فعَّالة من جانب المملكة الإسبانية، أن تقوم بدور الوسيط بين الشمال والجنوب وأن تشارك في تدفقات الفضة الأمريكية. كان الغش والتهريب الواسع النطاق يُمارسان أيضًا باستمرار، في مرات كثيرة، بالاشتراك مع تجار برتغاليين، خاصة في دخول العملة المزيفة وتوريد الفضة إلى فرنسا[٣].

فى ظل ظروف اقتصادية وتجارية مربحة جدا، انضم إلى المهاجرين قليلى العدد من اليهود البرتغاليين القادمين من أمبيريس والذين استقروا فى أمستردام فى عام ١٥٩٣، انضم إليهم يهود مستترون من إسبانيا والبرتغال بالإضافة إلى يهود إسبان من جماعات إيطاليا ومن المشرق ومن شمال إفريقيا. هؤلاء الذين كانوا معروفين فى شبه الجزيرة الأيبيرية «كمسيحيين جدد» عادوا فى أمستردام إلى دين أجدادهم وتحولوا هكذا إلى «يهود جدد»[٤].

بدأت اليهودية فى أمستردام، كما فى باقى أوروبا الغربية، بحذر شديد ومضى بعض الوقت قبل أن يحصل اليهود على اعتراف قانوني. كانت الأعوام من ١٦٠٩ إلى ١٦٢١، التى استمرت خلالها الهدنة مع إسبانيا، ذات نمو ملحوظ بالنسبة للجماعة اليهودية الإسبانو- برتغالية فى أمستردام، والتى أصبحت أنشطتها التجارية ذات أهمية أساسية بالنسبة للمدينة. لم يعد وجودهم، بالتالى، مثار شك.

نحو عام ١٦٠٣منحت السلطات البلدية فيما يبدو النواة الصغيرة من التجار الأيبيريين إمكانية ممارسة عقيدتهم اليهودية بشرط أن يقيموا الطقوس الدينية فى السّر. بدأت الجمعية الدينية الأولى (بيت يعقوب) فى ممارسة عملها فى عام ١٦٠٣ فى منزل رجل برتغالى يُدعى يعقوب تيرادو Jacob Tirado.الجمعية الثانية، جماعة نيفى سالوم Neve Salom، يرجع تاريخها تقريبًا إلى ما بين عام ١٦٠٨ و ١٦١٠[٥]. يبدو أن بعض الأعضاء الأكثر التزامًا فى هذه الجماعة (من بينهم إسحاق فرانكو Ysaac Franco) طلبوا إذنًا، نحو عام ١٦١٢،لإنشاء معبد يهودى علنى فى أمستردام. انفجر احتجاج شعبى غاضب، وقررت سلطات المدينة إيقاف العمل. تحت ضغط كالفينو صدرت فى أمستردام سلسلة من القيود: لم يكن فى مقدور اليهود العمل فى كل المهن، ولا الزواج من مسيحيين، ولا الجدل علنًا مع هؤلاء حول موضوعات دينية، ولا تحويل مسيحيين إلى اليهودية، ولا حتّى بناء واستخدام معابد يهودية[٦].مع ذلك، يبدو من المحتمل أن المبنى، القريب من المكان الذى توجد فيه اليوم كنيسة موثيس Mozes فى أيرون Aäron، استُخدم

كمعبد من قِبل جماعة نيفى سالوم بعد عام ١٦١٢[٧]. هذا المعبد المتواضع الذى لا يكاد يعترف أحد أنه المعبد، معبد لا يمكن مقارنته ولا الخلط بينه وبين المعبد الكبير، المسمى «إينوجا» الذى شيّد فى عام ١٦٧٥والذى لايزال من الممكن اليوم زيارته فى المدينة. هذه الجماعات التى أنشأها الذين بقوا خلال أجيال بعيدين عن الممارسة العلنية لليهودية، كانت فى حاجة لجذب حاخامات وخبراء فى الشريعة اليهودية من أوساط نمت فيها هذه الشريعة بصورة طبيعية. فى هذا الاتجاه كانت فينيسياVenecia هى نقطة الصلة الرئيسية، وكذلك فاس لكن بدرجة أقل، والإمبراطورية العثمانية بوجه عام[٨]. كان أوّل حاخام لجماعة نيفى سالوم على ما يبدو، هو خودا فيجا، الذى قَدِمَ من أراضٍ تابعة للإمبراطورية العثمانية. بين عامى١٦١٦و١٦٢٢كان حاخام الجماعة هو إسحاق أوزْيِل من فاس[٩]. حتى عام١٦١٤ تَعَيَّن على الجماعات اليهودية فى أمستردام دفن موتاهم فى جرويت، بالقرب من الكمارAlkmaar. طالبوا مرتين دون أن ينجحوا بمكان لدفن موتاهم فى أمستردام، وأجيب طلبهم فى عام١٦١٤بمنحهم أرضًا لذلك بالقرب من المدينة، فى القرية التى تُسمَّى أوديركيرك آن دى أمستيل. هناك دُفن صمويل باياتشى عام١٦١٦.

منذ بداية القرن السابع عشر كانت الجماعة البرتغالية فى أمستردام تتطور بأسلوب يجعلها تؤسس لنفسها فى كل مرة حدودًا عنصرية أكثر وضوحًا. لكن قبل عام ١٦١٤لم تكن بَعْدُ عبارة عن جماعة برتغالية تقوم هويتها فحسب على روابط نَسَب ولغة مشتركة وجانب ثقافى. إن أهم مظهر لهذا النهج التدريجى الذى سيؤدى إلى وضع أهدافٍ برتغالية واضحة للجماعة كان إنشاء جمعية تجهيز اليتيمات والعرائس الفقيرات. كان هدف هذه الجمعية التى لاتزال موجودة هو مساعدة اليتيمات والعرائس الفقيرات فى جميع مناطق أوروبا حيث يتركز أناس من الأمة البرتغالية[١٠]. خلال القرن السابع عشر كانت العلاقات الداخلية بين اليهود البرتغاليين فى أمستردام تصبح كل مرّة أكثر توطيدًا وتماسكًا، كما يُظْهِر بوضوح تكوين شبكاتهم التجارية وأسلوبهم فى عقد الزيجات[١١].

طبقا لبوديان Bodian، فإن الجماعة البرتغالية كانت تضم يهودا ينتمون للتراث القديم، أى أعضاء من جماعات ذات أصل إسبانى أو برتغالى استقروا منذ أكثر من قرن فى أماكن متفرقة من حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ أى العالم الذى كانت تنتمى إليه عائلة باياتشى[١٢].

فى تلك الفترة أيضا كان هناك موريسكيون كثيرون يتوافدون على أمستردام. ففى كتابات مؤرخ متعاطف جدا مع إسبانيا، مثل فرانس فان دوسيلدورب (١٥٦٦ــ١٦١٥)، نجد فقرة مهمة جدا عن قدومهم فى ١٦٠٩ــ١٦١٠: «بعضهم [الموريسكيون..] توجهوا فى الحال إلى أمستردام، المدينة التى مُنِحوا فيها مكانا للاجتماع [معبد يهودى]. حضر هناك أبرز ملحدى تلك الجماعة، بعد أن اختتنوا. إلى هذه الدرجة [طبقا لما يقول دوسيلدورب] كان المذهب الكالفينى متفقا مع الإسلام»[١٣].ومع أنَّ فان دوسيلدورب ليست له سمعة طيبة بالنسبة لمصداقيته كمؤرخ، إلا أن هناك دليل آخر يُدَعِّم ما يقوله هنا عن وصول موريسكيين إلى أمستردام[١٤]. علاوة على ذلك، كانت هناك حالات لموريسكيين فى أمستردام أرادوا التحول إلى اليهودية: لورينثو إسكوديرو، موسيقى وممثل كوميدى من أندلوثيا، من أصل موريسكى واضح، استقر فى أمستردام فى أواسط القرن السابع عشر وأبدى رغبته فى التحول إلى اليهودية، غير أن زعماء الجماعة رفضوا بشدة تحويله وقبوله كعضو[١٥]. فى عام ١٦٠٩ أرْسَلَ دوق مدينا سيدونيا تحذيرًا إلى القصر حول معاملات كان الموريسكيون يقيمونها مع الهولنديين وكيف أن كثيرين كانوا يهربون إلى هولندا[١٦].

سان خوان دى لوث مرة أخرى

كانت هناك اتصالات مستمرة بين البرتغاليين فى سان خوان دى لوث، حيث تركنا عائلة باياتشى فى عام ١٦٠٧، وبين البرتغاليين فى أمستردام[١٧].كانت سان خوان دى لوث مرحلة وقع عليها اختيار كثيرين من الذين هربوا من شبه الجزيرة الأيبيرية، من اليهود والموريسكيين على حدٍ سواء[١٨].

هذا الموضع، مثل موانئ فرنسية أخرى على المحيط الأطلنطى، كان يشكل جزءًا من الشبكات التجارية الهولندية التى كانوا يستخدمونها إزاء استحالة مجئ الهولنديين إلى الموانئ الإسبانية للتجارة الإسبانية من خلال العائلات الكبيرة لتجار يهود ـ متنصرين. هؤلاء كانوا يحملون أصوافًا وأجواخًا قشتالية جيدة إلى جنوب فرنسا، حيث كانوا يستبدلونها ببضائع يتسلمونها هناك من سفن هولندية. وقد أتاح ازدهار هذه الأنشطة بداية ما سوف يصبح تدعيمًا قوية للجماعات اليهودية البرتغالية فى الجنوب الغربى الفرنسي(١٩). فتح طرد الموريسكيين الذى تقرر عام١٦٠٩، مجالاً جديدًا لهذه التجارة وللتجارة غير الشرعية. لقد خوّل أمر الطرد للموريسكيين بيع ممتلكاتهم، فيما عدا الأصول، وكان بمقدورهم أخذ ثرواتهم معهم نقودًا لكن ليس فضةً أو ذهبًا أو مجوهرات أو كمبيالات. إزاء هذه التدابير القاسية،حاول البعض منهم إخراج ثرواتهم ونقودهم ومعادنهم النفيسة إلى الخارج متجنبين نقاط رقابة الموظفين الملكيين. إنّ خروج الموريسكيين المطرودين من قشتالة نحو فرنسا جعل من التجار البرتغاليين، الذين لهم خبرة فى التجارة غير الشرعية ولهم شبكات تجارية ممتازة على جانبى جبال البرانس ـ جعل منهم العملاء المناسبين لهذه المهمة(٢٠).

يحتفظ أرشيف سيمانكاس بوثائق كثيرة تثبت، بالإضافة إلى ذلك، كيف أن يهودًا وموريسكيين فى هذه المنطقة كانوا يتعاونون فيما بينهم من أجل الحصول على صكوك ملكية لإخراج نقود من إسبانيا(٢١). بين فبراير ويونيو من عام ١٦١٢ كتب شخصٌ يُدعى لورينثو سواريث Lorenzo Suarez إلى الملك من سان خوان دى لوث ليخبره عن تحركات الموريسكيين فى جنوب فرنسا(٢٢).

يقول:

« إنّ موريسكيين كثيرين عادوا عن طريق البحر إلى ميناء سان خوان دى لوث ذاك، يَحْمِلُ بعضهم وثائق مزورة أعطاها لهم شخص يُدعى

فرانثيسكو الغوردو، وهو موريسكى من سكان الماغرو، بسعر ثلاثمائة ريال وقام بتزوير توقيع الكونت سالاثار وتوقيع سكرتيره وآخرين لعلمهم بقلة تدقيق المحاكم العادية معهم وبخاصة المحاكم التابعة لأماكن السادة وبعضهم (عادوا) من أجل البقاء فى إسبانيا وآخرون من أجل إخراج المال الذى تركوه فيها مخبأ ومحفوظًا حيث كانوا يعيشون، وبعضهم تم التبليغ عنهم والإخطار بالمكان الذى سيسكنون فيه وقُبض عليهم وعُوقبوا».

«إنَّ المال الذى أخذه بعض البرتغاليين كانوا يسلمونه إلى مارتين ساباتو دى أولاثابال، من سكان إيرون، فى بيتٍ له خارج المدينة ومنه يُخرج ساباتو المال ويحمله مع ابن عم له وأبنائه إلى خارج المملكة ويُسلِّمه إلى أنطونيو منديث كاردوسو وفرانثيسكو نونييث وهما شخصان مرشحان من قِبل البرتغاليين من أجل تسليم المال والذهب والجواهر التى كانوا يخرجونها من المملكة سرًّا **ويؤخذ على السلطة القضائية فى ذلك الميناء قلة صرامتها فى الأمور الخاصة بخدمة جلالتكم؛** ولهذا السبب فإن كمية كبيرة من العملة من ثروات الموريسكيين والبرتغاليين على حدٍ سواء تخرج من المملكة ويأخذونها إلى تركيا، التى هى مصدر الأضرار التى تلحق بنا».

«إن الطريقة التي يتبعونها في مراسلاتهم هي إرسال الخطابات إلى سان خوان دى لوث إلى شخص يُدعى فابيان ماروتو وهو موريسكى وكان من سكان أبيلا ومن هناك يقوم بتوجيهها إلى ... خيرونيمو إنريكيث في بايونا، الذين يعملون كوكلاء عن أعضاء هذه الأمة.

وكان خيرونيمو إنريكيث يقوم بإرسالها إلى فينيسيا إلى يهوديَّين اسمُهُما أبراهان شاكوتو Habrahan Çacuto وأبراهان موغنيون Abrahan Mugnion الوكيلان في تلك المدينة لهذه المراسلات ومن هناك يوجهانها إلى تونس والقسطنطينية وبالتالي تأتي الردود، وكانا يرسلان خطابات إلى الذين بقوا في هذه الممالك كي يخبروهم بكل ما يحدث وما يستجد من أمور وهذا يؤدي إلى إلحاق الضرر».

إنَّ الطُرق من سان خوان دى لوث كان يمكنها أنْ تؤدى إلى فينيسيا وتونس واسطنبول. مع ذلك ؛ ففي حالة عائلة باياتشى، كانت المرحلة التالية هي أمستردام حيث ظهروا في عام ١٦٠٨. وصلت عائلة باياتشى إذن إلى أمستردام في اللحظة التي بدأت تتكون فيها الجمعيات اليهودية الأولى في المدينة.

مع ذلك، فطبقًا لما يقول هيرشبرج Hirschberg، كان أفراد عائلة باياتشى موجودين في أمستردام قبل ذلك بسنوات. يقول إنه في عام ١٥٩٦ نجد صمويل وجوزيف بصفتهما تاجرين في المدينة حيث يأتي ذِكْرهما في قائمة المشاركين البرتغاليين الأوائل الذين اجتمعوا في بيت صمويل حيث أُحْتُفِلَ بأول احتفال علني

بيوم كيبور عام ١٥٩٦. كان المصدر الأساسى لـــ هيرشبرج هو كتاب «التـــاريخ العالمى اليهودى» للشاعر والكاتب دانيل ليفى دى بارّيوس، وهو قليل المـــصداقية كمصدر تاريخى، هذا الكتاب يذكر صمويل وجوزيف بين رؤوس الجماعة فى عام ١٥٩٧(الموافق بالتقويم العبرى٥٣٥٧) ويقول إنهم كانوا يجتمعون للصلاة فى بيت صمويل. هذا الخبر يوجد أيضًا فى كتاب «انتصار الحكومة الـــشعبية اليهوديـــة» لبارّيوس[٢٣] حيث يتضمن قائمة الستة عشر شخصًا يهوديًّا ومن بينهم «صـــمويل باياتشى بالاستحقاق الذى يُحسب له لتردد الناس على بيته من أجل الصلاة». لكـــن هذه الأخبار ليست أكيدة، كما أثبت عديد من الباحثين[٢٤].إن أكثر ما يمكن قوله هو أنه ربما شارك أفراد عائلة باياتشى فى تأسيس الجماعة الثانية، نيفى ـالوم، نحـــو عام ١٦١٠[٢٥]، لكن ليست لدينا دلائل تثبت هذا التأكيد.

يؤكد تصريح أدلى به أمام مُوثّق العقود وليم بينينـــك Willem Benninck فى الحادى والعشرين من يونيو عام١٦١٧ أنَّ صمويل وجوزيف كانا قـــد وصـــلا إلى هولندا منذ حوالى عشر سنوات. فى هذا السِّجل التـــوثيقى يـــصرح دوارتـــى فرنانديث وتُجَّار برتغاليون آخرون من أمستردام بناءً على طلـــب مـــن جوزيـــف باياتشى أنَّ الأخوين صمويل وجوزيف باياتشى كانا قد وصلا منذ عـــشر ســـنوات إلى أمستردام ومعهم كمية كبيرة من المال.بعد ذلك بشهور قليلة، حَسْبَ ما أدلى به المُقِرُّون، استأجرا سفينة محملة بالبضائع رحل فيها صمويل متجهًا إلـــى المغـــرب. ليُحضر زوجتيهما وأبنائهما وعائلتهما وممتلكاتهما. بعد أن نـــزل صـــمويل فـــى تطوان، وصلوا إلى صافى حيث هُوجمت السفينة من قِبل بعض القراصـــنة الـــذين استولوا على كل الممتلكات، التى كان من بينها ذهب وعَمْبَـــر وأدوات للاســـتخدام المنزلى. لذلك وصلوا إلى أمستردام بدون أى متاع شخصى، ومنـــذ ذلـــك الحـــين كرَّس صمويل نفسه فحسب لخدمة السلطان المغربى، يُسلِّح ويستأجر سفنًا لخدمته، دون أن يتفرغ أبدًا لعقد صفقات شخصية[٢٦].إنها وثيقة مهمة جدا سوف نرجع إليها فيما بعد حيث أنها تُفهم من سياق الأحداث اللاحقة.

لاشك، في رأينا، أن الباياتشيين قد وصلوا أمستردام لأول مـرّة فـي عـام ١٦٠٨ وليس عن طريق الصدفة؛ بل مُستغلين اتصالهم ــ لا نعرف كيف ولا متى حدث ــ مع دوارتي فرنانديس أو فرنانديث، وهو يهودى برتغالى من المدينة. يبدأ صمويل بالتوجه إلى الولايات العامة (جهاز الحكومة الهولندية)، يلتمس منها جواز مرور متجنبًا بتعقل الحديث عن سنوات إقامته فى إسبانيا: يقـدم نفـسه كيهـودى يرغب في ترك المغرب بسبب انعدام الأمن نظرًا للحروب الداخليـة، ويريـد أن يستقر في هولندا. الوثيقة، المؤرخة فى ٨ من أبريل عام ١٦٠٨، تلـتمس جـواز المرور لكلا الأخوين، وهما يهوديان من فاس في بلاد البربر[٢٧]. الوثيقة لا تقـول شيئًا، بالطبع، عن اقامتهما فى إسبانيا ولا عن محاولاتهما مـع الإسـبان. تَمنَحُـهُ الولايات جواز المرور. بعد ذلك بقليل ودون أن نعرف لماذا ــ ربما لأن الولايات أُخبرت عن إقامته فى إسبانيا ــ يسحبون منه جواز المرور ويعود صـمويل إلـى المغرب لكن وهو مستعد لأن يستخدم المعارف والاتصالات التـى أجراهـا فـى هولندا.

طبقًا لما تشير إليه بعض المصادر، ربما وهو فـى طريقـه بـين لاهـاى والمغرب سعى إلى تحقيق شيء فى إيطاليا، حيث توجد دلائل في الوثائق على أن جوزيف توجه إلى حيث دوق توسكانا بينما عاد صمويل إلى المغرب[٢٨]. على أية حال، كان صمويل فى المغرب فى خريف عام١٦٠٨.

يغلب على الظن أنّ تطوان كانت، فى تلك السنوات، مقر إقامـة الأخـوين باياتشى. يقول العميل الهولندى فى المغرب، كوىCoy، فى خطاب إلى الولايـات العامة مؤرخ فى ١٦٠٨ إنّ صمويل باياتشى قبل أيام قليلة كان قـد وصـل مـن هولندا إلى ميناء صافى وتوجه إلى تطوان ليأخذ زوجتـه وأبنـاءه حيـث كـانوا يفكرون فى الرحيل عنها إلى أمستردام. إنه فى هذا الـصدد يتفـق مـع المـستند الوثائقى الذى أشرنا إليه سابقًا. لكنه خلال مرور صمويل بتطوان أجرى اتصالات مع حاكم المدينة، المُقدّم أحمد النقسيسس الذى كان قد أعلـن قبـل ذلـك بـشهور

استقلاله عن مولاى الشيخ، وكان يحاول عمل اتصالات مع مولاى زيدان[٢٩]. لهذا الغرض، كُلِّف صمويل باياتشى بمهمة بالقرب من قصر مولاى زيدان، فى مراكش[٣٠].بالإضافة إلى المهمة التى كلّفه بها النقسيسal-Naqsis، استغلّ صمويل مقابلته مع السلطان ليمدح أمامه هولندا،معطيا إياه فكرةً عن عظمتها وازدهارها وكذلك عن الاتصالات الجيدة التى أجراها هو، باياتشى، هناك وكم كانت تقدّر له[٣١]، لدرجة أن الشريف أرسله إلى هولندا كعميل له وكلّفه بتسليم خطاب إلى أمير أورانجى.وهكذا كتب مولاى زيدان إلى ماوريثيو دى ناسّاو Mauricio de Nassau، فى الأول من أكتوبر من عام ١٦٠٨: «معروف جيدًا، على الرغم من الاختلاف فى الدّين، ما تجلبه السفارات إلى عظمة الإمبراطوريات...خادم بيتنا الكريم، الذى يدير بحماس مصالحنا...الذّمى صمويل باياتشى، سوف يصل عندكم إن شاء الله ...»[٣٢] إن الحيلة التى كان قد حاولها فى إسبانيا دون جدوى قد أثمرت الآن.

بعد ذلك بقليل وصل الأخوان باياتشى وعائلتاهما إلى هولندا. إن نشاط صمويل من حيث كونه عميلاً لمولاى زيدان يبدأ من فبراير من عام١٦٠٩حينما يلتمس من الولايات ثلاث سفن حربية لنقل قوات وأسلحة إلى المغرب: أرسلت الولايات سفينتين بقيادة وولفرت هيرمانسز، رحل صمويل فى هذه السفينة، مع بضاعة تخص تجار من أمستردام مع التزام بإحضار المال نقدًا مقابلها عند العودة[٣٣]. عند عودته فى أغسطس من نفس العام، برفقة السفير حمو بن بشيرHammu ben Bashir، سيجد صمويل نفسه متورطًا فى أولى قضاياه ومحاكماته الكثيرة لعدم تسليمه المبلغ الذى تعهد به ولإقراره بإفلاسه.

خوسويه وموسى

بأسلوب مشابه، يصل خوسويه باياتشى (ابن جوزيف) فى يوليو من عام ١٦٠٩فى بروكسل إلى منزل مركيز غوادا ليستى، السفير الإسبانى فى فلانديس،

ويقول إنّ عنده أخبارًا كثيرة يريد أن يزود بها جلالة الملك. يقول إنه كان في مدريد عام ١٦٠٧ وإنه أراد أن يتحول إلى المسيحية، لكن أباه وعمه منعاه من ذلك وأخرجاه بالقوة من ميناء بايونا حيث رحلوا بحرًا حتى أمستردام، وعندما بدت لهم البلد طيبة قرروا الاستقرار فيها وترك فاس، وبهدف تحقيق هذا الانتقال عادوا، إلى تطوان في المغرب: يخبره عن خطط المقدم النقسيس للاستيلاء على سبتة ولمهاجمة العرائش مع مولاى زيدان ليسترضيه وليظهر له صدق نواياه، يدلى بأسماء يهود متنصرين يعيشون فى إسبانيا والبرتغال وهولندا،وهم يهود فى السر، ويؤكد أنه يستطيع أن يشير إلى كثيرين آخرين إذا قرر الإسبان التعاقد على خدماته[٣٤].

ليس غريبًا أن يقوم المتنصرون أو الذين كانوا يريدون التصالح مع الكنيسة الكاثوليكية بالإبلاغ عن بنى جنسهم كدليل على حُسْن نواياهم. الحالة الأكثر بروزًا هى حالة هِكتور ميندس برابو، الذى زوَّد محكمة تفتيش لشبونة بأسماء ١١٩ متهودًا برتغاليًا كانوا يعيشون فى هولندا[٣٥]. على نحو خاص يتحدث خوسويه باياتشى عن دوارتى فرنانديث، وهو تاجر مستقر فى هولندا، يبدو أنه كان قد ساعد فى استقرار العائلة. ستعود هذه الشخصية للظهور فى الوثائق مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بصمويل ويُبلِّغ عنه أيضًا شخص آخر يتهمه باتباع اليهودية[٣٦]. لا يشير ابن جوزيف باياتشى فى هذا الخطاب إلى سبب خروجه من إسبانيا (المشاكل مع محكمة التفتيش) ويحضر،هو وأخوه، كمنْ أُخرجا بالقوة على يد أبيهما وعمهما اللذين كانا يريدان تجنب تنصيرهما، بينما رأينا أن هذا الأب والعم كانا قد حاولا استخدام هذا التنصر للبقاء فى إسبانيا. ليست هذه هى الوثيقة الوحيدة التى لدينا والتى يعلن فيها أعضاء من العائلة انفصالهم عنها، بينما فى الحقيقة كانوا دائمًا متحدين. فى هذه الحالة يبدو أن أبناء باياتشى كانوا يسعون لأن يُسمح لهم من جديد بالذهاب إلى إسبانيا، حيث تريد العائلة أن يكون لها شخص هناك، على حساب أن يظهروا كمنفصلين ومرفوضين من قِبل الأب والعم، وهو ما يجب أن يعطى، فى

نظر المحكمة الإسبانية، دليلاً على الصدق وصحة التنصر. أى أنهم في الوقت الذى يحاولون فيه أن يكونوا عملاء للمغرب في هولندا، مازالوا يحاولون العودة إلى إسبانيا، أو على الأقل الاحتفاظ بركيزة، جزء من العائلة، فيها. هناك أكثر من ذلك، فمن القراءة المتأنية للرسالة يمكن الاستدلال على أنّ خوسويه كان يعمل حسب ما يُمليه عليه صمويل، حيث أنه يُصيرّ على أنّ «من المناسب جدا بذل جهد حتى يأتى عمُه إلى إسبانيا ويكشف عن اتفاقات سرّية كبيرة»، مشيرًا إلى المعاهدة التى تقوم هولندا بعقدها مع مولاى زيدان، «إن عمه اتفق مع ولايات هولندا أنه كلّما كان الملك المسلم فى حاجة إلى استغاثة من الأسطول من أجل مواجهته إسبانيا يُمِدُّونَه بعدد مائة سفينة حربية، مع كل ما هو ضرورى». وأخيرًا، «لكى يمكن التفاوض بشكل أفضل على قدوم عمه صمويل باياتشى إلى إسبانيا، من المناسب الإعلان عن أنه ذاهب إلى لاروتشيلا حيث له تجار يعرفهم من وقت أن كان فى فاس». رُبَّما يُفسّر هذا التصرف تعقيب السفير الفرنسى فى مدريد حينما ينهى كلامه عن سفر الأخوين باياتشى إلى هولندا، «اللذين بعد أن سافرا إلى هولندا، ذهب أحدهم من هناك إلى ملك مراكش مع ما اتفق عليه، وذهب الآخر إلى الدوق الذى أرسل من هناك أحد أبنائه الذى يمكنه أن يُنهى ما تفاوضوا عليه مع سادة الولايات»، ويضيف، «إنهم يخدعون هؤلاء وأولئك من أجل الحصول على مكسب»[٣٧].

بالنسبة لِتحوُّل ابنىّ جوزيف باياتشى إلى المسيحية، فإن تحوّل خوسويه لا ينبغى أن يكون تحولاً صادقًا. على الأقل لم يعد إلى الحديث أبدًا، طوال مسيرته، عن وضعه كمسيحى، وفى عام ١٦٤٠كان وكيلاً لأراضى ملك المغرب فى صافى، حيث عاش فيها حتى مماته فى عام١٦٥٦.نفس الشىء بالنسبة لموسى، الذى كان له باستمرار دورٌ نشطٌ جدا بجانب عمه صمويل، وفيما بعد،كمترجم لمولاى زيدان. على العكس، فقد تعين على الابن الأكبر لجوزيف، إسحاق، التحول فيما بعد إلى البروتستانتية. سوف نعرض لذلك فى الفصل السادس. إن التنصر،

سواء احتُفظ به أم لا، يبدو أنه يُشكِّل جزءًا من خِطط عائلة بايانشى للعيش بين الحدود ووضع أعضاء عديدين فى نقاط مختلفة على كلا الجانبين منها. ويحاولون أيضًا عمل اتصالات فى مدن أوروبية عديدة.

فى نفس هذا الخريف من عام ١٦٠٩الذى يتصل فيه خوسويه بماركيز غواداليستى، كان موسى، وهو أيضًا ابن لجوزيف، موجودًا فى باريس. حصل على مقابلة مع الملك متعللاً بأنه قد خَدَمَ الفرنسيين فى فلاندرس وجاء ليحصل على مكافأة. يكتب ديكارت من مدريد فيقول أنّ شخصًا كان قد تحدث مع موسى فى باريس، حكى له بالإضافة إلى هذا أنّ أباه وعمه كانا قد سافرا إلى هولندا للتفاوض مع مجلس الدولة، ومن هناك عادا إلى جوار ملك المغرب. طبقًا لخطاب ديكارت، بعد أن عاد موسى إلى هولندا «هرب من أجل المجيء إلى هنا وكشف التفاوض» أى أنه كان قد هرب من أجل الذهاب إلى مدريد وكشف أمر التفاوض بين هولندا والمغرب. وبالتالى، هو نفس الشيء الذى كان خوسيه يعرض القيام به مع مركيز غواداليستى. كان هذا التفاوض يلزم هولندا بأن تزود ملك المغرب بمائة سفينة حربية للذهاب إلى إسبانيا، حيث كانت ستحدث ثورة كبيرة(٣٨). إنها اللحظة التى يبدأ فيها طرد الموريسكيين، وكان موريسكيو فالنسيا قد ثاروا. نحن نعرف أن هولندا لم تلتزم أبدًا بشيء كهذا، لكن إذا كان موسى بايانشى قد حكى فى مدريد ما يقوله ديكارت، فإنه بلا شك لابد أن يكون قد سبَّبَ انطباعًا معينًا. فيما يبدو أن بايانشى ذكر فى مدريد أنه جاء دون أن يعلم أقاربه فى هولندا، لكن ديكارت لا يعرف إذا كان يمكنه تصديقه: «أنا لا أعلم هل كان الاثنان الآخران [من عائلة بايانشى] اللذان يقول هو إنهما بقيا هناك [فى هولندا] يجهلان أمر سفره كما يؤكد هو، أو أنهما يشاركانه محاولة الاستفادة من كل النواحى كما هو معتاد فيهما».

رأينا، إذن، أنه بعد أن استقرت عائلة بايانشى فى هولندا، أجرى خوسويه وموسى على حدٍ سواء اتصالات مع إسبانيا وفرنسا على الترتيب قائلين أنهما

يفعلان ذلك في الخفاء دون علم أبيهما جوزيف وعمهما صمويل. وكما بدا لديكارت، فإن الأمر يبدو لنا نحن أيضا صعب التصديق: إن خطة صمويل في تحركات نجلي أخيه واضحة. كلاهما يتطوعان للإعلان عن الاتفاقيات بين المغرب وهولندا، ويعرض خوسويه بوضوح خدمات عمه على الرغم من أنه في بداية تصريحه يقدم نفسه على أنه يعمل من خلف ظهريهما. إن الخداع والحركة وتوزيع أدوار العائلة إلى جوانب عديدة من الحدود الدينية والسياسية، يشكل جزءًا من خطط بقاء كل المجموعة.

على أية حال، فمن الثابت أنه، في نفس الوقت، لم يكن صمويل في عداد القيادات الأكثر بروزًا للجماعة اليهودية في أمستردام فحسب، بل كان يعتبر شخصًا شديد التدين، لم يكن هناك شك أبدًا في إيمانه. يتردد كثيرًا أن البالياتشيين ربما كانوا متصلين بإنشاء الجماعة الثانية المسماة نيفي سالوم، على الرغم من عدم وجود دليل موثق على أن ذلك كان هكذا. مع ذلك فإن المعطيات التالية تؤكد اندراجهم وعائلتهم، في هذه المرحلة الأولى، داخل الجماعة اليهودية للمدينة.

إنَّ أقدم سجل للوفيات للجماعات اليهودية في أمستردام، El livro de Beth Haim do Kabal Kados de Bet Yahacob، يذكر اسم صمويل في مناسبات عديدة، على سبيل المثال عندما يتحدث عن موقع مقبرته، وأيضًا عند الإشارة إلى وصية الدفن الخاصة بأعضاء الجماعة حيث يسمونه حاخام، وهو ما يُبيِّن أن جماعة نيفي سالوم، التي كان ينتمي إليها بلا شك، كانت تعترف له بمستوى إرشاد ديني[٣٩]. إن قيام الجماعة بشراء «نسخة من قوانين الشريعة» ربما يشير أيضًا إلى ارتباط ديني بين باياتشي وهذه الجمعية الدينية[٤٠]. نحن نعرف العلاقة بين صمويل باياتشي ودوارتي فرنانديث، الذي يُعتقد أنه ساعده منذ بداية وصوله، ونعرف أيضًا ارتباطه بالحاخام إسحاق أوثيل الفاسي؛ إلا أن هذا الحاخام لن يصل إلى أمستردام حتى عام١٦١٥[٤١].

لكن على الرغم من أنّ ذلك بعيدٌ عن كل شك، لا يبدو أبدًا أن صمويل اندمج بالكامل في كل شبكات الجماعة البرتغالية في أمستردام. على مدى حياته كلها، لا يبدو أبدًا أن صمويل باياتشي عقد صفقات مع برتغاليين، وإنما مع تجار وبحارة هولنديين، وقد حصل على قروض ائتمان أيضًا من هولنديين وليس من أعضاء من «الأمة». عندما يتعين عليه استدعاء طبيب لأبنائه، يلجأ إلى جراحين هولنديين وليس إلى أعضاء من الجماعة اليهودية(٤٢). لا شك أن العامل الذي سبب بعدًا، هذه المرة جسميًّا بحتًا، بين البرتغاليين في أمستردام وصمويل هو أنه منذ عام ١٦١١ أجبرت الولايات العامة صمويل (وليس جوزيف، الذي عاش طيلة حياته في أمستردام)(٤٣) على أن يقيم في لاهاي، حيث كان يوجد مقر الولايات العامة، حيث أن المكان الذي كان يقيم فيه العملاء الأجانب كان قريبًا من الولايات العامة. وكانت الولايات العامة تدفع إيجار مسكنه(٤٤).

لم تكن توجد بعد في لاهاي جماعة يهودية: إن مكان إقامة صمويل وسفرياته المستمرة على حدٍ سواء يجب وضعهما في الحُسبان عند النظر إلى اندراجه في الحياة اليهودية في أمستردام.

وهناك نقطة مهمة أخرى للأخذ في الاعتبار حول حدود اندماج عائلة باياتشي في الجماعة البرتغالية وهي أنه لم يتزوج أي عضو من العائلة من أية يهودية من جماعات أمستردام(٤٥). وأكثر من ذلك،كانت كاتيرينا أو كاتالينا لوبيث، ابنة خيرونيمو لوبيث، مخطوبة لإسحاق باياتشي، لكن بعد ذلك فُسخت الخطبة وتزوجت كاتيرينا من أبرام الفاريم. طلب إسحاق باياتشي تعويضًا عن المهر الذي كان قد دفعه لخطيبته(٤٦).

وأخيرًا، هناك حكاية أخرى ذات مغزى وسنوليها اهتمامًا خاصًا وهي الخاصة بموضوع البلاغ الذي قدمه إسحاق باياتشي أمام السلطات الإسبانية في بروكسل ضد إنريكي غارثيس، تاجر من أمبيريس. أكّدَ إسحاق في أمبيريس أنه على الرغم من أن غارثيس عُمِّدَ، كان يمارس اليهودية، ووسع دائرة بلاغه فتحدث

عن برتغاليين آخرين فى أمستردام عادوا إلى دين أجـداهم. صـرح بأنـه رأى سيمون دى ميركادو فى مقر المعبد اليهودى فى بيت غينيس لوبس، وشهرته إلياس خاكوب تيرادو، ذلك التيرادو الذى كان مؤسس أول معبد يهودى فى أمستردام.

هذا البلاغ لايمكن أن يضع عائلة بالياتشى فى علاقات طيبة جدا مع الجماعة البرتغالية، حيث أُقتيد سيمون دى ميركادو، أحد أعضائها البارزين، ليحـاكم فـى أمبيريس، فى محاكمة أدلى فيها إسحاق نفسه بشهادته[٤٧].

هذا البلاغ جاء انتقامًا من فشل دعوى قضائية أقامها إسحاق ضد غـارثيس ولم تحسم لصالحه.

قضية إسحاق

فى يوليو من عام ١٦١٠يتقدم إسحاق بالياتشى « يهودى مـن فـاس» فـى بروكسيل بشكوى ضد إنريكى غارثيث أو غارثيس، تاجر برتغالى من أوبورتو فى البرتغال، يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا ومقيم فى مدينة أمبيريس، وهو صهر وابن أخ لدوارتى فرنانديث[٤٨].كان غارثيس، الذى كان أحـد أجـداد الفيلـسوف باروتش إيسبينوثا، قد استقر فى أمستردام حوالى عام ١٦٠٥، لكنه ظلَّ مبتعدًا حتى نهاية حياته عن الحياة الجماعية اليهودية بحيث أنه تعيَّن عليه أن يُختن بعد موتـه فى عام ١٦١٩من أجل الحصول على تصريح بدفنه فى مدفن أودير كيرك آن دى أمستيل[٤٩]. طبقًا لشهادة إسحاق، كان غارثيس على اتصال فى أمـستردام بـسفير بلاد البربر وبصمويل وجوزيف بالياتشى، وقام هـؤلاء بتـسليمه مجموعـة مـن المصوغات من أجل أن يبيعها فى أمبيريس. ينفى غارثيس الآن أى معرفة له بهذه البضائع، وهى: أربعة أرطال من العَمْبَر فى شكل أحجار تَزِن من أربعـين إلـى ستين أوقية، وكمية من الياقوت[٥٠]، يصل عدد القطع الكبرى منها إلـى أربعـين والصغرى حتى عشرين؛ وكمية من الذهب المكسور وذهب مـن بـلاد البربـر، وجواهر ماسية مع ريش للزينة وخواتم وكمية من ماسات مفككة بدون ترصيع يبلغ عيار القطع الصغرى منها من ثلاثة إلى أربعة قراريط.

رأينا صمويل، من المعلومات الأولية التى تلقيناها عنه، يعمل فى تجارة المصوغات، ونفس الشيء سيفعله وَرَثَتُهُ من بعده. إن بيع المصوغات والماسات فى القصور الأوروبية وفى القصور المسلمة كان نشاطًا يهوديًا مميزًا، إنّ استيراد الماس الخام من الهند، وصقله وتلميعه كان يتم على نفقة التجار اليهود الذين كانوا يشتغلون أيضًا فى المرجان والكهرمان والياقوت. كانت أمبيريس مركزًا غاية فى الأهمية لبيع وشراء الأحجار الكريمة.

فى البداية ينكر إنريكى غارثيس أى علم له بهذا الأمر، لكن إسحاق يشير إلى خطابات كتبها إلى عمه صمويل، باسم مستعار هو مانويل دياث بدلاً من صمويل باياتشى[٥١]، وبأسماء وبيانات مُشَفَّرة، وأيضًا خطابات إلى دوارتى فرنانديث يتحدث فيها عن اليواقيت.

يجرى حينئذٍ فى بروكسيل تحقيق فى القضية، حيث يحضر خوان منديث إنريكيث، زوج أخت وابن عم غارثيس، الذى يعمل كممثل عنه وكفيل له. يتهم إسحاق، خوان منديث بأنه يَسُبُّهُ وأنه حينما قابله فى الشارع فى بروكسيل، «فى شارع عمومى ومفتوح». «قال له وهدَّده بهذه الطريقة» وهو يشده من ذراعه: «ياخائن، أنت كلب يهودى وحقير، يجب علىَّ أن أقتلك وأن أسدد لك ستين طعنة بيداى، إنك خائن»[٥٢]. يطالب إسحاق بالعدالة وبتعويضه. يقول أيضًا إن تاجرًا برتغاليًا آخر يدعى كريستوبال بينتو، أخبره أنّ إنريكى غارثيس أُخْطِرَ بالشكوى وبأنهم سوف يفتشون بيته، مما أعطاه الوقت لإخراج كل الأشياء التى كانت تدينه، «ولم يترك شيئًا من تلك الثروة فى بيته، وهذه حقيقة،وكذلك الكتب والأوراق». يقول إسحاق إنّ غارثيس خائن لربّه ولملكه، حيث أنه كان يعمل مع ملك بلاد البربر الذى يكن عداءً كبيرًا لملك إسبانيا، والكنيسة الكاثوليكية، مع أنه يُعرف عنه أنه مسيحى. يقول إنه بالنسبة للبرتغاليين «لا يجب النظر إليهم كجيران وكاثوليكيين حيث أنهم ليسوا كذلك إلا من أجل المصلحة والفائدة التى يحصلون عليها من هناء، وبعد ذلك يذهبون إلى هولندا حيث يمارسون كُلُّهم دينًا آخر مع كل أبناء وطنهم أو

يدخلون فى الأماكن المخصصة لليهود فى فينيسيا، وهؤلاء هم الذين يسبون الـدين أكثر منا نحن يهود الموطن لأننا لا نعرف إلا عن ديننا ... وهم، الذين وُلِدوا فـى الديانة المسيحية هم الذين يلعنون المسيحية كما يريدون وأكثر ....أتوسل لـسموكم لكى تدافعوا عن النصرانية التى يتظاهر بها هؤلاء البرتغاليون». يؤكد أن غارثيس متزوج من امرأة (ابنة دوارتى فرنانديث) ولدت فى لشبونة وعُمِّدت بعـد بلوغهـا ثمانية أيام وبعد ذلك ذهبت مع أبويها إلى فينيسيا حيث اتخذوا جميعهم مهنًا وأسماء يهودية. يتهم إسحاق أيضًا راهبًا يُدعى مارتين دل إسبيريتو سانتو، كعـدو يَـسُبُّهُ، ويقول إنه سوف يُظهر خطابات لعمٍ لهذا الراهب، تُثْبِتُ أنه كان لمدة ثلاثين عامًـا رئيسًا إقليميًّا لرهبانية لاميسيريكورديا فى لِشبونة «واليوم هـو يهـودى مُجـاهر ومُتَميِّز فى أمستردام، والرَّبُ يعلم ما يُخفيه كل واحدٍ».

يقول خوان مِنْديث إنريكيث، الذى كان يتولى حماية ابن عمه، إن غـارثيس ليس خائنًا ولا عدوًّا لصاحب الجلالة الكاثوليكى«حيث أنهم كانوا أعداءً للهمجيـين والكافرين وخاصة لأنهم فقدوا ويفقدون كل يومٍ بضائع بـسبب قراصـنتهم»، ولأنَّ «أولئك اليهود والكفرة الهمجيين ما كانوا ليأتمنوا على صفقة ذات أهميـة كبيـرة، رجلاً كاثوليكيًا ومسيحيًا مثل إنريكى غارثيس».

تطلب السلطات شهادة العديد من التجار البرتغاليين، الـذين لا يعرفـون أنَّ غارثيس كانت لديه مَصوغات للبيع، ولا أنه كانت لديه التعاملات التى يُتَّهم بهـا. يتعرفون على إسحاق «ابن أحـد البرابـرة الـذين يُـدْعَوْنَ فـى أمـستردام بالاتشيون». لا يبدو أنَّ هناك تعاطفًا كبيرًا متبادلاً بين هؤلاء اليهود البرابـرة، يهود الموطن، وهؤلاء اليهود المتنصرين البرتغـاليين. يُـضيفون أنَّ إسـحاق «رجلٌ أو غلامٌ سيئ الإعداد جدا، غير مطيع لأبيه الذى أودعه السجن بـسبب ذلك بضعة أشهر هنا، والآن خرج من السجن منذ فترة قليلة ويأتى ليثير فـى الواقع هذه القضية ضد أبيه وعمه».

أحدث موضوع الخطابات مع ذلك أثـرَه، واضطر إنريكي غارثيس للاعتراف بأنه عندما كان في أمستردام حضر لرؤية سفير بلاد البربر مع كثيرين آخرين ذهبوا بدافع الفضول (السفير المغربي وموكبه يشكلان بلا شك مشهدًا غير مألوف)، وأنه عندما كان هناك، دعاه الباياتشيون للعشاء على مائدة السفير. أمضى الليلة في نفس الفندق، وفي اليوم التالي أخذ طريقه من أمستردام إلى لاهاي بصحبة صمويل. وعندما افترقا وعده أن يكتب إليه يخبره بسلامة وصوله إلى أمبيريس. هكذا فعل ذلك، من باب المجاملة، هو أمرٌ لا يُعَد جُرمًا على الرغم من أن المجاملة توجه إلى يهودي وبربري. يبدو قلِقًا جدا عندما يسألونه عن السبب الذي جعله يتوجه إلى صمويل باياتشي وكأنه مانويل دياث، وجعله يستخدم كلمات مشفرة، وكذلك في خطاب كان يقول فيه إنه في خدمة السفير وخدمة أبيه وسيده دوارتي فرنانديث. ويُفسر ذلك بأنه لكونه يهوديًا في الأصل لم يُرِد أن يُعرف عنه أنه كانت له علاقات مع يهود الموطن. بالنسبة لليواقيت؛ فقد أعطاها له دوارتي فرنانديث لكي يبيعها في أمبيريس، ولأنه لم يحصل في مقابلها على المبلغ الذي كان يريده فرنانديث، أعادها له. صحيح أن زوجته، بسبب خوفها، قامت بإخراج كتبه من البيت، [يقوم هو بتقديمها، لكن أوائل شهري يونيو ويوليو لم تكن قد مرَّت بعد بسلام].

تشغل المحاكمة ملفًا ضخمًا، باللغتين القشتالية والبرتغالية، ويبدو أن السلطات حكمت برفض الاتهامات التي قدمها إسحاق باياتشي[٥٣]. من الصعب، بالنسبة لنا أيضًا، النظر في موضوع شديد التعقيد. لاشك أنَّ إنريكي غارثيس كان على اتصال بصمويل باياتشي، ومن المحتمل جدا أنه كُلِّف بأن يبيع له مصوغات في أمبيريس. يقول هينين Henin أيضًا إنَّ باياتشي، في تلك الرحلة، كان يحمل ماسات ويواقيت للبيع. إنَّ ما ليس سهلاً تبينه هو ما إذا كان إسحاق قدم الشكوى بناءً على طلبات من عمه أو على العكس، كما يقول التجار البرتغاليون، لأنه كان غاضبًا منه ومن أبيه وأراد أن يفسد لهم الصفقات. يقول إسحاق في شكواه «لقد هَجَرْت وَالداي وليس لي مَنْ ألجأ إليه سوى صاحب السمو الرفيع»، لكن هذه هي

الحيلة التى كان قد استخدمها شقيقاه خوسويه وموسى. لا نعرف إذا كانت خطة من أجل الحصول على مساعدة السلطات الإسبانية فى فلانديس وما إذا كان يفعلها بناءً على طلبات من أبيه ومن عمه من أجل الدفاع عن مصالح هؤلاء أمـام إنريكـى غارثيس الذى كان قد استولى حقيقةً على البضائع. فى تعارض مع هذا الافتراض، الذى يبدو لنا من حيث المبدأ أنه الأكثر احتمالاً، لدينا الواقعـة التـى أدلـى فيهـا إنريكى غارثيس عام ١٦١٧بشهادة لصالح صمويل باياتشى فى وثيقة شرعية أكـد فيها عديد من التجار أنَّ صمويل كان قد فقد ثروته على أيدى قراصنة عندما جـاء إلى هولندا لأول مرَّة.

على أية حال، لقد بذل إسحاق جهدًا كبيرًا فى هذه القضية، وعندما لم تحكـم المحكمة لصالحه، أبلغ ــ كيهودى ــ عن عديد من التجار البرتغاليين الذين رآهـم يمارسون اليهودية فى أمستردام. لكننا نعرف أيضًا أن لقاء إنريكى غارثيس مع آل باياتشى لم يكن مصادفة ولم يذهب ليراهم «بدافع الفضول» كما يـشير هـو فـى القضية. إن آل غارثيس كانوا أبناء شقيق دوارتى فرنانديث وبصفتهم هذه كانوا منذ لحظة وصولهم على اتصال بصمويل. وعليه فإن وثيقة محكمة التفتيش المحفوظـة فى لشبونة والمتعلقة بابن شقيق آخر لفرنانديث يُـدعى بـاولو غـارثيس Paulo Garcés، شقيق إنريكى، تعد وثيقة كاشفة.

باولو غارثيس، الذى يقول إنه يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا وأصـله من أوبورتو، مَثُلَ طوعًا أمام محكمة تفتيش لشبونة فى أبريل من عام ١٦٢٠بهدف التصالح مع الكنيسة الكاثوليكية وإعادة قبوله فى كنفها. قال إنه كان فـى فلانـدس وأضاء الرب طريقه وإنه قرر أن يتنصر ويعود إلى البرتغال، وهو ما فعله، فقـد استقل سفينة من قادش، ومنها ذهب إلى إشبيلية، ومن هناك إلى لشبونة ليمثُلَ أمام محكمة التفتيش. هناك يحكى قصة حياته ويخضع للاستجواب: وُلِدَ فى أوبورتـو، وعندما بلغ من العمر ستة سنوات أرسلته أمه مع رجلٍ هولندى إلى أمستردام لكى يتربى فى اليهودية فى بيت خاله دوارتى فرنانديث. بعد فترة قليلة من وصوله قام

الحاخام جوزيف باردو ليبانتيسكو أى «ليبانتينو» بإجراء الختان له فـــى الكنـــيس المسمَّى بيت يعقوب وأسماه أبراهام غارثيس.بعد ذلك ألحقوه بالدراسة فى مكتـــب الحاخام جوزيف كوين (خطأ كتابى فى اسم كوهين)، تركى الجنسية، الذى تـــولى تثقيفه فى دين موسى باللغة الإسبانية، وعلّمه العبرية. وعلى سبيل المثال، فقد تعلّم مزامير داود عن طريق الحفظ بالعبرية والإسبانية. فى أمستردام تعلّم ــ بالإضافة إلى ذلك ــ قراءة وكتابة اللغة البرتغالية واللغة الهولندية، وهى اللغة التـــى أتقنهـــا سريعًا. عندما وصل السفير باياتشى من بلاد البربر، قام خاله دوارتى فرنانـــديث بوضعه بجانبه ليساعده فى اللغة الهولندية. بالإضافة إلى ذلك «منذ تسع أو عـــشر سنوات»، أى، نحو عام١٦١٠وعندما كان باولو غلامًا يبلغ من العمر اثنى عـــشرة عامًا، أرسله خاله دوارتى فرنانديث إلى بلاد البربر مع سفير السلطان (الذى يسميه غارثيس جوزيف باياتشى، لكن من خلال التواريخ وما يحكيه عن المهمة يجب أن يكون صمويل)، ومكث معه حوالى شهرين أو ثلاثة فى موغادور وصافى وأغادير أو سانتا كروث، ومن هناك عاد مع باياتشى نفسه وفى نفس السفينة إلى هولنـــدا: «لقد ذهب مع السفير المذكور من أجل أن يترجم الخطابات الهولندية إلـــى اللغـــة الإسبانية أو البرتغالية، كما فعل فى الواقع أمام مـــولاى زيـــدان، وأن الخطابـــات المذكورة كانت تتعلق باتفاقيات سلام وتجارة كانت ولايات فلاندس قد أبرمتها مـــع السلطان». فى السفينة التى سافرا فيها حملا معهما كميات كبيـــرة مـــن البنـــادق والذخائر والبارود وأحضرا عند عودتهما مالاً فى صورة ذهب. عندما رأى مولاى زيدان أن غارثيس كان فتى متيقظًا ومفيد جدا، عرض عليه البقاء فى قصره، لكنه لم يقبل أبدًا. يروقنا أن نتخيل باياتشى برفقة هذا الغـــلام الفطـــن، طفـــل تقريبًـــا، مترجمه الشخصى للغة الهولندية. بالإضافة إلى ذلك، ينبغى أن يكون ذلك قد حدث فى نفس الفترة التى كان إسحاق يشكو فيها إنريكى غارثيس فى بروكسيل وقال هذا الأخير إنه لم يكن له اتصال مع آل باياتشى.

سأله أعضاء محكمة التفتيش، بالطبع، ما إذا كان يعرف اللاتينية، وهو أمر كان يهمهم كثيرًا، رأيناهم أيضًا يسألونه في الحال عن آل الموسنينو، ويكرر هو «إنه لا يعرف اللاتينية، لكنه يتحدث الهولندية جيدًا ويتحدث بشكل أفضل بالمناسبة اللغة البرتغالية وأنه يعرف أيضًا أن يقرأ ويكتب البرتغالية وأنه تعلمها في فلاندس في مكتب خاله دوارتي فرنانديث، وأنه يعرف أيضًا أن يتحدث الفرنسية والإنجليزية» ويسرد المرات التي كان فيها بغرض إنجاز أعمال في لندن وفي هامبورج.يصف أيضًا بالتفصيل كيف ومتى كان يصلي في الكنيس عندما كان صبيًا وماذا كان يرتدي من أجل ذلك، وأي مناسبات صوم كان يحافظ عليها، وماذا كان يأكل، وأي أعياد كان يحافظ عليها، إلخ. لكنه بوجه خاص، يدلي بأسماء تسعين يهوديًا برتغاليًا من أمستردام بأسمائهم وأسماء زوجاتهم وأبنائهم، وعلاقات القرابة بينهم ووظائفهم. وهي أسماء معروفة جيدًا: أوسوريو، الباريث ميُو، إيستيبيس، غوميس دي أكوستا، مونتالتو... صفحات وصفحات من الوثيقة التابعة لمحكمة التفتيش. يتحدث عن أخيه الأكبر لويس غارثيس، المتزوج من غراثيا إنريكيس. لا نستطيع أن نوضح إن كان هذا هو نفس الشخص المدعو إنريكيس غارثيس، الخاص بقضية إسحاق، الذي كان متزوجًا من فتاة من عائلة أنريكس، أو أن الأمر يتعلق بشقيقين مختلفين.

إنها ليست بالوثيقة التي تختلف إلى حد كبير عن الوثيقة التي تتناول اتصال خوسويه بمركيز غواداليستي، وهي الوثيقة التي تكلمنا عنها في العنوان السابق. وكما حدث فيما يتعلق بقضية إسحاق، هنا أيضًا يستحيل علينا التمييز بين الخداع والنية السليمة. كذلك ليس من السهل معرفة – في حالة أن تكون خطة بحتة موجهة للمنفعة الشخصية أو العائلية (وهو الافتراض الذي نميل إليه) – إلى أي درجة كانت تَضُرُّ جماعة أمستردام بالبلاغات. ربما احتاج دوارتي فرنانديث إلى عميل في لشبونة، ورغم كل ذلك،ماذا يمكن أنْ يعود بالضرر على يهود أمستردام هؤلاء أنَّ محكمة التفتيش البرتغالية، التي هم بعيدون عن سيطرتها، تَعْرِفُ أسماءهم؟ ربَّما، ــ كما نظن – أنَّ البلاغ كان أقل من حيث التأثير، و«الخيانة» أقل خطورة

مما تبدو لنا الآن. على أيَّة حال، لاشك أنها كانت مُدبَّرة ومدروسة بعناية على الرغم من أنها تفلت منا الآن. إنها تحركات معقدة أكثر من اللازم ومتعرجة، حركات تتلوى في شكل حلزوني كثير الزخارف، وكأن ذلك بهدف أن لا نستطيع تمييز ما هو الموجود حقيقةً في الخلف.

لكن على الرغم من العلاقة بدوارتي فرنانديث وبأبناء أخته غارثيس (أو ربما بالتحديد بسبب هذه العلاقة ؟) لا يبدو من حيث المبدأ أن الباياتشيين من حيث أنهم «يهود برابرة» استطاعوا بسهولة أن يتعايشوا مع اليهود المتنصرين البرتغاليين، الذين كانت لهم شبكات قرابة وتجارة وثيقة جدا. كانت هناك شكوك واختلافات متعددة يمكن أن تنشأ بينهم. لا صمويل ولا ورثته كانوا أعضاء في العائلات الكبيرة لتجار وأصحاب أعمال «الأمة».

في أوائل عام ١٦٠٩يشير خطاب – موجه من مولاى زيدان إلى الولايات العامة – إلى صمويل باياتشى على أنه «خادمنا وعميلنا»[٥٥]، نفس هذا الخطاب يصف حمو بن بشير بكلمة «سفير»[٥٦]، وباياتشى هو مترجمه الشفوى: في خطاب بتاريخ ٧ اكتوبر١٦٠٩يُعلِن رالف وينوورد Ralph Winwood، عميل إنجلترا في هولندا، عن وصول السفير المغربى، حمو بن بشير، بصحبة «مترجم، يُدعى جيو، يتعامل باللغة الإسبانية»[٥٧]. كلاهما كانا مكلفين بإبرام اتفاق تجارى مع هولندا وهو اتفاق وُقِّعَ في أواخر عام ١٦٠٩[٥٨]. إنَّ حرية التجارة والتعاون العسكرى ضِدّ إسبانيا، الذى كان يندرج فيه الموريسكيون كجانب مستفيد[٥٩]كانت هي النقاط الرئيسية. يظهر توقيع باياتشى في هذا الاتفاق بجوار توقيع أحمد بن عبدالله، السفير الجديد الذى جاء ليحل محل ابن بشير.

ترأس البعثة السَّعدية الثانية إلى هولندا القائد أحمد بن عبدالله الحايتى المارونى، الذى تسميه الوثائق الإسبانية أحمد الحايتيا بيسكاينو: كان بلاشك مسيحيًا أسلم ومن أصل إسبانى، من المحتمل أنه كان من مارّون، في كانتابريا[٦٠]. وصلت البعثة إلى هولندا في يونيو من عام ١٦١٠ورحلت، بعد أن وقعّت معاهدة صداقة

وتعاون متبادل، فى يناير من عام١٦١١. ربَّما حدث ذلك فى هــذه الرحلــة التــى سافر فيها باولو غارثيس. يبدو أن باياتشى كان قد لعب دورًا مهمًّا جدا فــى هــذه البعثة الثانية على الرغم من أنَّ الوثائق توضح أنَّ القائد كــان هــو الــسفير وأن باياتشى كان عميلاً ومترجمًا للسلطان[٦١].

لاشك أنَّه فى بعثة يونيو هذه من عام١٦١٠حدث أن ذهب إنريكى غــارثيس لزيارة كل من السفير وباياتشى. بعد توقيع اتفاق عام ١٦١٠ تلقى صمويل، بقرار من الولايات العامة، سلسلة ذهبية وميدالية من الذهب وستمائة فلورين. كذلك تلقى موسى، ابن جوزيف، الذى كان يعمل مترجمًا للبعثة، ميدالية ذهبية. ربما نــستطيع أن نكّون فكرة متعلّقة بأهميته عن طريق الاختلاف بين الهدايا: كانت الميدالية التى منحت لصمويل تَزِن ٥ر١٧ أوقية والتى منحت للسفير ٥ر٤١ أوقية[٦٢]. بعد ذلــك مباشرة حصل صمويل على إذن بالرحيل إلى المغرب مع أحمد بن عبدالله من أجل أن يُصدق مولاى زيدان على الاتفاقية. أثناء غيابه، الذى استغرق عامًا، عمل أخوه جوزيف كنائب عنه، وهو ما كان يتعين عليه أن يفعل فى كل مــرَّة يكــون فيهــا صمويل على سفر.

يُدلى خورخى دى هينينJorge de Henin، الجاسوس الإسبانى فى قــصر مولاى زيدان فى تلك السنوات، بمعلومات مهمة جدا عن وصول السفير المغربــى إلى هولندا وعن صمويل باياتشى «خادم للولايات ولمولاى زيدان»، «الــذى كــان يتولى أمر المراسلات بين الولايات ومولاى زيدان»[٦٣] كان صمويل قد كُلف فــى هولندا ببيع ماسات ويواقيت للسلطان (هل تكون تلك القطع خاصة بالنزاع القضائى مع إنريكى غارثيس؟)، وإحضار مــال وأســلحة.صــمويل باياتــشى، «بــصحبة موريسكيين من المبعدين من إسبانيا، قالوا إنه بثمانية سفن وبألفى جندى مــسلحين بالبنادق ـــ سيقومون هم بالبحث عنهم فى سواحلهم ـــ يمكن تنظيم غــارات علــى ساحل مالقة حيث أنه من المؤكد أنهم سوف يمسكون بأسرى كثيرين وبثــروة»[٦٤] يجب على مولاى زيدان أن يجعل الهولنديين يعطونه السفن و، فى المقابل، يقــوم

الموريسكيون وباياتشي بتسليمه رُبع الغنيمة التي يستولون عليها. يبدو للسلطان أنها فكرة جيدة، لكن خورخي دي هينين، الذي له اتصال بالسلطانة أم زيدان، يستطيع أن يجعلها تثني ابنها عن ارتكاب مثل هذه المغامرة[٦٥]. لكنها تعد أول بادرة على أن باياتشي - إلى جانب بيع المصوغات، والقيام على أمر المراسلات الدبلوماسية والتجسس - قرر أن يعمل في مجال القرصنة. مهمٌ جدا أيضًا هذا التحالف بين أعضاء الأقليات ذات الديانات المختلفة (وهو تحالف نادرًا ما حدث أثناء وجودهم في إسبانيا) كانت توحّدهم مصالح مشتركة، بالإضافة إلى كراهية لاشك فيها تجاه إسبانيا التي كان بوسعهم الاستفادة منها. الوثائق المحفوظة والمتعلقة بالغنائم وافتداء الأسرى، التي وُقعت في تطوان في هذه العقود الأولى من القرن السابع عشر، تبين نفس هذا التعاون بين موريسكيين ويهود[٦٦].

ليس هذا هو الخبر الوحيد عن اتصالات لموريسكيين بمولاي زيدان. في نفس تلك التواريخ، في أبريل من عام ١٦١١، يصل إلى كابريرا دي كوردوبا خبر «أنّ بعض الموريسكيين كانوا قد عَبروا إلى إفريقيا مع مجموعة من الموريسكيين وتوجهوا إلى الملك مولاي زيدان يُعرضون عليه ٦٠,٠٠٠ رجل مسلح في إسبانيا ومالا كثيرًا وأنه كان موجود هناك سفراء آخرين من الجزر عرضوا عليه السفن التي يريدونها حتى لو كان ذلك من أجل عمل جسر وعبور مضيق جبل طارق»، لكن «مولاي زيدان سَخِرَ من بعثة الموريسكيين» [٦٧].

أنشطة تجارية ودبلوماسية ١٦١١ - ١٦١٤

تبدأ الآن أروع سنوات صمويل التي يقوم فيها بنشاط تجاري ودبلوماسي وعسكري مكثف. في مجال التجارة تخصص في التعامل مع المغرب بالتعاون مع شركائه الهولنديين الذين كان من بينهم تجار بارزون مثل جان جانز دي جونجي وسيمون ويليمسز نوومس. يُثبت خطاب احتجاج من الولايات العامة أنه من الناحية العملية، كان صمويل يتمتع باحتكار التجارة المغربية مع هولندا[٦٨]. كانت هذه

التجارة تتألّف أساسًا من صادرات السكر المغربى لأوروبا ومن حمل مُؤن وعتــاد حربى إلى المغرب.

خلال السنوات اللاحقة مباشرة على تعيينه عميلاً فى هولندا، قــام باياتــشى بنشاط مكثف جدا. إن المجلدين الـسميكين مــن مــصنف المجموعــة الوثائقيــة «المصادر غير المنشورة عن تاريخ المراكش (SIHM)» المخصــصة لهولنــدا، ممتلئان بوثائق متعلقة بعائلة باياتشى وتدل على قدراتهم التجارية والدبلوماسية على حدٍ سواء.

خلال تلك السنوات قام صمويل بعمل خمس ســفريات علــى الأقــل إلــى المغرب، فى أعوام ١٦٠٩، ١٦١١، ١٦١٠، ١٦١٢ــ١٣، ١٦١٤ــ١٥، وقام أيضًا فى عام ١٦١١ بالسفر إلى بليماوس، لأسباب تجارية[٦٩]. كان جوزيف هو نائــب صمويل حينما يكون الأخير مسافرًا، لكن جوزيف وموسى على حد سواء قاما بعدة سفريات إلى إنجلترا، وبسفريات عديدة داخل هولندا: كانا يتحركان بــين لاهــاى وأمستردام، ويذهبان إلى روتردام وإلى فليسينجى وبشكل خاص ومــستمر، إلــى ميدلبورج، حيث حاولا أيضًا أن يحصلا على إعفاء من رسوم الدخل على البضائع المستوردة، حيث أنهما كانا«سفيرين» [٧٠].

تولى صمويل أيضًا إجراء اتصالات دبلوماسية مع إنجلترا. سافر مع السفير المغربى ومع العميل الإنجليزى جون هارّيسون إلى إنجلترا من أجل تسليم خطاب من مولاى زيدان إلى جاكوبو الأول Jacobo I، فى عــام ١٦١١[٧١].خــلال هــذا السفر كسب صمويل ثقة وصداقة هارّيسون. لكن الشريف لم يَفِ بالتزاماتــه مــع الإنجليز. حينما أُسِرَ بعض ركاب سفينة غارقة ممنْ يحملون الجنسية الإنجليزيــة، وكانت الأمواج قد قذفت بهم إلى الساحل المغربى، كُلِّفَ جــون هاريــسون مــرة أخرى بالسفر فى مهمة إلى القصر المراكشى، وبمقتضى علاقته الطيبة بصمويل،، قرَّر أنْ يبدأ رحلته بالذهاب إلى لاهاى بحثًا عنه. هناك تعــيَّن عليــه أنْ ينتظــر باياتشى خلال ما يقرب من ثمانية أشهر قبل أن يستقل معه السفينة فى شهر أبريل

من عام١٦١٤.وصلا إلى صافى فى أواخر شهر مـايو، بينمـا كـان موضـوع المعمورة على أشُدّه، وهو ما سوف نعرض له فى الفصل التالى.

كان لهاريسون دورًا مهمًا وعلاقة وطيدة مع المغرب، وهو البلد الذى سافر إليه ثمانية مرات بين عامى ١٦١٠و ١٦٣٢، فى مـرتين منهـا كـان بـصحبة صمويل. من خلال صمويل أقام هاريسون اتصالاً وثيقًا مع يهود (يقول إنـه كـان يدرس العبرية فى صافى مع شخص يُدعى «رابّى شيميون») ومع موريـسكيين، إلى حدّ أنه، وهو فى المغرب، كتب فى عام١٦١٠ مقـالاً ذا جـدل دينـى ضـد اليهودية قام بنشره بعد ذلك، فى أمستردام، فى عام١٦١٢ (٧٢). كانـت لـه أيـضًا علاقات وثيقة جدا مع موريسكيين فى تطوان وفى سالى على حدٍ سواء. كان يشعر بتعاطف كبير نحوهم إلى حد أنه تحوّل إلى عميل ومتحدّث باسم هذه المجموعـة. ربما أثاروا فيه، كما فى حالة اليهود، حميته التبشيرية حيث تخصص وهـو فـى تطوان فى أن يشرح للموريسكيين عُلُوّ قدر البروتستانتية على الكاثوليكية. حـاول دون جدوى أن يجعل ملك إنجلترا يُوقّع معاهدةً مع الجمهورية الموريـسكية فـى سالى، غير أن تشارلز الأول رفض أن يَعتَبِرهم كحكومة مـستقلة؛ بـل اعتبـرهم كمجموعة من القراصنة متمردين على ملكهم.

عندما نشبت الحرب بين إسبانيا وإنجلترا فى عام١٦٢٥، وكانت إنجلترا تَعُدُّ حملةً ضد قادش، عَرض هاريسون أن يجهز جيـشًا مـن الموريـسكيين الـذين سيتعاونون مع إنجلترا.قَبِلَ تشارلز الأول الفكرة وقام هاريسون بعمل رحلة أخرى إلى تطوان حيث أُستُقبِلَ الاقتراح استقبالاً طيبًا جدا حتى أنّ الموريسكيين عرضوا، علاوة على ذلك، أن يحاربوا ضد سواحلهم هم. فشلت كل هذه الخطط مع الهزيمة الإنجليزية فى شهر نوفمبر من نفس عام١٦٢٥، بيد أنّ هاريسون كتب «تقريـرًا» مُسهبًا يصف فيه بالتفصيل عمله مع الموريسكيين(٧٣).

خلال هذه السنوات من ١٦٠٩إلى ١٦١٤كان للباياتشيين نزاعـات قـضائية متعددة مع أفراد وطواقم السفن الهولنديين. أحيانًا يتهمهم البحارة بعدم دفع رواتبهم،

وفي مرات أخرى يطالبون بتعويضات[٧٤]. في بعض المناسبات يكون الباياتشيون هم الذين يشكون أفراد أطقمهم بسبب التمرد، أو لأنهم استولوا على جزء من شحنة السكر التي جلبوها من المغرب[٧٥].

لا يكفّ الباياتشيون عن اللجوء إلى الولايات العامة من أجل الحصول على إعفاء من الضرائب، لكي يفرجوا عن شحنات لهم كانت قد أُحتُجِزت في ميدلبورج[٧٦]،أو لتقديم احتجاجات إذا تعرَّض أحد أفراد العائلة لمعاملة سيئة، كما في حالة موسى في هلسنكي، عندما ذهب ليسترد شحناتٍ من السكر[٧٧]. يُعلن صمويل نفسه «شخصية عامة وسفيرًا لصاحب الجلالة الإمبراطورية في هولندا»،ويحمي نفسه أمام استدعاءات وشكاوى عديدة[٧٨].

صمويل وجوزيف على حدٍ سواء يطلبان ويحصلان على تصاريح من أجل إرسال عتاد حربي إلى المغرب[٧٩]. يطلبان أيضًا بلا توقف قروضًا ودُفعات مالية من الولايات العامة ومن إمارة البحر في روتردام من أجل استئجار وتجهيز سفن، ومن أجل تسجيل أطقم. هذه المؤسسة الأخيرة أقرضت صمويل وجوزيف حتى٢٠,٠٠٠ فلورين، بمساندة شخصية من الأمير ماوريتيو دى أورانج، الذى كان يحمي صمويل علانيةً وكان يعمل كوسيط، عندما يكون ذلك ضروريًا، بين صمويل والولايات.[٨٠] كانت السفن والأطقم مصدرًا دائمًا للمشكلات والنزاعات القضائية: أطول القضايا وأكثرها تكلفةً يبدو أنها كانت مع شخص فرنسي يُدعى جان لو كومت الذى اعترض سفينةً لصمويل واستولى على البضاعة بحجة أنها كانت عبارة عن عتاد حربي[٨١]. تعين على مولاي زيدان أن يدفع من أجل استرداد البضاعة وبعث بشكوى إلى الولايات العامة. في عام ١٦١٢ كان جاكوب جانس يتولى قيادة السفينة التي وضعتها الولايات العامة تحت تصرف باياتشي. هذه السفينة استولى عليها الإسبان وأنفق جانس، وبعد ذلك أرملته، على دعوى طويلة ضد باياتشي لتحديد منْ الذى يدفع الخسائر والتعويضات.

كل هذه الوثائق الوفيرة تقدم صمويل كقائد للعائلة، يستند بصفة أساسية على أخيه جوزيف وابن أخيه موسى، ويبذل نشاطًا تجاريًا غير عادى، سواء من حيث الكثافة أو من حيث المخاطر التى تكتنفه، ويتولى الدعاوى القضائية المستمرة، والمجازفة بالرهانات الخطيرة الاقتصادية والشخصية على حدٍ سواء، حيث أن صمويل كان يسافر كثيرًا على هذه السفن المخصصة لنشاط مربح جدا وملئ بالأخطار. كان السفر بالسفن قاسيًا بقدر ما كان خطيرًا، والطريق من أمستردام إلى المغرب، الذى لم يكن يُقطع فى أقل من خمسين يومًا، كان مليئًا بالقراصنة من مختلف الجنسيات وكذلك بسفن من أساطيل لدول شتى فى حالة حرب. هكذا لم يكن ذلك عملاً سهلاً ولا مربحًا. إنّ صمويل يبدو كممثل تقليدى لعصر التجارة، رجل يراهن بقوة حتى بما لا يملك، ولا يدع فرصة تمر، يساير أو يحطم الشرعية،ولا يتراجع أمام أى نزاع قضائى. إن التجارة الشرعية، والتهريب، والقرصنة تتحول إلى أنشطة من الصعب تحديدها. وفى نفس الوقت كان يعمل من أجل مصالح مولاى زيدان.

أحد الأعمال الأولى لصمويل باياتشى لصالح السلطان كان، كما قلنا، طلبه من الولايات العامة بأن تزوده بثلاث سفن حربية لنقل جنود زيدان إلى تطوان لمساعدة حاكم هذه المدينة، النقسيس، حليف زيدان، فى حربه ضد شقيق زيدان، مولاى الشيخ، الذى كان ينازعه على العرش[٨٢].

فى شهر يوليو من عام ١٦١٠ طلب أحمد بن عبدالله وصمويل باياتشى من جديد، باسم مولاى زيدان، تصنيع أربعة سفن حربية[٨٣]. أعطت الولايات الترخيص فى ٢٧ من ديسمبر من عام ١٦١٠: تم إرسال ثلاثة سفن بقيادة الرائد ريسبرجن والنقيبين رويست وكوبندراير، لتكون فى خدمة سلطان المغرب[٨٤]. السفينتان اللتان كانتا تُقلان على متنهما أحمد بن عبدالله وباياتشى، وصلتا إلى الميناء فى الثالث والعشرين من شهر مايو التالى، وفقًا لما يحكيه خورخى دى هينين: « فى تلك الأيام وصل إلى ميناء صافى القائد هاميتى بيسكاينو الذى أوفده

مولاى زيدان سفيرًا فى هولندا، وقد أحضر ثلاثة سفن حربية كان قد اشتراها فى هولندا لخدمة مولاى زيدان. جاء برفقته مارتين رايسبيرجين سفيرًا عن الولايات وقائدًا أعلى لتلك السفن، وجاء أيضًا صمويل باياتشى، الذى كان يتولى هذه المراسلات بين مولاى زيدان والولايات. أحضروا ألف رمح وألف سيف وستمائة بندقية وهَديَّة من الأسلحة من طرف الكونت ماوريثيو، وبعد أنْ قدم مارتين دى رايسبيرجين الرسالة، أمره مولاى زيدان أنْ يقوم برحلةٍ بسفنه إلى ساحل إسبانيا للبحث عن غنيمة كبيرة من السفن الإسبانية، وبعد ذلك صرفه وبرفقته صمويل باياتشى.خُيِّل إلى مولاى زيدان أنه سيكون فى وقت وجيز صاحب سفن كثيرة وأنَّ العالم سيكون ضئيلاً أمام فتوحاته. إلى هذا الحد ملأوا رأسه بالأوهام. أمر بعد ذلك بإعلان الحرب ضد الإسبان » [٨٥].يتابع هنين ما حدث بعد ذلك، بهذه الكلمات «فى تلك الأيام وصل مارتين دى رايسبيرجين إلى ميناء صافي بسفن مولاى زيدان، غنموا سفينتين فرنسيتين وهما شيء قليل الأهمية، ذهبوا من صافى إلى موغادور لتهيئة السفن، جاءت سفن إسبانيا وقذفت بها إلى القاع،مارتين رايسبيرجين فقط فرَّ هاربًا عائدًا إلى سانتا كروث ومن هناك ذهب إلى هولندا. الذين كانوا على متن السفن نجوا برا وجاءوا إلى المغرب. أخذ مولاى زيدان الفرنسيين أسرى وأرسل الهولنديين إلى سالى، نزلوا إلى سفينة كانت لمولاى زيدان هناك وذهبوا إلى أراضيهم»[٨٦].

تقرير هينين تُؤكِّده وثائق سيمانكاس: بين الغنائم التى تم تحصيلها فى هذه المعركة عثر الإسبان على وثائق مهمة باللغة العربية والهولندية مُوقَّعة من قِبَل باياتشى والسفير تُثبت أنَّ الهدف الأساسى لهذه القافلة كان مهاجمة سفن إسبانية[٨٧]. من الواضح أنَّ السلطات الهولندية كانت مستعدة للقفز على البند المعمول به فى هدنة الاثنى عشر عامًا الذى كان يشترط على الهولنديين ألاَّ يهاجموا سفنًا إسبانية أو أنهم تجنبوا الهدنة بوضع سفنهم فى خدمة المغاربة. لم يفكر التاج الإسبانى أن يبقى مكتوف الذراعين فى انتظارًا إن ينشئ الهولنديون

أسطولا للمغاربة، كما أصبح واضحًا من خطاب ت. رودينبورتش T. Rodenburch إلى الولايات العامة بتاريخ ٢٩من أبريل من عام ١٦١١[٨٨].في نفس الوقت وجد صمويل نفسه متورطًا في موضوع بضائع استولى عليها قراصنة مغاربة من سفن مسيحية كان زيدان يعتبرها كملكٍ له. اشترى صمويل المراكب وأخذها إلى هولندا، لكنها صُودِرَت هناك. كان هناك نزاعٌ قضائي نشأ واستغرق زمنًا طويلاً لكنه انتهى برضا كل الأطراف[٨٩].

إنَّ هذين المثالين يبينانِ المجالات الأساسية لعائلة باياتشي كممثلين للمغرب. إنَّ السفراء والعملاء الدائمين على حدٍ سواء تعودوا أنْ ينشغلوا بالموضوعات التجارية وكانوا يضمنون بصفة شخصية مديونيات عاهلهم. كان الأمير ماوريتيو دى ناسَاو صديقًا شخصيًّا لصمويل، وسانده عندما حاول تجار هولنديون أن يتدخلوا في تجارة بلده مع المغرب.

ابن أبى مَحَلّى

لم يكن ضحايا الوضع في داخل المغرب (المجاعات، التفكك الداخلي، الحروب الأهلية المستمرة) من اليهود فقط. نتيجةً لهذا الوضع كان هناك حركة دينية نشأت على الحدود مع الصحراء جنوب شرقي البلد.

نحو عام ١٦١٠ كانت هناك شخصية دينية عبارة عن زاهد أو مصلح متزمت يُدعى ابن أبى مَحَلّي، تمرد مع مجموعة من مؤيّديه الذين كانوا واثقين من أنه كان المهدى المنتظر، ذلك الذى سوف يأتى فى آخر الزمان ليعيد مملكة العدل على الأرض والنقاء الأصلى للإسلام الضائع بسبب الحرب والفساد[٩٠].فتح ابن أبى مَحَلّى مدينة سيلماسا Siyilmasa وطرد حاكم مولاى زيدان، وتزايد أتباعه ؛ فشرع في الزحف على مراكش. أصبح وضع السلطان مزعزعًا حتى أنه اضطُرَّ للتخلى عن عاصمته، ولجأ إلى ميناء صافى، ربما كان يفكر فى الهروب من صافى إلى هولندا[٩١]. فى شهر فبراير من عام١٦١٢ كتب السلطان نفسه خطابًا

إلى صمويل باياتشي يطلب منه أن يأتي في أسرع وقت ممكن لمساعدته ومعه سفينتان وألف رجل[92]. دخل ابن أبي مَحَلّي مراكش في العشرين من شهر مايو من عام ١٦١٢ وأعلن نفسه سلطانًا.وقد اعترفت به كل المنطقة الجنوبية من المغرب كسلطان.

أصبح موقف مولاي زيدان ميئوسًا منه. بدأ حلفاؤه، وبشكل خاص هولندا، يشكّون في أمر انتصاره على ابن أبي مَحَلّي أو في قدرته على استرداد السلطة، وبالتالي بدأوا يظهرون تحفظًا في تعاملاتهم مع السلطان وفي عروضهم للمساعدة[93].

بدت هذه الشكوك وقد غذّتها تقارير، في صالح ابن أبي مَحَلّي بدرجة كبيرة، لتاجر هولندي يُدْعَى باول فان ليبّيلو Paul Van Lippeloo[94].

هذا الشخص المدعو باول فان ليبّيلو، الذي كان يُمَثِّل في المغرب مصالح تجار أمستردام، كانت له في الماضي نزاعات مع كل من براهيم بن وايز Brahim ben Ways ومع خودا ليفي Juda Levy، وهما عميلان يهوديان وتاجران للسلطان[95].بسبب هذه النزاعات وبسبب قضايا تجارية أُلقي القبض عليه في أمستردام في عام ١٦٠٩ بناءً على طلب حمو بن بشير وصمويل باياتشي[96]. سواءً لهذا السبب أو لغيره، كان فان ليبّيلو يُكنّ دائمًا العداء لباياتشي.

في شهر يوليو من عام١٦١٢ ذهب فان ليبّيلو، برفقة تجار مسيحيين آخرين، ليلتقوا مع «الملك الجديد». من الواضح أنّهم أصبحوا كلهم متأثرين جدا بشخصية ابن أبي مَحَلّي وكذلك بوعوده بأنه لن يُعَيِّن أبدًا يهودًا في مناصب رفيعة؛ بل إنّه سوف يتخذ تدابير ضدهم، وكتب فان ليبّيلو إلى الولايات يوصي بإقامة علاقات معه ويتكهن بأنه سيكون هو من يستحوذ في النهاية على السلطة في المغرب بشكل حاسم.

هناك نص إنجليزى مؤرخ في شهر سبتمبر من عـام١٦١٢ ذو مـضمون مشابه، يقدم تقريرًا مشابها جدا لتقرير فان ليبّيلو، وهو تقرير كتبه تاجر إنجليـزى يحتمل أنه كان ضمن فريق التجار المسيحيين الذى ذهب لرؤية العاهل الجديد[٩٧].

فى نوع من حملة دعائية مضادة، كتب موسى باياتشى فى الحـال، باللغـة الهولندية، «القصة الحقيقية لما حدث فى بلاد البربر» كان هدف المكتـوب الـذى طُبِع فى روتردام فى عام١٦١٤ [٩٨]، هو الدفاع عن قانونية وشرعية مولاى زيدان ووجوبَ استمرار تقديم الدعم له من قِبَلِ الولايات العامة. يقدم ابـن أبـى مَحَلّـى كرجلٍ ثرثار بلا تردد يستغل سذاجة الغوغاء ويقول إن احتمال قدرته على البقـاء فى السُلطة معدومًا.

من الضرورى أن نضع فى ذهننا هذا المكتـوب لأنــه دليـل علــى ولاء الباياتشيين لمولاى زيدان، وعلى أنهم كانوا ملتزمين بطاعته، وهو أمر يجب علينا أن نأخذه فى الاعتبار عندما نعرِض لموضوع المعمورة، لاحقًا.

فى شهر نوفمبر من عام ١٦١٣ استطاع المؤيدون لمولاى زيدان تَرَأسُـهُم شخصية دينية أخرى، سيدى يحيى، قتل ابن أبى مَحَلّى خلال معركة. قام مـولاى زيدان فى الحال بإدخال باول فان ليبّيلو فى السجن بتهمة الخيانة ولأنه كان مؤيـدًا لابن أبى مَحَلّى[٩٩].يشرح السلطان للولايات أنّ فان ليبّيلو مسجون لأنه خرج عـن دوره كتاجر ولأنه أقحم نفسه «فى أمور لخدمة القديس الملعون» [١٠٠]. كان يعلـم، عن طريق الباياتشيين لاشك، بأمر التقارير التى أرسلها التاجر إلى هولندا عن ابن أبى مَحَلّى. من جانبه اتهم فان ليبّيلو، باياتشى فى خطاب إلى الولايات بأنــه كــان المُسبّب لمأساته[١٠١].

موضوع كاستيلان وكتب السلطان

وضعت انتصارات ابن أبى مَحَلّى، مولاى زيدان فى وضع صعب، لدرجـة أنّه اضطُر إلى التخلى عن صافى واللجوء إلى سوس فى الجنوب. لذلك، ففى شهر

يونيو من عام ١٦١٢، استأجر من أجل نقل أملاكه الثمينة سفينة القبطان البروفينسالى جان فيليب دى كاستيلان، الذى جاء إلى المغرب حاملاً خطابات من لويس الثالث عشر ملك فرنسا ومن دوق جويز. كان بدرجة قنصل[١٠٢]؛ لكنه توصل إلى تأسيس معاهدة تحالف مع مولاى زيدان تضمنت أيضًا الأتراك. لاشك أنه بهذه الطريقة تجاوزنطاق اختصاصاته، لكن من المحتمل أنه اعتمد على نجاحه لكى يبرر فيما بعد ما فعله أمام الملك. (نرى أنَّ هذا كان سلوكًا لا يقتصر على باياتشى). بمقتضى معاهدة التحالف هذه، أفرج مولاى زيدان عن كل الأسرى الفرنسيين الذين كانوافى بلاده والتمس مساعدة الفرنسى فى وضع أملاكه الشخصية بمأمن.

عَهِدَ مولاى زيدان، إذن، بأملاكه إلى كاستيلان، الذى كان يجب عليه أن يحملها بحرًا ويلتقى بالسلطان، الذى سافر برًّا، فى سانتا كروث دى كابو دى جوى (أغادير). لكن كاستيلان، بدلاً من أنْ يتوجه إلى الجنوب، سلك طريق فرنسا ومعه أملاك السلطان: لم يصل بعيدًا جدا. فى محاذاة ميناء سلا تقابل مع سفن بدرو دى لارا، نائب القائد الأعلى فاخاردو الذى أسر سفينة كاستيلان وأخذ الغنيمة إلى إسبانيا.

كان الجزء الأكبر من هذه الغنيمة يشتمل على المكتبة الخاصة بالسلطان، وهى عبارة عن أربعة آلاف كتاب قام بجمعها أبوه السلطان أحمد المنصور. كانت الكتب تتناول الطب والفلسفة والنحو والقانون والسياسة وجزء كبير منها كان مكتوبًا بخط جميل ومزخرفًا بالألوان الساطعة. فى شهر مارس من عام ١٦١٤طلب خوان دى بيرالتا، رئيس دير الإسكوريال أنْ يعيروه الكتب على سبيل الوديعة لمكتبة الدير، وبعد أنْ استشار فيليبى الثالث القسيس الذى يعترف أمامه عما إذا كانت هذه الكتب تشكل اعتداءً ضد الدين، وهبها إلى مكتبة الإسكوريال. لازالت محفوظة هناك حتى يومنا هذا، وتشكل فى الوقت الحالى واحدة من أهم مجموعات المخطوطات العربية فى أوروبا كلها، حتى على الرغم من أنّ حريقًا أتى على جزء كبير من مكتبة الإسكوريال فى عام ١٦٧١[١٠٤].

هذا الاعتداء من جانب كاستيلان سبَّب استياءً شديدًا لمولاى زيدان، الذى حمَّل ملك فرنسا مسئولية ما حدث، وأفسد ذلك الحادث علاقات فرنسا مع المغرب لزمن طويل.

بالنسبة لمولاى زيدان كانت كُتُبه تُهِمُّه كثيرًا جدا، وبذل كل جهد ممكن، حتى مماته، من أجل استعادتها. من أجل ذلك لجأ، فى المقام الأول، إلى حليفه الأوروبى الرئيسى، هولندا، وفيما بعد سيلجأ إلى إنجلترا من خلال جون هاريسون(١٠٥).

فى أغسطس من عام١٦١٢ مَثُلَ أمام جمعية الولايات العامة القائد أحمد الغزالى برفقة طواشى للسلطان، وصمويل وموسى باياتشى. قدَّم الغزالى خطابًا من السلطان(١٠٦) يشرح ما حدث ويطلب مساعدة ومساندة للسفير الغزالى أمام فرنسا: كان السلطان يريد أنْ تعطى الولايات للقائد خطابات توصية وأن تضع سفير هولندا فى باريس تحت تصرفه(١٠٧). هكذا فعلت الولايات، التى أوْصَتْ فرانسوا فان إيرسين، سفيرها فى فرنسا، بالاعتناء بالمغربى(١٠٨)، وكتبت إلى لويس الثالث عشر، وجعلت موسى باياتشى يرافق الغزالى كمترجم(١٠٩).

بعد ذلك بعام، فى أغسطس من عام ١٦١٣، عاد الغزالى إلى المغرب. كانت مهمته قد فشلت: ممتلكات السلطان لم تكن فى حوزة فرنسا ولم يقبل الملك أن يدفع أيَّة تعويضات. طلب السلطان عودة سفيره(١١٠) وكتبت الولايات العامة إلى ماريا دى ميديثيس ترجوها أن تتشفَّع عند ملك إسبانيا من أجل إعادة أملاك مولاى زيدان(١١١). بدأت سلسلة طويلة من الجهود الدبلوماسية مع إسبانيا والتى سوف تمتدُّ طوال كل القرن السابع عشر والثامن عشر. كانت للكتب قيمة رمزية هائلة بالنسبة إلى المغرب وبالنسبة لإسبانيا على حدٍ سواء، ولذلك فشلت دائمًا المحاولات الدبلوماسية من أجل استردادها. كانت للكتب أهمية أكبر من الأسرى الذين تم افتداؤهم والذين تم تبادلهم، أكبر من المواقع التى تم فتحها أو التى استسلمت، أكبر من الحقوق التجارية ...(١١٢). كما سوف نرى لاحقًا، يشدد باياتشى، فى

المفاوضات التى يشرع فيها مع إسبانيا فى نهاية حياته، على هذه القيمة والأهمية الرمزية بالنسبة للمغرب لكتبها الأسيرة.

لكن فى عام ١٦١٢ كان الموضوع، من وجهة النظر الدبلوماسية ومن وجهة نظر القانون البحرى، حرجًا بما فيه الكفاية. صرحت إسبانيا بأنَّ الغنيمة التى استولى عليهافاخاردو شرعية لسببين: لأنها كانت عبارة عن شحنة مسروقة، ولأن هذه الشحنة المسروقة كانت تنتمى إلى ملك كان فى موقف اشتباك حربى مع إسبانيا. تعارض فرنسا بأنَّ كاستيلان ارتكب فقط خيانة ثقة بالنسبة للسلطان المغربى، وأنَّه لم يكن بأى حال قرصانًا، وأنَّ سفينته كانت تنتمى لأمةٍ كانت فى حالة سِلْم مع إسبانيا. لكن الموقف بالنسبة لفرنسا كان مُحيرًا، لأنها لم تكن تريد أن تقدم كاستيلان كقرصان ولا حتى كسفير (ليس قُنصلاً) وقَّع معاهدة تحالف مع مولاى زيدان(١١٣).

تفاوض مولاى زيدان أيضًا بشكل مباشر مع إسبانيا، وعرض مبلغ مائة ألف دوقية فى مقابل الكتب، وهو اقتراح أيَّده رهبان الثالوث فى مازاغان حيث أن المبلغ كان سيسمح لهم بافتداء عدد كبير من الأسرى. لكن مجلس الدولة اتخذ قرارًا يشترط فى مقابل إعادة الكتب الإفراج عن العدد الكلى للأسرى الإسبان فى المغرب، وهو شرط وجده زيدان مُفرطًا وغير مقبول. لم يحسم الموضوع وأضمر الشريف منذ ذلك الحين استياءً شديدًا للفرنسيين وللإسبان، علاوة على ذلك جعل الأسرى من هاتين الجنسيتين يعانون من الاضطهادات. أعدم الراهب الفرنسيسكانى خوان دى برادو فى مراكش ورفع إلى مستوى شهيد من قِبَل الأسرى المسيحيين: كل ذلك يزيد من قيمة الكتب فى نظر الإسبان. وقد سئل سفير تركى، سُمِحَ له بفحص الكتب فى الإسكوريال، «كم كانت تساوى،قال إنَّها تساوى عدد لا نهائى من الدوكادوس»(١١٤).

هوامش الفصل الثالث

1 J. Israel, la judería europea en la época del mercantilismo 1550-1750, Madrid. 1992 "Introducción".

2 En términos de kaplan, Judíos nuevos en Amsterdam, "Introducción".

3 Israel, la judería europea en la era del mercantilismo, op. cit.

4 En términos de Y.Kaplan, Judíos nuevos en Amsterdam, Madrid,1996, p.13.

5 تختلف الآراء حول أسباب تأسيس طائفة ثانية. حسب كابلان "De joden in de republick",p.130، كانت الأسباب على الأخص ديموجرافية، نظرًا لازدياد عدد السكان اليهود. أمّا بوديان، فيؤكد على أنه كانت هناك أسباب دينية واختلافات في الشعائر بين الأشكيناز والسفرديم.Hebreus of the Portuguese Nation, p.46

Véase O.Vlessing, "New light on the History of the Earliest History of the Amsterdam Portuguese Jews", Dutch Jewish History (J.Michman ed) III (1993) pp.34-75 pp.48-49.

6 Véase A.J. Huussen, "The legal Position of Sephardi Jews in Holland, circa1600", p.27.

7 انظر اتفاقية عام ١٦١٢ المنشورة في Studia Rosenthaliana,5 (1971), pp.240-242 والإشارات المذكورة هناك. انظر أيضًا

M.Bodian, Hebrews of the Portuguese Nation, p.59.

8 Kaplan, "De joden in de Republiek", p.144.

9 Sobre él, véase más abajo, p.94.

10 Bodian, Hebrews of the Portuguese Nation, pp.47-48.

11 Véase Kaplan, Judíos nuevos de Amsterdam, passim.

12 Bodian, op. cit., pp.147-148.

13 R.Fruin, "uittreksel uit Francisci Dusseldorpii Annales", Werken uitgegeven door het historisch genootschap gevestigd te Utrecht, 3.ª serie, no. 1, La Haya, 1893, pp.387-388: "Aliquot eorum continuo Amstelredamum appulerunt: quibus concessa fait ibidem synagoga, in quam ex praecipuis istius civitatis hereticis nonnulli, circum elso inguine, nomen dederunt. Usque adeo calvinismo et turcismo convenit", cf Zwarts, "De eerste rabbijnen", p.203n.

14 De Groot, The Ottoman Empire, pp.11,300,n.20; Heeringa, Bronnen tot de Schiedenis van den Levantschen bandel,I, pp.206 y ss.

15 Y.Kaplan, Judíos nuevos en Amsterdam, p.67.

ربما حظر التحول إلى اليهودية (انظر ما سبق) يُفسر جزئيًا هذا الرفض.

16 ADM, Leg. 2408.

17 G.Nahon, "Les rapports des communautés judéo-portugaises avec celle d'Amsterdam au XVIIé siècle" Studia Rosenthaliana,

X(2), (1976) , pp.37-78, p.39

18 Véase W.Webster, "Hebraizantes portugueses en San Juan de Luz en 1619",Boletin de la Real Academia de la Historia, 15 (1889), pp.347-360.

19 Israel, la juderia española en la era del mercantilismo, pp.73 y ss.

20 خوان نونييث سارابيا، مقاول ملكي كبير مستقبلاً، وبرتغـاليون آخـرون، اتهموا من قبل تاجر فرنسي بإخراج ثروة الموريسكيين من منطقة المـاجو ودايمييل.

AHN, Inq. Leg. 171, apud. Bernardo López Belinchón. La minoría Judía conversa en Castilla en el siglo XVII. El caso de Fernando Montesinos, p.39.

21 AGS, Estado, Leg.627. Véase Lapeyre, Géographie de l'Espagne Morisque, espcialmente pp.184-187.

22 AGS. Estado. Leg. 629.

23 Apud Pieterse, Daniel Levi de Barrios, p. 53.

24 Zwarts, "De eerste rabbijnen", p.200. Véase SIHM, Pays-Bas,I,P.273.

25 هناك كتاب من ثلاثة أجزاء لجماعة سالوم نُشِرَ في: "Libro del Sedur" عام١٦١٢، انظر:

A.K. Offenberg. Offenberg, "Spanish and Portuguese Sephardi Books published in the Northen Netherlands before Menasseh

Ben Israel (1584-1627)", Dutch Jewish History(J.Miclman,ed.) vol. III, Assen, Maastricht, 1993, pp.82-83; Bodian, Hebrews of the Portugues Nation, pp. 46-47.

26 E. M.Koen, "Notarial Records relating to the Portuguese Jews in Amsterdam up to 1639", Studia Rosenthaliana, X1, I (1977), p. 95, n.° 1184.

27 SIHM, Pays-Bas,I,pp.273-275. Véase Apéndice.

28 خطاب من ديكارت إلى بوزيـنو، SIHM, France, II, pp.475-476. Véase Apéndice

29 Véase H. Bouzineb y G. A. Wiegers. "Tetuán y la expulsión de los moriscos", titwân jilâl al qarnayn 16 wa 17, Tetuán, 1996, pp. 73-108.

30 خطاب من كوى إلى الولايات العامة' ٦ أكتوبر ١٦٠٨،

SIHM, Pays-Bas, I, p.302.

31 SIHM, France, I, p.299.

32 SIHM, Angleterre, III, p.606.

33 التجار هم: جان جانسز، كاريل دى جـونج وسـيمون ويليمـسز، نـومس وشركاؤه.

Véase doc. Notarial nr. 368, publicado en Studia Rosenthaliana V, I, (1971) p.112.

34 AGS, Estado, Leg. 2291.

35 Véase C. Roth, "The Strange Case of Hector Mendes Bravo". Hebrew Union College Annual, 18 (1944), pp.221-245.

36 Héctor Mendes Bravo (apud Roth, op., cit., p.237)

يذكر، فى عام ١٦١٧، دوارتى فرنانديث، يهودى برتغالى من أمستردام، له ابن فى لشبونة، وآخر يُدعى دوارتى فرنانديث بيّغا، تاجر مــن أمبيــريس. عن الشخص الأول الذى يحمل هذا الاسم، انظر

E.M. Koen, "Duarte Fernandes, Koopman van de Portugese Natie", Studia Rosenthaliana 2 (1968), pp.178-193.

37 "أخوان يهوديان [صمويل وجوزيف باياتشى] ...ذهبا إلى سادة الولايات ... يخدعان هؤلاء وأولئك من أجل أن يحصلا بمكرهما على ما يستطيعانه من مال". خطاب من ديكارت إلى بويزيو، ١٢ أكتوبر ١٦٠٩،

SIHM, France,II, p.475. Véase Apéndice.

38 Carta de Descartes a Puisieux, 25 octubre de 1609, SIHM, France, III, pp.478-479.

39 Ed.W.C. Pieterse, Assen, 1970, pp.26-27, 31,65,101,130.

40 Doc. n.1000. Studia Rosenthaliana, X2 (1976) p.221, Véase Apéndice.

41 كان إسحاق أوزييل قد تزوّج من بيّا بيدا فى اسطمبول، مع أنه كان حاخامًا إلا أنه لم يكن كذلك برتغاليًا ولم يتزوج ببرتغالية. توفى فى عام ١٦٢٢.

Véase Bodian, Hebrews of the Portuguese Nation, p.48; Pieterse, Daniel Levi de Barrios, p.63; Zwart "De Eerste

Rabbijnen". pp.233-235, apéndice XXV

: "ومولود في مدينة فاس..." مقبرته موجودة في أوديركيرك،

Véase L.Alvareș Vega, Het Beth Haim Van Oderkerk aan de Amstel, Amsterdam, 1994, p.28.

42 في الثالث عشر من شهر إبريل من عام ١٦١٣ الـدكتور بيتـر ويتينـدايل والجراحان جوان كـوارتيلاك وهيرمـان بورسـمان، والـصيدلي ديـرك فيردويس، جميعهم مقيمون في لاهاي، يطلبون دفع حسابات عـلاج ابنـي صمويل باياتشي، إسحاق ويعقوب كارلوس. تطلب الولايات مـن باياتـشي دفع ديونه.

(Resolución de los Estados Geneales, 13 de abril de 1613), Resolutiën der Staten Generaal, nieuwe reeks, 1610-1760,I, (1613-1616).

43 SIHM, Pays-Bas,I, p.462.

44 SIHM, Pays-Bas,II, pp.166, 214, 688.

في الرابع من شهر يونيو من عام ١٦١٥ تـدفع الولايـات لـ جـاكوب ويلّيمسز، من فُوربورج، مبلغ ثلاثمائة وخمسين فلورين عن إيجار نـصف عام.

45 تزوج خوسويه، ابن جوزيف، من يهودية من روتردام (لا يُعرف مـا إذا كانت برتغالية، مع أن ذلك هـو الأكثـر احتمـالاً)، دُفنـت فـي أوديركيرك، طبقًا لـ Livro de bet Haim, p. 137.

46 Not. Arch, n.° 1682, y n.° 781. Studia Rosenthaliana, XIV,1 (1980), p.91 y XVIII, I (1984), p.160.

47 E.R. Samuel, "Portuguese Jews in Jacobean London", Transactions of the Jewish Historical Society of England, XVIII (1958), p.175. Amberes, 10 de octubre de 1610.

" يقول ويؤكد إسحاق باياتشى الحاضر هنا أنه رآه [يقصد سيمون ميركادو] وجلس معه في منزل خيمس لوبيس والذى يدعى أيضًا باسم آخر هو جاكوب تيرادو، حيث يجتمع كل اليهود البرتغاليون للصلاة ...".

ibidem, pp. 209-210.

48 Archives Generales du Royaume, Bruselas, Office Fiscale de Brabant, Portefeuilles, W 131, n.° 924 A y B.

49 Bodian, Hebrews of the Portuguese Nation, p.33 y referencias.

50 اليواقيت البالايسية أو البالاتشيه تأتى من إقليم فى وسط آسيا، اسمه بالاخسان ومنه استمدت اليواقيت اسمها، وبخلاف اليواقيت الشرقية، فإن لونها أحمر وردى مع نقاط زرقاء وكثيرًا ما يكون بها صبغة لبنية عامةً.

51 استخدام يهود أمستردام لأسماء يهودية داخل المعابد ولأسماء مسيحية فى الحياة الدنيوية فى أوائل القرن السابع عشر نوقش فى الاستجوابات،

. Véase Zimmels, Die Marranen, pp. 55 y 155.

52 انظر التذييل الوثائقى

53 انظر التذييل الوثائقى

54 AN/TT, Inquisição Lisboa, n.° 3292.

55 SIHM, Pays-Bas, I , p.311.

56 عن هذه المهمة انظر:

SIHM, Pays-Bas,I, pp.357-499, France, II, pp. 485, 486, 490-91.

57 SIHM, Angleterre,II, pp. 426-427

الكلمة الانجليزية " Trucheman" معناها "مترجم".

58 SIHM, Pays-Bas,I, p. 577.

59 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 369-70, nota 3.

60 عن هذه الشخصية انظر:

G.A. Wiegers, "The Andalusi Heritage in the Maghrib: the polemical work of Muhammad Alguazir (d. 1610)" Orientations, IV (1997) pp.107-132.

61 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 519-522.

62 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 591-593.

63 Véase J. de Henin, Descripción de los reinos de Marruecos (1603-1613), Memorial de Jorge de Henin, BNM, Mss 17645, p.121.

ت. بيريث دى غوثمان نشر توًا طبعة من هذا النص فى العاصمة المغربية الرباط فى عام ١٩٩٧، غير أن إشارتنا تنتمى إلى mss.

64 Henin, op. cit., p.121

65 Henin, op. cit., pp. 107-108, 333.

66 Véase G. Gozalbes Busto, Los moriscos en Marruecos, Granada, 1992, en especial cap. V. "La convivencia judeo-morisca en el

exilio".

67 Cabrera de Córdoba, op.cit., f. 367.

68 SIHM, Pays-Bas,I, p.353.

69 SIHM, Pays-Bas,I, p.690.

70 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 75 y 115.

71 SIHM, Pays-Bas,I, p. 623.

72 John Harrison, The Messiah already come or profes of Christianitie... to convince Jewes, written in Barbarie in the year 1610, Amsterdam, 1619.

الطبعة الأولى، منشورة أيضًا فى أمستردام، ومؤرخة فى عام ١٦١٢ وفيها إهداء للولايات العامة.

73 SIHM, Angleterre,III, Relación de John Harrison, pp.27 y ss.

74 SIHM, Pays-Bas,II, pp.8 y ss.

75 SIHM, Pays-Bas,II, p.15.

76 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 12, 75.

77 SIHM, Pays-Bas,II, p.41, marzo de 1612.

78 SIHM, Pays-Bas,II, p.85.

79 SIHM, Pays-Bas,II, pp.141 y ss.

80 SIHM, Pays-Bas,II, pp.201 y 269.

انظر التذييل. رسالة خطية من صمويل باياتشى إلى الأمير مـــاوريثيو دى

ناسّاو، بتـــاريخ ٢٠ ديـــسمبر ١٦١٤ (colección M.H.Gans, fol.11a)
أغلب وثائق هذا المصنف اشترتها م.هـــ. غانز بمناسبة معرض أقـــيم فـــى لندن، أنظر:

Catalogue of an exhibition Anglo-Jewish Art and History in Commemoration of the Tercentenary of the Restment of the Jews in the Britich Isles, held at the Victoria and Albert Museum London January- 29 February 1956, Londres, 1956 p.17, no. 54: Samuel Palache, a Jewish vateer. Bound volume of twentey MS papers relating to the exploits and arrest of Samuel Palache, the Ambassador of Morocco at The Hague. Lent by Messrs H. mann and C. Abramsky.

81 SIHM, Pays-Bas,II, p.172.

82 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 299 y 309.

83 SIHM, Pays-Bas, I, pp. 526-527.

84 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 545-546.

85 Henin, BNM. Mss. 17645, pp. 171-172.

86 Ibidem, p. 185.

87 AGS. Estado, Leg. 495. Véase Apéndice.

88 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 624-627,

انظر رسالة من مولاى زيدان بتاريخ ٢٨ من سبتمبر ١٦١١

SIHM, Pays-Bas,I, p. 673.

89 SIHM, Pays-Bas,I, pp. 393-452.

90 انظر على سبيل المثال

A. Kaddouri, "Ibn Abi Mahalli: á propos de l'itineraire porcho-social d'un mahdi", en A. Kaddouri (ed.), Mahdisme: crise et changement dans l'histoire du Maroc, Rabat, 1994, pp.119-125.

91 SIHM, Pays-Bas,II, p.21.

92 SIHM, Pays-Bas,II, p. 23.

93 انظر على سبيل المثال SIHM, Pays-Bas,II, pp.182 y 186.

94 انظر : SIHM, Pays-Bas,II, pp.117 y ss.

95 أشرنا إلى هؤلاء اليهود فى الفصل الأول. عن النزاعات بسبب المنافسات التجارية انظر: SIHM, Pays-Bas,I, pp.381 y 500.

96 SIHM, Pays-Bas,1, p.384.

97 SIHM, Angleterre,II,pp. 469 y ss.

98 Mose Palatse. Een waerachtige beschrvinghe vant ghene datter geschiet is int lant van Barbarien, Rotterdam, 1614, trad. francesa y original holandés en SIHM, Pays-Bas,II, pp. 440-445.

99 SIHM, Pays-Bas,II, p.215.

100 SIHM, Pays-Bas,II, p. 391

101 SIHM, Pays-Bas,II, p. 245.

102 SIHM, Pays-Bas,II, p.22, n.7.

103 انظر رسالة من مولاى زيدان إلى صمويل باياتشى، بتاريخ الثالث عشر من شهر فبراير من عام ١٦١٢، SIHM, Pays-Bas,II, pp.20 y ss. صمويل قابل كاستيلان فى صافى قبل سفر باياتشى إلى هولندا،

SIHM, Pays-Bas,II, p.23.

104 Véase Braulio Justel, La Real Biblioteca de El Escorial y sus manuscritos árabes, Madrid, 1978.

105 SIHM, Angleterre,III,p.67.

106 Véase dicha carta en SIHM, Pays-Bas,II, p.106.

107 SIHM, Pays-Bas,II, p.131.

108 SIHM, Pays-Bas,II, p.138.

109 فى أغسطس من عام ١٦١٢ كتبت الولايات إلى لويس الثالث عشر " Prions atant، مولاى، بتواضع شديد، فإنه ليشرف جلالتكم أن تمنحوا السادة المذكورين، القائد والطواشي وموسى باياتشى، مقابلة كريمة وأن تلبوا لهم ذلك الطلب الذى سوف يكون مناسبًا" SIHM, Pays-Bas,II, p.139.

110 SIHM, Pays-Bas,II, p.192

111 SIHM, Pays-Bas,II, p.262.

112 Véase M. Marín, "The captive word a note on Arabic Manuscripts in Spain", Al-Masaq, 8 (1995), pp. 155-169.

113 في خطاب مؤرخ في شهر يونيو من عام ١٦١٥، يصر لويس الثالث عشر أمام الولايات العامة على أنه لم يعهد أبدًا إلى كاستيلان بإجراء رسمي فـــي المغرب "إنه لم يكن أبدًا سفيرنا، ولم يُعهد إليه بصفة أخرى سوى الرحيل".

SIHM, Pays-Bas,II, p.573.

114 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 592-593.

الفصل الرابع

القرصنة والمعمورة ومحضر لندن

أشرنا فيما سبق إلى صعوبة عمل حدود واضحة (صعوبةٌ استفاد منها باياتشى) بين التجارة الشرعية والتهريب والقرصنة. من الواضح أنّ صمويل كان يحطم هذه الحدود وينزلق باطراد نحو هذا النشاط الأخير. لكن نظرًا للأحداث التى ستقع مباشرةً، ينبغى أنْ نأخذ فى الاعتبار اختلافًا مهمًا، رغم أنَّه ليس أيضًا شديد الوضوح دائمًا، بين قرصان حكومى وقرصان خاص: كان القرصان الحكومى يُبحر فى سفينة تتبع ملكيته الخاصة، مؤجَّرة ومسلحة بترخيص من حكومةٍ كان يعمل فى خدمتها، وكانت تضع الشروط والأهداف المحددة. كان يُبْحِر تحت عَلَم هذه الدولة التى تَولَّت حمايته ومنحته «رخصة قرصنة حكومية»، وكان يلتزم بقوانين وبقواعد قرصانية. كانت القرصنة هى مورد تلك الدول، مثل المغرب، التى لا تستطيع من فَرْطِ ضعفها الحصول على أسطول عادى أو التى كانت ظروفها السياسية ـــ وبشكل خاص، وضعها التابع لدول أكثر قوة ـــ تمنعها من الحصول على أسطول تجارى. أما القرصنة الخاصة؛ فهى سفينة مخصَّصة لأعمال التلصُّص البحرى، بدون عَلَم ولا قانون، لم يكن عملها يعرف الكبح ولا القواعد ولا هدف آخر سوى ربح أصحابها. كان القرصان الخاص يعمل ضد كل الذى يقابله، بينما كان القرصان الحكومى يعمل فقط ضد سفن الدول التى كانت الحكومة التى حرَّرت له «رخصة قرصنة حكومية» فى حالة حرب معها أو لم يكن يوجد معها معاهدة.

يبدأ فصلٌ جديد فى حياة صمويل باياتشى بقرار اتخذته الولايات العامة فى شهر أكتوبر من عام١٦١٣.

قرَّرت هذه الولايات، بتوصية من ماوريثيو[١] (خطابه مفقود)، إعطـــاء إذن لباياتشى من أجل إعداد سفينة فى هولندا بهدف القيام برحلة إلى بـــلاد البربـــر[٢]. نَصَحَ ماوريثيو الولايات العامة بإقراضه خمسة آلاف فلورين، نصف هذا المبلـــغ نقدًا والنصف الآخر فى شكل أسلحة. اشترطت الولايات أن يقدم قائمـــة بأعـــضاء الطاقم ؛ وكما سوف نرى فيما بعد، كان هذا الاحتراس يرجع إلى أنَّه كان يُعْـــرف أو يُخشى من أن يكون الجزء الأكبر من هؤلاء الأعضاء معروفًا بتخصصه فـــى القرصنة[٣]. ولأن الشتاء كان على وشك المجيء تعيَّن تأجيل السفر حتـــى ربيـــع العام التالى[٤].

فى شهر مارس من عام١٦١٤ أعلنت الولايات من خلال خطاب لسكرتيرها كورنيليس إيرسينس، أنها سمحت لباياتشى، عميل زيدان فى هولندا، بتسجيل طاقم لسفينة حربية ويخت[٥]، أعدهما باياتشى في روتردام[٦]. فى تلك الـــسنوات كـــان باياتشى يُشَكِّل جزءًا من شركة لأصحاب سفن هولنديين كانت تملك وتُجَهِّز الـــسفن الخاصة بها[٧].

كانت الرحلة ذات أهداف هجومية واضحة، حيـــث أن الـــسفينة المقـــصودة كانت سفينة حربية من أصل إنجليزى اسمها «جورج بونافينتورا»[٨]، بالإضافة إلى يخت دُشن علنًا، «بقرع الطبل». كان باياتشى هو مالك السفينة، وكـــان يتـــصرف مثل «جنرال». القبطانان كانا جان جانسز سلوب أو سلوبى[٩]، من هوورن، قبطان للسفينة الرئيسية، وجيربرانت جانسز، قبطان لليخت[١٠].

إذا كان الهدف الرسمى لتلك الرحلة من الناحية النظرية هو المـــساعدة فـــى الكفاح ضد القراصنة فى الساحل المغربى، فإن الهدف الحقيقى كـــان يكمـــن فـــى الإعداد لاحتلال المعمورة[١١].

كانت المعمورة ميناءً صغيرًا على الساحل الأطلنطى المغربى فـــى مـــصب نهر سيبو، حيث توجد اليوم مهدية، بالقرب من قنيطرةKenitra. بعـــد أنْ احتـــلَّ

الإسبان العرائش فى عام ١٦١٠، بدأ القراصنة من مختلف الجنسيات (قراصنة يعملون لحسابهم الخاص وليسوا قراصنة حكوميين)، وبشكل خاص الهولنديون والإنجليز، الذين تم إخلاؤهم من هذا الميناء، بدأوا يلجأون أكثر قليلاً إلى الجنوب، إلى المعمورة على وجه التحديد. ذلك يعنى أنَّ احتلال العرائش لم يحل شيئًا كبيرًا وأنَّ الإسبان بالتالى كانوا فى حاجة لاحتلال هذا المرسى والذى كان الهولنديون بدورهم يتطلعون للاستحواذ عليه قبل أعدائهم. يبدو أنَّ باياتشى أَفْهَم ماوريثيو دى ناسَّاوْ أنَّه سوف يحصل على التنازل عن المعمورة لصالح هولندا.

خرجت سفينة باياتشى من روتردام برخصة وتوكيل مكتوب من الولايات فى شهر أبريل من عام ١٦١٤[١٢]. سافر صمويل، كما قلنا، برفقة السفير الإنجليزى جون هارِّيسون. كان الوحيدون الذين لم يكونوا مسيحيين على ظهر السفينة هم باياتشى والخدم الذين كانوا يُعِدُّون «اللحم» الخاص به: لاشك أن باياتشى كان يأكل «كوشير» وبالتالى كان يطلب لحمًا مذبوحًا بطقوس حسب القواعد اليهودية. طبقًا لتصريحات لاحقة للطاقم، عندما كانوا لا يجدون سفنًا إسبانية فى سواحل إسبانيا كان المعتاد هو السفر مباشرةً إلى صافى حيث كانوا يبقون ثلاثة أسابيع. لكن فى هذه المرة، بالقرب من سواحل إسبانيا، حدث شىء ما، فقد انفصل اليخت عن السفينة الكبيرة للجنرال بسبب سوء الطقس أو بشكل متعمد[١٣]. اليخت، الذى ذهب بطاقم «مؤلف فى معظمه من قراصنة قدامى، وهو أمرٌ كان يعلمه جيدًا الجنرال [باياتشى]»[١٤] غنم أولاً سفينة فرنسية وبعد ذلك سفينة هولندية، الوينثونت، فى المناطق المحيطة برأس ساحل سان بيثنتى. بعد ذلك استولوا على سفينة من لوبيك تسمى الأوتِّر. سلح القراصنة الوينثونت وهذه السفينة بقطع من المدفعية، وأغرقوا اليخت. تركوا طواقم السفن محبوسين فى السفينة الفرنسية، وتوجهوا بالسفينتين اللتين حصلوا عليهما نحو المضيق[١٥]. كانت تلك غارة بكل معنى الكلمة.

بعد أنْ وصل باياتشي إلى صافي، سافر إلى مراكش. لا نعرف ماذا سوف يحدث خلال اللقاء مع زيدان. لكن كورنيليوس كليسين، أحد أفراد الطاقم، يشهد أنه بمناسبة هذا اللقاء، حصل باياتشي من جديد على تفويض من زيدان من أجل أن «يؤذي ويحارب الإسبان وأعداءه الآخرين الذين كان في حالة حرب معهم»(١٦)، أي أنه، حصل على «رخصة قرصنة حكومية». مع ذلك، لم تكن القرصنة هي الهدف الوحيد من الرحلة. كان ماوريتيو في حاجة إلى باياتشي للإعداد لاحتلال المعمورة.

الاستيلاء على المعمورة

نَعلَمُ أن صمويل ظل مهتمًا منذ عام١٦١٠بموضوع المعمورة(١٧)، التي كانت الأطماع الإسبانية فيها واضحة وكانت تقلق مولاي زيدان وهولندا على حدٍ سواء. كان صمويل مكلفًا في لاهاي بإجراء محادثات من أجل عمل مشترك بهدف صرف النوايا الإسبانية عن الموقع. هذا العمل المشترك كان يتحرك في اتجاهين، في المقام الأول، طرد القراصنة المسيحيين من مختلف الجنسيات الذين كانوا يلجأون هناك، وفي المقام الثاني تحصين الموقع بهدف أن يستطيع مقاومة الهجمات الإسبانية(١٨).

كانت المفاوضات بشأن تحصينات المعمورة – والتي كانت المغرب تلتمس من أجلها مهندسين ومساعدة مادية ــ تمضي ببطء. كان مولاي زيدان يطلب مواد بناء ومهندسين هولنديين بالإضافة إلى سفن حربية ليقاتل بها الإسبان(١٩) لكن هولندا لم تكن ترغب في تجهيز وتمويل أسطولاً مغربيًا بكل معنى الكلمة(٢٠).

في غضون ذلك، يظل جوزيف وصمويل كلاهما منكبين على مشاريع تجارية، بوجه خاص توريد السكر إلى هولندا(٢١) ومواد حربية إلى المغرب. في أغسطس من عام١٦١٢ رُخِّصَ لجوزيف باياتشي أنْ يُصدِّر إلى المغرب من هولندا ذخائر حربية وبارود وبنادق(٢٢). أنواع البضاعة التي تصفها الوثائق هي

«بارود وأسلحة وذخيرة وحبال السفينة وعدتها وخَيْش وقطـران وأوانٍ وأطـواق نجاة»[٢٣].

اعتقد الهولنديون، ثقةً منهم فى تقارير باياتشى [٢٤]، أنّ بوسعهم احتلال المعمورة بعد إخلائها من القراصنة وظنوا أنهم فى مقابل تحصين ساحلها، سيكون بمقدورهم التمتع بحق الانتفاع بالميناء. فى أبريل من عام١٦١٤رحلت سفينتان حربيتان هولنديتان بقيادة القائد الأعلى جان إفِرتسين فى اتجاه المعمورة، لطرد القراصنة المستقرين هناك، والذين كانوا – طبقًا لـ أوروتكو ــ «فرنسيين وإنجليز وهولنديين ...مختلطين مع أتراك ومسلمين»[٢٥].

تعيَّن على باياتشى، الذى كان قد رحل بسفينتيه قبل ذلك بأيام، أنْ يسانده ويساعده فى العمل[٢٦]. كانت مهمة إفِرتسين هى طرد القراصنة ودخول المعمورة وبناء حصن تتولى هولندا حمايته وإمداده[٢٧].

وصل إفِرتسين إلى الساحل المغربى فى يونيو من عام١٦١٤، وفى المنطقة المحيطة بميناء سالى انتظر بلا جدوى تعليمات مولاى زيدان واجتماعه مع صمويل باياتشى. لكن صمويل، الذى ربما أعطى لنفسه اختصاصات أو قدّم امتيازات للهولنديين أكثر بكثير مما كان يريده السلطان، استُقبلَ استقبالاً سيئًا جدا عند عودته إلى المغرب وأُجْبِرَ على العودة إلى السفينة.

يعزى باياتشى سبب نكبته إلى أنّ باول فان ليبِّيلو كان قد استبقه وتدخل فى مهمته. فى رسالة مؤرخة فى شهر يونيو من عام ١٦١٤ بعثها صمويل إلى شقيقه جوزيف لكى يقوم بتقديمها إلى الولايات، يشكو من أنّ فان ليبِّيلو تدخل فى الأمر وأنه يحاول أنْ يصبح وسيطًا بين السلطان والولايات. ويطالب بأنْ تؤكد الولايات بأنه هو الوحيد المُفوّض للتعامل مع السلطان[٢٨].

استغل إفِرتسين وجود السفير الإنجليزى، جون هاريسون، فى صافى، من أجل أن يعمل وسيطًا بينه وبين القراصنة الإنجليز ويقنعهم بأن يرحلوا ويبحثوا عن

ملجأ آخر، وهو الأمر الذى فعله هارّيسون مستعينًا بالعلاقات الجيدة الموجودة بين هولندا وإنجلترا، «أعزّائى المواطنون والقادة والمحاربون الإنجليز فى المعمورة»، ويحُضُّهم على «البحث عن وضع أفضل وأكثر نبلاً»[٢٩]. بعد حلّ مشكلة القراصنة الإنجليز، لم يكن إفِرتسين ينتظر سوى تعليمات مولاى زيدان، لكن السلطان كان فى الجنوب يقاتل ضد المتمرد سيدى يحيى بن عبد الله (تلك الشخصية الدينية التى كانت قد شاركت إلى جانب السلطان فى القتال ضد ابن أبى مَحَلّى ليتمرد بدوره بعد ذلك) وترك إفِرتسين بلا أخبار ولا تعليمات.

كان الإسبان على دراية بالمناورات الهولندية. كانوا يعلمون أنّ الهولنديين أقاموا حصنًا فى أقصى الجنوب فى ساحل إفريقيا، فى المينا la mina، وهو ما كان يُعَدُّ مخالفةً لما هو منصوص عليه فى شروط الهدنة. ومن أجل هدمه، أمر الملك دوق ميديناسيدونيا بأن يرسل لويس فاخاردو على رأس الأسطول[٣٠]. بينما كان فاخاردو يُبحر تقريبًا بمحاذاة المعمورة لحق به ساعى بريد يحذره من أنّ الهولنديين كانوا على أبواب هذا الموقع ويأمره بالتدخل. استولى لويس فاخاردو على المعمورة، بلا قتال تقريبًا وعلى مرأى من إفِرتسين، فى أغسطس من عام ١٦١٤[٣١].

هارّيسون وإفِرتسين وجان ليفينس، الذين كانوا فى المغرب فى هذه الشهور، علموا أنّ صمويل وقع فى مصيبة مع مولاى زيدان. اتهموه بأنه لعب دورًا مُلتبسًا فى كل ما يتعلق بالمعمورة. فى شهر يوليو من ذلك العام كتب تاجر هولندى لدى مروره بقادش إلى الولايات العامة يحذرها من أن الإسبان كانوا يعرفون حرفيًّا الخطة الهولندية الخاصة بالمعمورة وكل خطط مولاى زيدان[٣٢]. يؤكد إفِرتسين : «بالنسبة لباياتشى، فإنه فقد كل ثقة واحترام الملك وليس له الآن أية صفة. لو أنه مكث يومًا آخر فى البلد، لأمرَ الملك بقطع رأسه»[٣٣].

يعلن هارّيسون أنّ باياتشى طلب منه خطابات توصية لإنجلترا باسمه واسم شقيقه. طبقًا لهارّيسون، لن يعود باياتشى إلى المغرب ولا إلى هولندا، طالما لم

يُجبر على ذلك، نظرًا لسلوكه حيال كلا البلدين(٣٤). يتناول جان ليفينس، في يومياته، الصخب الذى كان يجرى حول باياتشى ويقول إنَّه لو لم يكن قد أبْحَر، كان السلطان سيعتقله(٣٥). من ناحية أخرى، يبرر باياتشى فشل المهمة بإلقاء الذنب على باول فان ليبّيلو، الذى كان قد ارتكب أعمالاً طائشة(٣٦).

هذا هو ما يُعرف استنادًا إلى الوثائق المحفوظة فى هولندا، لكن فى نفس الوقت،وبشكل يدعو إلى الدهشة، كان باياتشى يعمل كوسيط بين دوق مديناسيدونيا ومولاى زيدان بخصوص المعمورة. ومنذ صيف عام ١٦١٠ كان الدوق يَعْلَم «من مصدر مؤكد» أنَّ الهولنديين كانوا يخططون لإنشاء حصن فى هذا المكان(٣٧). كان صمويل هو المكلف بأن ينقل للسلطان العرض الإسبانى بمبادلة مازاجان بالمعمورة «بشكل ودى» وفى مقابل مساعدة عسكرية(٣٨). فى المراسلات بين الملك ودوق مديناسيدونيا فى هذا الصدد، يشير الملك إلى باياتشى على أنَّه «كاتم السر فى هذه المفاوضات السرية» والذى كان قد قال له أيضًا إنَّ مولاى زيدان كان يعرض المعمورة على الأمير ماوريثيو، وعلى أنه «اليهودى التابع لزيدان»(٣٩).

من المحتمل أنَّ مولاى زيدان، إزاء صعوبة موقفه والشك الذى يكتنف المساعدة الهولندية، قرر أنْ يُجرِّب الإسبان لمساعدته فى استرداد عرشه الضائع تقريبًا الذى كان عرضة للخطر منذ أنْ استولى ابن أبى مُحَلِّى على مراكش. ذكرنا أنَّ مولاى الشيخ، حليف إسبانيا، كان قد تُوفى فى أكتوبر من عام ١٦١٣،وأنَّه فى نفس ذلك العام استولى مولاى زيدان على فاس. أصبح الإسبان بدون مساندة فى المغرب، ويكتب الملك إلى الدوق يعبر له عن قلقه وضرورة عمل شىء من أجل «إخضاع» مولاى زيدان(٤٠). لا نستطيع أن نعرف ما إذا كانت مبادرة التفاوض مع الإسبان جاءت من مولاى زيدان أوْمن صمويل باياتشى أو جاءت من الإسبان أنفسهم، مع أن كل شىء يبدو أنه يشير إلى أن الإسبان كانوا أصحاب المبادرة. الذى نعرفه فعلاً هو أنَّ صمويل كان على علاقة خلال هذه السنوات بدوق مديناسيدونيا وأنه عرض عليه المعمورة فى مقابل مساعدة عسكرية. كان الملك

والدوق يتبادلان المراسلات: «إذا تغلب زيدان سيكون من الأفضل قبول صداقته والنظر إلى ما تسفر عنه مفاوضات مبادلة مازاجان بالمعمورة التى أشرتم إليها، حيث أن ذلك الميناء يُعد ذا أهمية معروفة، وإذا كان من اللازم وجود حصن هناك فإنه من الأفضل أن يُوجد هذا الحصن بشكل ودى. ويمكن النظر أيضًا فى العرض الذى قدمه اليهودى باياتشى»[41]. لم يكن الملك يثق كلّيًا فى باياتشى وأشار على الدوق أن يُشرِك فى الموضوع مَركيز بيَّارِيال. يبدو أنَّ هذا الخطاب يُشير إلى أنَّ باياتشى كان يَعْرِض شيئًا أكثر، أو مختلفًا، عما كان يعرضه مولاى زيدان. يبدو أن كل شىء يوحى من جديد هنا بأنَّ باياتشى كان يتجاوز اختصاصاته ويعمل لحسابه. ربما جنح لذلك بسبب الموقف المزعزع لمولاى زيدان، الذى كان، وربما كان لايزال، على وشك أن يفقد العرش، وربما بسبب أنَّ اتصالات باياتشى مع السلطات الإسبانية كانت لها استمرارية أكثر مما نعرف. أو لأنه فقط كان يعرض المعمورة على منْ كان يدفع أكثر، إما هولندا وإما إسبانيا.

اعتبر فيليبى الثالث، أنَّ باياتشى كان عميلاً مزدوجًا، وأمر الدوق أن يبحث عن يهود آخرين ليعملوا كأمناء سر ووسطاء[42]. كان دوق مدينا سيدونيا، الذى كان يتكتم كل تعاملاته مع باياتشى فى تلك السنوات، مطَّلِعًا بشكل مطلق على المفاوضات الهولندية وعلى شراء مولاى زيدان لسفن هولندية، إلخ[43]. كل ذلك يُفسر بشكلٍ أكثر وضوحًا غضب مولاى زيدان وسخطه على باياتشى منذ ذلك الحين: بعد أنْ عَرَضَ وفاوض على المعمورة مع مُزايدين متناقضين، انتهى بأن خسرها دون أنْ يحصل فى مقابلها على أية فائدة. ويُفسر ذلك أيضًا الدراية الجيدة للإسبان بكل تعاملات المغرب مع الهولنديين.

ملف قضية فى لندن

لنَعُدْ الآن إلى المظهر الآخر لسفر باياتشى الأخير إلى المغرب: القرصنة.

بعد ثلاثة أو أربعة أشهر بعد أنْ سافر من ميناء صافى وبعد أنْ أغضب

سيّده مولاى زيدان، كسب باياتشى غنيمة ثمينة عندما اغتنم سفينتين: سفينة شراعية برتغالية صغيرة وسفينة إسبانية، كانتا آتيتين من سانتو دومينغو مُحَمَّلتين بالسكر، والجلود، إلخ.، بالقرب من لاس أثوريس. أنزل القراصنة طاقمى هاتين السفينتين فى جزيرة سانتا ماريّا (أثوريس)، واستولوا على الحمولة. أثناء الهجوم، قتل باياتشى وطاقمه مواطنًا برتغاليًا[٤٤].

حَصلَ باياتشى، بالإضافة إلى ذلك، على غنيمة أخرى: السفينة المسماه بينيلوبى، وهى مِلك للتاجر اللندنى ريتشارد هال. فى الثالث والعشرين من سبتمبر من عام ١٦١٤يشتكى دومينيكوس بوينس، تاجر فى لندن، باسم هال، أمام الولايات العامة من أنَّ السفينة المذكورة هُوجِمت عندما كانت آتية من هولندا وكانت تتواجد أمام سواحل بلاد البربر من قِبَل سفينتين بقيادة صمويل باياتشى. وتقرر الولايات الرَّد بأنَّ سفينتى باياتشى هما فى خدمة بلاد البربر، وأنَّه بالتالى لا تقع عليهما أيـة مسئولية[٤٥].

كان المعتاد فى تلك الظروف، أى، بعد الحصول على غنائم تحت عَلَم مغربى، هو بيع الغنيمة فى المغرب، فى سلا على الأفضل[٤٦]، لتجنُّب انتهاك رسمى للهدنة مع إسبانيا. كانت العلاقات التجارية مع سلا يسعى إليها يهودٌ كثيرون من أمستردام، لاشك لأنَّه منذ عام ١٦١٠كانت سلا مأهولة بالموريسكيين المطرودين من إكستريمادورا (خاصةً من أورناتشوس) وبالإضافة إلى ذلك كان لها مستوطنتها اليهودية الخاصة بهامن أصل إسبانى أيضًا[٤٧]. إنها حالة أخرى من الحالات التى ينمو فيها تواطؤ وتعاون طيب بين مجموعات عديدة ليهود من أصل إسبانى وموريسكيين. لكن فى هذه المرة قطع الأسطول الإسبانى الطريق[٤٨]. لهذا، ولأن باياتشى كان يعتبر أنه من الأفضل أنْ يبقى بعيدًا عن مولاى زيدان، توجه نحو هولندا، حيث وصل ومعه السفن التى غنمها. ولسوء حظه، بسبب مرض الطاقم وسوء الطقس[٤٩] اضطرت السفينة التى كان باياتشى يسافر على متنها إلى اللجوء إلى بليماوس. رست سفينة أخرى فى فيرى (نيوزيلاندا)، بالقرب من

ميدلبورج: من هناك يكتب قبطان السفينة إلى جوزيف باياتشى يطلب منه مالا لإصلاح فتحات التسريب التى كانت فى جسم السفينة والأشرعة المحطمة ولإطعام الطاقم، الذى كان منهكا[٥٠]. تعيَّن إفراغ البضائع حتى لا تتلفها المياه وصادرتها سلطات إمارة بحر نيوزيلاندا، التى باعت جزءًا منها لسد احتياجات الطاقم[٥١].

أدى توجه باياتشى إلى هولندا إلى مشاكل قانونية وجد نفسه متورطا فيها بعد ذلك. عندما علم مالكا السفينتين المغتنمتين، وهما مواطنان تابعان للتاج الإسبانى واسمهما هيرونيمو فرنانديس بريتّو وأنطونيو بينتو، عندما علما أن الغنائم حُملت إلى هولندا، قدّما شكوى أمام السلطات الإسبانية. فى الرابع من نوفمبر، أخطر قادة الجيش الولايات العامة أن إسبينولا طالب باحتجاز هذه الغنائم حتى يتمكن المالكان من الدفاع عن حقوقهما[٥٢]. كتبت الولايات العامة إلى فريتيما سكرتير ماركيز إسبينولا مستخدمة التبرير المعتاد وهو: مع أنّ القبطان (سلوب) هولندى – إلا أنه يعمل فى خدمة مولاى زيدان. مع ذلك قالوا إنهم اتخذوا إجراءات. نعرف أنهم بالفعل بحثوا عن حل[٥٣]حتى أنهم استشاروا الرجل الشهير هوغو غروتيوس، كما سنرى لاحقا.

الاعتقال

كان باياتشى قد وصل إلى إنجلترا وفى سفينته فتحات تسريب أيضا واضطرَّ للبقاء هناكَ فى انتظار أنْ يُصلحوا جسم سفينته. فى غضون ذلك، وبعد أن تم رصد وجوده فى بليماوس، استطاع سفير إسبانيا فى إنجلترا، دون دييغو دى أكونيا، كونت غوندومار، أنْ يجعل السلطات الإنجليزية تصدر أمرا باعتقاله. أُلقىَ القبض على صمويل باياتشى فى دارتماوس حيث كانت سفينته قد جنحت بعد خروجها من بليماوس، هاربة مذعورة بسبب الأخبار المتعلقة بالإجراءات التى شرع فيها السفير الإسبانى[٥٤].

- دييغو سارمينتو دى أكونيا، كونت غوندومار، سفير إسبانيا فى إنجلترا (الدولة التى عقدت معها إسبانيا معاهدة سلام فى عام ١٦٠٤)، أرسل طلبه الخاص

باعتقال باياتشي إلى المجلس الملكي لانجلترا بتاريخ ٢٥ من أكتوبر من عام ١٦١٤. [٥٥]يقول فيه إنّ باياتشي هو «رعيّة للملك الإسباني وارتدّ عن دين المسيح مُخلِصًا ليصير يهوديًا، أصبح قرصانا وانضم إلى المسلمين، ولديه الآن سفينتان غنيمة تخصان رعايا الملك العظيم جدا»؛ وإنه فيما يخص اغتنام السفينتين الإسبانيتين فقد حاولوا أن يقبضوا عليه في بليماوس وأنْ يأخذوه على متن السفينة، لكنه رشا أناسا كثيرين واستطاع أن يجعلهم يتركونه يهرب.

في خطاب بتاريخ ٤ نوفمبر ١٦١٤، يعلن جون شامبيرليه[٥٦]عن القبض على باياتشي ويشير إليه كـ «قرصان» يهودي أحضر ثلاث غنائم من السفن الإسبانية إلى بليماوس[٥٧]، في الواقع، كما رأينا، استولى باياتشي على غنيمتين فقط، أرسلهما إلى هولندا قبل وصوله مضطرًا إلى بليماوس. يستطرد شامبيرليه: «أرسله ملك المغرب واستعمل سفنا هولندية...لكن بالتأكيد سيتحرر من ذلك لأنه يحاول الحصول على ترخيص من يد الملك لكي يذهب ويجيىء، على الرغم من أنه لم يصدقه إلى أن قدم دليلا »[٥٨]. سوف نرى فيما بعد أنّ تفاؤل شامبيرليه كان مبررا. لكن، بالتالي، في أكتوبر من عام ١٦١٤، كان باياتشي في السجن يطلب يائسًا مساعدة من الهولنديين من خلال أخيه جوزيف ومن خلال نويل دي كارون، السفير الهولندي في إنجلترا. كتب نويل دي كارون إلى الولايات قائلاً «السيد باياتشي المذكور لا يتوقف عن طلبي في كل وقت» نظرا لطول اعتقاله وشقاء سجنه الذي يجعل حياته وحياة البحارة الستة المسجونين معه شاقة بشكل غير عادي[٥٩].

يخبر صمويل باياتشي عن اعتقاله في خطاب مكتوب بالإسبانية في دارتماوس في الثاني من نوفمبر ١٦١٤وموجه إلى الولايات العامة، التي يطلب منها حماية ومساندة متعللاً بأنّ الإسبان يريدون أن يقضوا على التفاهم الطيب بين هولندا والمغرب، وأن يعرفوا كل اتفاقاتهم. هناك نوع من التهديد تخفيه الكلمات فكأنه يقول : إما أن تحموني، أو إذا بقيت في أيادي الإسبان فسوف تكون أسراركم في خطر. يشتكي بمرارة من الإسبان، ويتزرع بوضعه كعميل دبلوماسي «لا

تنفذوا رغبات سفير إسبانيا، فإننى أيضًا وزير مفوض لمليكى [أى، سفيرًا مثل أكونيا] وعقدتُ تحالفًا مع جمهورية كثيرة الحكمة والنبل [الولايات]». يبين أن من بين الذين قبضوا عليه هناك «رجل إيطالى يعاملنى على طريقة محكمة التفتيش؛ هو استولى على كل أوراقى، حيث توجد نسخ وخطابات صاحب الرفعة [ماوريتيو] والملك سيدى [زيدان]، لأن كل رغبته هى معرفة ما يجرى فى هذه النواحى»[٦٠].

قبضوا، بالإضافة لذلك، على ستة هولنديين من طاقمه. مسألة حجز الأوراق أكدها ما قاله جوزيف فى لاهاى، والذى يصر أيضًا على أن تفاصيل المعاهدات بين هولندا والمغرب معرضة لخطر الوقوع فى أيدى الأعداء، أىْ، الإسبان[٦١].

طبقًا للاتهام الرسمى الإسبانى، فإن باياتشى متهم بـ «القرصنة، والاعتداء والاستيلاء على غنيمة فى البحر تخص رعايا صاحب الجلالة [ملك اسبانيا]»[٦٢].

الدفاع

طبقًا لصمويل، الذى سانده شقيقه جوزيف من لاهاى[٦٣]، فإن القبض عليه كان غير قانونى. ليس هناك ما يُؤاخذ عليه فهو لا يفعل إلا ممارسة «الحرب المشروعة» ضد دولة كان سيِّده، مولاى زيدان، فى حالة حرب معها. إنه سفير لملك المغرب، ويتحرك بإذن مرور من ملك إنجلترا، ذلك الإذن الذى - كما رأينا عند تناول موضوع ابن أبى مَحلّى - كان قد طلبه على سبيل الحيطة من جون هاريسون[٦٤].

فى خطابها إلى الملك جاكوب، تلتمس الولايات العامة فى نوفمبر من عام ١٦١٤ الإفراج عن صمويل وإعادة أوراقه[٦٥]. يحصل باياتشى أيضًا على وساطة ماوريتيو دى ناساو نفسه، الذى يكتب بصفة شخصية إلى الملك جاكوب فى الحادى عشر من ديسمبر ١٦١٤[٦٦].

يتناول الخطاب، المكتوب باللغة الفرنسية «الاتهامات المشئومة التى قدمها سفير ملك إسبانيا»، بينما فى الحقيقة «المذكور باياتشى لم يفعل سوى تنفيذ أوامر

ملك بلاد البربر، سيده، الذى عقد معه سادة الولايات العامة معاهدة سلام وتحالف» ويطالب بالإفراج عنه.

بفضل تدخلات ماوريثيو ونويل دى كارون، سفير الولايات العامة فى لندن،الذى يحصل على مساندة بعض أبرز المحامين فى إنجلترا[٦٧]، يتلقى صمويل معاملة ممتازة ويُفرج عنه إفراجًا مؤقتًا تحت رقابة السير وليم كرافن Sir William Craven، فارس ونائب عن مدينة لندن، على الرغم من احتجاجات السفير الإسبانى[٦٨]. كما رُدَّت إلى صمويل أوراقه[٦٩].

فى شهر ديسمبر يرفع باياتشى رسالةً إلى ماوريثيو، يشكره على أفضاله[٧٠]. فى أواخر ديسمبر يحيل مجلس شورى الملك القضية إلى محكمة إمارة البحر (Court of the admiralty)[٧١]، لكن أمر الإفراج عن باياتشى الذى صدر فى هذه اللحظة أُلغِىَ بعد ذلك بعدة أيام. طبقًا لـ كارون، فإن السبب الذى يجعل كل شىء يسير بشكل بطىء وغامض للغاية، بتقديم وتأخير، يرجع إلى تدخلات دى أكونيا، الذى له مصلحة شخصية فى الموضوع، والذى استطاع علاوة على ذلك، الحصول على مقابلة مع الملك جاكوب من أجل أن يتحدث عن موضوع باياتشى. استطاع أكونيا تأخير تسليم خطابات الإفراج، وحاول أن يتم القبض على صمويل من جديد فى إطار قضية مدنية. وعندما كان أكونيا على وشك القبض على باياتشى بقوة السلاح لحظة خروج باياتشى طليقًا من منزل سير ويليام كرافن، تدخل كارون واستطاع أن يجعل باياتشى يبقى فى حرية تحت رقابة وضمان كرافن نفسه[٧٢]. تدخُّل أكونيا هذا يفسر إلغاء أمر الإفراج، غير أنَّ تدخُّل كارون وكرافن يهدفان،على حد قول الأول، إلى حماية باياتشى من مكائد أكونيا، الذى، حسب كارون، يريد أنْ يرى باياتشى مشنوقًا.

أعضاء مجلس شورى الملك، والذين كان لكارون لقاءٌ معهم،يخبرونه بأنَّ السفير الإسبانى يتذرع بأن شقيق أو خليفة ملك المغرب (ينبغى أن يكون الشخص المقصود هو مولاى الشيخ، الذى توفى فى أكتوبر١٦١٣، لكن أكونيا يبدو أنه لا

يعلم) متحالف مع إسبانيا ومشمول بحمايتها. وهذا معناه أن : ملك المغرب ليس ملكًا مطلقًا، لكنه تابع لملك إسبانيا، وأن كلا البلدين لا يمكنهما أن يكونا فى حرب كاملة. إذا لم تكن هناك «حرب كاملة»، فليس من الممكن التحدث عن قرصنة حكومية ؛ بل عن قرصنة خاصة.

فى المحاكمة التى عقدت، دافع كارون عن باياتشى بخطاب استغرق أكثر من ساعة، بدون أية مقاطعة. كان دفاعه يرتكز على مفهوم مصلحة الدولة وعلى أهمية الحفاظ على العلاقات الدولية. على الرغم من أن الجميع متفقون، كما يقول، على أنه عبارة عن يهودى وبربرى، وأنه بصفته هذه فهو لا يستحق معاملة أفضل من كلب، وأنه، كارون، لن يدافع عنه أبدا كمواطن بسبب دينه «غير الصحيح» إلا أنه مع ذلك سفير لملك مطلق، وبصفته هذه يسافر بجواز سفر قانونى وبتوكيل حقيقى وصالح لمحاربة الإسبان. ولهذا يجب احترامه بسبب مصلحة الدولة، كما فعلت الملكة إيسابيل، التى كانت توقر ملك المغرب وعاملت سفيره باحترام عندما وصل إلى قصرها، على الرغم من أنه كان يهوديًا وبربريًا مثل باياتشى. أحرز خطاب كارون الممل نجاحًا واضحًا ودعم الإرادة الإنجليزية فى إيجاد حل سياسى.

مع ذلك، كان صمويل فى لندن فى يناير من عام ١٦١٥عندما كتب إلى الولايات يطلب منها ألاَّ توزع الغنيمة الخاصة بالسفينتين الإسبانيتين على المستحقين القانونيين، حتى يصل هو مع البحَّارة الذين كانوا مسجونين معه فى لندن[٧٣]. فى العشرين من يناير من عام ١٦١٥يقرر المجلس الاستشارى أن القضية لن تفصل فيها محكمة إمارة البحر بل محكمة تضم اللورد كبير قضاة إنجلترا[٧٤].

فى غضون ذلك، يقدم دييغو سارمينتو دى أكونيا طلبه أمام أمير البحر ج. دون J. Dun[٧٥] ويفقد باياتشى صبره. فى خطاب بتاريخ ٢٠فبراير من عام ١٦١٥يكتب إلى الولايات: «وهكذا إذن شاء الحظ أن، أكون فى أياديكم بعد أن هربت من الإسبان، وليس لدىَّ ملاذ آخر سوى الرب وسموكم الرفيع»[٧٦].

في ١٣ مارس ١٦١٥يكتب السفير الهولندى فى إنجلترا، نويل دى كارون[٧٧]، خطابًا إلى رالف وينوود، عميل إنجلترا فى هولندا، يطلب فيه أن يصدر المجلس فى النهاية حكمًا فى القضية التى لاتزال مؤجلة[٧٨]. يلفت الانتباه إلى أهمية باياتشى بالنسبة لمصالح الدولة الهولندية وفى مواد معينة لا تحتمل تأجيلاً[٧٩]. أيضًا موسى باياتشى يتدخل فى لاهاى فى القضية، مبرهنًا على صحة التوكيل الذى أعطاه له مولاى زيدان، وهو الأمر الذى لا يقبله الإسبان. طبقًا لموسى فإنّ التغرة Tughra أو علامة السلطان (التوقيع بصحة التوكيل) صحيحة، وهكذا توقيع علامة السكرتير الفرنسى، ويطلب من الولايات أن تؤكد على هذه الحقيقة[٨٠].

وللأسف فإن الوثيقة الأصلية المثار بشأنها الجدل فُقِدت. ما نمتلكه فعلاً هو نسخة لتوكيل من زيدان، موجود فى مجموعة غانس القديمة. غير أن هذا التوكيل لا يمكن أن يكون هو التوكيل الذى أعطاه زيدان فى حوالى شهر يونيو من عام ١٦١٤، لأنه مؤرخ فى اليوم الأخير من جمادى من عام١٠٢١هـ، الذى يوافق شهر يوليو من عام١٦١١ [٨١]. هذه يعنى، أنه مع كل الاحتمالات فإن هذا هو التوكيل الذى أُعْطِيَ لباياتشى قبل خروجه مع أحمد بن عبدالله والأسطول الصغير لـ ريغيسبرغن من أجل السفر القصير إلى سواحل إسبانيا، والذى يُعد أول تجربة له كقرصان فى خدمة زيدان. فى خطاب بتاريخ ١٦من مارس تشهد الولايات العامة بأن الوثيقة المذكورة صحيحة، وأن كل القادة الذين زاروا لاهاى تعاملوا مع باياتشى بصفته سفيرًا[٨٢].

الحُكْم

أخيرًا أصدر المجلس الإستشارى فى العاشر من شهر مارس حكمًا فى القضية الجنائية[٨٣] يُعلن أنّ باياتشى غير مذنب فيما نُسِبَ إليه من اتهامات، وأحال القضية إلى المحكمة المدنية. أثناء أو بعد انعقاد الجلسة، جعل قاضى محكمة إمارة البحر، ج. دون جعل باياتشى يجلس بجواره، وهو الأمر الذى أثار غضب أكونيا، الذى يشتكى من أن الناس فى إنجلترا يفضلون اليهود والبربر على المسيحيين.

مع ذلك، فإنّ غياب اللورد كبير القضاة وصاحب الجلالة سوف يؤخران صدور قرار نهائي. يأتي هذا القرار أخيرًا في أبريل عندما يعود الملك وينجح كارون في تحديد جلسة شخصية معه. عندما يصل إلى القصر يفرح لأنه استطاع أن يثبت أنه بينما يتحدث هو مع الملك، يتعين على أكونيا أن يقنع بالتحدث مع أعضاء من المجلس.

الغطرسة والتكبر والشراسة التي تفاخر بها أكونيا في موضوع باياتشي، هي الموضوعات التي يروق لكارون الاستفاضة فيها في خطاباته. يقول كارون لجاكوب إنه بما أنّ الإسبان يعتبرون «رجال الدين»، أي، البروتستانت، لا أفضل ولا أسوأ من اليهود أو الأتراك وأنهم كانوا يقومون بحرقهم هم أيضًا (في إشارة إلى محكمة التفتيش)، وبما أن الإسبان كانوا على وشك إكمال طرد واستئصال يهود وأتراك، «نحن [الهولنديون والإنجليز] ينبغي علينا أن ندافع عن أنفسنا ضدهم». المسعى الأخير لأكونيا هو اشتراط ألا يستطيع باياتشي الذهاب إلا عندما يدفع كفالة مقدارها ثلاثين ألف جنيه استرليني، وهو رقم مبالغ فيه جعل باياتشي وكارون مكتئبين.

حَسَب كارون، كان أكونيا يأمل في أنّ أحدًا في إنجلترا لن يكون مستعدًّا لدفع مبلغًا ماليًّا كبيرًا. لكن كارون، بمساندة بعض التجار الهولنديين الأغنياء البارزين في بورصة لندن، دفع المبلغ وأصبح باياتشي حرًّا وذهب إلى هولندا بأسرع وقت. استغرق الموضوع منذ أكتوبر عام ١٦١٤ حتى أبريل من عام١٦١٥.

القضية المدنية، مع ذلك، ظلت مُعلقة وعيَّن باياتشي أحد خدامه كوكيل له في إنجلترا[٨٤]. يشكو دييغو دي أكونيا بمرارة من العداء الذي وجده وكيف أنّ طلب الإسبان للعدالة يُنظر إليه على أنه جريمة[٨٥].

يبدو أن الحكاية لم تُعجبه كثيرًا ؛ فقد طلب نقله كسفير إلى فرنسا عندما أُفرج عن باياتشي. في أرشيف سيمانكاس[٨٦] تُحفظ المراسلات والمضابط التي

كان أكونيا يرسلها إلى القصر، حيث لا يأتى أى ذكر لموضوع باياتشى، ولا أيضًا في مجلدات خطاباته التى نُشِرَت[٨٧]. يروق لأكونيا أن يعطى صورة عظيمة عن نفسه،عن نجاحاته الدبلوماسية وفى القصر الملكى الإنجليزى على حدٍ سواء، ومع أنه يُسجِّل عدة أعمال له حول قراصنة إنجليز وهولنديين، وهو الموضوع الذى يبدو أنه خصص له جزءًا كبيرًا ـــ من طاقاته، يعرض دائمًا لأحداث تاريخية يكون له فيها دور المنتصر. في نفس تلك السنوات نجده ملتزمًا، وبعمل يتصف بالتصميم والمثابرة بالقرب من جاكوب مشابه جدا، بموضوع والتر ريلايف، والذى يحتل مكانا فسيحًا فى مراسلاته المنشورة[٨٨]. ربما لم يبد له، بالمقارنة، موضوع باياتشى جديرًا بالإشارة، باعتبار أنه قد أخفق فيه. قضية باياتشى ضد أكونيا كانت مستمرة حتى بعد موت صمويل فى فبراير من عام ١٦١٦، أى القضية التى يطالب باياتشى من خلالها أنْ، يدفع أكونيا تكاليف المحاكمة بما أنه خسر القضية. في السادس من يونيو من عام١٦١٦تقرر الولايات أن تكتب إلى السفير كارون الذى يتعين عليه أن يطالب بأن تعقد قضية باياتشى ضد أكونيا أمام ملك إنجلترا[٨٩].

مرَّة أخرى فى هولندا: مشاكل مالية وصحيَّة

عاد صمويل مع ذلك إلى هولندا مكسورًا ومحطمًا، فأثناء غيابه بسبب القبض عليه فى إنجلترا ظهرت شكاوى عن أعمال غير قانونية له والتى وصلت إلى عِلْم الولايات: خطاب إمارة بحر روتردام الذى يحتج على أنَّ صمويل باياتشى كان قد اغتنم السفينة الهولندية، وينثونت، فى المنطقة المحيطة برأس ساحل سان بيسينتى[٩٠]، والشكاوى الخاصة بالسفن الإنجليزية (التى بقت بشكلٍ واضحٍ بلا نتائج)، لكن الشكاوى الأكثر خطورة كانت تلك المتعلقة بالسفن الإسبانية[٩١]. أثناء حبسه فى لندن، كانت إمارة بحر روتردام تُقيِّم ثمن الغنائم التى اغتنمها باياتشى من الإسبان[٩٢]. يتضمن هذا التقييم السفينة الأولى التى وصلت إلى فيرى والسفينة الأخرى بقيادة القبطان جان سلوبى، التى وصلت من بليماوس إلى روتردام فى

الحادي والعشرين من أكتوبر من عام ١٦١٤ (٩٣). بعد عودته، يعارض باياتشي - الذي يُسمى الآن «سفيرًا» - تقسيم الغنائم: في رأيه، الغنائم كلها تنتمي إلى ملك المغرب، الذي أعطاه رخصة قرصنة ضد الإسبان(٩٤)، تقرر الولايات العامة تقسيم الغنيمة وإعطاء الرُّبع إلى كل من بينتو وبريتو صاحبي السفينتين الأصليين. الثلاثة أرباع الأخرى سوف تُقسم بين زيدان وباياتشي وسلوبي والطاقم(٩٥).

إنَّ هذه المحاكمة الطويلة سببت ألمًا شديدًا لباياتشي بالإضافة إلى أنه خرج منها مدمرًا اقتصاديًا. القضايا التي وضعه فيها طاقمه الخاص به بسبب دفع الرواتب وتوزيع الغنيمة كانت قد بدأت بينما كان لايزال حبيسًا أو محتجزًا في إنجلترا. والآن وقد كان مديونًا، وسبَّب مشاكل للولايات العامة بعد أن كَسِبَ عداء سيده مولاي زيدان، فهم صمويل أنه يتوجب عليه أن يوجه نظره إلى مكان آخر ويبحث عن مكان جديد حيث يفتح طريقًا. إن بيع الجزء الذي كان يخصه من الغنيمة لم يكن كافيًا لسداد ديونه.

هوامش الفصل الرابع

1 قرار الولايات العامة رقم ٨٠٣ الصادر فى ٢٥ من أكتوبر من عام ١٦١٣،
Resolutiën der Staten Generaal. nieuwe reeks 1610-1670.II. (1613-1616); SIHM, Pays-Bas.II. p.201.

2 قرار الولايات العامة الصادر فى ١٧ أكتوبر من عام ١٦١٣
(SIHM. Pays-Bas.II. p.202. Cf. idem: 30 de noviembre 1613. en SIHM, Pays-Bas.II. p.209).

3 تعيَّن على القبطانين المرشَّحين، جان سلوب وغيربرانت جانسز، أن يُقْسِما علـى ألاّ يُسببا ضرراً للولايات ولا لرعاياها. – (SIHM.Pays Bas.II.pp.205 – 206) تابع الضابطان عملهما بعد ذلك بقليل SIHM, Pays-Bas.II. pp.209-210

4 SIHM, Pays-Bas.II. pp.207-208.

5 كان اليخت يُستخدم لحَمْل المؤَن، Sic SIHM. Pays-Bas,II. p.423
cf.SIHM. Pays-Bas,II, p. 279.

6 رسالة بتاريخ ٣ مارس ١٦١٤ كتبها كورنيليس إيرسينس (١٥٤٥-١٦٢٧)، كاتب الولايات العامة فى الفترة من عام ١٥٨٤ إلى عام ١٦٢٣، Véase sobre él: Van del Aa. s.v. Colecciōn Gans,doc.2

7 Amsterdam. Archivo Municipal، Notarial Records, n.º 2323. Not. Arch.199 fs. 202-205v (1617) Studia Rosenthaliana. XVIII (1984), p. 161.

8 خوّل نبايانتشي شراء سفن فى إنجلترا للقيام بأعمال القرصنة لصالح مولاى زيدان،

cf. Joseph Pallache a los Estados Generales, 29 de noviembre de 1614,SIHM Pays-Bas,II, p.423.

9 Colección Gans, doc.9 SIHM, Pays-Bas,II, p.203.

10 SIHM, Pays-Bas,II, p.425.

11 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 272-274.

12 Cf. Requête de Joseph Pallache aux Etats Généraux, 29 de noviembre de 1614. SIHM, Pays-Bas,II, p.423. Colección Gans, docs.2 y 10.

13 خطاب من إمارة بحر روتردام إلى الولايات العامة، بتاريخ ٢١ من نوفمبر من عام ١٦١٤، SIHM, Pays-Bas,II, pp.410-415

14 "Twelcke doch meest voor date hen met zeeroven hadden geneert, daarvan de Porschreven generaal oock genoechsaem is gewaerschout".

15 تُوحي هذه الأحداث بأنه كان قد وقع تمرد، مع ذلك قام القبطان غيربرانت جانسز، قائد اليخت، في الأول من شهر يوليو من عام ١٦١٥ بتقديم طلب إلى الولايات يتعلق بهذه الرحلة.

16 "إيذاء ومحاربة الإسبان وأعدائه الآخرين الذين كان في حالة حَرْب معهم"،

Cf. Colección Gans, doc. 10 y doc.9,

انظر التذييل، رسالة من جوزيف باياتشي إلى الولايات العامة، بتاريخ ٢٩ إبريل من عام ١٦١٥، SIHM, Pays-Bas,II, p.423 رسالة من صمويل

باياتشي إلى الولايات العامة، بتاريخ ٢٩ من إبريل من عام ١٦١٥،

SIHM, Pays-Bas,II, p.546.

17 تقع المعمورة على بُعد عشرين كيلومتر شمال سلا

Al-Mamûra: s.v.al –Mahdiyya en EI[2], art. E. Levi-Provençal.

18 SIHM, Pays-Bas,I, pp.624 y ss. II, pp.3 y ss.

19 SIHM, Pays-Bas,II. pp. 43 y ss.

20 SIHM, Pays-Bas,II, pp.46 y ss.

21 SIHM. Pays-Bas,II, pp.75 y ss.

22 SIHM, Pays-Bas,II, p.141.

23 Agustín Orozco. Discurso historial de la presa que del puerto de la Mamora hizo la armada real de España en el año 1614. Madrid, 1615, Biblioteca de Autores Españoles, vol. 36, p.216.

24 انظر مُذَكِّرة باياتشي المؤرخة في العشرين من يناير من عام ١٦١٢،

En SIMH, Pays-Bas,II. pp.3-4,

أُعيد نشرها وبشكلٍ مُفصَّل في السابع والعشرين من مارس من عام ١٦١٤،

idem, pp. 256-258.

25 Orozco, op, cit, p.211.

26 SIHM, Pays-Bas,II. p.282.

27 SIHM, Pays-Bas,II, p.288.

28 SIHM, Pays-Bas,II, pp.305 y 311.

29 SIHM. Pays-Bas.II, p.320

30 في شهر مارس من عام ١٦١٣ يُخبر الدوق الملك عن السفن التي يسعى مولاي زيدان لأن يعطوها له في هولندا وعن الحصن الذي يشيده الهولنديون في الميناء. في السابع من يناير من عام ١٦١٤ يأمر الملك بإرسال فاخارنو. ADM. Leg. 2409

31 عندما دخل الإسبان المعمورة وجدوا في مينائها سبع عشرة سفينة لقراصنة، علاوة على سفينة (تُستخدم لنقل الغلال) تكفي لحمل أكثر من ثلاثمائة طن، وخمسمائة قرصان من مختلف الجنسيات، Véase Orozco, Discurso historial op.cit. p.216.

32 SIHM, Pays-Bas.II, p.317

33 SIHM, Pays-Bas,II, p.339.

34 SIHM. Pays-Bas.II, p.328.

35 SIHM. Pays-Bas,II, p.354.

36 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 311-12 y 339.

37 رسالة من الدوق إلى الملك بتاريخ ١١ سبتمبر عام ١٦١٠ ADM. Leg. 2408.

38 رسائل من شهر مارس إلى شهر إبريل من عام ١٦١٤ ADM, leg. 2409.

39 ADM, Leg. 2409, abril de 1614.

40 رسالة من الملك إلى الدوق بتاريخ ٢٠ من أغسطس من عام ١٦١٣ ADM,

41 رسالة من الملك إلى الدوق بتاريخ ٢ مارس من عام ١٦١٤. ADM. Leg.2409

42 Álvarez de Toledo, Alonso Pérez de Cuzmán…. vol.II. P.96.

43 انظر على سبيل المثال رسالة دوق ميـدينا سـيدونيا إلـى الملـك فـى ١٥مارس١٦١٤

AGS, Estado, Leg. 495.

44 Colección Gans,doc. 9c; SIHM, Pays-Bas,II, p.378

45 Resolutiën der Staten Generaal. nieuwe reeks. 1610-1670.II. (1613-1616), no.826. هذا القرار غير مُدرج فىSIHM. لا نفهم كيـف يمكن تفسير أنّ الأمر يتعلق بعدة سفن، بعد انفصال اليخت والسفينة.

46 احتجاج باياتشى فى ريكيت فى ٢٨ من إبريل من عام١٦١٥،

SIHM. Pays-Bas,II, pp. 540-542.

47 Cf. D. M. Swetchinski. The Portuguese Jewish Merchants of Seventeenth Century Amsterdam: A Social Profile. Ph.D. Thesis, Brandeis University. 1979. pp. 117-118, 173-174.

48 SIHM. Pays-Bas,II. p.547: "Ende is geschiet, dat wy twee buyten genomen hebbende en conden in de havenen van Barbarien nyet arriveren deur belet van de armade van Spaignen. die op de custe was".

49 Colección Gans.doc.10, خطاب من الولايات العامة إلى ملك انجلترا.

50 SIHM. Pays-Bas,II, p.373.

51 SIHM. Pays-Bas,II, p.382.

52 Resolutiën der Staten Generaal, nieuwe reeks 1610-1670, II

(1613-1616), 4 noviembre de 1614 (n.° 913b).

53 SIHM, Pays-Bas,II, p.533, Resolución de 22 de abril de 1615.

54 رسالة من صمويل باياتشي إلى الولايات العامة صادرة مـن دارتمـاوس، بتاريخ ٢ نوفمبر من عام ١٦١٤، SIHM, Pays-Bas,II, pp. 407-409

55 SIHM, Pays-Bas,II, p.395.

56 رسالة الولايات العامة إلى ملك انجلترا فى الثانى والعشرين من نوفمبر من عام ١٦١٤، Colección Gans,doc.20.

57 رسالة من جون تشامبيرلين إلى دودلى كارليتون، فى ٤ نوفمبر مـن عـام ١٦١٤.

SIHM, Angleterre, II, p. 477.

58 "He [Pallache] was set out by the King of Morocco, and useth Hollanders ships and for the most part theyre mariners. But yt is like he shall passe yt over well enough, for he pretendeth to have leave and licence under the king's hand for his free egresse and regresse, which he was not beleeved till he made proof of yt".

59 SIHM, Angleterre,II,p.489

60 SIHM, Pays-Bas,II, pp.407-409.

61 SIHM, Pays-Bas,II, p.422.

62 "Piracie, spoyle and outrage at Sea upon the subiects of the

King", Colección Gans,doc.3, 20 de marzo de 1615. El mismo documento ha sido publicado por Albrahams, "Two Jews…"pp.356-357.

63 CF. Joseph Pallache, التماس إلى الولايات العامة، ٢٩ نوفمبر ١٦١٤

SIHM, Pays-Bas.II, pp.420-424.

64 حصل باياتشي على إذن المرور بوساطة من جون هاريسون في عام ١٦١٢. رسالة من هاريسون إلى الولايات العامة، صافي، ١٢ من سبتمبر من عام ١٦١٤،

SIHM, Pays-Bas.II, pp. 326-327.

65 رسالة من الولايات العامة إلى جاكوب الأول،٢٩ من نوفمبر من عام ١٦١٤،

SIHM, Pays-Bas,II, pp. 425-428, Colección Gans,doc.10.

66 **رسالة من ماوريثيو إلى جاكوب الأول، ١١ من ديسمبر من عام ١٦١٤**

SIHM, Angleterre,II, pp. 486 – 487.

67 رسالة من كارون إلى الولايات العامة، ٤–٥ من إبريل من عام ١٦١٥،

SIHM, Pays-Bas,II, pp. 521-529.

68 رسالة من صمويل باياتشي إلى الولايات العامة، أواخر نوفمبر من عام ١٦١٤،

SIHM, Pays-Bas, pp. 429-430.

69 رسالة من جوزيف باياتشي إلى الولايات العامة، ٤ من ديسمبر من عام ١٦١٤،

SIHM, Pays-Bas,II, pp.433-434.

70 مخطوطة هذه الرسالة موجودة فى مصنف غانز، وثيقة رقـم ١١. انظـر التذييل

71 Abrahams, "Two Jews...", p.355. Acts of the Privy Council. 2 de enero de 1615, 23 de diciembre de 1614.

72 رسالة من كارون إلى الولايات العامة فى ٨ يناير ١٦١٥،

SIHM, Pays-Bas,II, pp. 446 y ss.

73 رسالة من صمويل باياتشى إلى الولايات العامة، ٢٦ من ينـاير مـن عـام ١٦١٥،

SIHM, Pays-Bas, p.471.

74 Abrahams, "Two Jews", p.356.

75 El 8 de febrero de 1615, colección Gans,doc. nº 14.

76 SIHM, Pays-Bas,II, p.473.

77 عن هذه الشخصية المهمة التى توفيت فى عام ١٦٢٤، انظر

SIHM, Pays-Bas,I, p. 249.

78 Véase sobre Winwood, Dictionary of National Biography. s.v. Protestante hirviente, en 1613 y principios de 1614,

كان وينوود عميلاً لإنجلترا فى لاهاى على الرغم من أنه كان يذهب ويجئ من إنجلترا. فى ٢٩ مارس من عام ١٦١٤ عُيِّن "سكرتير دولة".

79 SIHM, Angleterre,II,pp. 488-489

80 رسالة من موسى باباتشى إلى الولايات، فى ١٣ مارس ١٦١٥،

SIHM, Pays-Bas,II, pp. 500-502.

81 Publicado en Gans, Memorboek, p.34.

82 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 504-505.

83 واحد وعشرين من مارس من عام ١٦١٥ "أسلوب جديد، أى طبقا للتقـويم الخوليانو"، Colección Gans,doc. n°3. صيغة أخرى من هذه الوثيقـة منشورة فى، Abrahams "Two Jews.." pp.356-357

84 رسالة من كارون إلى الولايات العامة، فى ٩ إبريل من عام ١٦١٥،

SIHM, Pays-Bas,II, pp. 530-532.

85 SIHM, Pays-Bas,II, p.531.

86 AGS, Estado, Libro 366, años 1613-14.

87 Correspondencia oficial de Don Diego Sarmiento de Acuña, Conde de Gondomar. Documentos Inéditos para la historia de España. Vols. I-IV, Madrid,1936-45.

88 Correspondencia oficial...vol.I.

89 Resoluciones 1615,n.° 389, SIHM, Pays-Bas,II, p.682.

90 رسالة من إمارة بحر روتردام إلى الولايات العامة، بتاريخ ٢١ من نـوفمبر من عام ١٦١٤، SIHM, Pays-Bas,II, pp.410-415

91 Mendes de Costa, Catálogo Amsterdam, VII, n.° 555, 274-276.

Hugo de Groot Tracten ende questien (7111-C-3,f. 275-277)

تقرير هيرتشبرج، الذى كان قد ذكر منه هوغـو غروتيـوس أنّ صـموئيل حاول فى عام ١٦٠٤ إنقاذ شحنة هولندية كانت قد أُغتُصبت من سفينة مـن قبل برتغاليين، هو تقرير خاطئ.

92 SIHM, Pays-Bas,II, p.513.

93 SIHM, Pays-Bas,II, pp.398-402, carta del almirantazgo de Roterdam a los Estados, el 29 de octubre de 1614.

94 Resolución de 28 de abril de 1615. SIHM, Pays-Bas,II, pp. 540-542.

95 Resolución de 30 de abril de 1615. SIHM, Pays-Bas,II, pp. 548-550.

الفصل الخامس

المحاولات الأخيرة: إسطمبول ومدريد

الاتصالات مع الإمبراطورية العثمانية

في النصف الثاني من العقد الذى يبدأ عام ١٦١٠ قرر العثمانيون زيادة علاقاتهم مع المغرب[١]. كان خليل باشا، وهو شخصية رفيعة الشأن في القصر العثماني[٢]، يأمل أنْ يكون الهولنديون وسيطًا طيبًا من أجل إقامة روابط صداقة كانت غائبة حتى ذلك الوقت. كانت الاتصالات المباشرة صعبة، ليس فقط بسبب عدم الثقة التى كان يشعر بها المغاربة إزاء تدخل عثمانى محتمل، بل بسبب سلسلة كاملة من المشاكل البشرية كانت تتعلق بالإبحار فى البحر المتوسط وعلى وجه الخصوص الصعوبات حول مضيق جبل طارق.

مستغلاً هذه الفرصة وبهدف إقامة علاقات مباشرة مع تركيا، أوفد جوزيف باياتشي ابنه موسى إلى إسطمبول فى أوائل عام ١٦١٤، عندما كان جوزيف لايزال يعمل بوضوح كعميل لمولاى زيدان. لم يحقق نجاحًا كبيرًا[٣].

بعد ذلك بشهور قليلة سنحت لصمويل، الذى كان قد وقع فى محنة مع مولاى زيدان، فرصة لتحسين العلاقات مع الأتراك: كانت سيدة تركية من عائلة مهمة قد وقعت فى أسر الفرنسيين. حررها باياتشي الذى كانت أسرة السيدة قد وكلته بافتدائها، وأحضرها باياتشي إلى هولندا حيث اعتنى بها الأمير ماوريتيو بشكل مباشر وأُرسلت عائدةً لبيتها مع كل الضمانات[٤]. يبدو أنها عادت بصحبة فتاتين فرنسيتين كانتا فى خدمتها، سبَّبت إحداهما مشكلةً صغيرة لأنها بعد أنْ وصلت إلى تركيا هربت وبحثت عن ملجأ فى بيت السفير الفرنسي. الأخرى، على العكس، أرادت أنْ تتحول إلى الإسلام. يقول كورنيليس هاغا Cornelis haga، السفير الهولندى فى إسطمبول، إن صمويل باياتشي كان يزعم أنَّ كلتا الفتاتين كانتا

بصفة هدية من صمويل إلى خليل باشا وأنهما كانتا تحملان رسائل من باياتشى هدفها كان أن يضمن لهما، لموسى ولَهُ، مدخلا إلى الدوائر العثمانية الرفيعة(٥).

أصبحت أسرة السيدة ممتنة جدا للهولنديين. يؤكد هاغا أنّ موسى بدأ حينئذ يشيع أقاويل عن أنّ الهولنديين، في شخص هاغا، كانوا مُحبَطين بسبب الضعف الذى عُبّر به عن هذا الامتنان وأنّه، أى هاغا، بعد أن انصرف، كان يخطط لقتل أحد أعضاء هذه الأسرة(٦).

بثّ أيضا إشاعة عن أن هاغا لم يعد يتمتع بمساندة الولايات العامة(٧)، وأنّ الهولنديين كانوا يُعيقون الاتصالات بين الأتراك والمغاربة عندما منعوا الباياتشيين من السفر إلى إسطمبول. وكان الباياتشيون بالطبع يحملون هدايا ثمينة عهد بها إليهم السلطان العثماني(٨).

أصرّت الولايات على أنّ جوزيف باياتشى، الذى كان عميلاً لمولاى زيدان في لاهاى منذ أن وقع صمويل في محنةٍ مع زيدان، صرح أمام سيده أنّ الولايات لم تضع أبدا عقبات(٩)، وقدم جوزيف تصريحا كتابيًا في هذا الصدد. طبقًا لجوزيف فإن شكوك هاغا سببها أنّه فسّر بشكل سيئ خطابًا من صمويل كان يتحدث عن مشروع سفارة يقودها أحمد بن عبدالله وتحمل هدايا ثمينة، وأن هذا السفير، وليس باياتشى، هو الذى اعترضته السفن الإسبانية. كان جوزيف يطلب بالتالى أن يُترجَمْ خطاب صمويل بشكل صحيح بهدف أن يبقى واضحًا أنّ أخاه صمويل لم يكن يقصد أى إضرار بالمصالح الهولندية(١٠). من جانبه، يعتبر هاغا بالطبع أنّ خطة الباياتشيين تهدف إلى نقل كل العائلة إلى إسطمبول والاستحواذ على التحكم في العلاقات بين الهولنديين والأتراك من ناحية، والمغاربة والإسبان من ناحية أخرى، دون التخلى بسبب ذلك عن أنشطتهم التجارية(١١). ومن أجل الحصول على هذا الهدف كان من الضرورى أن يختفى هاغا من الساحة.

فعل هاغا بالطبع كل ما أمكنه من أجل إفشال خطط أفراد عائلة باياتشى الذين لم يستطيعوا أبدًا أن يلعبوا الدور الذى كانوا يقصدونه في العلاقات الهولندية

– التركية – المغربية. كل ذلك سبب تباعدًا بين خليل باشا و هاغـا وتلفـا مؤقتـا للعلاقات العثمانية مع هولندا، وخلق كذلك مناخًا جديدًا من البرودة بين العثمـانيين والمغرب. ولم يأت كذلك بأى خير على صمويل باياتشى، الذى كان يتحـول إلـى مصدر للنزاعات بالنسبة لهولندا.

المفاوضات النهائية مع الإسبان

لا يجب أنْ يدهشنا الآن أنه فى نفس الوقت الذى كان فيه باياتشى مُنكبًّا على كل هذا الموضوع مع إسطمبول، نجده قد فتح فصلاً جديدًا، كان هو الأخير، فـى علاقاته مع إسبانيا. الاتصالات، التى تعيَّن أن تؤدى إلى نوع من معاهدة أو تعاقـد أُبرم فى نوفمبر من عام ١٦١٥، بدأت فى أغسطس من عام ١٦١٥ مـن خـلال راهب تابع لرهبانية لاميرثيد يُدعى غريغوريو Gregorio مـن فالنـسيا، وبـشكل خاص بوساطة دوارتى فرنانديث، وهو يهودى برتغالى ورد ذكـره قبـل ذلـك، ويصفه دوق غواداليستى guadaleste، سفير إسبانيا فى فلانديس، بأنه «شخص ذو عقل راجح تستمع إليه الولايات». دوارتى فرنانديث كان هو الذى أقام أول اتصال مع غريغوريو الفالنسى وأكَّد له أنهما معًا سيكونان قادرين على «تحويل [باياتشى] للخدمة الملكية لجلالتكم»(١٢). كان دوارتى فرنانديث يعمل فى خدمة الإسبان قبـل ذلك ببعض الوقت، منذ عام ١٦١٤ أو بداية عام ١٦١٥.

أثناء تلك المفاوضات مع مركيز غواداليستى طُلِبَت نصيحة عِدَّة أشـخاص ممنْ يمكن أن يكون لهم رأى فى هذا الصدد، ومن بينهم دييغو سارمينتو، كونـت غوندومار، السفير الذى كان له دورٌ مهمٌ جدا فى قضية لندن. غونـدومار، الـذى كان قد حارب كثيرًا ضد باياتشى وسبب سجنه ومحاكمته، يؤيد الآن بشكل قـاطع تجنيد باياتشى لكى يعمل لصالح التاج الإسبانى. مع أنَّه كان يبدو بالنسبة لغوندومار أن الخصومة مع باياتشى كانت قد صارت مسألة شخصية. من الواضح كذلك أنَّه، سواء كان بسبب اعتباره خصمًا ذا أهمية (إستمالته خيرٌ من معاداتـه) أو بـسبب تقدير الفرص التى يمكن الحصول عليها من القدرة الازدواجيـة لباياتـشى، فـإن

غوندومار يعتبر إبرام اتفاق معه حركة سياسية طيبة. لم يَعُد يُنظر فى الاعتبارات عما إذا كان يهوديًا أو بربريًا، أو مواطنا ارتدَّ عن دينه ولا يمكن الوثوق به. حصل صمويل على وضع يجعله خطيرًا أو ذا قيمة حسب المكان الذى يوضع فيه وحسب الشخص الذى لديه فرصة استخدامه.

تقدمت المفاوضات بسرعة ونشاط وفى نوفمبر من عام ١٦١٥ أسّس كِلا الجانبين اثنى عشر بندًا اتفقا عليها[١٣]. توجد تراجم عديدة لهذه البنود تُفسَّر على هوَى المشاركين. وفى إحدى هذه الوثائق المشار إليها لا تُفصَّل فقط البنود، بل يُكتب فى الهوامش النتائج الممكنة المناسبة لإسبانيا والمترتبة على كل بند منها. مؤلف هذه التفسيرات الهامشية هو مركيز غواداليستى نفسه[١٤].

يلتزم صمويل باياتشى بأن ينقل للتاج معلومات قيمة وجديرة بالتصديق لكنه سوف يفعل ذلك فقط من خلال شخصين: دوارتى فرنانديث وموسى باياتشى (البند رقم١). بهذه الطريقة يرغب باياتشى فى أنْ يؤكد أنّه سوف يحصل على مستحقاته بانتظام حيث أنه لم يحصل على مقابل نظير خدماته السابقة («السنوات الماضية») بعد أنْ يثبت باياتشى بشكل مُقنع فائدته وأهمية معلوماته سوف يُمنح جواز سفر وتوكيلاً. سوف يسدد له المبلغ المستحق له عن أعمال نفذها فى الماضى، وبالإضافة إلى ذلك سوف يخصص له مبلغ ٢٠٠ إسكودو شهريًا طالما استمر فى إرسال المعلومات المفيدة إلى التاج (البند رقم٢). على وجه خاص سوف يجعل التاج الإسبانى على دراية ومطلعًا على كل الأسرار الهولندية وعلى المخاطر التى يمكن أن تحدث لإسبانيا من المناورات السياسية لذلك البلد. فى ملاحظة هامشية يُفصّل أنّه من أجل هذا سوف يستخدم المعلومات التى يزوده بها «أرثين» (لاشك أنه كورنيليس إيرسينس) سكرتير الولايات العامة. فى نفس الوقت، سوف يقدم معلومات عن علاقات فرنسا وإنجلترا بالمغرب وبالإمبراطورية التركية (البند رقم رقم٤). وأكثر من ذلك (البند رقم ٥)، سوف يخدم صاحب الجلالة بأن يجعل ملك

المغرب يتوقف عن كل نشاط تجارى مع فرنسا وهولندا وإنجلترا، بحيث يبقى مضيق جبل طارق فى مأمن وتحت سيطرة قاصرة على إسبانيا. الملاحظة الهامشية توضح أن هذا البند هو أحد أهم البنود. سوف يقيم أيضًا اتصالاً مباشرًا مع الأتراك من خلال سليم باشا، الذى - كما تشرح الملاحظة الهامشية - يرتبط معه بإياتشى بعلاقات صداقة شخصية (البند رقم٦). كل ذلك سوف يفعله بولاء غير مشروط وإخلاص كُلى نحو ملك إسبانيا وتحت غطاء كونه «سفير المغرب» (البند رقم ٧). القواعد العامة التى سوف يعمل على أساسها بإياتشى هى: بدون نتائج ليس هناك مال، فقط إذا كانت خدماته مفيدة سوف يدفع له أجره. التفاصيل الضرورية سوف تناقش شفاهةً مع غريغوريو دى فالنسيا(البند رقم ٨). ينبغى على ملك إسبانيا أنْ يُسَوِّف ويُفْشِل المفاوضات الجارية بين المغرب وفرنسا حول مكتبة مولاى زيدان، لأسباب سوف تناقش «شفاهةً» مع غريغوريو دى فالنسيا نفسه. يصر على أنَّ ذلك مهم جدا «من أجل مقصدنا»[١٥](البند رقم ٩). رأينا أنَّ صمويل وموسى كانا قد اشتركا فى عام١٦١٢ فى المفاوضات من أجل استرداد الكتب، وكانا يعرفان كم كانت تُهم مولاى زيدان: رُبَّما يفكران فى استغلال هذه القضية وقدرتهما كوسيطين مع إسبانيا ليعودا إلى العمل لصالح السلطان.

مع ذلك، وكما هو مفصل فى العقد، الشرط الأول، الخطوة الأولى للمشروع، تتمثل فى إخراج جوزيف بإياتشى وأسرته من هولندا ليكون فى المستقبل صمويل وموسى ابن شقيقه فقط هما اللذان يقطنان هناك. وهناك إصرار متكرر على أن موسى «مهم بنفس قدر أهمية صمويل» (البند رقم ١٠). السبب الذى يطلب من أجله هذا الخروج مفصَّل فى هامش الوثيقة: جوزيف عدو مُعلن لملك إسبانيا وسوف يُفْشِل أى اتفاق. لكى يذهب جوزيف وأسرته إلى إسطمبول من الضرورى أن يُسلِّم التاج إلى بإياتشى ٢٠٠٠ إسكودو. لاشك أنها عبارة عن خطة هدفها الحصول بسرعةعلى مال نقدى يعالج به الوضع الاقتصادى الصعب جدا للعائلة ويؤمِّن استقرار جوزيف فى إسطمبول. تُلحُّ الوثيقة على ضرورة أن يرحل

جوزيف إلى إسطمبول وتصر على أنَّ هناك ضرورة كبيرة مُلِحَّة، وأنَّ الوقت يضيق(البند رقم ١١). ينبغي أن يصدر جواز السفر بأسرع ما يكون و«بشكل طيب ولائق».

يوضح خطاب وجهه فيليبي الثالث Felipe III إلى شقيقه ألبرتو أنَّ غريغوريو دى فالنسيا كان قد زاره، وأنَّه أعطى الضوء الأخضر للمشروع وكان ينتظر إعلامه بسيره[١٦]. لكن ينبغي علينا أن نخمن أن باياتشي كان يعاني حينئذٍ من المرض الذى تعيَّن عليه أن يموت به، وأنه ترك المشروع دون إتمام[١٧].

وفاة صمويل

فى ٢٥ يناير من عام ١٦١٦طلب صمويل باياتشي من الولايات قرضًا جديدًا قدره ٢٠٠ جنيه. يقول فى الطلب أنَّه منذ ثلاثة شهور وهو طريح الفراش ومريضٌ جدا وأنَّ حاجته إلى المال كبيرة. فى الخامس من فبراير منحت الولايات القرض نظرًا لأنَّ باياتشي كان على وشك الموت[١٨].

وبالفعل، توفى صمويل فى نفس هذا اليوم. رُبَّما أثر موضوع لندن سلبيًا على صحته وأمواله على حدٍ سواء.

لا نعلم أى مرضٍ أصابه ولاكم كان عمره عند وفاته. لم يكن – على ما يبدو – رجلاً طاعنًا فى السن. توجد تقارير عن دفنه فى قرارات الولايات العامة تُفصِّل أنَّ الأمير ماوريثيو وأعضاء الولايات العامة ومجلس الدولة شيعوا جثمانه حتى كوبرى هوتسترات (اسمه اليوم، واتيرلوبلين) ومن هناك نُقِلَ على خشبة حتى مدفن طوائف يهودِ أمستردام فى أوديركيرك آن دى أمستيل[١٩]. هكذا قدم ماوريثيو التكريم الأخير لرجلٍ شعر نحوه بتعاطفٍ واضح وسانده فى كل الظروف التى تطلبت مساندته حتى، فى بعض المناسبات، على حساب مصالح مؤسسات أخرى لبلده. مات صمويل فقيرًا.

فى سجل الوفيات وفى الكلمات المنقوشة على مقبرته يطلق على باياتشى لفظ «حاخام»، شيء هكذا مثل «موقر»، إشارةً إلى معرفته الجيدة ومشاركته فى الطقوس والشعائر اليهودية(٢٠). مقبرته، التى لاتزال محفوظة حتى اليوم، عليها شعار بيضاوى به أسد وتاج كونت، يقرأ تحته، باللغة العبرية: «هذه هى مقبرة الرجل الحكيم والتقى والوجيه الذى أدى واجباته نحو الرب والناس، الحاخام صمويل باياتشى، ليستَرِح فى سلام، نودِى إلى كنفِ الرب يوم الجمعة ١٦شباط من عام٥٣٧٦».

العلاقات التى أحرز فيها باياتشى تقدمًا كبيرًا مع الإسبان تولى موسى مسئوليتها، وقد سافر موسى إلى بروكسيل يرافقه دوارتى فرنانديث وعقد مقابلة مع مركيز غوادالبستى ومع أمبروسيو دى سبينولا. عرض موسى خدماته من أجل الاشتراك فى الخطة الإسبانية لاحتلال سلا وفيدالا فى الساحل المغربى. لم ينتج شيئًا عن هذه الاتصالات، لأنَّ الإسبان تخلوا أساسًا عن خططهم لاحتلال سلا(٢١). سيظل موسى على اتصال بدوق مديناسيدونيا وبالإسبان، على الأقل حتى عام١٦٢٧.

بعد موت صمويل استمر الباياتشيون يلعبون دورًا على الساحة الدولية. فى يونيو من عام ١٦١٦طلب جوزيف، كعميل لزيدان فى هولندا، من الولايات العامة أن تغطى نفقات سَفَرٍ له إلى المغرب التى كان يتعيَّن عليه أن يرحل منها برفقة السفير المغربى إلى إسطمبول(٢٢).

السفارة المغربية، برئاسة أحمد بن عبد الله المذكور سابقًا، وصلت حقيقة إلى إسطمبول، بيد أنَّ مهمتها لم تحقق نجاحًا كبيرًا(٢٣). شعر الأتراك بخيبة الأمل من السفارة المغربية، وهو الأمر الذى أثَّرت فيه بلا شك مناورات هاغا الذى كان غاضبًا بسبب تجاربه السابقة مع الباياتشيين. حمل المغاربة معهم هدايا للسلطان العثمانى: قُفطانًا فاخرًا وسيفًا وصولجانًا، غير أنَّ هذه الهدايا كانت تقدم عادةً لشخصيات أقل أهمية من السلطان(٢٤).

لكن بدءًا من موت صمويل، تختفي إسطمبول ومدريد من الساحة بالنسبة للباباتشيين الذين يكرسون أنفسهم بالكامل للمغرب وهولندا.

بموت صمويل يختفي أيضًا العنصر المغامر والمخاطر الذي كان قد ميَّز أعماله. كانت العائلة مستقرة بما فيه الكفاية. كانت قد أقامت مكانًا ومجال تخصص تميزت به وإن لم يكن سهلاً ولا خالٍ من المخاطر. إنهم موضوع الفصل التالي.

هــوامش الفصل الخامس

1 رسالة من هاجا إلى الولايات العامة فى التاسع من فبراير من عام١٦١٦،

SIHM. Pays-Bas.II, pp.629-631,

SIHM. Pays-Bas.II, p 623، أى بعد أربعة أيام من وفاة صمويل،

A.H.de Groot, The Ottoman Empire and the Dutch Republic. A History of the Earliest Diplomatic Relations 1610-1630

(رسالة دكتوراه من جامعة ليدن)، Leiden,1978, p. 143.

2 قبطان – باشا فى ظل حكم السلطان أحمد الأول، وكبير وزراء بـدءً مـن يناير من عام ١٦١٧

3 **SIHM. Pays-Bas.II, p643**

4 Véase SIHM, Pays-Bas,II, pp.578-583,

ترجمة لخطاب باللغة التركية كتبه باياتشى إلى خليل باشا، ربمـا بـين ٢٩ مايو، ٧ يونيو من عام ١٦١٥

"Voorts sall Uwe Excellentie weeten, hoe dat alhier is gearriveert een man genaemt. Abdulla van wegen den eersamen Ismael Aga tot verlossinge van een suster van dito Ismel Aga, die slaeff was in Vranckryck, ende ick Uwe Exellentie slave hebbe alle mogelycke devoiren aengewendt om dito slavinne vuyt de handen van de Francoeysen te libereren, ende heb haer in myn huys ontfangen, betoenende jegens haer alle eer ende vrundtschap,ende ick heb haer daer nae gebracht by Syn

Excellentie graff Maurits, dwelcke wel genegen zynde om haer met eenige gelegentheyt van scheepen wech te schicken..."

5 رسالة من هاجا إلى الولايات العامة، SIHM. Pays-Bas.II,pp.655- 658

6 **رسالة من هاجا إلى الولايات العامة، ١٦ إبريل ١٦١٦،**

SIHM. Pays-Bas, II, p. 658.

7 رسالة من هاجا إلى الولايات العامة، ٥ مارس ١٦١٦،

SIHM, Pays-Bas,II, p. 644.

8 رسالة من هاجا إلى الولايات العامة، ٥ مارس ١٦١٦،

SIHM, Pays-Bas,II, p. 644.

9 قرار صادر في٤ مايو ١٦١٦، SIHM, Pays-Bas,II, pp.672-675.

10 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 672-675.

11 SIHM, Pays-Bas,II, p. 656.

12 قبل أن تبدأ المفاوضات عن طريق غريغوريو دى فالنسيا كان راهب آخـــر يُدعى جابرييل دى أويى دى كولونيا قد حاول عمل اتصالات باسم صمويل باياتشى مع التاج الإســـبانى. AGS. Estado, Leg. 629, n.° 117.

13 AGS, Estado, Leg. 629, n.° 116-119, n.°119:

أعطى صمويل باياتشى هذه البنود موقّعة بخط يده إلى دوارتـــى فرنانـــديث ورأيتها [أى، غريغوريو دى فالنسيا] وأمسكتها بيداى.

14 **AGS, Estado,** **هذه الملاحظات الهامشية لا تظهر في Leg.2300.**

15 **عن موضوع كاستيلان وكتب السلطان، انظر الفصل السابق**

16 وثيقة في مصنف غانز،مؤرخة في ١٤ من ديسمبر من عام ١٦١٥. انظر التذييل.

17 SIHM, Pays-Bas,II, pp.621-622.

18 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 621-622.

19 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 623-624.

20 Pieterse, op., cit., p.55; D. Henriques de Castro, Keur van Grafsteenen op de Nederl-Portug-Israël. BegraafpLaats te Ouderkerk aan den Amstel, Leíden, 1883. Lapida de Samuel Pallache: n.° 15, pp.91-94, S.v. "Hakham" en la Encyclopaedia Judaica. Traducción del texto en Hirschberg, op.cit., p.219.

21 عن محاولات موريسكيي سلا تسليم الموقع إلى الإسبان انظر:

H. Bouzineb, «"Plática" en torno de la entrega de Salé en el siglo XVII» Al-Qantara, XV, (1994), pp.47-73.

22 قرار الولايات العامة في ٢٤ من يونيو من عام ١٦١٦، SIHM, pays Bas II, pp.690 - 691 - رسالة من جوزيف إلى الولايات في ٢٥من يونيو من عام ١٦١٦،

SIHM, Pays-Bas,II, pp.692-693.

23 Heeringa, op.cit., p.119. De Groot, op.cit., pp.147-149.

24 **De Groot, op.cit.,p.148, que cita ARA States General 6891**

رسالة من هاغا إلى الولايات بتاريخ ٤ من مارس من عام ١٦١٧.

الفصل السادس

بعد صمويل: العائلة

إنَّ موت صمويل في فبراير من عام١٦١٦جعل عائلته في وضع صعب. في هذه اللحظة كانت عائلة باياتشي تعتمد على الأعضاء الآتيين: في المستند الوثائقي الذي يشهد ببيع بضعة لفائف من التوراة، وتنتمي إلى ميراث صمويل، إلى جماعة نيفي سالوم اليهودية، يأتي ذِكْر أرملته ملكة أو مالكة (أسماء متساوية، حيث أن مالكة أو مليكة معناها ملكة بالعربية والعبرية)، وابن كليهما، إسحاق. تذكر الوثيقة كذلك أخاه جوزيف وزوجته، بينفينيدا، مع أبنائهما الذين يمثلهم موسى. في الصفحات التالية سوف نرى أنه، على الرغم من أنهم لم يُذكروا كلهم في هذا المستند الوثائقي، إلا أنَّ جوزيف كان لديه خمسة أبناء، إسحاق وموسى وخوسويه ودافيد وأبراهام، وربما ابنته، أماليا، المدفونة في أوديركيرك بجوار صمويل وجوزيف ودافيد، لكن شاهد قبرها تالف أكثر من اللازم كما لو أنَّ ذلك بغرض أن نعرف ماذا كانت حقيقةُ العلاقة. وكان لصمويل، بالإضافة إلى إسحاق، ابن آخر على الأقل، يدعى خاكوب – كارلوس، الذي نعرف عنه فقط أنه كان عميلاً للشريف في الدينمارك في عام١٦٥٤[1].

أهم أعضاء هذه المجموعة العائلية، قبل موت صمويل، لكن بشكل خاص بعد موته، هم جوزيف (الذي سوف يظل يعيش في أمستردام كعميل للشريف حتى أواخر أيامه) وابنه موسى (الذي استقر بدءًا من عام١٦١٨ في قصر المغرب وكان مترجمًا شفويًّا ومترجمًا تحريريًّا لسلاطين متتابعين) ودافيد الذي كان يعمل كنائب لكليهما، وخاصةً في اللحظات التي كان يتغيب فيها أبوه، جوزيف، عن هولندا من أجل الذهاب إلى المغرب. إذا كان موسى ظهر مثل اليد اليمنى لصمويل في السنوات الأخيرة من حياة عمه، فإنه بموت صمويل يتحول إلى الرئيس الجديد للعائلة.

كما قلنا، وجدت العائلة نفسها في موقف صعب عند موت صمويل. سافر جوزيف إلى المغرب في عام ١٦١٦واستُقبل ببرود من قِبَل الشريف، الذى أرسل خطاب توصية إلى الولايات لم يوضح فيه أنه ضَمِنَ حقيقةً جوزيف. في نفس الوقت، بدأ مولاى زيدان يطلب تفسيرات لما حدث في هولندا في السنوات الأخيرة السابقة على موت صمويل، يريد شهادة إيراد مبيعات عدة شحنات عُهِدَ بها إلى صمويل وتبرير نفقة الأسلحة والذخائر التى اشتراها صمويل له. لهذا الغرض أوْفد إلى هولندا وكيلاً خاصًا، هو جاكِيس جانكارت، من أجل أن يقوم بتحقيقات في الموضوع، وفي موضوع توزيع غنيمة السفن. كان مولاى زيدان يتمسك بأنَّ صمويل والقبطان وطاقم السفينة على حدٍ سواء كانوا يعملون في خدمته، وأنهم استلموا أجرهم وبالتالي فإن الغنيمة كان يتعين أن تكون له بالكامل[٢]. اخطرت الولايات العامة جوزيف، في يناير من عام ١٦١٧، بوصول جانكارت إلى لاهاى وكتبت أيضًا إلى إماراتي بحر روتردام وميدِّيلبورج لإخبارهما بالمهمة ولكي تطلب منهما أن يطلعا جانكارت على كل دفاتر الحسابات وكل الغنيمة التي جلبها صمويل بالياتشي. سمحوا أيضًا لجانكارت بالإبلاغ أمام العدالة عن جوزيف إذا كان ذلك ضروريًا[٣].

بينما كان نشاط عائلة بالياتشي محظورًا، لجأ مولاى زيدان إلى خدام آخرين لديه من اليهود من أجل التجارة مع هولندا، وفي فبراير من عام١٦١٧ يصل إسرائيل بن تشيلوحا وموتشي ليفي مع بضائع وخطابات توصية من الشريف للولايات العامة[٤].

في غضون ذلك وجد جوزيف بالياتشي نفسه مضطرًا لطلب قرض من الولايات العامة التي، على الرغم من أنها كانت تساعد جانكارت وتُسَهِّل له مهمته، كتبت إلى مولاى زيدان خطابًا مطولاً، في يوليو من عام١٦١٧، تشهد فيه على التفاني الذى كانت تبديه عائلة بالياتشي في خدمة الشريف وعلى الإخلاص الشديد

الذى برهن عليه صمويل وجوزيف وموسى على حدٍ سواء، حتى علـى حساب أنفسهم. تؤكد الولايات، بالفعل، أنهم ما كانوا ليستطيعوا أن يعولـوا أنفسهم بمـا يناسب مكانتهم بدون المساعدة والقروض التى كانت تمنحها لهم الولايات(٥).

طَلَبَ جوزيف – وحصل فى مرات عديدة على – مساندة من جانب الولايات العامة لكى تتدخَّل لصالحه أمام مولاى زيدان. ولا شك أنَّ المستند الوثائقى الـذى وقع عليه العديد من تجار أمستردام فى عام ١٦١٧ الذى كان يشهد أنَّ صَموَيل فقد كل أملاكه على أيدى قراصنة وقت أن كان مستقرًا فى هولندا، كان سـببه حاجـة جوزيف لتقديم حسابات وتبرير إشهار الإفلاس.

فى أوائل عام ١٦١٨، التمس جوزيف خطاب توصية لابنه موسـى، الـذى كان قد قرر الرحيل إلى المغرب لخدمة مولاى زيدان، وهو الخطاب الذى كتبتـه الولايات، تؤكد فيه أنها كانت دائمًا راضية جدا عن خدمات موسى(٦).

جدير بالملاحظة أنَّ جوزيف وصمويل كانا قد أرسلا أبناءهما إلى الجامعة. درس موسى لغات شرقية فى جامعة ليْدين، مثل إبن عمه إسحاق، وعـلاوة علـى ذلك أُختير كمرشح لكرسى أستاذية اللغة العربية الجديد، وهو الكرسى الذى احتلـه فى النهاية توماس إربينيوس المشهور(٧).

فى قصر مراكش عمل كمترجم للإسـبانية والهولنديـة والفرنـسية، أولاً، لمولاى زيدان، الذى توفى فى عام١٦٢٧، وبعد ذلك لكل واحد من خلفائه الثلاثـة، مولاى عبدالملك (الذى تمرد عليه أخوته والذى توفى فى عام١٦٣١) ومولاى وليد (الذى اغتيل فى عام ١٦٣٦) ومولاى محمد الشيخ. كـان بالإضـافة إلـى ذلـك سكرتيرًا للقصر ووسيطًا فى كل مرة كان يصل فيها إلى القصر سـفيرٌ-مـسيحىٌ. دَوْرُه، تقريبًا «كمقرِّب»، كان مؤثرًا جدا، ولا غنى عنه بالنسبة لعديد من الأشراف المتعاقبين، وهو الأمر الملاحظ جدا نظرًا للنزاعـات علـى خلافـة العـرش لأن السلطان الخليفة كان أحيانًا عدوًا لمنْ كان قد سبقه.

إلى حدٍ ما أيضًا مثّل المصالح الهولندية في المغرب طالما كانت لا تتعارض مع مصالح الشريف. على سبيل المثال يشكو رويل، الذى سوف نتحدث عنه فيما بعد، من أن جوزيف وابنه موسى يضعان دائمًا مصالح الشريف فوق مصالح هولندا. وظل موسى أيضًا على اتصال بإسبانيا: في خطاب إلى دوق مديناسيدونيا كتبه موسى فى ٤ من أبريل من عام ١٦٢٧، يبدأ بشكره على «النعم التى نحن وأجدادى سواء أبى أو عمى تلقيناها من هذا البيت، سواء فى عهد السيد الدوق المرحوم أو فى عهد سموكم الرفيع»، ويُخطِره أنه متوجه إلى مازاجان لإطلاع الحاكم، غونثالو كوتينهو، على شئون مولاى زيدان[٨]. لم يكن سفرًا منفصلاً، حيث أنه في تقارير عديدة وإخطارات من غونثالو كوتينهو مكتوبة من بلاد البربر ومحفوظة في سيمانكاس، يُقال إنَّ موسى باياتشى أعلَمَ الحاكم.

لابد أنه كان رجلاً ذا شأن، حيث أن وضعه كان دقيقًا واستطاع أن يحتفظ بثقة الأشراف المتعاقبين بدون أن يقع أبدًا فى محنة. تزوج من ابنة إسرائيل بن تشيلوحا[٩]، ناظر أملاك وتاجر للشريف ونقيب الطائفة اليهودية، والمعروف أيضًا بشيخ بنى إسرائيل وبعد موته خلَفَه موسى كنقيب للطائفة.

يشهد على ثقله داخل العائلة أنَّ جزءًا كبيرًا من أعضائها انجذب للعودة نحو المغرب. من المحتمل أن شقيقيه استقرا فى المغرب بمساعدته أو بناء على طلبه: خوسويه (الذى كان أيضًا ناظر أملاك الشريف والذى وجدناه قبل ذلك فى دانزيج مع أخيه إسحاق، وبعد ذلك فى هامبورج) وأبراهام، (الذى كان يعيش فى صافى). كان أبراهام منشغلاً بعدة مشروعات بالاشتراك مع موسى: بمناسبة سفر رويل، يظهر كممون للسفن بالماء والزاد، لكنه موجود أيضًا فى مشروعات تجارية عديدة، وبشكل خاص تجارة الأحجار الثمينة.

فيما يتعلق بهذه المعاملات لدينا خبر عن نزاع قضائى لا يختلف كثيرًا عن النزاع القضائى الذى خاضه أخوه إسحاق مع إنريكى غارثيس: فى عام ١٩٢٣ يقوم أبراهام أوثيل، وهو يهودى من أمستردام، بفسخ وإلغاء عقد كان أبراهام

باياتشى قد أجبره على التوقيع عليه فى صافى، بأوامر من أخيه موسى. عندما كان على وشك الإقلاع من صافى متجهًا إلى أمستردام، أمر أبراهـام بـالقبض عليـه والاحتفاظ به كرهينة حتى يلتزم كتابةً بإعادة قطعتين من الياقوت، ويقول باياتـشى إنه أخرجهما من المغرب بطريقة غير قانونية وإنَّ أوثييل يمتلكها فى أمـستردام. يطلب أوثييل أن يدفع له موسى مبلغ المائتين وستين دوقية الذى يدين بها له، حيث أنه، لتأمين هذا الدين، كان موسى قد سلَّمه قطعتى الياقوت المذكورتين[١٠].

يظهر موسى فى وثائق شرعية هولندية عديدة مكلفًا أو مدينًا بقيمـة أشـياء فاخرة، لا نعرف إذا كانت لحساب السلطان، أو إذا كانت للاستعمال الشخـصى أو بغرض التجارة. إن بيع وشراء الجواهر والأحجار الثمينة ظلت واحدةٍ من الأنشطة الرئيسية لكل أفراد العائلة[١١].

ابن عمه إسحاق، ابن صمويل، استقر فى سلا بدءًا من عام ١٦٢٣ وتـولى هناك افتداء الأسرى الهولنديين[١٢]. عبَّرت له الولايات العامة فى عدة مناسبات عن امتنانها، ويبدو أنه لعب دورًا مقاربًا أو مساويًا لدور قنصل هولندى[١٣]. ابن عمـه دافيد كان قد التمس من الولايات أنْ تمنحه نوعًا من التوكيل الرسمى، حتـى لـو بدون أجر لكى يستطيع الاستمرار فى مهمتـه الخاصـة بالافتـداء بـصلاحيات أوسع[١٤]، مع أنه فى نفس الوقت يظهر فى الوثائق أيضًا فى خدمة «ملـك بـلاد البربر»[١٥]. كان لايزال هناك حتى عام ١٦٣٠.

كانت سلا تُعد واحدةً من أكبر قضايا تلك الفترة: إنها عبارة عن موضِع فى مصب نهر بورجريج، على الضفة المقابلة لقصبة الرباط، حيث استقر فيهـا عـدد كبير من السكان الموريسكيين بدءًا من عام ١٦١٠. لم يتأخر هؤلاء الموريـسكيون فى تكوين ما كان معروفًا بـ «جمهورية» مستقلة، منظمة كمجلس أو مجلس بلدى إسبانى، كان يعترف من الناحية الشكلية فقط بسلطة الـسلطان. إنَّ «الجمهوريـة» الموريسكية فى سلا، التى كان يوجد فيها أيـضًا يهـود والتـى كـان القراصـنة الهولنديون والإنجليز يتخذونها ملجأً، كانت تعيش على القرصنة، وكانـت تُخَـرِّب

الطرق البحرية بين جزر الكنارى وبريست فى بريطانيا، كانت أنشطة القرصنة هذه تصل أيضًا إلى غران سول وإلى سواحل إيرلندا. كان الموريسكيون يستغلون أيضًا معرفتهم باللغة الإسبانية، وبسواحل شبه الجزيرة الأيبيرية لعمل غارات قرصانية برية (تشمل غاليثيا) وهكذا، خلال ثُلثى القرن السابع عشر، تحولت سلا إلى مصنع حقيقى للأسرى الأوروبيين، الذين كان يتعيَّن افتداؤهم بعد مفاوضات متعددة ونقل أموال.

لاشك أن موسى هو الشخصية الأكثر وزنًا فى العائلة، وهو الذى استطاع أن يحتفظ بوظيفة أكثر استقرارًا وأكثر أهمية، وهو الذى كان قادرًا على أن يُخرج، وقت اللزوم، أفراد عائلته من مآزق عديدة. يبدو أنه كان واعيًا بدوره المحورى، ومعترفًا به من قبل أقربائه. حَسَب ألبرت رويل، الذى يكره عائلة باياتشى، فإن موسى أخبره أنه كان يستعد للسفر إلى هولندا، وحينئذٍ جعله رويل يعتقد، نظرًا لظروف الفترة، أن أباه وأخاه سوف يتعين عليهما البقاء خلال ذلك الوقت فى المغرب لمواصلة المفاوضات. إزاء هذه الإمكانية، دائمًا حسب رويل، أجاب موسى حرفيًّا: «بالله إن أبى وأخى يمكن أن يهدموا فى ثلاثة أيام ما كلفنى عمله والحفاظ عليه خمس سنوات»(١٦). يكتب إسحاق باياتشى، ابن صمويل، إلى الولايات من سلا: «الأكثر حظوة عند الملك، حفظه الله، هو السيد موسى باياتشى ابن عمى»(١٧).

يُذكر موسى أيضًا فى المصادر الإنجليزية بدءًا من عام ١٦٣٦. فقد وقَّع الترجمة الإسبانية للتصديق على معاهدة عام ١٦٣٨ بين ملك إنجلترا والشريف محمد الشيخ الصغير(١٨). تقدم التقارير الإنجليزية صورةً طيبة جدا لموسى: (موسى باياتشى، يهودى، شيخ أولئك الذين يعيشون فى «الحى اليهودى»)[خطأ إملائى فى الوثيقة الإنجليزية]. وُلِدَ فى أمستردام وزار قصور أغلب الأمراء المسيحيين. إنه عالم لُغوى جيد وخطيب ممتاز يستخدمه الملك كوزير[سكرتير دولة أو مترجم] أثناء لقاءاته مع السفراء وفى المفاوضات مع الدول الأجنبية. كان

محظوظًا جدا (على الرغم من التغييرات الحديثة) حتى أنه خدم أربعة ملوك متتابعين ولكونه الآن على علاقة طيبة جدا مع مولاى محمد الشيخ»[١٩].

فى أبريل من عام ١٦٥٠كتب الشريف إلى الولايات العامة يقول لها إنَّ أكبر أبناء باياتشي الذى ظلَّ حيًّا، وهو موسى، يريد أن يعقد قرانه على زوجة أخيه دافيد، الذى توفى لتوه، وهكذا يحصل على ميراث أخيه. ردّت الولايات العامة بأن الأرملة رفضت أن تذهب لتعيش فى المغرب[٢٠]. يعد هذا هو آخر ما نعرفه عنه. يبدو أنه كان يبلغ من العمر حينئذٍ أكثر من سبعين سنة.

لكنه على مدى حياته كلها لعب دورًا ذا أهمية كبيرة فى العائلة، وساعد العديد من أعضائها ــ كما سوف نرى ــ على الخروج من ورطات كثيرة.

فى أمستردام: جوزيف ودافيد

بعد رحيل موسى إلى المغرب فى عام١٦١٨، بقى جوزيف ودافيد فى أمستردام. إذا كان موضوع الحسابات وجانكارت قد تم حله، فإن ذلك لم يحل بشكل كامل موقف جوزيف. ففى شهر يونيو من عام١٦١٩ وصل إلى هولندا رجل فرنسى يُدعى جاك فابرى موفدًا من قِبَل الشريف فى مهمة تتعلق بإعادة أسرى هولنديين إلى وطنهم، وتحصيل مبلغ الفدية الذى كان قد دفعه مولاى زيدان من أجلهم، وسبك سلسلة من المدافع البرونزية[٢١].

كما هو منطقى؛ فإن جوزيف باياتشي أفزعه للغاية وصول جاك فابرى كمبعوث لمولاى زيدان، والذى كان دوره كعميل بين كلا البلدين مهددًا. فى مذكرة وجهها إلى الولايات العامة يقترح فيها الإجابات التى يتعين عليها تقديمها إلى مولاى زيدان والأسباب التى تتعلل بها فى الدفاع عن باياتشي[٢٢]،يلتمس جوزيف مساندة الولايات، إزاء الشكاوى غير المبرَّرة للشريف، والذى لم يسدِ إليه فابرى النصيحة المناسبة. علاوة على ذلك يرجو «من سموكم من أجل إرضائه [مولاى زيدان] أن تكتبوا إليه باللغة الإسبانية بهدف أن يتمكن صاحب الجلالة من أن

يفهمكم جيدًا». كان لدى جوزيف أسباب تجعلــه مــذعورًا: عنــدما يلــتمس مــن الولايات، بصفته عميلاً للسلطان، أن تستمر فى دفع إيجار مسكنه، ترد الولايـــات بأنها أوقفت مؤقتًا الدفع لأنها تنتظر تأكيدًا بأن باياتشى سوف يستمر فى مهامه.

فى طلب آخر لاحق إلى حدٍ ما، يُظهر جوزيف فزعه من عودة فابرى إلـــى المغرب ويلتمس أن يُسمح له هو أيضًا بالرحيل لمقابلة الشريف(٢٣).

تقرر الولايات، التى لا تريد أن تتخذ موقفًا، أنْ تكتب خطابين إلى مـــولاى زيدان، خطاب من أجل أن يحمله جاك فابرى، وآخر لكى يُسلِّمه جوزيف باياتشى.

نزل جوزيف فى صافى فى يناير من عام١٦٢١وعـــاد إلـــى هولنـــدا فـــى أغسطس من نفس ذلك العام(٢٤)وقد أُعيد إلى منصبه كعميل وإلى خدمـــة مـــولاى زيدان، كما يثبت خطاب زيدان الذى أحضره جوزيف للولايات(٢٥). بالإضافة إلـــى مساندة الولايات له، لاشك أنّ ابنه موسى كان له دور أيضًا فى استرجاع الوظيفة، وموسى هذا «كان مقربًا جدا من الشريف» وعرض خطة جديدة، ســوف نتحــدث عنها تباعًا. كان العرض يتحدث عن شيء له خلفية سابقة: البحث عن مينـــاء فـــى الساحل المغربى يتم التفاوض به مع القوى الأوروبية التى استحوذ على تفكيرهـــا فى تلك الفترة تفاقم القرصنة حول سلا.

نحو عام ١٦١٩لاحظ رجلٌ موريسكى كان ذاهبًا مع القوات التـــى أرســـلها مولاى زيدان إلى إقليم دوكالا، حول رأس ساحل كانتين، لمطالبة القبائل العربيـــة المتمردة بدفع الضريبة، أنَّ مجموعة من الأوز كانت تتوغل أكثر من الطبيعى فى قناة فى بحيرة أيير Aier. تم تحديد موضع المكان للشريف، الذى أمر بفحصه. فى ذلك الحين كان يقيم فى قصر مولاى زيدان نبيل مـــن بروفينشـــال يـــدعى ســـان ماندريبه. باقتراح منه ومن عميل فرنسى، يُدعى كلود دو ماس،الذى كان فى مهمةٍ فى المغرب (مهمة كانت تتعلق بموضوع كاستيلان وبكتـــب الـــسلطان الـــشهيرة) تشكلت شركة فى باريس بغرض فتح ميناء فى أيير والحصول على امتياز الشريف لعدة سنوات فى مقابل مبالغ مالية. لكن المشروع لم يُنفَّذ. عند عودته إلى المغـــرب

قادمًا من فرنسا، توقف دو ماس فى إسبانيا وأخبر على ما يبدو أمير البحر السيد فادريكى دى توليدو بخطط أيير، فأمر القائد بإرسال سفن من المعمورة لتفحص المكان.

قرر الإسبان استحالة إنشاء ميناء هناك ولم يهتموا بالموضوع، غير أنَّ مولاى زيدان غضب لكونهم كانوا على علم، ووضع دو ماس وسان ماندريبه فى السجن[٢٦]. كان موضوع سرقة كتبه يؤثر سلبيًا على هذين الشخصين، حيث أن السلطان ظل يُكن ضغينة كبيرة ضد فرنسا. وقد أُعدم سان ماندريبه، بتهمة الخيانة.

لا يُعرف ما إذا كان بتحريض من جوزيف أو من موسى، أنه فى مجرى عام ١٦٢١، قرر مولاى زيدان فتح الميناء على حسابه الشخصى. كانت صافى هى الميناء الوحيد الذى تبقى لسلطان مراكش، حيث أن سلا كانت مستقلة، وكانت سانتا كروث فى أيدى المتمردين، وكانت العرائش ومازاجان والمعمورة خاضعة للإسبان. لذا طلب مولاى زيدان من هولندا المساعدة الفنية اللازمة ومهندسين وحفارى حجارة، إلخ. فى رحلة العودة إلى هولندا التى قام بها جوزيف فى أغسطس من نفس هذا العام كان يرافقه القبطان أوتجير كلايسث Outger Claész، الذى كان يحمل خرائط للمكان، كان الاثنان مكلفين بعرض الخطة، بأعلى درجة من السرية، على ماوريثيو دى ناسَّاو. لكى يضمن السلطان موافقة الولايات، رَخَّص لها بأن تستخرج من مملكته كل ما تحتاجه من ملح البارود. وكان ملح البارود المستخدم فى تصنيع البارود، منتجًا يطمع فيه الأوروبيون بشكل غير عادى. جعل جوزيف الولايات تظن أنها سوف تحصل من إنشاء ميناء أيير على منافع تجارية معينة مستغلةً الإقليم، خاصةً الملاحات، وأنها علاوة على ذلك، سوف تحصل فى النهاية على امتياز الميناء[٢٧].

تلى ذلك فترة من الاجتماعات والمداولات قررت الولايات على إثرها أن تُرسِل إلى المغرب، على متن سفينة حربية، مفتشًا مكلفًا بدراسة موقع الميناء،

يرافقه جوزيف باياتشى، وجاكوبو (Jacobus) غوليوس، أستاذ اللغة العربية في ليدن والحجّارون الذين طلبهم الشريف. كان المفتش هو ألبرت رويل، الذى نحتفظ له بيوميات مفصلة عن المهمة، تلك المهمة التى لم يتأتَّ منها شيء طيب. بالفعل، ألقت بظلال كئيبة لسنوات على العلاقات بين هولندا والمغرب.

لابُدَّ أنَّ رويل لم يؤدِ مهمته بشكل طيب جدا، لكن الباياتشيين أيضًا لم يكونوا مستعدين لأن يتركوا خيارات كثيرة. القضيه هى أنه ظل فى صافى لمدة سبعة شهور دون أن يستطيع التحرك من هناك، ولا أن يقابل الشريف ولا أن يتعرف على أماكن بحيرة أيير.

إنَّ خطة فتح ميناء فى بحيرة أيير لم تعط نتائج إيجابية لأنَّ حاجزًا صخريًّا كان يغلق مدخل القناة ويجعلها غير قابلة للاستعمال. من ناحية أخرى، كانت الملاحات تنتج كمية من الملح قليلة جدا، تكفى بالكاد سكان الإقليم. لقد تخلت هولندا ومولاى زيدان على حدٍ سواء بشكل نهائى عن مشروع أيير. بعد ذلك بسنوات، شيَّد مولاى وليد حصنًا فى مدخل البحيرة، سُمّى وليديَّه.

بالنسبة لنا، فإن أهم شيء فى تلك الرحلة هو اليوميات المفصلة التى كتبها ألبرت رويل. إنها يوميات مشوقة يَذكر فيها تقريبًا فى كل صفحة الباياتشيين: جوزيف، الذى يدعوه «العجوز»، الذى رافقه فى رحلة الذهاب والعودة، وموسى، الذى كان فى المغرب كسكرتير ومترجم وتولى كل اتصالات رويل مع الشريف وأبراهام، أخيه الصغير، الذى كان يمد السفن والسفارة بالإمدادات والمأكولات، وإسحاق، «الأعرج»، الذى ليس من الواضح ما إذا كان موجودًا من قبل فى المغرب أو إذا كان قد وصل من الجزائر فى مهمة تتعلق بافتداء أسرى. من البداية، كانت العلاقات سيئةً، وكانت تسوء أكثر. كان رويل يكره الباياتشيين وأراد جوزيف منذ اللحظة الأولى أن يبقى واضحًا أن وضعه، أى وضع جوزيف، كان أعلى، سواء فيما كان يفعله لهولندا أو، على وجه الخصوص، فيما يفعله للمغرب، وأن ذلك، أى العلاقة بين كلا البلدين، كانت حِكرًا على الباياتشيين. «العجوز كان

لديه الجرأة على أن يقول أنَّ لا أحد سواه قادر على الحفاظ على التحـالف [بـين هولندا والمغرب] وأنه لم يكن هناك سوى ثلاثة أو أربعة أشخاص كان بمقـدورهم فهم أسرار هذا التحالف ...الآخرون كانوا كلهم مبتدئين»[٢٨].

بالنسبة لرويل فإن كل ذلك يبدو له أمرًا مهينًا للغاية، خاصة عندما يتضح ــ بقدر ما تتقدم (أو لا تتقدم) المهمة ــ إلى أى درجة كان هو فى أيديهم. يتهم رويل منذ البداية جوزيف بأنه يعمل لصالح الشريف («العجوز باياتشى يضر كثيرًا هـذه المفاوضات، لأنه يريد أن يُرضى ملكه حتى لو كان سلوكه ضد مـصالح وسـمعة سيادتكم»). يقول باياتشى نفسه لرويل: «أنا خادم لـصاحب الجلالـة [الـشريف] وليست لدىَّ الحرية لعمل شيء يمكن أن يَضُرَّه ولا أن أعمل ضد مصالحه ؛ غيـر أنى أؤكِّد لكم، إذا لم تؤدوا واجبكم بالكامل، أننى سوف أشكوكم جديًّا أمام أسـيادكم فى الولايات»[٢٩].

يتساءل رويل كيف يستطيعون أن يعهدوا بهذه الموضـوعات إلـى يهـود إخلاصهم ليس موثوقًا فيه على الإطلاق، «هؤلاء اليهـود لا يـسعون إلا لتـدمير شرف وسمعة سموكم»، يكتب إلى الولايات العامة[٣٠]،إن اليهود،كما يعرف العـالم كله، «مغترين وصبيانيين وكذابين»[٣١]. إنَّ عائلة باياتشى تحيط بالشريف وتمنـع كل اتصال مباشر بينه وبين رويل. وينظم موسى كل مقابلات المجـالس، وتعتمـد عليه أية مقابلة. حسب رويل، لن يتركوه يفعل شيئًا، حيث أنهم حكوا له أن موسى غضب عندما علم أنَّ أباه جاء إلى المغرب مع مفتش: «ما الذى يفكـر فيـه أبـى عندما يحضر إلـى هنـا مفتـشًا ؟ ألا نـستطيع نحـن أن نحـل الموضـوعات بمفردنا؟»[٣٢]. يحكى رويل أن العجوز باياتشى (جوزيف) يتوجه على حصان إلى قصر الشريف ليحييه ويظن أن صاحب الجلالة يعامله بود كبير، علاوة على ذلـك فهو يضع له مقعدًا بجوار مقعده ويعامله كما يعامل أعظمَ القادة. إنها معلومة مهمة من حيث أن الذميين من الناحية النظرية لا يستطيعون أن يمتطـوا دوابًـا ولا أن يُظهروا، بالثروات أو بمواقف خارجية، تفوقًا على المسلمين: إنها نظرية لم تنفـذ

عمليًا فى أحيان كثيرة لكنها كانت سببًا للكبرياء ونموذجًا لتفضل أصحاب السلطة نحو أولئك الذين كانوا ينعمون بذلك الاستثناء. بالنسبة لإسحاق، فهو يواصل القول لدى الشريف إن رويل لم يرَ أبدًا سادة الولايات ولا ماوريثيو دى ناسًاو، ولم يضع قدميه فى لاهاى قبل هذه السفارة، بينما هم خدموهم بإخلاص خلال ستة عشرة عامًا[٣٣].

يتعيَّن على رويل أن يتولى أيضًا موضوع ملح البارود الذى كان صاحب امتيازه يهوديًّا آخر، وكذلك كان مفتشو الجمارك جميعهم، على حد قوله، أصدقاء لباياتشى. كان ملح البارود أقل كميةً، مما حمل هؤلاء على الاعتقاد: «هكذا جرَّ هؤلاء اليهود المحتالون بأساليبهم المنافقة سموكم إلى دفع نفقات كبيرة وخدعوكم وغشوكم»، يستمر رويل فى إخبار الولايات، وكانت كل خطاباته شكوى بحتة ضد هؤلاء اليهود، هذه الأمة الملعونة، أعداء العالم كله، خونة منافقون، مخادعون[٣٤].

يتشاجر مع جوزيف أيضًا حول سداد قيمة المدافع والذخيرة التى أحضروها من هولندا للشريف. الموضوعات تمتد، إنهم يماطلون رويل، ولا يحصل هو على شيء، لا يستطيع أن يرى الشريف وكل مرَّة يكون أكثر غيظًا. يؤكد جوزيف أنَّ خطاب الولايات الخاص بالتعليمات ينص على أن رويل لا يستطيع أن يفعل شيئًا دون موافقة باياتشى، ورويل لا يريد أن يقبل ذلك[٣٥].

يقوم رويل باتهام إبراهام، الابن الأصغر لجوزيف، بغشه فى الإمداد بالزاد والماء. فى أحيان عديدة تحدث مشاهد عنيفة بين جوزيف ورويل، ينادى جوزيف علنًا على رويل «سكير» (اللفظ مكتوب بالإسبانية فى الوثيقة الهولندية) وفى نوبة غضب شديد يتفاخر جوزيف بكبرياء شديد بأصله، وبأن نعال أحذيته تساوى أكثر من رويل. أكَّد، علاوة على ذلك، أمام القادة، «بالله إن عائلتى من أصل أفضل من الملك فيليبى، وعائلتى تساوى ما تساويه عائلة مولاى زيدان». «عائلة مولاى زيدان» كانت شريفة، يعنى، كان قدرها يعود إلى كونها عائلة تعود أصولها إلى النبى محمد: العائلات البارزة من اليهود المغاربة كانت تُقيِّم أيضًا بالإنتساب إلى

الأنبياء. وهكذا، أمام دهشة رويل ومسيحيين آخرين كانوا معه، لم يغضب القــادة الحاضرون إزاء هذا التصريح(٣٦).

إن أكثر ما فعلوه هو تساؤلهم ضاحكين إذا كــان جوزيــف لا يخــشى أن يتخلص منه رويل في رحلة العودة، وقد رد جوزيف على ذلك بأنه كانــت لديــه سلطة في هولندا للتخلص من عشرين رجلٍ من عيِّنة رويل. إنَّ كل يوميات رويل موضحة جدا لفكرة أن عائلة بايانشي كانت تعتد بنفسها، وبشأن بيئتها،عنــد حــسم الموضوع ضد رويل، وبنفوذها لدى الملك.

في مشاجرة أخرى، وصل الحد برويل أنْ فتح رأس إسحاق ضربًا بالعصا. لقد كانت الأمور تسوء بشكل كبير، ليس فقط لأنه كان من الواضح أن المهمة لــن تقود إلى شيء، لكن لأن رويل بات لا يــستطيع الحــصول علــى إذن الــشريف بالمغادرة. كان الموضوع القريب، المتعلق بإعدام سان ماندرييه، الذي لم يحــصل خلال شهور على إذن بمغادرة المغرب وأُعدِم في النهاية، لابد وأنه أسهم في حالة الهياج العصبي عند رويل. لقد كان حقيقةً في أيدي عائلة بايانشي. القائد الطليطلي وهو صديق موريسكي لعائلة بايانشي، يقول له إنَّ الشريف علم بأنَّه، أي رويــل، كتب إلى هولندا يخبرها أنَّ مراكش وصافي فقط هما اللتان في حــوزة الــسلطان، وهو الأمر الذي أثار غضب السلطان. يصبح رويل مرتعبًا ويتساءل كيــف يــدير هؤلاء اليهود الأمور لكي يعلموا بكل شيء وكيف يمكن أن يكــون هنــاك أنــاس كثيرون مخلصين لهم. يخشى ألا يحصل الآن على إذن من الشريف بالرحيــل(٣٧). في مشهد آخر تبدو قراءته مسليةً، يصف رويل اجتماعًا حضره رجل موريــسكي يقول إن هولندا هي «خراء بقرة» مقارنةً بالمغرب وإنَّ الهولنديين لم يستطيعوا أن يثبتوا جدارتهم ضد الإسبان إلا بمساعدة الفرنسيين والإنجليز. القائد الطليطلي تابع المزحة قائلاً إنه إذا كانت هولندا تسمى «البلاد الواطئــة» (خطــأ فــي الأصــل الهولندي) فلأنَّ سكَّانها من أصل سُفلي، فهم ذوي فهم ضعيف وهمَّة هزيلة. رويل يسأل غاضبًا كيف يَعْرِف هو ذلك، وهو الذي لم يتواجد أبدًا في هولندا؟ وكان ردُّه

أن الذى أخبره بذلك هو باياتشى والذى كان هذا الموريسكى صديقًا حميمًا له. يقول رويل إن هؤلاء اليهود خونة ولايمكن تحملهم، ويقص رويل الحكاية فى الولايات[٣٨].

يُحسم الموضوع فى النهاية. يأمر مولاى زيدان بعودة رويل إلى هولندا آخذًا معه فى نفس السفينة جوزيف وإسحاق باياتشى وسفيرًا جديدًا هو الموريسكى يوسف بيسكاينو. تتلقى الولايات العامة رسالة من موسى متعطفة للغاية يقول فيها إن المهمة فشلت بسبب رويل، الذى يكبر عليه موقع السفارة. تعد الرسالة نموذجًا للمهارة الكبيرة ولقدرات موسى، حيث أنه ظاهريًا يتأسف لرويل فى الوقت الذى يتركه مجردًا من الأهلية كليةً: على الرغم من أنه لا يمكن إنكار حُسنْ نيته، إلا أنه تكلم أكثر من اللازم وارتكب أفعالاً تفتقد إلى الرصانة، جرح أحاسيس ولايمكن إلقاء الذنب عليه لأنه ليس قادرًا على أكثر من ذلك، لكن من الواضح أنه لا يجب أن تُعْهَد إليه مهام أخرى ذات طابع دقيق[٣٩].

يُعَدُّ تقرير يوسف بيسكاينو أشدَّ قسوة بكثير. يبدأ السفير بكتابة خطاب احتجاج، فى يوليو من عام ١٦٢٤، الآن فى لاهاى، إلى الولايات العامة،يتعلق بالمعاملة التى أبداها رويل أثناء السفر نحو جوزيف باياتشى وأبنائه، الذين هم عملاء لسلطان المغرب[٤٠]. إذا كان لم يقذف بهم من السفينة، كما كان يمزح القادة المسلمون، فقد كان على وشك أن يفعل ذلك: فقد حبس جوزيف فى حجرة بائسة أعلى مطبخ السفينة بلا طعام تقريبًا لمدة الخمسين يومًا التى استغرقها السفر، وضرب إسحاق وأمر بوضعه فى الأغلال، وعندما وصلوا إلى روتردام، وفى حضور السفير، ضرب دافيد باياتشى، الذى كان قد جاء لاستقبالهم.

يطالب جوزيف بإنصافه. وفى نفس هذا الشهر يكتب مُذكِّرة مُطَوَّلة عن تصرفات رويل فى المغرب،تُظهر لنا وجهًا آخر للعملة، ويصف حماقات عديدة ارتكبها رويل. على سبيل المثال، عندما وصلت سفينته إلى الميناء اقتربت زوارق لحمل طعام ومرطبات إلى السفينة. فى هذه الزوارق كان هناك مسلمان هولنديان.

أجبرهما رويل على البقاء على ظهر سفينته دون أن يبالى بأن هذا التصرف كان غير قانونى وأنَّ الهولنديين كانا قد تحوَّلا إلى الإسلام طواعيةً. بكل تبجح وجرأة قام رويل بحماية قرصان كان مولاى زيدان قد أمر بالقبض عليه، لأنَّ «صاحب الجلالة يعتبره عدوًا أكبر من الإسبان». ارتكب أعمالاً طائشة، وأفعالاً تفتقد إلى الرصانة، وسَخِرَ من كل الإجراءات التى تم إقرارها كقانون بين كلا البلدين، ووضع العلاقة بين كليهما فى خطر جاد. لم يشأ أن يضع فى الاعتبار أنْ أفراد عائلة باياتشى كانوا عملاء لصاحب الجلالة، ولكونهم كذلك، فهم يستحقون الاحترام. أحضر يوسف بيسكاينو المال لسداد ثمن المدافع والذخائر، وكان رويل يتهم باياتشى بحجز المبلغ(٤١).

يكتب جوزيف باياتشى أيضًا، فى شهر يوليو من عام ١٦٢٤، تقريرًا مطولاً، ويطلب من الولايات العامة أن تعقد محاكمة، مُفصلاً المعاملة السيئة التى كان هو وأبناؤه إسحاق ودافيد هدفًا لها من جانب رويل. بالإضافة إلى ذلك، استولى رويل على كل متاعه، وكان ينوى أن يجعله يدفع قيمة السفر. يصف بالتفصيل كيف ضرب رويل دافيد وتركه وملابسه غارقة فى الدم، فى حضور السفير نفسه(٤٢). يكتب دافيد باياتشى أيضًا خطاب شكوى باسمه وباسم أبيه(٤٣).

لم يبقَ للولايات العامة وسيلة أخرى سوى الأمر بحبس ألبرت رويل فى مسكنه ومنعه من دخول لاهاى. وأصبح وضع جوزيف ودافيد قويًا جدا.

دافيد

دافيد هذا سوف يكون هو المسئول عن المحنة العائلية التالية.

فى عام ١٦٣٠ قام شريفان فرنسيان هما راثيلّى ودو تشالارد، بافتداء كل العبيد الفرنسيين الذين كانوا موجودين فى سلا. لكن فى مراكش كان لا يزال هناك أسرى فرنسيون كثيرون. كتب الفارس راثيلّى إلى الشريف فى هذا الصدد وأرسل ثلاث سفن التقى بها فى صافى. مع ذلك فإن العبيد لم يصلوا، وبدا أن الشريف كان

يرمي إلى إطالة الموضوع إلى أن يجبر طقس الشتاء السيئ السفن الفرنسية علـى العودة لوطنها. غير أن حادثة غير متوقعة غيرت مجرى الأحداث: أسر الفـارس في أكتوبر من عام ١٦٣٠، سفينة هولندية كانت عائلة باياتـشي قـد اسـتأجرتها ووُجدت على السفينة مواد حربية مهربة(٤٤).

كان موسى حينئذٍ في قصر الشريف، فقد كان سكرتيرًا ومترجمًا له، وعمل سريعًا من أجل استعادة سفينة عائلته وحمولتها، التي كانت تقدر قيمتها بمائة ألـف جنيه. أقنع الشريف بالإفراج عن الأسرى، ولكن عندما وصل هؤلاء الأسرى أخيرًا إلى صافي، كان راثيلي الذي كان قد فقد صبره وخشي أن يبدأ الطقس السيئ، قـد رحل متوجهًا إلى فرنسا. قبل أن يرحل ترك للقنصل الفرنسي، غنيمة ثمينة آتيـة من السفينة المأسورة وكلَّفه ببيعها.

قرر موسى حينئذٍ إيفاد شقيقه دافيد كي يتدخل لدى القصر الفرنـسي ليُعيـد إليهم السفينة ومحتواها. كتب موسى إلى شقيقه يوصيه أن يستخدم أمام ريتـشيليو الحماس الذي كان قد عمل به لصالح تحرير الأسرى، وأرسل إليه خطابين ليقـوم بتسليمهما إلى لويس الثالث عشر: خطاب من الشريف، وخطـاب مـن الأسـرى الفرنسيين الذين كانوا ينتظرون حينئذٍ في صافي.

من لاهاي، رحل دافيد إلى باريس، حيث وصل في مارس من عـام ١٦٣١ وسلم للملك الخطابين اللذين كان يحملهما. إنَّ حظ الأسرى البائسين الـذين تُركـوا لمصيرهم بسبب نفاذ صبر راثيلي أثَّر في القصر الفرنسي فقرر إيفاد سفارة جديدة إلى المغرب تتولى أمرهم وتتفاوض مع الشريف على معاهدة سلام. استطاع دافيد باياتشي أن يجعل القصر يعيد إليه، إن لم تكن الحمولة، فعلى الأقل السفينة، وتلقَّـى هدايا رائعة وإعفاءات عديدة.

كان فريق المهمة الفرنسي الجديد يتكون من راثيلي ودوتـشالارد والـسيد مولير، المكلف بالمفاوضات مع الشريف. في غضون ذلك، تغيَّر ملـك المغـرب،

حيث أن مولاى عبدالملك، خليفة مولاى زيدان، توفى فى مارس من عام ١٦٣١ وخلفه أخوه مولاى وليد.

بعد وصوله بحرًا إلى صافى، سلك السيد موليز الطريق إلى مراكش يرافقه دافيد باياتشى. انجزت المفاوضات من أجل إبرام معاهدة سلام بين كلا البلدين بسرعة بفضل موسى باياتشى، وهو الأمر الذى، كما نرى، كان غريبًا فى المعاهدات مع القصر المغربى، وتم توقيع المعاهدة فى سبتمبر من عام ١٦٣١. بعد ذلك بقليل عاد السيد موليز إلى صافى يحمل معه نسخة فرنسية من المعاهدة (أمانة الدولة المغربية لم تكن قد أنهت بعد الأصل العربى) والعبيد المحررين.

انتظرت السفن الفرنسية فى صافى وصول النص العربى للمعاهدة حتى يقوم مبعوثوها بالتوقيع عليه. أخيرًا أحضره موسى باياتشى ووقع عليه راثيلى ودوتشالارد اللذان أضافا بندًا باللغة الفرنسية ينص على أن توقيعهما سيكون صالحًا فقط طالما أن النص العربى يتطابق مع النص الفرنسى الذى كان قد كُتب ووُقع عليه مُسبقًا. اشترطوا أيضًا أن يوقع موسى باياتشى على النص الفرنسى شاهدًا على أنَّ كلا النصين يقولان نفس الشىء.

كان دافيد باياتشى، حامل هذين النصين، موضع حفاوة السفير فى باريس حيث قُدمت له هدايا ثمينة. فى أبريل من عام ١٦٣٢ صدَّق الملك على المعاهدة وتعهد دافيد باياتشى بأن يحمل هذا التصديق إلى مولاى وليد. لكنه بدلاً من أن يفعل ذلك على وجه السرعة، توجه أولاً إلى لاهاى حيث توقف لبعض الوقت منشغلاً بمشروعات شخصية.

مولاى وليد، الذى اعتقد ـــ إزاء عدم وصول التصديق ـــ أن ملك فرنسا سخر منه، بدأ من جديد القرصنة ضد السفن الفرنسية وتم أسر عبيد جدد. كان الفرنسيون يجهلون أن دافيد باياتشى لم يكن قد حضر إلى المغرب وأرسلوا سفيرًا جديدًا، دو بوى، الذى استُقبل استقبالاً سيئًا جدا.

لم يشأ مولاى وليد، الذى استمع إلى نصيحة موسى باياتشى، أن يقر بمسؤولية دافيد فى الموضوع وأدخل كلاً من القنصل بيير مازيه ودو بوى فى السجن.

بعد أن علم قصر فرنسا بهذه الواقعة، وكذلك بإهمال أو بخيانة دافيد، أرسلوا تعليمات للمندوب الفرنسى فى هولندا ليحصل من الولايات العامة على قرار بالقبض على دافيد وتسليمه. كان المندوب الفرنسى فى هولندا رجلاً يُدعى ألفونسو لوبيث، يجدر التوقف عند شخصيته، وسوف نكرس له اهتمامًا خاصًا بعد ذلك بقليل. لكننا سوف نقول قبل ذلك إنه فى الوثائق تظهر من جديد كل الصفات التى يُنعت بها اليهود، بحيث يكون من الصعب جدا تقرير ما هى حقيقة الموضوع: «وحيث إنه أمر معروف جدا ومعلن أن سلوك اليهود يقترن دائمًا بالغش وأعمالهم مليئة بالأكاذيب والخدع، كيف يمكن أن يثق شخص فى رجلٍ ليس عنده شرف وأمته عدوة أكيدة لكل أمة أخرى؟»(٤٥).

وجدت الولايات العامة نفسها فى موقف متأزم للغاية حيث أن القبض على دافيد باياتشى وإرساله إلى ملك فرنسا كان يعادل اغتصاب إنسانية شخص دبلوماسى، وهو ما كان عليه دافيد، كمندوب للمغرب فى هولندا. الولايات اعتذرت للويس الثالث عشر وكتبت للشريف تسأله عما يتوجب عليها عمله. قال لها الشريف أن تعتقل «اليهودى الملعون» الذى كان قد أسند إليه دورًا ومهمةً لم يكونا يناسبانه(٤٦). فى غضون ذلك كان دافيد قد احتاط لنفسه وعاد إلى كولونيا منتظرًا أن توضح المساعى الحميدة لأبيه وأخيه موسى الموقف وتعيده إلى خدمة الشريف.

لكن موسى وجد نفسه فى مصاعب: لقد غضب مولاى وليد لأنه وقّع الترجمة العربية للمعاهدة واتهمه، على وجه خاص، بتزوير ترجمات الخطابات، معطيًا لنفسه ولأقاربه ألقابًا لم تكن تظهر فى الخطابات العربية. على سبيل المثال، لكونه وضع «وكيل مخلص وكريم» بينما الأصل العربى كان يقول فقط «ذمّى»، يعنى يهودى أو دافع جزية، وهو مصطلح كان يعنى مكانة وضيعة(٤٧). ولكونه قدّم

نفسه وأخوته كسفراء بينما لم يكونوا كذلك. سُجِنَ موسى وكان على وشك أن يُحكم عليه بالإعدام(٤٨).

مات مولاى وليد مقتولاً على أيدى مسلمين فرنسيين فى فبراير من عام ١٦٣٦. خلَفه شقيقه مولاى محمد الشيخ الصغير، وخرج من السجن الذى كان شقيقه قد أجبره على الإقامة فيه لكى يعتلى العرش. كان محمد الشيخ الصغير ابنًا لأم إسبانية، وكان متزوجًا بامرأتين إسبانيتين أخريين، وكان يتحدث الإسبانية جيدًا مثل مولاى زيدان. بمجرد أن اعتلى العرش ثَبّت الثلاثة باياتشى (جوزيف، وموسى ودافيد) فى مناصبهم الخاصة بهم(٤٩). أعلَم الشريف الولايات بأنه اعترف ببراءة دافيد، الذى اتُهِم زورًا من قِبَل دوتشالارد وبأنه اعتمده من جديد كممثل دبلوماسى وتجارى للمغرب فى هولندا. أُعيد موسى أيضًا إلى منصبه.

ألفونسو لوبيث

تولى موضوع دافيد فى هولندا رجلٌ يُدعى ألفونسو لوبيث، كان مكلفًا بأن يطلب من أمير أورانج، بتوكيل من لويس الثالث عشر، مصادرة أملاك دافيد إلى جانب ممتلكات أبيه وأخيه موسى فى أمستردام، وكذلك تسليم دافيد إلى فرنسا(٥٠).

هذا المندوب الفرنسى فى هولندا له سيرة غاية فى الأهمية، تتفق فى نواحى كثيرة مع مسيرة صمويل(٥١). كان لوبيث شخصية فريدة جدا، ظهر لأول مرة فى عام ١٦٠٤ فى المراسلات المتبادلة بين لا فورس وإنريكى الرابع بشأن الموريسكيين الذين كان الملك الفرنسى ينظر فى منحهم مساندة. كان موريسكيو أراغون، بوساطة من لوبيث، قد طلبوا من إنريكى الرابع إذنًا للإقامة فى سهول إقليم بورديوس الجدباء، التى تعهدوا بتنظيفها وحرثها فى مقابل الترخيص لهم بممارسة دينهم بحرية. لم يكن إنريكى الرابع موافقًا بشكل كبير على المشروع، وكانت المحادثات مستمرة عندما مات الملك مقتولاً. فى تلك المراسلات(٥٢) يوصف لوبيث بأنه «يهودى برتغالى» لكن لوبيث يقدم نفسه كموريسكى مولود فى

أراغون، فى عام ١٥٧٢، جاء إلى فرنسا فى عام ١٦٠٢ ليتفاوض على مساعدة من أجل الموريسكيين. نتساءل عما إذا كان قد تعرّف على موسى باياتشى عندما كان هذا الأخير فى قصر فرنسا فى عام ١٦٠٨. يؤكد باراودى أنه خلال كل القرن السابع عشر كان فى الجنوب الغربى لفرنسا تسللٌ دائمٌ ليهود تحت اسم موريسكيين(٥٣): يجب أن نتذكر أن اليهود كانوا قد طُردوا من فرنسا، وهو طرد أقرّه فى عام ١٦١٥ لويس الثالث عشر، بينما كان الموريسكيون رسميًّا كاثوليكيين.

جاء لوبيث إلى فرنسا كمبعوث شبه رسمى للموريسكيين المتمردين، وعندما فشل التمرد بقى فى فرنسا وعمل فى تنظيم استقبال ونقل الموريسكيين المطرودين فى عامى ١٦٠٩ـ١٦١٠ عبر الأراضى الفرنسية. عندما حدث الطرد، أعطت ماريا دى ميديثيس إذنًا للموريسكيين لعبور فرنسا والإبحار من أجدى Agde باتجاه شمال إفريقيا(٥٤). يبدو أن لوبيث أشرف بنفسه فى أجدى على سفر الموريسكيين المتوجهين إلى بلاد المغرب(٥٥).

انتقل بعد ذلك إلى باريس، حيث تخصص فى المشاريع التجارية، عاملاً كوسيط بين التجار الفرنسيين والأتراك، وأنشأ أول ورشة لصقل الماس فى باريس. كان أيضًا يقرض المال ويبيع الآثار والتُحف الفنية للنبلاء.

بينما كان لوبيث يتابع قضية الموريسكيين، استطاع أن يسترضى المركيز رامبوييه، الذى كان يتحدث أو على الأقل كان يفهم الإسبانية، واستطاع الماركيز أن يدخله إلى متحف اللوفر، حيث كان نجاحه كصائغ سريعًا. فى القصر الفرنسى كان يزعم أنه سليل آخر أفراد عائلة بنى سراج، لكن كل وثائق الفترة تؤكد أنه كان يهوديًّا (يدعونه «السيد عبرانى»)، وبالفعل كان يتردد على الأوساط اليهودية. على وجه الخصوص كان صديقًا لإلياس دى مونتالتو(٥٦) ولثيسار أوغوستو، وهما طبيبان يهوديان، لماريا دى ميديثيس، زوجة إنريكى الرابع ولمحظية الملكة، وليونورا غاليغاى، والتى وُجِدَ لوبيث متورطًا فى محاكمتها بممارسة السحر. اُتُّهِمَ أيضًا بأنه جاسوس لإسبانيا، وهو البلد الذى كان يحتفظ معه على الأقل بعلاقات تجارية.

في تلك الفترة أيضًا عرف لوبيث ريتشيليو، الذى كان يهوى الجواهر والأشياء الفاخرة، وقد أمدَّه صعود ريتشيليو للسلطة بإمكانيات جديدة. بين أمور أخرى، قدم المشورة لريتشيليو فى رغبته فى تطوير ميناء هافر من الناحية التجارية، وسافر عدة مرات إلى هولندا لشراء مؤن وعتاد بحرى. اعتمد دائمًا على المساندة الشخصية لريتشيليو، وهو ما وضعه وهو فى هولندا فوق السفير الفرنسى فى هذا البلد. إنَّ دوره كصائغ وبائع أعمال فنية أدخله فى بيوت النبلاء الرئيسيين، وهو ما كان يُتيح له أن يعمل جاسوسًا ومُبلغًا لريتشيليو. لم يتمكن فقط من تكوين ثروة كبيرة؛ بل إنَّ نشاطه المخلص فى خدمة الكاردينال جعله جديرًا بأن يُعيَّن «كبير خدم» للملك ومستشار دولة. إنَّ إخلاصه للكردينال وللويس الثالث عشر لم يكن أبدًا موضع شك. يهودى معروف وموريسكى وإسبانى فى فرنسا، كان يمثل بمفرده الطوائف الاجتماعية المضطهدة والمطرودة من بلدها الأصلى وكذلك قدرته وعزيمته على العيش فى الالتباس الثقافى. تُعَد مسيرته مدهشة وتقدم عناصر مماثلة ليس فقط مع مسيرة صمويل، بل مع مسيرة مقاولين برتغاليين فى مدريد، مخلصين لفيليبى الرابع وللكونت الدوق.

فى نوفمبر من عام ١٦٣٦ يحصل موسى على خطابات من الشريف لصالح أبيه وأخيه موجهةً إلى ملك إنجلترا. كان يتعين أن يعامل أفراد عائلة باياتشى معاملة طيبة فى هذا البلد، حيث أنهم كانوا يتولون مسئولية مشروعات تجارية مهمة للشريف. ومن إنجلترا كانوا يفكرون فى التوجه إلى القدس[٥٧]. لا يبدو أن جوزيف وصل أبدًا إلى القدس: فقد توفى فى عام ١٦٣٨ ودفن فى أوديركيرك، بجانب صمويل. فى هذه المقابر أيضًا دُفِنَ دافيد، الذى توفى فى عام ١٦٤٩.

يعد دليلاً على الفضل الذى نعم به موسى فى جوار مولاى محمد هذا الخطاب المؤرخ فى شهر أبريل من عام ١٦٥٠ والذى ذُكِرَ آنفًا، والذى يطلب فيه الشريف من الولايات العامة أن تسمح لموسى بالزواج من أرملة أخيه دافيد واسترداد إرثه: «نحيطكم علمًا من خلال هذا الخطاب بأنَّ اليهود من عائلة باياتشى

ـ أبا وابنا ـ خدموا ويخدمون بيتنا الكريم الذى التجأوا تحت ظله، جاءوا [موسى وخوسويه[يرتمون على قدمينا متوسلين أن أكتب لكم عن دافيد باياتشى، الذى توفى فى بلدكم. لقد ترك دافيد ثروة شاسعة فى حوزة أرملته وليس له أى وريث مباشر من جنس أو آخر باستثناء تلك الأرملة. وفى دينهم، يكون الشقيق الأكبر للمرحوم هو الذى يتوجب عليه أن يخلفه، ويتزوج من الأرملة ويرث أملاكها». يرجو أيضا أن يُعتنى بالوكيل الذى أرسله موسى بهدف أن يستطيع إحضار تلك الأرملة إلى المغرب، وإذا لم توافق هذه الأرملة، فلتعملوا على أن يُحل الموضوع طبقًا لشريعتهم (اليهود). «لا تكفوا عن مساعدة باياتشى الأكبر حتى يحصل على الإذن بالميراث دون أن يجد نفسه مضطرًا لمغادرة منزله... بتقديم الحماية لباياتشى تُوفون واجبكم حيالهم حيث أنهم أقاموا زمنًا طويلاً بينكم. لا تتجاهلوا واجبات الجار حيال الجار والمستخدَم حيال مُستَخْدِمِه»(٥٨). صمويل باياتشى، ابن خوسويه، يتولى فى لاهاى متابعة الموضوع حيث أنَّ موسى أصبح مُسِنًا أكثر من اللازم ولا يستطيع تحمُّل مشاق السفر(٥٩). تردُّ الولايات، باحترام شديد، بأنَّ الأرملة ترفض مغادرة هولندا، وأنه طبقًا لقوانين البلد، لا يمكن إجبارها(٦٠).

إسحاق

فى تلك السنوات يبرز فى دور البطولة إسحاق باياتشى، ليس ابن صمويل الذى كان يعيش فى سلا، بل ابن عمه، ذلك الذى كان رويل يدعوه «الأعرج». كان إسحاق هو الابن الأكبر لجوزيف، إلا أنه فى مذكرة مؤرخة فى عام ١٦٤١ يؤكد أنه على الرغم من أنه كان الابن الأكبر من حيث السن، لم يكن يُنظر إليه على هذا النحو لارتداده إلى البروتستانتية، وهو الارتداد الذى سوف نتحدث عنه فيما بعد. كُنَّا قد رأينا فى حينه، بطبيعة الحال، أنَّ إسحاق وأخيه خوسويه كانا قد استعدا للتحول إلى الكاثوليكية فى إسبانيا، وفى عام ١٦١٠ قام إسحاق كذلك بالتبليغ عن إنريكى غارثيس، وهو تاجر برتغالى كان يعيش فى أمبيريس، لكونه استولى على – وباع – بضائع ثمينة كان قد أحضرها السفير المغربى أحمد بن عبد الله

المارونى وصمويل باياتشى. يتمسك إسحاق بأنه يقوم بهذا البلاغ مدفوعًا برغبته فى خدمة «الرب وملك [إسبانيا]»ضد أعدائه! الولايات العامة وملك بلاد البربر. إنَّ بلاغ إسحاق لم يُلتفت إليه، ومن خلال الوثائق التى نتجت عن هذا البلاغ يوصف كشابٍ متمردٍ ولا يمكن التحكم فيه حتى أنه، بأمرٍ من أبيه وبسبب سوء سلوكه، أودع فى السجن فى قلعة بورميريند بالقرب من أمستردام. فى عام ١٦١٢ وُجِدَ إسحاق متورطًا فى نزاع قضائى ضد أبيه جوزيف وضد عمه صمويل. لا نعلم ماذا كان سبب ذلك النزاع[٦١].

مع ذلك، درس العبرية واللغات الشرقية فى جامعة ليدن. فى عام ١٦٣١ يقدم نفسه كأستاذ للغة العبرية بتلك الجامعة، لكن بدون شك بالتزوير[٦٢]. فى سجلِّ الدارسين بالجامعة يظهر كطالب، وليس كأستاذ، وبالإضافة إلى ذلك التمس فى عام ١٦٣٥ قبوله كـ «سمسار» فى أمستردام[٦٣]، وهو منصب أقل سُمُوًا بكثير من كرسى الأستاذية وأنه لا يعتقد أن يطلبه شخص يشغل بالفعل كرسى أستاذية.

يمكن أن يعد أيضًا دليلاً على مرحلة شباب، رُبَّما مضطربة، نقض فيها تعهده بالزواج من كاتالينا لوبيس، ابنة البرتغاليين خيرونيمو وماريا لوبيس، والذى كان سببًا لخصومةٍ تركت أثرًا فى الوثائق الشرعية. لم يتضح ما إذا كان الزواج تمَّ أم لا، لكن على أية حال، من المحتمل أن الزواج أو التعهد بالزواج نُقِضَ، ليس عن رغبةٍ أو بمبادرةٍ من إسحاق، الذى طالب فى عام ١٦١٤ بأن يُسلِّم إليه مهر كاتالينا[٦٤]. فى عام ١٦١٩ خُطِبت كاتالينا لوبيس لأبرام ألفاريم بشرط أن يعوض أبراهام كاتالينا عن وعدها بالزواج من إسحاق باياتشى[٦٥].

قام إسحاق، مثل كل أعضاء عائلته، بنشاط دبلوماسى وتجارى. بين عامى ١٦١٤، ١٦١٦ كان فى اسطمبول، يتفاوض، بين أمور أخرى، على إقامة أبيه أو عمه فى هذه المدينة كعملاء للسلطان المغربى[٦٦]. وفى عام ١٦٢٤، بينما كان مع أبيه فى المغرب، كان لكليهما مواجهة قاسية مع السفير الهولندى ألبرت رويل، الذى يحكى فى يومياته أنَّ إسحاق باياتشى، الذى يطلق رويل عليه لقب

«الأعرج»، قال له، فى مناقشة فى حضور قادة عديدين «فى لهجة من الاحتقار العميق، إنه كان سفيرًا أفضل منى [رويل]، حيث أنه كان قد أُوفد بهذه الصفة من قِبَل الرب العظيم إلى صاحب الجلالة ملك المغرب، بينما أنا جئت فقط من جانب مجرد جمهورية»(٦٧). بين عامى ١٦١٨و ١٦١٩ كان ملكا المغرب وبولندا فى دانزيج، كان هذان الصديقان للولايات العامة يقيمان روابط تحالف فيما بينهما(٦٨).

فى عام ١٦٢٤ التقى بأبيه فى المغرب، التى كان الأب قد وصل إليها مع ألبرت رويل فى الرحلة التى وصفناها آنفًا. كان فيما يبدو قادمًا من مهمة أدّاها فى الجزائر تتعلق بافتداء الأسرى.

فى حوالى عام ١٦٣٣ تحول إسحاق إلى البروتستانتية(٦٩). غضب أبوه جوزيف غضبًا شديدًا بسبب هذا التحول، وحرمه من نصيبه فى ميراث أمه، وطلب من الولايات أن تمنحه هو حضانة ابن إسحاق الذى كان يبلغ عمره سنتين. العلاقات السيئة مع أبيه ومع أخيه دافيد والمحاكمة الطويلة التى سببتها هذه الأحداث (النزاع على الميراث وحضانة الطفل) دمرت إسحاق، الذى كان يتعين عليه إعالة زوجة وستة أبناء. قام أساتذة علم اللاهوت بجامعة ليدن بتنظيم حملة تبرعات من أجل جمع أموال تسمح لإسحاق بإعالة أسرته(٧٠). ربُّما بسبب وضعه الاقتصادى المتأزم، قرر إسحاق حينئذٍ العمل فى موضوع افتداء الأسرى.

بناءً على طلب من إسحاق نفسه، عهد الحاكم الهولندى فى عام ١٦٣٩ لإسحاق بالتفاوض مع سيدى على بن موسى ـــ الولى الذى كان يتحكم فى إقليم سوس، فى جنوب مراكش ـــ على تحرير مجموعة من الأسرى الهولنديين. أقام إسحاق علاقة طيبة مع هذه الشخصية، واشترى لحسابها أسلحة وذخائر، وتحول إلى وكيلٍ له مع هولندا. إذا كان أبوه وأخوته يتولون أمور السلطان، فقد تعين عليه أن يقرر تولى أمور أصحاب سلطة آخرين فى المغرب فى حالة حرب مع السلطان. فى شهر إبريل من عام ١٦٣٩ يكتب إلى الولايات يؤكد أنّ دافيد قد أمد الولايات بمعلومات خاطئة حول ما يجرى فى المغرب، وأنّ سيدى على بن موسى

لايمكن اعتباره متمردًا لأنه لم يكن أبدًا رعية للسلطان، وأنه ليس هناك لدى إسحاق باياتشى سبب لمنع المساعدة الحربية عن هذا الشخص[٧١]. مستغلاً علاقته الجيدة مع الولى، جمع إسحاق مالاً من عائلات الأسرى واستولى على خطابات مكتوبة باللغة العربية موجهة إلى سيدى على من قِبل خاكوبو غوليوس، أستاذ العربية بجامعة ليدن. استقلَّ إسحاق سفينة تابعة لشركة أمريكا الجنوبية حملته أولاً إلى سانتا كروث دى أغادير، حيث لم يستطع تحرير الأسرى، ومن هناك إلى البرازيل. بعد ذلك بعام عاد إلى هولندا، حيث دعته الولايات العامة للحضور إلى لاهاى لتبرير فشل مهمته. اعتذر إسحاق عن عدم استطاعته الذهاب إلى لاهاى، نظرًا لسوء حالته الصحية التى أضرَّ بها السفر الطويل والمُنهِك، وأرسل فى المقابل مذكرةً مكتوبة. فى هذه المذكرة قدم تفسيرًا كاملاً لمهمته، وأجاب عن الأسئلة التى فرضتها عليه هذه المهمة والتى كانت متعلقة: من ناحية، بعائلات الأسرى، الذين اشترطوا استرداد المال الذى كانوا قد أعطوه لباياتشى من أجل دفع الفديات، والذين إزاء فشل مهمته، رفضوا أن يدفعوا له مرتبه ونفقات سفره. ومن ناحية أخرى، تتعلق بشركة نقل تعمل فى أمريكا الجنوبية بشأن بضائع كان إسحاق قد أحضرها من البرازيل وادعت الشركة ملكيتها لها. امتدَّ النزاع القضائى حتى عام١٦٤٧ دون أن نعرف كيف تم حسمه، لكن النزاع على أية حال سبب الدمار الحاسم لإسحاق[٧٢]. إنَّ المذكرة الطويلة التى كتبها إسحاق[٧٣]، والتى أوردت حوارات ووصفت مواقف، بكل ما جاء فيها من سباب، تُعَدّ مذكرة ثرية وتوضيحية بشكل غير عادى بالنسبة للوضع الصعب المستديم لعائلة باياتشى، الذى لم يسببه فقط وضعهم كوسطاء يشترط عليهم كلا الجانبين ولاءً مسبقًا، بل سببه فى الغالب الاحتقار الهائل وعدم الثقة التى سببتها صفتهم كيهود بين الهولنديين، الذين تعين على اليهود التعامل معهم، سواء كانوا تجارًا، أو قباطنة سفن، أو عملاء وسفراء مثل كورنيليس هاغا، وألبرت رويل، وباول فان ليبِّلو وآخرين كثيرين ممن ذكرناهم.

إذا كان تشريع هولندا يتضمن سلسلة من حريات لاشك فيها من أجل مواطنيها اليهود، وإذا كانت عائلة باياتشى قد حصلت مرارًا وتكرارًا على مساندة الولايات وماوريتيو دى ناسّاو، فإن العداء والأفكار المضادة لليهودية من جانب معاصريهم الهولنديين لم تتوقف عن الظهور فى كل الوثائق التى استخدمناها، دون اختلافات بالنسبة للاتجاه المضاد لليهودية لباقى معاصريهم الأوروبيين.

على سبيل المثال، لا يسمح قبطان السفينة لأى هولندى أن يقوم بخدمة باياتشى نظرًا لأنه يهودى. إن واحدًا من الأسرى، كان باياتشى يعتقد أنه ارتبط معه بصداقة، وكان قد احتفى به فى المغرب. بعد أن وصل إلى مسكن باياتشى ورأى خادمًا ينزع عنه حذاءه، قال للأسرى الآخرين: «ينفطر قلبى أن أُجبر على رؤية مسيحى يقوم بخدمة يهودى»[٧٤]. كان إسحاق باياتشى فى ذلك الحين يهوديًّا متحولاً إلى البروتستانتية، وهو تحول لا يبدو أنه جلب له أية فائدة اجتماعية.

قامت عائلة باياتشى بأعمال نصب، لكن من الواضح أيضًا أنه كان هناك كثيرون يعتقدون أنّ النصب عليهم أو على الأقل الحصول على أقصى فائدة منهم كان يُعد أمرًا شرعيًّا، كما يتضح من الحسابات التى تقدمها صاحبة الفندق فى روتردام عن الأيام التى أقامها إسحاق باياتشى وزوجته انتظارًا لأن يكون الريح مواتٍ وتستطيع السفينة أن تُقلع. يكتب إسحاق بمرارة: «حتى الآن كنت أظن أنه لا يوجد قراصنة إلا فى البحر، لكننى أرى فى الحقيقة أنهم موجودون بعددٍ كبير فى البر، فى هذا البلد المشهور بعدله»[٧٥]. وبما أنّ اليهود كانوا أناسًا بلا شرف — هكذا كان يعتقد المسيحيون الأوروبيون — فلم يكن هناك سببٌ للإسراف فى الشرف، ولا فى الأمانة، فى التعاملات معهم[٧٦].

يفنّد إسحاق فى المذكرة اتهامات شركة النقل، واحدًا تلو الآخر: إنه بينما هو مسيحى فى هولندا، جعل نفسه يهوديًّا فى المغرب وأقام مع اليهود فى سانتا كروث، وأنّ الولى المغربى قد ساءه أنّ المبعوث كان يهوديًّا. يرد إسحاق: «كيف كنت سأتظاهر بأنى يهودى، وأنا الذى تخليت عن أبى وأمى وممتلكاتى وهجرت

وطنى حبًا فى الدين المسيحى؟». بالطبع أقام باياتشى مع اليهود، إن أى مبعوث أو سفير أجنبى يأتى إلى المغرب يُسكنونه مع اليهود، لأنه لا توجد فنادق فى هذا البلد، وجرت العادة على تسكين الضيوف فى الأحياء اليهودية، وهذا شىء معروف جيدًا. الأستاذ جاكوبوس غوليوس يمكن أن يشهد على ذلك، حيث أنَّ نفس الشىء حدث معه حينما كان فى المغرب مع أبيه جوزيف ومع ألبرت رويل. والمسلمون يثقون فى اليهود حيث أن الشريف لديه - كسكرتير للقصر - موسى باياتشى، وخوسويه، ناظر أملاك، وأبوه جوزيف كان سفيرًا لدى الولايات لمدة اثنتين وثلاثين سنة وشقيقه الأصغر، دافيد، هو الآن وكيل للسلطان فى هولندا. يرى إسحاق بدوره أن قبطان السفينة وتهور وجرأة الأسرى أنفسهم، كانت عوامل أفشلت المهمة.

يتكلم أيضًا عن البضائع التى أحضرها من البرازيل: أفيون، قرنفل،صمغ، خشب أسود من بلاد الهند، جوز الهند، بلاسم من بيرو، إلخ وسلسلة من «الأشياء الغريبة»، البعض منها هدية من حاكم البرازيل، خوان ماوريثيو دى ناسَّاو، مثل علبة للنظارة مطعمة بالصدف. لم يسمحوا له بالتصرف فى البضاعة ولا فى الهدايا. يدعو الربَّ أن يمنحه الصبر ويُقْسِمُ بأحفاده التسعة !

وأخيرًا يشير إلى موضوع آخر لا يتضح فى المذكرة: يبدو أنَّ أخاه دافيد قد أبلغ عنه واتهمه زورًا (فحوى الاتهام غير معلومة، رُبَّما لأنه عاد إلى اليهودية فى المغرب، كما اتهمته شركة النقل) أمام الكنيسة البروتستانتية الهولندية، والآن يمنعونه هو وزوجته وأبناءه من دخول الكنائس. يبدو إسحاق مفعمًا بالمرارة. لقد تخلى عنه الجميع.

فى عام ١٦٤٧ كان إسحاق يحمل خطابات من الشريف، «ذات أهمية كبيرة» للملك ولاديسلاس السابع ملك بولندا Waladislas VII ، وكان لا يزال يطالب بالممتلكات التى حجزتها شركة النقل[٧٧]. يؤكد فى ذلك الحين أن لديه أحد عشر ابنًا.

أثناء إقامته فى المغرب فى عام ١٦٤٧، كان قد فحص مع أخيه موسى مناجم النحاس فى هذا البلد وكتب إلى الولايات العامة يقترح عليها استغلال هذه المناجم[٧٨].

بالنسبة للمعتقدات الدينية لإسحاق، فإن الوثائق ــ كما اعتادت أن تكون فى هذه الحالات ــ تُعدُّ متناقضةً. الوثيقة الأكثر دهشةً تأتى من فضيحة تورطت فيها حفيدة لإسحاق تُدعى إيفا كوهين. ولدت إيفا كوهين فى عام ١٦٥٨ وكانت بنتًا لابنة لإسحاق، متزوجة من أبرام كوهين الذى كان تاجرًا ثريًّا ومديرًا لمزارع هولندية فى البرازيل. قام والدا إيفا بتنشئة ابنتهما على تعاليم الديانة اليهودية. ونحو عام ١٦٨٠ أرادت إيفا أن تتنصر، وهو الأمر الذى عارضته أمها، التى أرادت أن تحبسها فى البيت ؛ إلا أن إيفا هربت واستطاعت الفرار إلى إنجلترا حيث تنصرت فى لندن باسم إليزابيث وتزوجت من ميشيل فيربون الذى كان خادمًا لأبيها والذى كانت قد أحبته ورغبت لاشك فى أن تتنصر من أجله. قصتها كانت موضوعًا لمنشور قيل فيه إن جدها إسحاق كان يهوديًّا من داخله على الرغم من أنه كان عند الناس مسيحية[٧٩].

لدينا أيضًا أخبار عن عضو على الأقل من عائلة باياتشى له علاقة بالحركة الساباتية(*) التى كانت لها أصداء كثيرة فى أمستردام والمغرب، والتى تُعَد لاحقة فى الزمن على حركة بن أبى محلى الذى ذكرناه قبل ذلك والذى كتب موسى باياتشى ضده.

ولد ساباتاى سيفى فى إيسميرنا فى عام ١٦٢٦، وهو متصوف ومخلِّص، أطلق الحركة التى من المحتمل أنها كانت أهم حركة خلاصية فى تاريخ اليهودية، حيث أنها انتشرت من مكان نشأتها فى الإمبراطورية العثمانية إلى كل أراضى هذه الإمبراطورية والى اليمن والمجر وبولندا، ومن المغرب إلى هولندا وإنجلترا...

(*) سيأتى ذكر الحركة ومؤسسها فى الفقرة التالية. (المراجع)

مسببةً فى الأوساط اليهودية المسيحية هياجًا لا مثيل له. أعلن ساباتاى نفسه مخلصًا نحو عام ١٦٤٨، وقد جعل الاضطراب الذى سببه هو ومؤيدوه – جعل مجتمعه يطرده من إيسميرنا فى عام ١٦٥١. بعد فترات إقامة فى سالونيك والقاهرة، لجأ ساباتاى إلى القدس، حيث كانت توجد نواة مهمة من متصوفى القَبَلّة cabalistas اليهودية من أتباع لوريا، وحيث تعرّف على ناتان دى غاثا الذى أعلن نفسه النبى إلياس الظاهر حديثًا والذى كانت مهمته هى تمهيد الطريق للمخلّص. الحركة التى تزعمها ساباتاى وناتان جرت مثل النار فى الهشيم: كان عام ١٦٦٦ هو عام الخلاص. أدت رحلة إلى إسطمبول إلى تحول ساباتاى إلى الإسلام واحتجابه فى قرية فى ألبانيا حيث مات فى حوالى عام ١٦٧٦. استمر ناتان يكافح للحفاظ على حياة الحركة، وقد تحول كثير من التابعين لساباتاى أيضًا إلى الإسلام[٨٠].

كان لحركة ساباتاى أصداء غاية فى الأهمية فى أمستردام، فقد كانت هناك اعتناقات وحركات مضادة على حدٍ سواء. عُرفت أصداء الحركة فى المغرب بقدر أقل، حيث أن مصادر عديدة فيها تشير إلى سلا كمركز مهم لنشر المذهب الساباتى، بين أمستردام والشرق. غيرمان دى مويت، مواطن فرنسى أَسَرَه القراصنة فى عام ١٦٧٠ وعاش فى سلا سنين طويلة وكتب قصة عن أَسْرِه وعن حياته فى المغرب، يحكى أنه بينما هو فى سلا وصلت سفينة من أمستردام تحمل نبوءات من اليهود حول مُخلِّص سوف يظهر خلال العام التالى، أى فى عام ١٦٧٢[٨١]. عندما سمع اليهود هذه الأخبار ابتهجوا واحتفلوا بعيدٍ ثانٍ للمعبد المتنقل لمدة ثمانية أيام. كان هؤلاء اليهود يجتمعون فى بيت خاكوب بوينو دى ميسكيتا، وهو يهودى مرتد كان قد هرب من إسبانيا بسبب محكمة التفتيش. تَنْصَبُّ رواية مويت على نقاط للأخذ فى الاعتبار: سلا كمركز لنقل المذهب الساباتى ولنقل الدعاية التى كانت تأتى من أمستردام، وتوقُّع وصول المخلص من جديد فى عام ١٦٧٢، اشتراك اليهود المنفيين فى الحركة.

حاولنا البحث عن أثر لهذا المدعو بوينو دى ميسكيتا الذى تحدث عنه مويت. لم نجد الشخص المسمى خاكوب، لكننا وجدنا أعضاء عديدين من عائلة

بوينو دى ميسكيتا أو دى أميثكيتا، كما تقول وثائق محاكم التفتيش الإسبانية، فهناك أعضاء عديدون من هذه العائلة قد حوكموا(٨٢). إنها عائلة برتغالية المنشأ، أصلهم من فيلافلور، عبارة عن عائلة من التجار المهمين المقيمين فى أمستردام والذين أوقفوا نشاطهم على التجارة مع شبه الجزيرة الأيبيرية. فى عام ١٦٧٠، أقامت مجموعة من يهود أمستردام المتدينين مدرسة دينية اسمها مجد الشباب Tif'eret Bahurîm، لكنها عُرفت أيضًا باسم مدرسة ميسكيتا، لأن من يدعمها ماليًا كان أبراهام دافيد بوينو دى ميثكيثا، الذى كان قد خصص بيته للاجتماعات والتأمل، وهو ما استمر عليه أبناؤه وخلفاؤه. كان خاكوب ساسبورتاس مشتركًا فى هذه المدرسة الدينية(٨٣). يُعد خاكوب ساسبورتاس هذا بالتحديد أفضل مصدر عن المذهب الساباتى فى المغرب بكتابه sisat Nobel sevi. ينتمى ساسبورتاس إلى واحدة من أهم عائلات الحى اليهودى فى وهران، التى كانت لا تزال حينئذٍ موقعًا إسبانيًا. ولد ساسبورتاس فى هذه المدينة فى عام١٦١٠. يبدو أنه نتيجةً للمشاجرة بين عائلة ساسبورتاس والعشيرة اليهودية الكبيرة الأخرى فى وهران عائلة كانسينو(٨٤)، نفى خاكوب من وهران. كان حاخامًا فى تلمسان. وبعد ذلك فى فاس وفى سلا. هاجر مع أسرته إلى أمستردام فى عام١٦٥٣، وكان بعد ذلك حاخامًا كبيرًا فى هامبورج، حيث كتب العمل الذى أشرنا إليه، والذى يُعد واحدًا من أهم الأعمال الجدلية ضد المذهب الساباتى، وهى الحركة التى اتخذ ساسبورتاس ضدها موقفًا عنيفًا وخصومة عسكرية ظهرت فى المراسلات التى احتفظ بها مع قادة للجماعات اليهودية من أماكن أوروبية عديدة وأيضًا من شمال إفريقيا. هناك جزء من هذه الخطابات، المرسلة والمستلمة من المغرب، منشور فى كتابه sisat Nobel sevi (٨٥).

فى نفس الوقت الذى كان فيه ساسبورتاس حاخامًا فى فاس وسلا، تعين على خاكوب باياتشى أن يكون حاخامًا لمراكش، بعد ذلك عاش خاكوب باياتشى فى مصر وكان تابعًا بارزًا ومحرضًا للحركة الساباتية. عندما وصلت إلى القاهرة أخبار إسلام ساباتاى، أسقط الحاخامات القاهريون عضوية باياتشى وطردوه من الجماعة(٨٦). قابله أبراهام كاردوسو فى تونس فى طريق عودته إلى مراكش

واستمر، لسنوات بعد الرّدة، مؤيدًا متحمسًا لساباتاى. ولن ندخل هنـا فـى حالـة أبراهام أو ميغيل كاردوسو (من طرابلس فى ليبيا) والذى يعد واحـدًا مـن أهـم الموالين والمدافعين عن الحركة، والذى كان له جدال مع أخيه إسحاق، (الذى كـان طبيبًا للملك فيليبى الرابع ويحمل اسم فرناندو كاردوسو)، كان أبراهـام ذا ثقافـة لاهوتية كبيرة[٨٧]. يستغرب ساسبورتاس لأنه بعد حبس وإسلام ساباتاى، لايزال له أتباع كثيرون، غير أنه لا يذكر اسم باياتشى بوضوح[٨٨].

استمرت عائلة باياتشى إذن تلعب دورًا على الدرجة الأولى من الأهمية فى علاقات المغرب مع هولندا طوال فترة حكم الأسرة السعدية. كان أعـضاء عائلـة باياتشى يعتمدون على هذه الأسرة وكانوا مرتبطين بها كانوا قد عاشوا، كما قـال مولاى محمد، «فى ظل بيته». باختفاء هذا البيت فى الستينيات من القرن، ينتهـى دور عائلة باياتشى. بعد موت مولاى محمد الشيخ فى عام ١٦٦٣، لم نَعُدْ نجد من الناحية العملية ذكرًا لهم.

مع ذلك، تحت حكم الاسرة التالية، لاتزال توجد عائلات من تجار يهود على علاقة بالقصر، منخرطين فى إمدادات الأسلحة، إلخ. لكـن هنـاك الآن عـائلات يهودية أخرى هى التى تسيطر على العلاقات مـع هولنـدا: عـائلات مـايموران وتوليدانو وساسبورتاس[٨٩].

تفرقت عائلة باياتشى بين بلاد شتّى: بعد اختفاء السعديين بـسنوات قليلـة، أرسل رابى خاكوب ساسبورتاس رسالة إلى إسحاق باياتشى فى ليورنا، وعلم بعـد ذلك بقليل أنّ إسحاق هذا كان فى إيسميرنا يتولى حماية يهود برتغاليين. فى عـام ١٦٩٥ يطلب إسحاق باياتشى حمايةً من القنصل الهولنـدى فـى إيـسميرنا لـــ سالومون مينديس[٩٠].

استقر فرع من العائلة فى ليورنا، لكن حتى أوقات معاصرة ظلّ أعضاء من عائلة باياتشى يعيشون فى أمستردام. فى عام ١٩٠٠ اختيـر إسـحاق فـان خـودا باياتشى (١٨٥٨ــ١٩٢٧) حاخامًا كبيرًا للجماعة البرتغالية فـى أمـستردام. كـان

خودا باياتشى أستاذًا للغات السامية بكلية علم اللاهوت بجامعة أمستردام. أثناء الحرب العالمية الثانية رُحِّلَ إلى معسكرات الاعتقال، حيث مات مثل يهود أوروبيين كثيرين ضحايا للنازية. مع ذلك، يوجد اليوم أعضاء من عائلة باياتشى فى أمستردام، يشاركون فى تراث السفرديم فى المدينة.

هـوامش الفصل السادس

1 SIHM, Pays-Bas,III, pp.244-45 y IV, p.399.

2 SIHM, Pays-Bas,III, pp. 5 y ss.

3 SIHM, Pays-Bas,III, p.7.

4 SIHM, Pays-Bas,III, pp.13 y 18.

5 SIHM, Pays-Bas,III, pp.62 y ss.

6 SIHM, Pays-Bas,III, pp. 4 y 5

7 W.M.C. Juynboll. Zeventiende-eeuwsche Beoefenaars van het Arabisch in Nederland, Utrecht, 1931, p.52.

8 AGS, Estado, Leg. 2646.

9 SIHM, Pays-Bas,III, p. 426.

10 Studia Rosenthaliana, XXIV,1 (1990), p. 69, doc. notarial n.° 2857.

11 Studia Rosenthaliana, XVI (1982), p.218, doc., notarial n.° 2125.

12 SIHM, Pays-Bas,III, p. 244.

13 SIHM, Pays-Bas,III, p. 388.

14 SIHM, Pays-Bas,III, p. 367.

15 Studia Rosenthaliana,XXXI (1997), p.146, doc. n.° 3357.

16 SIHM, Pays-Bas,III, p. 410.

17 SIHM, Pays-Bas,III, p. 246.

18 SIHM, Angleterre, III, p.401.

19 SIHM, Angleterre, III, p. 483.

20 SIHM, Pays-Bas,V, pp.192 y ss.

21 SIHM, Pays-Bas,III, pp. 88 y 109.

22 SIHM, Pays-Bas,III, pp.112 y ss.

23 SIHM, Pays-Bas,III, pp. 145 y 148.

24 SIHM, Pays-Bas,III, pp. 163 y 179.

25 SIHM, Pays-Bas,III, p. 172.

26 SIHM, Pays-Bas,III, pp.571-578 y France,III. عن كل ذلك انظر

27 SIHM, Pays-Bas,III, pp. 220 y ss.

28 SIHM, Pays-Bas,III, p.289.

29 SIHM, Pays-Bas,III, pp. 274-275.

30 SIHM, Pays-Bas,III, p. 411.

31 SIHM, Pays-Bas,III, p. 534.

32 SIHM, Pays-Bas,III, p. 412.

33 SIHM, Pays-Bas,III, p. 510.

34 SIHM, Pays-Bas,III, pp.415, 417.

35 SIHM, Pays-Bas,III, p. 427.

36 SIHM, Pays-Bas,III, p. 507.

37 SIHM, Pays-Bas,III, p. 511.

38 SIHM, Pays-Bas,III, p. 527.

39 SIHM, Pays-Bas,III, p. 499.

40 SIHM, Pays-Bas,III, p. 564.

41 SIHM, Pays-Bas,IV, pp. 4 y 5.

42 SIHM, Pays-Bas,III,p.566 y Pays-Bas, IV,

مذكّرة لجوزيف باياتشى بتاريخ ٢٨ من أغسطس من عام ١٦٢٤.

43 SIHM, Pays-Bas,III, p.567.

44 SIHM, France,III, p. 325.

45 SIHM, Angleterre,III, p.209.

46 SIHM, Pays-Bas,IV, p.373.

47 SIHM, Angleterre,III, pp. 157

48 SIHM, Angleterre,III, pp.208 y 256.

49 SIHM, Pays-Bas,IV, p.406.

50 SIHM, France,III, pp. 471-472.

51 خصص غ. كارو باروخا دراسة جيدة لهذه الشخصية، "آخر أفـراد عائلـة أبينثيراخى" (El último Abencerraje) ضمن كتابه سير قليلة التشابه (مع

الاعتذار لبلوتاركو)

Vidas poco paralelas (con perdón de Plutarco), Madrid,1981 pp.51-68.

انظر كذلك

F. Hildesheimer, «Une créature de Richelieu: Alphonse Lopez, le "seigneur Hebreo», en Les Juifs au regard de l'Histoire, Mélanges en L'honneur de Bernhard Blumenkranz, parís, 1985, pp.293-299.

52 Mémoires de La Force…, vol.II, passim.

53 Apud Caro Baroja, , op. cit., p.56.

54 انظر

Guadalajara y Javier, Prodición y destierro de los moriscos…, Pamplona, 1614, pp.124 y ss.

55 Pierre Santoni, "Le passage des Morisques en provence (1610-1613)", Provence Historique, 185 (1996), pp.333-383, esp. pp. 366 y ss.

56 عن هذه الشخصية الهامة انظر

C. Roth, "Quatre Lettres d'Elie de Montalte. Contribution á l'histoire des Marranes", Revue des Etudes Juives, 87 (1929), pp.137-165.

57 SIHM, Angleterre,III, p. 255. Pays-Bas, IV, p.428.

58 SIHM, Pays-Bas,V. pp.197-198.

59 SIHM, Pays-Bas,V, p. 234.

60 SIHM, Pays-Bas,V, p.261

61 Resolutiën der Staten Generaal, Nieuwe Reeks, 1610-1670.I (1610-1612), n.° 1178, 19 de octubre de 1612.

62 Resoluties, 6 de enero de 1631, apud Henriques de Castro, Keur, p.93.

63 Resoluties, 25 de sept. de 1635.

64 Studía Rosenthaliana, VII (1973), documentos notariales n.° 781, 784-790.

65 Studía Rosenthaliana, XIV (1980), p.91, n.° 1682.

66 SIHM, Pays-Bas,II, pp. 627 y 639.

67 SIHM, Pays-Bas,III, p. 507.

68 SIHM, Pays-Bas,IV, p.84.

69 قرارات آلولايات العامة فى ٢٢ مارس و٣ يونيو من عام ١٦٣٣، apud Henriques, Keur.

70 A. Eekhof, De Theologische Faculteit te Leiden in de 17e eeuw, Utrecht, 1921, pp.94, 129-132.

71 SIHM, Pays-Bas,IV, p. 492.

72 SIHM, Pays-Bas,V, p. 108.

73 SIHM, Pays-Bas,IV, pp.530-550.

74 Loc. cit., p.553/ traducción, p.535.

75 Loc. cit., p.544.

76 القارئ الإسباني سوف يتذكر بلا شك الفصل الخاص بـ راكيل وبيداس Raquel y Vidas في ملحمة السيد. "Poema de Mío Cid".

77 ŞIHM, Pays-Bas,V, p.124.

78 SIHM, Pays-Bas,V, p.128.

79 Biblioteca Real, La Haya, folleto n. 11802, «De Ware Bekeringe en Violent ver volgingen Van Eva Cohen, Nu genaemt Elisabeth. Zijnde een Persoon van qualitevt vande Joodsche gesintheyt geweest, en gewoont hebbende tot Delft; dewelcke Gedoopt is den 10. October, 1680 inS, Martins Kerck... van Whitehall,...Uyrgegeven (sic) in het Engels, door...Gilbert Burnet... nu getranslateert in het Nederduyts, etc.» 26 mei 1681, f.4.

80 Gershom Scholem, Sabbatai Sevi, the Mystical Messiah, Princeton, 1973.

81 "في الوقت الذى كنت فيه في سلا، وصلت سفينة هولندية قادمة من أمستردام، تحمل ليهود هذه المدينة، نبوءات أكيدة يرسلها إليهم يهود هولندا. كانت هذه النبوءات تتضمن، بين أشياء أخرى، أن المسيح المخلص الذى كانوا ينتظرونه على مدى قرون كثيرة، سوف يُولد في هولندا في بداية العام التالي، الذى كان عام ١٦٧٢"

Relation de la captivite du sr. Moüette dans les Royaumes de Fez et de Maroc, paris, 1683, p.31.

82 ملف قضية فرانثيسكو دى أميثكيتا،

AHN, Inquisición, Leg.134 exp.13.

83 David Franco Mendes, Memorias do establecimiento e progreso dos judeos portuguezes e espanhoes nesta famosa cidade de Amsterdam, Amsterdam, 1772, reed. En Os Judeos portugueses em Amsterdao, Lisboa, 1990, p.71.

84 F. Schaub. Les juifs du roi d'Espagne, Orán, 1509-1669. París, 1999, vid. En particular cap.II, "Les Cansino contre les Sasportas".

85 Ed. Tishby, Jerusalen, 1954.

قام إسبيرانثا ألفونسو بترجمة النصوص التى أذكرها تباعًا.

86 Scholem, op. cit., p.644.

87 خصص ی.هـ. يروشالمى Y.H.Yerushalmi فصلاً طويلاً وموثقًا عن هذا النزاع بين الأخوين وعن الحُجج التى ساقها كلُ منهما فى كتابه.

From Spanish Court to Italian Ghetto, Nueva York, 1971, pp. 302-49.

88 Op.cit.p.354.

89 انظر

J.C.de Bakker, Slaves, Arms and Holy War Moroccan Policy

vis-à- vis the Dutch Republic during the establishment of the Alawí dynasty (1660-1727) (Tesis doctoral), Amsterdam, 1991.

90 Apud Hirschberg. Op., cit., vol.II. p.212.

خــاتمة

في الفصول السابقة لم نقم فقط بوصف سيرة باياتشي بالقدر الذي سمحت به الوثائق الموجودة، بل أننا حاولنا أنْ نضع باياتشي في بيئته، المغربية والهولندية بشكل أساسي، مُبرزين نشاطه الوظيفي، أي العلاقات الدبلوماسية والتجارية بين أوروبا والعالم الإسلامي. على ضوء هذه البيئة وعلى ضوء المسار الوظيفي لأقربائه من بعده، فإنه من الضروري الإيجاز، وهو ما يُجبرنا بشكلٍ ما على وضع باياتشي في موقع مختلف عن المعرفة التي انطلقنا منها وعبرنا عنها في مقدمة هذا الكتاب.

كان باياتشي، فوق كل ذلك، مغامرًا، تضعه ظروفه في مواقف غاية في الصعوبة، تُجبره على البحث عن مكانٍ أو وسيلة للبقاء هو وعائلته على قيد الحياة. تبدأ مغامراته، على حدّ عِلْمنا، بوصوله إلى إسبانيا نحو عام ١٦٠٣ وبمحاولاته الفاشلة للاستقرار هو وعائلته في شبه الجزيرة الأيبيرية، وهو هدفٌ كان مستعدا في سبيله حتى للتحول إلى الكاثوليكية. جاء أفراد عائلة باياتشي إلى إسبانيا كما رأينا بصفتهم "يهود الإذن"، وهو ما لم يكن أمرًا منفصلاً أو استثنائيًا، إلا أنه كان يضعهم في موقف صعبٍ للغاية وغير مستقر. لقد فشلت بالفعل كل مساعيهم ومحاولاتهم (ومن ضمنها التّنصر) للهروب من وضع "يهود الإذن" الذي لم يكن من الممكن تحمله على المدى البعيد: لم يحصلوا على الاندماج الذي كانوا يبحثون عنه في المجتمع الإسباني، مع أنهم كانوا مستعدين لتنفيذ كل الالتزامات التي كان يشترطها ذلك المجتمع، والتنازل عن هويتهم.

في هولندا، كانت العلاقات بين عائلة باياتشي (ورثة التقليد السفرديمي أو الإسباني القديم) و"يهود الأمة البرتغالية" الذين كانوا يتجمعون في الجمعيات المنشأة حديثًا في مدينة أمستردام، لا تنطبق على ما يوحي به التصور الذي قدمه باريوس، والذي أشرنا إليه في الفصل الأول. مع أنّ صمويل كان يُعتبر شخصنا مثقفًا في

القضايا الدينية وعضوًا فى جماعة نيفى سالوم، إلا أنه لم يندمج أبدًا فـــى علاقـــات المصاهرة التى كانت إحدى ركائز الشبكات التجارية لليهود البرتغاليين الذين كانوا يشكلون جماعة ضيّقة ومُنغلِقة ومن المحتمل أنها لم تكن تثق فى هــؤلاء اليهـــود القادمين من بلاد البربر. نستطيع فقط أنْ نُخمِّن أسبابًا دينية وثقافية لذلك التباعـــد، لكن الواضح، بالإضافة لذلك، هو أنَّ دَوْر صمويل كعميل مغربى فى هولندا كـــان يَجِدُّ من حرية تحركاته فى هذا البلد بالإضافة إلى اضطراره للسفر باستمرار إلـــى الخارج. كممثل أجنبى، كان يتعين عليه أن يعيش فى لاهاى وليس فى أمـــستردام. كان وضع صمويل إذن مستحيلاً فى إسبانيا، وغير مستقر فـــى المغـــرب، وفـــى هولندا كان وضعه شبيهًا بالسَّيْر على حبل غير مشدود وليس له نهايـــة. يُجـــرِّب حظه فى بلاد أوروبية أخرى وفى إسطمبول، يحاول أن يبيع تقـــارير، وأن يثبـــت صلاحيته فى العلاقات العامة، وأن يبحث لنفسه عن مكانٍ وعن أشخاص يـــدفعون له ثمن خدماته. لم يكن أمرًا سهلاً. والمدهش أنَّه استطاع أن ينشئ مجـــال عمـــل خاصًا به، تمثَّل فى العلاقات بين هولندا والمغرب، لم يسمح أن يشارك أو يتـــدخل فيها أحد. إنَّ هذه العلاقات هى الميراث العائلى لأفراد عائلة بالياتشى، والذى بُنِـــىَ على أساس من جهد كبير ومخاطرة ومهارة. إنها «عزبتهم» أو «مؤسستهم»، كما استطاع أن يثبت أولئك الذين سنحت لهم الفرصة وأرادوا أيضًا العمل فيها، من فان ليبّيلو إلى رويل. لم يكن الجيل التالى فى حاجةٍ إلى نفس الأعمال والمخـــاطر، ولا للسفر بلا هوادة ولا لممارسة القرصنة. لم يحتاجوا للعنف البناء، ولا إلى طاقة بلا حدود، ولا إلى رئيس عائلة. لقد أصبحوا «بورجوازيين» بالمعنى الحرفى للكلمـــة، ذهبوا للجامعة، وأصبح لهم دور مستقر أُسِّس فى معظمه بفضل صمويل، ومساحة من «الخبرة» تمدهم بنشاط ضرورى ومعترف به. يمكِّنهم من الالتزام المخلص فى خدمة المغرب ومن العمل أيضًا من أجل هولندا.

بل وأكثر من ذلك، يعد صمويل سابقة حقيقية لما سوف يُعرف فى أوروبـــا بعد نصف قرن باسم « يهود القصر»، الذين بدأوا يكونون مهمين حقيقةً نحو عـــام ١٦٧٠ واستمروا كذلك حتى العقود الأولى من القرن الثامن عشر[١]. كان «يهود

القصر» مندوبين وموردين عسكريين للدول الأوروبية وصـار لهـم دورٌ علـى الدرجة الأولى من الأهمية فى ألمانيا والنمسا وهولندا بشكل أساسى، لكن أيضًا فى بولندا والدنمارك والمجر وإيطاليا، بدءًا من حرب الثلاثين عامًا. بدأوا حينئـذٍ فـى عمل الإجراءات الخاصة برواتب جنود القوات، وفى تولى تموين الجيوش وعلـف الخيول، وخاصة إمداد البارود. فى بعض الأحيان أثبتوا إلتزامًا قويًا مـع حكومـة معينة، لكن ذلك لم يكن أمرًا شائعًا أو مُميِّزًا. وكما يوضح خ. إسرائيل، كان اليهود الذين يعملون كعملاء للقصر يعيشون خارجه وبعيدًا حتى عن الدول التـى كـانوا يخدمونها، حيث لم يكن غريبًا أن يعملوا لأكثر من حكومة فى نفس الوقت. كانـت الدول تستخدم أيضًا عملاءها اليهود للحصول بانتظام على معلومـات ذات طـابع سياسى أو اقتصادى؛ كانوا بارزين فى مُدن مثل أمستردام أو هامبورج، اللتين كانتا من أكبر الأسواق الأوروبية لبيع وشراء الذخائر والعتاد البحرى. كان كـل يهـود القصر بالإضافة إلى ذلك خبراء مجوهرات. إن أسـماء عـائلات أوبينهيميـر أو غومبيرز لها دلالة كافية.

لم يكن يهود القصر يكرسون أنفسهم لأعمال دبلوماسـية لأنّ الأوروبيـين، على عكس القصور المسلمة، لم يسمحوا لهم أبدًا بتولى هـذه المهـام: هـذا هـو الاختلاف الأساسى لليهود الذين عملوا فى خدمة القصور العثمانيـة أو المغربيـة وهذه هى خصوصية العمل الذى بذلته عائلة باياتشى خلال ثلاثة أربـاع القـرن. ويفسر ذلك أيضًا عداوة زملائهم الأوروبيين، الذين لم يكونوا متعـودين ولا كـان يعجبهم أن يجدوا يهودًا فى أعمال دبلوماسية.

أشرنا أيضًا، بالنسبة للتجارة والمؤسسات، إلـى أنّ صـمويل يُعَـدُّ مُمـثِّلاً نموذجيًا لروح المذهب التجارى. فمن نهاية القرن السادس عشر إلى بداية القـرن الثامن عشر تنشأ فى أوروبا صيغ سياسـية جديـدة للتـصدى للقـضايا المتعلقـة بالاقتصاد والمجتمع، مع صيغ سياسية تتعرض للحكم كانت تهتم فى الأساس بمـا يسمى "المصلحة العليا للدولة". إنّ المذهب التجارى، أكثر من كونه مبادئ جديـدة

أو نظريات اقتصادية، هو الهدف المتعمد للبحث عن المصلحة الاقتصادية للدولة بعيدًا عن خدمة الامتيازات والتقاليد والدين. لكى نشرح ذلك بكلمات واحدٍ من أبرز مؤرخى تلك الفترة فإننا نقول إن المذهب التجارى مثَّل «نزعة تحرر» و«نزعة لا أخلاقية» و«نزعة علمانية»[٢]. لقد كان المذهب التجارى والسياسة القائمة على المصلحة العليا للدولة هو المحرك الذى حرك ما أُطلق عليه أول نزعة تحررية أوروبية كبيرة. وبایانشی لا يُقدِّم فقط دلالات واضحة للمفاهيم الثلاثة التى يشير إليها كوليمان، بل إنَّ مفهوم "المصلحة العليا للدولة" هو الذى أورده شفعاؤه الهولنديون بطريقة واضحة جدا خلال محاكمة صمويل فى لندن.

ولاشك أن مفهوم "المصلحة العليا للدولة" هو الذى يدفع دييغو دى أكونيا إلى توصية ملك إسبانيا بالتعاقد على خدمات بايانشى. فى ضوء ما تم طرحه فى الفصول السابقة، فإن تصور بايانشى كرمز للولاء للصراع الهولندى ضد الإسبان يعد أمرًا من الصعب تأييده. فقد كانت ولاءاته متعددة ومرنة. فى هذا الصدد لم يكن صمويل استثنائيًا، فيهود "برتغاليون" كثيرون أظهروا سمات مماثلة. إن ما يجعل بايانشى استثنائيًا هو دوره كعميل لمولاى زيدان وطول الفترة الزمنية والتزامه الوثيق بخدمة السلطان.

أطلق مؤرخون آخرون على نفس تلك الفترة اسم، عصر المداراة[٣]: إنَّ الحروب الدينية والمطاردات الدينية أجبرت أشخاصًا كثيرين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر على إخفاء معتقداتهم الخاصة أولاً، وأيضًا على إضفاء شرعية على هذا الإخفاء الذى يقود إلى تشكك معين، تكمن فيه، رُبَّما، بدايات الإلحاد. لقد كانت المداراة على أية حال، هى حجر الزاوية لمناورات أخلاقية وسياسية كثيرة من رجال من القرن السابع عشر. إنها مناورات يكذب المرء فيها لكى يؤكد، ويختبئ بهدف أن يظهر[٤]. ويشكل الحوار الدينى جزءًا من تلك المناورات. هل كان تشككًا أكيدًا ذلك الذى يحمل بايانشى على أن يقول، فى خطاب إلى الملك فى عام ١٦٠٨ «فيما يتعلق بالأرواح، الرب موجود فى كل مكان»؟ إنه تأكيد يذكرنا

بأصداء إسبينوثا. أو ربُّما كان الأمر يتعلق بعقيدة داخلية لا شأن لأحد بها إلا ذلك الذى يتبعها فى قلبه، على طريقة باث دى أثيبيدو، الذى كان يقول لأولئك الذين كانوا يلحون عليه للذهاب للاعتراف بأنه «كان يعترف فى قلبه». كما يقول إسحاق عندما كان يتكلم عن «أناس من الأمة» من أمبيريس، «هل يعلم أحد ما هى صلاة الآخرين؟».

فى كتابه الشهير عن عصر النهضة يقترح بوركهاردت نموذج المغامر الخاص بعصر النهضة كأصل للإنسان الحديث. فى دراسته عن بناء الهوية الأوروبية الحديثة المرتكزة على قضية «المرتدين»، يُقدّم ل. سكارافيا هؤلاء، ليس فقط كأشخاص بعيدين عن خيانة المسيحية، بل كنموذج لمولد الإنسان الغربى الحديث: مواطن له هويّات وانتماءات متعددة، قادر على أن «يختار» وفقا للظروف المغايرة أو المراحل المختلفة من حياته، الأجزاء الخاصة التى يبنى عليها هويته. إنّ الدين، كأمر متغلغل فى الضمير الشخصى، هو فقط واحدٌ من هذه العناصر. إنه مواطن يتخلى عن كل جذر عميق أو عن كل شعور بالانتماء، فى حوار مع نفسه هو[*]. إنّ كل ذلك يجعل من باياتشى شخصية معقدةً للغاية وحديثة للغاية.

هـوامش الخاتمة

1 J. Israel. La judería europea en la época del Mercantilismo, Cap. VI, "Los judíos de Corte", pp.151 y ss.

2 D.C. Coleman, Revisions in Mercantilism, Londres,1969.

3 Perez Zagorin, Ways of Lying: Dissimulation, Persecution and Conformity in Early Modern Europe, Cambridge, Mass, 1990.

4 S. Berti, "At the roots of Unbelief", Journal of the History of Ideas (1955), p.562.

5 L. Scaraffia, Rinnegati. Per una storia dell' identità occidentale, Roma, 1993, p.187.

ملحق وثائقي (بتسلسل تاريخي)

(١)

رسالة من دوق مدينا سيدونيا، رُبَّما كانت موجهة إلى مجلس الدولة، مؤرخة في السادس من سبتمبر من عام ١٦٠٥ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٦٣٧، رقم ٦٠مكرر).

"وصل إلى هنا اليهودى صمويل باياتشى يحمل خطـابين مـن الـسيد دوق إينفانتادو ومن السيد دوق بونيو إينروسترو... وسافر إلى سبتة مكلفًا بشدة (هكـذا قال لى) بما عرضه بشأن التفاوض مع مولاى الشيخ على أن يسلم العرائش مقابل المال وأن يقوم بنفس المسعى مع قائد تلك القوات. ولأن دوق بونيـو إينروسـترو أخبرنى عما ترونه حضراتكم فى الشخص الذى يتولى هذه المهمة، ارتبـت فـى الأمر وحتى أعتقد أن شكوكي صحيحة. وهكذا تراجعت من جديد عـن القـضية وكلفته فعلاً بألا يتفاوض على شيء من هذه الأشياء حتى أخطره بل وأن يهتم فقط بمشروعاته التى هى كلها مكائد لأنه ليست له لا ثـروة ولا صـفة، وهكـذا فقـد اندهشت أن الأمر يسير هكذا مهملاً جداً، لأنه ليس هناك سبب يجعل ذلك مناسـبًا وليس من المناسب التعامل مع مولاى الـشيخ عـن طريـق المراسـلة، وذلـك للاعتبارات التى قدمتها لصاحب الجلالة والتى رأيتموها حـضراتكم، وهكـذا لـم أستطع أن أخفى عنكم ما يحمله هذا اليهودى وكيف أننى قمت بتـأخيره حتـى لا يتفاوض حول القضايا حتى أخطركم وأتمنى أن يلتزم بذلك وأن تخطرونـى بمـا يتعين تكليفه به".

[فى الهامش، بخط السكرتير (أندريس دى برادا؟)] "ذلك اليهودى طلب إذنـا للذهاب لإحضار زوجته وأبنائه، وقد أُعطى له الإذن ولم يكن هناك أكثر من ذلك".

(٢)

رسالة خطّية من صمويل باياتشي إلى شخص غير معـــروف، يحتمـــل أن يكون دوق مديناسيدونيا، مؤرخة فى الثلاثين من نوفمبر من عام ١٦٠٥ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم٢٠٠، بدون ترقيم).

صاحب المعالى السيد:

هذا الاسبوع قال لى السيد ألونسو [دى نورونها] إنّ مولاى الشيخ يريـــد أن يُسلِّم العرائش إلى المسيحيين، وقد بدا لى أنه كان يفعل ذلك لكى يـــستخلص منـــى معلومات عما كان يجرى، فجعلت نفسى أكثر حمقًا مما جعلنى الرّب وقلت له لماذا إذن يريد الملك سيدنا جبهات فى بلاد البربر، لقد كان له هناك أرســـيله وتركهـــا، فقال لى إننى لا أعرف سوى القليل؛ سررتُ بذلك لأنه لم يخاطبنى أكثر فى هـــذه المسألة. الآن يُقال علانيةً إن مولاى الشيخ يريد الهروب من العرائش، ومن أجـــل ذلك لديه سفينة أحضرها له يهودى خادم له من ليورنا. إن ذلك وما سوف أقولـــه هو حقيقة. إنّ هذه السفينة موجودة فى العرائش منذ شهر سبتمبر، عليهـــا خمـــسة وخمسون بحارًا وهم مستعدون جدا ويعطيهم قائد القـــصر، وهـــى مملكـــة تابعـــة لمولاى الشيخ، ٢٥٠ أونز كل يوم لطعامهم وهناك احتفاء كبير بخدم دوق فلورنثيا. اليهودى [خطأ فى كتابة لفظ يهودى] الذى أحضر السفينة، هو أيضًا مفضّل. مـــن هنا صار الناس يقولون إنه يريد الهروب، لكن السفينة وحصة الطعام التى يعطيها لهم الملك هى حقيقة كبيرة. يُقال أيضًا بالمناسبة إنه يرسل ما يملكه من أشياء ثمينة إلى تلك السفينة. فى تطوان تمردوا وقتلوا خدم قائدهم وابن عمٍّ له وهـــرب القائـــد وفرَّ مسرعًا وهو موجود فى القصر. هذه حقيقة. كانت تطوان قد أوشـــكت علـــى الغرق فى التمرد لولا المقدم، انظر يا صاحب المعالى إلى أى حالة وصلت الأمور فى فاس... لدىَّ الآن، الأمجاد للرب، ابنا أخٍ لى فى مدينة سبتة هذه وسوف يكون موجودًا ابنى وابن شقيق آخر جاهز جدا هنا فنحن جميعًا خدام لصاحب المعـــالى.

عُد ياصاحب المعالى للإنعام علىَّ، واعْهَد بكل الأمور إلى السيد ألونسو الذى يجب عليه هكذا ألا ينسى الجواهر. تلقيت خطابًا من خوانيتين مورتـارا الـذى سـوف يشترى الجواهر منى ويرسل المبلغ إلى غارثيا دى خيريس. وبالتأكيد ولكى يبقـى المشروع منظمًا جيدًا فلنرسل رجل بريد وكل شىء سوف يتم على خير إن شـاء الرب. بايالوت، وهو العبد الأسود الذى يملكه مولاى الشيخ فى تطوان، كتب إلـىَّ بالأمس يتحدث عن الرسالة التى كتبتها أنا إلى مولاى الشيخ الذى أرسلها بعد ذلك وذهبت حيث كنتُ أُخطر فيها عن جوهرة صاحب المعالى وأنه كان ينتظر الـرد وأنه كان يريد جواهرى وأن هذا الأسبوع سوف يـأتى هنـا فـى سـبتة لينهـى الموضوع وأول منْ سيأتى، المذكور بايالوت...، سأتم الموضوع معه أيضًا. قائـد تطوان قال لى نفس الشىء. لإعطاء نهاية فى هذه الأشياء، لو كان يناسب معاليكم عندما تكتب ياصاحب المعالى إلى السيد ألونسو تعهد إليه من أجلى تقول له إنه لو عرض عليه إرسال يهودى أو مسلم إلى تطوان فلا يضع لى موانع وأنه بالإضـافة إلى أن ذلك سيكون تسرعًا فيما يخص موضوع الجواهر، سواء جواهر صـاحب المعالى أو جواهر السيد روى غوميس فإنه يمكن أن يعرض رغبته فـى معرفـة أمور عن خدمة صاحب الجلالة. لقد جاء رهبان الغفران. سـوف يكتـب الـسيد ألونسو ما يحدث وليأخذ الرب بيديك كثيرًا ياصاحب المعالى ويعطيك حياة ويحسن أحوالك كما أتمنى أنا خادمك. فى سبتة وفى ٣٠ نوفمبر من عام١٦٠٥.

صمويل باياتشى:

سعر القمح فى فاس ١٥٠ أونز والناس يموتون من الجـوع ولـم تمطـر السماء على مسافة ٤ فراسخ فى المنطقة المحيطة ويبدو أن الرب يشاء أن تنتهـى تلك المملكة.

(٣)

جوزيف وصمويل باياتشى يطلبان تصاريح من أجل إحضار أسرتيهما مـن

المغرب، فى ٢٧ مارس من عام ١٦٠٧ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الحرب والملاحة، ربطة رقم ٦٧٩، بدون ترقيم).

جوزيف باياتشى وصمويل باياتشى وثلاثة أبناء لجوزيف[١] باياتشى: يتوسلون أن يُمنحوا تراخيص من صاحب الجلالة لكى يسمح لهم القادة العموميون فى الحدود مع شمال إفريقيا بإحضار زوجاتهم وثلاثة أبناء لديهم هناك لكى يتعمدوا جميعهم. فى ٢٧ مارس من عام ١٦٠٧.

(٤)

جوزيف وصمويل باياتشى يلتمسان الحصول على أعمال فى خدمة الملك، فى ٩ من أبريل من عام ١٦٠٧ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الحرب والملاحة، ربطة رقم ٦٧٩، بدون ترقيم)

جوزيف باياتشى وشقيقه صمويل باياتشى، يهوديان من فاس، يقولان إنهما منذ ثلاث سنوات وهما يلتمسان فى هذا القصر عملاً لخدمة الرب ولخدمة جلالتكم فى المجلس الملكى للدولة والحرب والذى أنفقوا فيه كمية كبيرة من المال، والآن من جديد أحضر المذكور جوزيف إلى هذا القصر ثلاثة أبناء له [إسحاق وموسى وخوسويه] فى محاولة لأن يكونوا مسيحيين، اثنان منهم عازمان الآن على تلقى التعميد من خلال الغفران الألهى بالأمر الذى أصدره صاحب الجلالة الملكية، والثالث، وهو الأصغر، بفضل الرب سوف يفعل نفس الشىء لأنه رأى أخوته فى حالة جيدة[٢]. يطلبون ويتوسلون إلى جلالتكم أن تمنُّوا عليهم بمساعيكم المقدسة جدا وتأمروا بإعطائهم مساعدة تكاليف لإعالتهم لأنهم يجيئون وهم فى أمسّ الحاجة نظرًا لمسافة الطريق الطويلة جدا، وأن تأمروا بالبحث لهم عن بعض السلوى لكى يستطيعوا أن يعيشوا بشرف وفقًا لوضع أشخاصهم وخدمات آبائهم، إلى أن ترتبوا جلالتكم شيئًا آخر لهم.

آخرون يتوسلون إلى جلالتكم أن تتفضلوا بأن تـأمروا بكتابـة أو إرسـال ترخيصكم الملكى إلى القادة العموميين فى الحدود مع بلاد البربر لكى يقدموا لهـم مساعدة لكى يستطيعوا إحضـار زوجاتهم وباقى الأبناء الذين تبقوا لهم هناك، حيث أن جميعهم لديهم رغبة فى خدمة ربنا وجلالتكم، على أمل أن يشملهم فضلكم قريبًا وأن يكون فى ذلك طاعة للرب.

٩ أبريل من عام ١٦٠٧

(٥)

جوزيف وصمويل يطلبان تمكين إيوسيبى ميخياس من المجىء إلى القصر، ٢٣ من أبريل من عام ١٦٠٧ (الأرشيف العام لـسيمانكاس، الحـرب والملاحـة، ربطة رقم ٦٧٩، بدون ترقيم.)

فى الثالث والعشرين من أبريل من عام ١٦٠٧

جوزيف باياتشى وشقيقه، من فاس، يتوسلان إلى جلالتكم بأن تأمروا ــ فى الترخيص الملكى الذى أنعمتم به جلالتكم عليهما ــ أن يقدم لهما الجنرالات علـى الحدود المساعدة ليتمكنا من إخراج أبنائهما وعائلتيهما من بلاد البربر، وأن تأمروا بتمكين إيوسيبى ميخياس من المجىء إلى هذا القصر مع خادمين، بحريـة دون أن يلحق به أذى، لكن قبل ذلك أن يكرموه لأنه خادم لكم، وقد خدم جلالتكم حين طُلب منه ذلك.

ليُفعل ذلك.

(٦)

خطاب من صمويل وجوزيف باياتشى إلى الملك، فى ٩ من سبتمبر من عام ١٦٠٧ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٠٨ بدون ترقيم).

صاحب السمو [صاحب الرفعة والجلالة الملكية]

لجلالتكم فى العالم كله شُهرة فى الكيفية التى تجازون وتكافئون بهـا مـن يعملون فى خدمتكم، ومع أنهم لديهم هذا الحق لكونهم رعايا ولكونهم ينتمون للعقيدة الكاثوليكية، ومن ثم فهم يدينون بذلك لعظمتكم وكيف أن ملكًا عظيمًا جدا وعظـيم النفس يكافئهم دون أن يكون ملزمًا بذلك نحوهم.

لقد خدمنا عظمتكم أنا وشقيقى دون أن يكون لدينا أىٌ من هذين الواجبين ولم تكن خدماتنا لفترة قليلة، إذ لم تكن أقل من طوال حياتنا، كما سـوف يظهـر فـى التقرير الخاص بأدوارنا وهو لدى السيد أندريس دى برادا(٣). وقد نتج عن ذلك أننا فقدنا وطننا وبيوتنا واستقرارنا، ولم يكن أحد فى وطننا له وضع أفضل منا، وبدأتم عظمتكم فى التفضل علينا بإعطائنا ترخيصكم الملكى عن طريق مجلـس الحـرب لكى تأتى عائلاتنا بحرية إلى العاصمة، ومن هنا سوف يتحدد ما سـوف يوجهـه الرب لخدمته المقدسة.

أعضاء محكمة التفتيش أرسلوا يخطروننا بضرورة الخـروج مـن العاصمة وإلا فإن جزاءنا سيكون طردنا وأنهم سوف يرسلون شُرطيًا إلى بيتنا.

لم يكفِ القول أنَّ أبناء جوزيف باياتشى كانوا موجودين من أجـل التعميـد وأنهم كانوا تحت رعاية الكنيسة وكيف أن عظمتكم أصدرتم أمرًا إلى السيد البارو دى كاراباجال (بدلاً من كاراباخال) لكى يقوم بإعدادهم من أجل تعميدهم، كل ذلـك لم يكن كافيًا لكى يكُف أعضاء محكمة التفتيش المذكورون عـن التـصرف علـى هواهم.

إننا نشعر بكثير من الأسى لأننا خدمنا عظمتكم وأتينا إلى عاصمتكم أغنيـاء وخرجنا منها فقراء، دون الحصول على أية مكافأة، وكان ذلـك يمكـن أن يكـون مقبولاً لو أن خدماتنا لم تحقق نجاحًا. كان يمكـن أن يقـال إذن أن عظمـتكم لـم

تكافئونا بينما تكافئون كل الناس لأننا لم نقم بالواجب وفقدنا شرفنا، حيث إن مجالس عظمتكم الخاصة بالدولة والحرب يعلمون إذا ما كان هناك إهمال في خدمتكم الملكية، وإذا ما لوحظ في كل ما يتعلق بالعرائش فقد كانت كل الأمور منضبطة وبالكفاءة التي تعلمها تلك المجالس. إننا نشعر بالأسى أيضًا لأنه كان يُقال إن ملوك بلاد البربر يصدرون قرارتهم الملكية ولا ينفذونها. وداخل قصر عظمتكم لا يُنفذ أمركم الملكي ودون أن يكون هناك سبب يخالفه، ودون أن تصدر عنا ملحوظة سيئة طوال الوقت الذي أمضيناه في العاصمة منذ ما يقرب من أربع سنوات[٤]. نتوسل لعظمتكم أن تأمروا بمعالجة هذا الموضوع كما يجب، تبرئة لضميركم، وأن يكافئوننا كما يجب بأن يعطونا مساعدة تكاليف وسلوى لكي نستطيع أن نعيش بشكل لائق. وفيما يخص القلوب والنوايا، فالرب موجود في كل مكان وإذا كانوا لم يقبلونا في إسبانيا فسوف تكون هناك أماكن أخرى كثيرة وأينما تريد أن نكون فنحن نكون وسنكون خدم عظمتكم. أطال الرب في عمركم ومنحكم الصحة. في سان خوان دي لوث، ٩ من سبتمبر من عام ١٦٠٧.

صمويل باياتشي وجوزيف باياتشي

(٧)

عن تعميد أبناء جوزيف باياتشي، ٢ نوفمبر ١٦٠٧ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٠٨، بدون ترقيم).

إلى كبير متعهدي المراسلات خوان دي أربيلايث

صمويل وجوزيف باياتشي يهوديان متواجدان في سان خوان دي لوث. عندما رحلا عن هذا القصر فُهِمَ أنَّ أبناء جوزيف باياتشي الصغار كانوا يريدون أن يتنصروا، ولأنَّ صاحب الجلالة يرغب ان يعرف ما إذا كانوا لا يزالون مصممين على هذه الرغبة أمرني بأن أكتب إلى سيادتكم في ذلك من أجل أن

تستعلم وتُخبر... لأنه يريد أن يعهد بتنظيم هذا الموضوع إلى كل من والى نافارًا وأسقف بامبلونا لكى يعمدوهم وهذا ما سوف يتم.

٢ من نوفمبر من عام ١٦٠٧

(٨)

الأخوان باياتشى يلتمسان وثيقة سفر إلى هولندا، ١٨ من أبريل من عام ١٦٠٨ (أرشيف ريجكس، الولايات العامة، قرارات، ربطة رقم ٥٥٥، صفحة رقم ١٨٣). نشر فى SIHM، هولندا، I، صفحات ٢٧٣-٢٧٥.

فى أعلى الوثيقة: الجمعة، الثامن عشر من أبريل من عام ١٦٠٨.

فى هامش الوثيقة: جوزيف وصمويل باياتشى.

بناء على التماس من جوزيف وصمويل باياتشى، وهما شقيقان، وكلاهما يهودى، وهما من مواليد فاس، المغرب، وقد قررا - بسبب الحروب الكبيرة والقلاقل التى تحدث منذ زمن طويل فى بلاد البربر والتى مع كل الاحتمالات سوف تزداد بدلاً من أن تقل - قرَّرا نقل موطنهم من فاس، والاستقرار فى هولندا، ولهذا الغرض يرغبان فى استدعاء زوجتيهما وأبنائهما وعائلتيهما ونقل ثرواتهما من بلاد البربر وإحضارها إلى هنا، إذا كان بوسعهم تحت حكم سادة الولايات أن يتمتعوا بكل الأفضال، والمنافع والمعاملة الحسنة التى يظهرونها لكل القوميات الأجنبية والتجار، ولهذا الغرض يرغبون فى الحصول من سادتها النبلاء على وثيقة سفر ملائمة؛ وقد استجابت الولايات المذكورة لطلبهم.

[فى الهامش]: لاحظ أنَّ وثيقة السفر هذه رُفضت وسُحبت فى اليوم التاسع عشر من هذا الشهر.

(٩)

مركيز غواداليستى يكتب إلى الملك، فى الثلاثين من يوليو من عام ١٦٠٩

(الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٢٩١، رقم ٢٢٧-٢٢٨).

سيدى،

أوضحت لجلالتكم فى خطاب بتاريخ ١٧ أبريل(٥) كيف وصل إلى هولندا يهوديان من فاس مع سفارة موفدة من قِبل ذلك الملك إلى الولايات. منذ ثلاثة أيام قالوا لى إن أحد هذين اليهوديين أتى من هولندا إلى أمبيريس، ويُدعى خوسويه باياتشى. أولَيتُ الأمرَ اهتماما وفوجئت به فى بيتى بينما لم أكن أتوقع ذلك، وقال لى إنه لديه أمورًا كثيرة يريد أن يخبر بها جلالتكم. وتناسب خدمتكم الملكية. لم أستطع أن أحصل منه سوى على ما هو وارد فى هذا التقرير الموقع بخط يده، وقال لى إنَّ من المناسب إرساله إلى إسبانيا لأنه يريد عند وصوله أن يكون مسيحيًا. أقنعته بأن ذلك ليس مناسبا وقد أرسل لجلالتكم القبطان فرانثيسكو دى إيرارا ثابال وكيلاً عنه والذى عرض علىَّ أن يقوم بحمل ما يريد أن يرسله موكله مع رسالة إلى جلالتكم. إنه فارس شريف ويؤكدون لى بأنه خدم بكثير من الانضباط فى كل المناسبات التى عُرِضت عليه وهكذا فهو يستحق من جلالتكم التفضل عليه، يحفظ ربنا شخصكم الكاثوليكى فالمسيحية فى احتياج إليكم، فى بروكسيل ٣٠ من يوليو من عام ١٦٠٩.

[وقع عليه] مركيز غواداليستى.

يقول خوسويه باياتشى، ابن جوزيف باياتشى وهو يهودى من فاس، إنه عندما كان فى مدريد فى عام ١٦٠٧ حاول أن يكون مسيحيًّا رغبةً منه فى إنقاذ نفسه وأنَّ أباه وعمه أخرجاه من هناك خشية ألا يتحقق هذا الهدف وأفهماه أنهما رحلة قصيرة توجب عليهما القيام بها وكان دليلهم فى كل ذلك هو لويس دى ثامورا، وهو يهودى يقيم فى مدريد ولم يقولا له إلى أين كانا يصطحباه إلى أن أصبحوا فى بايونا وحيث كتبا من هناك إلى صاحب الجلالة يعتذران لكونهما تغيبا عن إسبانيا بدون إذنه، وفى بايونا استقلوا جميعهم سفينة هولندية. وكان قبطان

السفينة هو دى غواتيلان، وذهبوا إلى ميناء أمستردام بهولنـــدا وأعجبـــتهم هنـــاك الأرض والناس وأقاموا صداقة مع خوان دى كارلى وسيمون غوّليمس، وهما مـــن مواليد أمستردام.

اتفقا فيما بينهما على نقل مسكنهما وموطنهما من فاس إلى هولنـــدا ولتنفيـــذ ذلك ذهبا إلى فاس منذ عام ووصلا إلى ميناء تطوان. عندما علم المسلمون بـــأنهم كانوا فى الميناء أرسل لهم المقدم النقسيس رجاله إلى الميناء، ولدى مركيز بياريال خبر عن هذه الحقيقة، وساعدهم المقدم إلى أن ذهبوا عائدين إلى هولندا وكشف لهم المقدم كيف أنه كان قد صنع لغمًا من أجل الاستيلاء على سبتة ولكن بسبب نقـــص الفتيل لم يعد له تأثير غير أنهم لم يروه، بل وقال لهم إنه من المناسب لخدمة ملـــك المغرب مولاى زيدان أن يحاولوا مع ولايات هولندا لكى ترسل لهم أربـــع ســـفن حربية، فقد كانت لديهم أخبار عن طريق رجل يهودى يعيش فـــى ســـبتة ويُـــدعى خاكوب بيباس أن سفنًا كانت تأتى إلى العرائش عن طريق تفاوض تم مع ملك فاس الذى كان يريد تسليمها بالمفاوضة إلى صاحب الجلالة وأن المقدم كان قد أمر قائد العرائش والذى يُدعى البيتوارى بأن يدافع عن نفسه ويقاوم أســـطولنا (الإســـبانى) وأنه كان قد أُعطى له كلمة سر حتى لا يعوقوا دخول سفن هولندا حتى لو كانـــت سفنًا حربية (إذ أفهمه أنها كانت سفنًا تجارية)

وحتى لا تفشل هذه المفاوضات المهمة جدا ذهب صمويل من تطوان، حيث كان موجودًا، إلى صافى، وهو الميناء الرئيسى للمغرب ليرى الملك مولاى زيدان. وهذا الصبى ظل فى السفينة مع أمه ستة وعشرين يومًا وهى المدة التى اســـتغرقها عمه فى العودة، وبعد عودته ذهبوا بعد ذلك إلى أمستردام مع سفارة ملك المغـــرب ولم يحدث لهم شىء فى الطريق، وبعد أن نزلوا من السفينة عرض رســـالةً مـــن طرف الملك إلى الولايات فى لاهاى، وقُبِلَت وإن كان عارضها بيرنابيـــل إلا أنـــه على الرغم منه، قضت الولايات بأن تذهب سفينتان على نفقتها الخاصة مع القبطان جولفيت هيرميس واثنتان من الفرقة. طلب هذا اليهودى من الولايـــات أيـــضًا أن

يرسلوا له خبراء فى الألغام والمفرقعات إلى فاس. أرسلوا له المفرقعات وخبير ألغام وذلك بطريقة سرية. يقول هذا الصبى إن الهدف الذى يوجه من أجله كل ذلك هو عمل مفاجأة لسبتة وطنجة بتفاوض بحث من القدم نقسيس، الذى يحميه ملك المغرب، وأن المقدم لديه جاسوس خادم له وهو مسلم ويدعى حامد فيرّادور [من المحتمل أن يكون موريسكيًا]، الذى له دراية بالأرض وبالمدخل إلى تلك المواقع فى سبتة حيث يدخل بشكل اعتيادى مع بضائع لكونه جاسوسًا وليس لبيعها، وهو ما سوف يكون مبررًا عادلاً سواء بالنسبة له أو بالنسبة للمسلمين واليهود الذين لا يدخلون إلى الضفة ولا إلى الميناء والذين لا يصلحون إلا لأن يكونوا جواسيس ولعمل إشارات للمسلمين الموجودين فى المعسكرات، وهذا ما حدث مرات كثيرة.

يقول كذلك إنه عندما رأى عمه مولاى زيدان ملك المغرب قال له إنه منذ حوالى ثمانية أيام كتب خطابًا إلى صاحب الجلالة عن طريق مارثاغان، وإنه كان حزينًا لأنه كتبه « انظر كم أحب ملك إسبانيا »، دون أن يقول لهم عن فحوى ما كان يتضمنه ذلك الخطاب.

يقول كذلك إنَّ هناك يهودًا يقيمون فى هولندا وإنه عرف بشكل خاص دوارتى فرنانديث الذى كان كاتبًا فى ميناء لشبونة، وأن أبناءه يعيشون فى لشبونة وهم تجار يهود. فى مدريد يعيش أنطونيو رودريغيس الذى كان فى هولندا منذ عام واختتن علانيةً. ذهب رودريغيس إلى كامبابيًا بهولندا مع أصدقاء له لسك عملة مزورة وذهب هو إلى إسبانيا. وقد اكتُشفت العملة عند حملها إلى السفينة، ولم تسمح الولايات بإتمام صعودها إلى السفينة وما كان على الأرض. أرجعوه وقالوا إنهم لا يريدون فى زمن الهدنة أن يسمحوا بمثل تلك الأعمال ويهود برتغاليين آخرون كثيرون سوف يتحدث عنهم فى مدريد.

يقول كذلك إن عمه أرسى اتفاقًا مع ولايات هولندا أنه طالما كان الملك فى حاجة إلى مساعدة عسكرية من أجل حربه ضد الإسبان فسوف يعطونه مائة سفينة حربية مع كل ما هو ضرورى.

يقول إنه من المناسب جدا عمل الإجراء اللازم لكى يأتى عمه إلى إسبانيا ويكشف عن أسرار كبيرة ومعاهدات ضد ملك إسبانيا والتى إذا عُرفت يمكن بسهولة معالجتها والعكس صحيح.

ولكى يمكن التفاوض بشكل أفضل على قدوم عمه صمويل باياتشى ينبغى الإعلان عن أنه ذاهب إلى روتشيلا حيث لديه ممثلون تجاريون يعرفهم من وقت أن كان فى فاس.

أرسل ماوريثيو إلى ملك المغرب مع عم الصبى أربعة جياد وصورة له.

كل ما تحويه هذه الورقة أبلغته إلى السيد مركيز غوادالييستى سفير صاحب الجلالة الكاثوليكية فى هذه الولايات بفلانديس وللحقيقة أوقّع باسمى فى بروكسيل فى الثلاثين من شهر يوليو من عام ١٦٠٩.

[موقع عليه] خوسويه باياتشى.

(١٠)

مقتطفات من رسالة ديكارت إلى بويزيو، فى ١٢ من أكتوبر من عام ١٦٠٩ (المكتبة الوطنية. محتويات فرنسية. – مخطوطة رقم ١٦١٣٣، أرقام الصفحات ٢٩٢، ٢٩٣. أصلية) منشورة فى SIHM، فرنسا، العدد الثانى، أرقام الصفحات من ٤٧٤ إلى ٤٧٦.

مدريد، ١٢ أكتوبر ١٦٠٩.

الموجه إليه الرسالة: إلى سيدى، مولاى بويزيو، مستشار الملك فى مجلس دولته وسكرتير شئون صاحب الجلالة. فى القصر.

على ظهر، اليا مانو: ديكارت، فى الثانى عشر من أكتوبر. سُلّمت فى العشرين من الشهر المذكور.

سيدى،

اثنان من خطاباتى، مؤرخان فى الثالث والسابع من هذه الشهر وجهتهما إليكم فى آن واحد عن طريق رسول يرافق شريفا متجهًا إلى فلاندس.

متابعةً للورقة التى أرسلتها إليكم مع خطابى المذكور فى الثالث من هذا الشهر، أحاول أن أكون موضوعيًا إذ أنَّ كل الكبار والسادة الذين يمثلون إسبانيا يحشدون فى أراضيهم وفى دوائر اختصاصاتهم ما يستطيعونه من رجال الحرب، لقد أُرسلت الرسائل إلى كل واحد فى هذا الصدد، سواء الى هؤلاء أو إلى الأساقفة والأشراف الذين يطمعون فى الحصول على الأوسمة، يطلبون منهم كذلك الرماح بالإضافة إلى المشاة، كشكل «مرسوم عالٍ» و«دعوة لحمل السلاح»، وهو نهج قليل ما يُستَخدم بهذا الشكل؛ بالطريقة التى بها لوحظ كذلك أنه صدر أمر ينص على أنه إذا بدا أن هذه الثورة ستقوم، فعندما تكون للأعداء القدرة السريعة على الدخول فى هذا البلد، فإنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من ذلك.

نفس الشيء صدر أمر به فى البرتغال، هكذا قيل لي، ويتوجب أيضًا على مركيز سانت جيرمان الرحيل خلال أيام قليلة للذهاب إلى كاليس وإلى مواقع بحرية فى أندلوثيا من أجل زيارة التحصينات. وهو قائد للمدفعية يتوجب أن يكون هناك بعض الشيء من هذا العبء فى سفره.

الحجج التى يسوقونها فى كل ذلك هى تنفيذ المرسوم ضد الموريسكيين والاستيلاء على العرائش، التى لا تزال محل طمعهم.

وصلت أخبار من فالنسيا تفيد بصدور أمر بالصعود على السفن من أجل عبور المذكورين إلى شمال إفريقيا، يقومون بقيد الأموال التى يحملونها، ويرون أنَّ لن تكون لهم الحرية إذا ما كانت أكبر مما ينص عليه المرسوم المذكور.

بعد أن فعلوا ذلك معهم، يتوجب على المسلمين الإسبان الآخرين فى قشتالة وفى أراغون أن يكون لهم نفس المصير.

تلقيت مكتوبًا فى ذلك من أشبيلية فى السادس من هذا الشهر وكنت قد تلقيت إخطارًا بأن مولاى عبد الله، ابن مولاى الشيخ الموجود فى هذا البلد، قتل عمه مولاى بوفارس، وأنه استولى على تطوان، بالقوة والنهب. هذا العم كان ملاذًا له فى نكبته وساعده فيها. والذى كان يعترف له بالجميل المعتاد للمسلم؛ هذا الذى سوف يستطيع مع ذلك تأمين أبيه.

قيل لى أنْ أخوين يهوديين كانا قد مكثا وقتًا طويلاً فى هذه العاصمة، ورحلا عنها منذ ما يقرب من عامٍ ونصف، دون أنْ يستطيعا التفاوض حسب رغبتهما، التى يُفتَرض أنها كانت عن أحداث بلاد البربر، قاما بعد ذلك بنزهة فى إيطاليا، ثم ذهبا عند سادة الولايات، حيث يبدو أنهما وَجَدا منْ يعيرهما آذانًا صاغية، وأن أحدهما رحل من هناك بما تفاوضا عليه إلى ملك المغرب، والآخر أذعن بعد ذلك بجوار الأرشيدوق، ومن هناك أرسل لهذا الغرض ابنًا له كان بوسعه أن يعطى أهلية لهذا الذى تفاوضا عليه مع سادة الولايات المذكورين، وكذلك ذهبوا يخدعون البعض والبعض الآخر من أجل أن يحصلوا بحيَلِهم على ما يستطيعونه من مال. أظن أن ابن اليهودى هذا هو شخص يَدّعى أنه برتغالى، عن طريقه تسلمت رسالتكم المؤرخة فى الخامس عشر من سبتمبر، السيد لوفيه أعطاه حزمته، ويطلب منى أن أعقد صداقة مع شخص يُدعى أندراد موجود فى باريس، وأنه إذا رغب فى أن يعرفه، فيمكنه أن يقول.

أتضرع إلى الخالق أن يمنّ عليكم.

يا مولاى،

بأتم الصحة وبحياة طيبة وطويلة

فى مدريد، فى الثانى عشر من أكتوبر ١٦٠٩

خادمكم المتواضع جدا والمطيع جدا

التوقيع: ديكارت

(١١)

مُقتطفات من رسالة ديكارت إلى بويزيو، المؤرخة فى ٢٥ من أكتوبر من عام ١٦٠٩ (المكتبة الوطنية. محتويات فرنسية. مخطوطة رقم ١٦١١٣، أرقام الصفحات من ٢٩٩ إلى ٣٠٠. أصلية)

منشورة فى: SIHM، فرنسا، العدد الثانى، أرقام الصفحات من ٤٧٧ إلى ٤٧٩.

مدريد، ٢٥ أكتوبر ١٦٠٩.

الموجهة إليه الرسالة: إلى سيدى، مولاى بويزيو، مستشار الملك فى مجلس دولته وسكرتير شئون صاحب الجلالة.

فى القصر.

على ظهر، اليامانو: ديكارت، فى الخامس والعشرين من أكتوبر. سُلِّمت الرسالة فى التاسع من نوفمبر من عام ١٦٠٩.

سيدى،

رسالتى السابقة مؤرخة فى الثانى عشر من هذا الشهر.

أنا فى انتظار الرسالة التى قلت لى أنك كتبتها إلىّ عن طريق رجل من العامة أوْفَده السَّيد كونستانت، بهدف أن أرى إذا كانت تتفق جدا مع إرادة الملك حيث أنكم أرسلتم إلىّ تبلغونى فقط بأن صاحب الجلالة يريد أن أعاونه على تخليص الأمور التى أراها مناسبة وإذا لم تحددوا شيئًا خاصًّا، فإن التصرف الذى أظنه فى هذا الصدد هو التحدث فى ذلك بدون اكتراث وعن نفسى أنا، بادئًا بالسكرتير براد، من أجل النظر فى أية لغة سوف أتحدث بها.

قيل لى إنه جاءت منذ أيام قليلة رسالة من نائب ملك البرتغال يطلب فيها أن يلقى الزائر الفرنسى حراسة جيدة، وفى رده على ذلك أمر بمواصلة العمل فى هذا

الصدد ليلقى عناية طيبة لشخصه المهم، يظن أن ذلك سوف يستمر حتى يَعْبُر ملك فاس، مولاى الشيخ – المستمر فى التفاوض – إلى بلاد البربر.

وعُلِمَ أن خوانيتين مورتارا هذا وهو موظف من جنيف، ورجل يُدعى دييجو أوريا، مترجم إلى اللغة العربية، سوف يتعين عليهما قريبًا جدا أن يذهبا سويًا إلى المكان الموجود فيه مولاى الشيخ، لإفهامه المداولات الخاصة بذلك، المماثلة للمشورة التى أرسلتها إليكم سابقًا والمدرجة فى الاتفاقية، وعمل الكتابات الضرورية الخاصة بالتعهد برهن العرائش مقابل المال الذى يطلبه. ثم بوسعه بعد ذلك أن يتزود بما يلزم لرحلته. فى غضون ذلك، أنا لم أتوقف عن الكلام عن ذلك الزائر، بعد استلامى لخطاباتكم.

هذا الذى كتبته إليكم فى رسالتى المؤرخة فى الثانى عشر عن ابن لرجل يهودى جاء فى هذا الصدد، ليس الشخص الذى أذكره لكم، وفهمت أنه منذ نحو ثلاثة أشهر أنه سافر إلى باريس، حيث يقول إنه تحدث إلى الملك، بسبب أنه رُفِض (إعطائه) خيول بوسطة، امتثل بصفته كان قد خدم فى فلاندس أثناء الحرب وأنه جاء فى هذا الصدد من أجل أن يحصل على مكافأة. الشخص الذى أعاشه قال لى أنه فهم أن أباه وعمه رحلا من هنا وذهبا عند سادة الولايات وتفاوضا معهم؛ وعَبَر من هناك مع عمه عند ملك المغرب، ثم عاد إلى هولندا، حيث فَرَّ منها من أجل أن يأتى إلى هنا ويكشف التفاوض، الذى كان يَنُصُّ، بين أمور أخرى، على أن سادة الولايات تعهدوا بمساعدة الملك المسلم فى المستقبل بمائة سفينة للعبور إلى إسبانيا، حيث يتوجب أن تندلع هناك ثورة كبرى، دون أن يذكر شيئًا أكثر من ذلك؛ وتقديرًا لهذه الخدمة، أُمِرَ له بإعاشة فى نابلى. إذا كانت روايته حقيقية فسيكون قد عَرَفَ جانبًا من سبب النهج الذى يرى الآن ضد موريسكيى مملكة فالنسيا. لست أدرى إذا ما كان الاثنان الآخران اللذان يقول إنهما أقاما هناك كانا يجهلان إذن رحلته التى يوضحها، أو إذا ما كانا يشتركان معه فى ذلك من أجل أن يحاولا الاستفادة من كل النواحى، على عادة أولئك اليهود.

ركب الموريسكيون السفن جميعهم بمحض إرادتهم، هذا ما يُقـال. دون أن يرغب أحد فى أن ينعم بمضمون المرسوم الخاص بالمأوى لستة فى المائـة مـن العائلات؛ ويبدو أن مرورهم سوف يحدث قريبًا جدا، إن ذلك ليس سـوى مجـىء لشتاء طويل. موريسكيو قشتالة هؤلاء أرسلوا مندوبين عنهم عند ملك إسبانيا، الذى أحالهم إلى مجلس دولته من أجل طرح أسبابهم، التى يـشيرون فيهـا إلـى أنهـم مسيحيون، يعيشون على شريعة الكنيسة، وبالتالى لا ينبغى جعلهم يعبرون إلى بلاد البربر؛ يتمسكون بأنهم يجلبون كذلك بعض العروض المالية..

سفينة الأسطول هذه التى كنت قد أخبرتكم سابقًا بأنها أُخذت على مرأى من قادش يُقال الآن بأنها ثمينة بحيث تساوى أكثر من أربعمائة ألف دينار، وتتسع لعدد آخر من المسافرين، وأن مالكها هو قرصان إنجليزى، وأنهم كتبوا إلىَّ من أشبيلية يقولون بأنها رست فى العرائش، وأن ابن مولاى الشيخ أخطره أن يُبقيهـا حتـى يعرف قراره فيما سوف يُفعل. وهو ما لا يصدقه كثيرًا

من مدريد، فى الخامس والعشرين من أكتوبر ١٦٠٩

خادمكم المتواضع جدا والمطيع جدا،

[التوقيع:] ديكارت

(١٢)

بلاغ من إسحاق باياتشى ضد خوان مينديس إينريكيس، فى أغسطس مـن عام ١٦١٠ (الأرشيف الملكى العام بروكسل، مكتب المدعى العام - بورتيفوويلّيس، مصنف رقم ١٣١ مجموعة رقم ٩٢٤ [أ]، صفحة رقم ٢٢ف).

السيد صاحب السمو:

يقول إسحاق باياتشى إنَّه جاء إلى هنا فى ظل حماية سـموكم ومـن أجـل خدمتكم، ليؤدى أعمالاً ذات أهمية كبيرة فى خدمة صاحب الجلالـة وفـى خدمـة

سموكم، إنّ خوان مينديس إينريكيس، زوج أخت إينريكى غارثيس وابن عمه في نفس الوقت والموجود فى تلك المدينة، قد قابله فى شارع مفتوح ورئيسي في المدينة المذكورة هذه وقال له وهو يهدده، "أنت خائن وكلب ويهودى ومفضوح. يتوجب علىّ أن أقتلك وأن أسدد لك ستين طعنةً بيداى إنك خائن". وقد كان هذا اللقاء بين الساعة السابعة والثامنة، بعد ذلك بين الساعة الواحدة والواحدة والنصف، بينما كان المذكور إسحاق قادمًا من غرفته ليأتى إليها النائب العام أشار عليه جندى بعلامة الصليب وكان يفكر أيضًا فى إلحاق الأذى به قائلاً وهو يضع يده على سيفه "أقسم بأنه كان يتعين عليه أن يقتله". قبل ذلك بينما كان إينريكى غارثيس يخضع للأسئلة والاستجوابات التى كانت توجه إليه بشكلٍ رسمى فى مجلس مدينة أمبيريس كان ضائعا جدا لدرجة أنه دعا المذكور إسحاق بالخائن فى حضور النائب العام المذكور والنواب المذكورين، ولأن كل الذين يأتون لخدمة سموكم الرفيع هم تحت حمايتكم فليس مسموحا لأحدٍ أن يتعرض لهم بالأذى والمضايقات العلانية جدا مثل هذه. لذا فهو يتوسل لتأمين شخصه أن تتفضلوا سموكم الرفيع بالأمر بالإعلان بألاّ يتعرض أحد للمذكور إسحاق بالقول أو بالفعل وأن الذين يفعلون ذلك سوف يُعاقبون كما يجب حسب القانون حتى لا يتجرأ آخرون على ارتكاب فعل آخر ضد خادم ذى أهمية كبيرة مثل هذا وخدم آخرين كثيرين يتوجب تقديم تقريرات بشأنهم يعملون فى خدمة صاحب العظمة وخدمة سموكم الرفيع. أُقبل الأقدام الملكية مرات كثيرة، وإذ أُرسل لسموكم هذا الطلب تقبلوا خالص العرفان.

(١٣)

تقرير ضد إينريكى غارثيس بشأن ما حدث فى التجارة، أول سبتمبر من عام ١٦١٠. الأرشيف العام الملكى. بروكسيل، مكتب المدعى العام. بورتيفوليّس، مصنف رقم ١٣١ مجموعة رقم ٩٢٤ [أ]، صفحات ٢٨١ر – ٢٨٤ر.

تقرير عما حدث فى التجارة ضد إينريكى غارثيس لكشف الثروة التى يُعتقد أنها موجودة فى حوزته، مُقدَّم من سفير ملك المغرب او من عميليه صمويل وجوزيف باياتشى، الموجودين حاليًا فى هولندا.

إنّ خطاب أصحاب السمو والرفعة المؤرخ فى ٢٣ من أغسطس إلى هيئة قضاة أمبيريس قد سُلّم إلى هيئة القضاة المذكورة فى ٢٤ من ذلك الشهر وتم تعيين وإنابة القضاة أنطونيو دى بيرتشيم كابابيرو وخوان دى ستيمبور مع السكرتير كريفيّل لمساعدة النائب العام فى تلك القضية حسبما، ووفقًا للأمر المنصوص عليه فى ذلك الخطاب. بعد ذلك استدعى القضاة الأشخاص المذكورين - من أجل إزالة كل الشكوك -، المذكور إينريكى غارثيس للمثول فى مجلس المدينة لأمر يتعلق بنزاع نشأ فى اليوم السابق بين برتغاليين، حيث تواجد بعد ذلك النائب العام المذكور الذى أفهم غارثيس بأنه مفوض وموفد إلى هذه المدينة من قِبل أصحاب السمو المذكورين، وقال له بأنهم على علم تام بكل ما كان يحدث بين المذكور غارثيس والسفير المذكور (المذكور صمويل) ولهذا كان من الضرورى أن يقول ويدلى بالحقيقة المجردة بكل ما كان يحدث وإلاّ فإنه قد يجد نفسه متورطًا أكثر فى حالة ما إذا انتظر حتى تتكشف الحقيقة بطريق آخر، لأنه فى هذه الحالة يغامر بحياته وبممتلكاته، لكنه لو اعترف بالحقيقة فلن يُطلب منه شىء آخر سوى تلك الثروة أو قيمتها.

وكيف أنه أُخِذَت بعض أقواله حول ذلك الموضوع، وكان المذكور غارثيس ينفى دائمًا أن لديه ثروة، وكان يدّعى أنه كان فى حوزته خمس ياقوتات بالايسية، كان قد أخذها من دوارتى فرنانديس، حماه، ويصر على العكس النائب العام المذكور بتفاصيل كثيرة مما كان يزعم وقد أمر أيضًا بأن يأتى فى وجوده إسحاق باياتشى ابن جوزيف، الذى قال بثبات كثير للمذكور غارثيس إن امتلاك غارثيس لتلك الثروة هو حقيقة، وأوضح إسحاق ماذا كانت تلك الثروة ومَنْ الشخص الذى سلّمها وكيف سُلّمت إليه.

لقد أصرّ دائمًا المذكور غارثيس على أنه لم تكن لديه أى ثروة من التى كان يُبْحث عنها، لا ذهب ولا جواهر ولا عمبر ولا أى شىء آخر. وفى ذلك تم عمل استجوابات على وجه الخصوص للمذكور غارثيس وقد أجاب عليها، كما يرى من أقواله المرفقة هنا: المسماة رقم١.

وبعد ذلك يشتكي بكثرة من أنّ هذه المكيدة الافترائية كانت تستهدف على حد قوله تدمير شرفه وسمعته وأنها كانت يجب بكل تأكيد أن تدمر الائتمان، إذا لم يتواجد حينئذٍ في بورصة هذه المدينة ويقدم من أجل ذلك، كفالة وضامن ليس فقط ليمثل شخصه، لكن كل ما يمكن أن يُطلب منه، كان موجودًا لحُسن الحظ، عن طريق اجتماع للنائب العام المذكور مع القضاة، لأخذ وقبول تلك الكفالة والضمان، بل لأنّ المذكور غارثيس كان يقول إن البريد رحل في نفس اليوم إلى إسبانيا، بحيث توَّجب عليه أن يكتب إلى ممثليه هناك وإلاّ كان رجلاً ضائعًا.

وهكذا ظهر خوان مينديس إينريكيث، وهو تاجر برتغالي، مقيم في مدينة أمبيريس، جاء مرافقًا له إلى مقر مجلس المدينة، وتولى ضمانته وكفالته كأساس من قبل المذكور إينريكي غارثيس، عمه، كما هو ثابت من المحضر المرفق هنا أيضًا. رقم ٢.

ولأن المذكور إينريكي غارثيس وفقًا لذلك كان ذاهبًا إلى بيته، فقد تعقَّبه مساعدو النائب العام ليأخذوا دفاتره وخطاباته التي كان يحتفظ بها في مكتب بيته، وعندما وصلوا، رأوا وسمعوا أن المذكور إينريكي غارثيس عندما دخل مكتبه المذكور ولم يجد هناك دفاتره تلك، سأل بعد ذلك أهل منزله، أين كانت. وقالت له زوجته إنها قد أرسلتها خارج البيت، ثم أعادوا الأشياء في الحال إلى البيت في جوال صغير أبيض اللون. وهكذا قام مساعدو النائب العام بغلقها وختمها داخل صندوق. وظلوا منشغلين الفترة الباقية من هذا اليوم فيما سبق ذكره حتى الساعة الثانية بعد الغداء، تم عمل بعض الإجراءات، من أجل الحصول على واستدعاء بعضْ الشهود. الذين لم يأتي منهم سوى شاهد واحد، وتم استجواب الآخرين في اليوم التالي. كما يظهر أيضًا من التقرير المرفق هنا. رقم٣.

بالإضافة إلى ذلك، تم عمل اللازم مع بعض سماسرة الأمة وآخرين، لكي يخبرونا إذا كان غارثيس قد عرض بالصدفة بيع عنبر، وذهب وأحجار وجواهر، ولم يُعثر على أي شيء بخلاف الخمس يواقيت البالايسية.

وبالنسبة لما كان يلحُّ عليه صاحب الاتهام من أنَّ الذهب حُوِّل إلى عملة، فقد تبين العكس من خلال إقرار مدير عام العملة، الذى قال بأنـــه منـــذ شـــهر مـــايو الماضى لم يدخل أى ذهب فى عملة هذه المدينة.

وفى المساء بعدما حلَّ الظلام ذهبنا كلنا إلى بيت المذكور إينريكى غارثيس حيث تم عمل بعض الاستجوابات الأخرى وتم تفقُّد أجندته، لأن دفاتره الكبيرة لـــم تكن منتهية، ولم يكتمل فيها شهرا يوليو وأغسطس. ولما لم يُعثر فى تلك الأجنـــدة على أى شيء يخص أو يأتى بذكر لهذه الصفقة، ولا لما كان يُـــزعم ضـــده، قـــام المساعدون بأخذ الدفاتر وأغلقوها من جديد حتى اليوم التالى الذى كـــان يتوجـــب عليهم فيه مراجعة وتفقد الخطابات ودفتر نـــسخ المـــستندات الخاصـــة بالمـــذكور إينريكى غارثيس.

فى صباح اليوم التالى وبعد أن استجوبوا بعـــض الـــشهود الـــذين ذكـــرهم المذكور إسحاق وبناءً على طلبه، راجعوا وفحصوا الخطابات المذكورة بمـــساعدة كاتب العقود فاندينبو ستشى لكونه متحدثًا جيدًا باللغة البرتغالية. وأخذوا اثنين منهم، حيث أخذت النسخ المقلدة والتى أثبت صحتها كاتب العقود المذكور مع نسختين من خطابين آخرين كتبهما إينريكى غارثيس إلى إيمانويل دياس ودوارتى فرنانـــديث، مأخوذان من كتاب النسخ سالف الذكر، وبموجبها جمعت هنا. ومن خلالها يتـــضح أنها عبارة عن بعض اليواقيت البالايسية رقم.s. بأسماء مشفرة أو حروف مغطـــاة للقيمة أو السعر الذى قُدِّم عن طريقها، وأمور أخرى تُـــرى مـــن خـــلال النـــسخ المذكورة. واعترف المذكور إينريكى غارثيس، أن الخطـــاب الـــذى كتبـــه باســـم إيمانويل دياس كان مرسلاً فى الحقيقة إلى صمويل باياتشى وأنه تكلـــم فـــى ذلـــك الخطاب عن موضوع خاص، كتب عنه لسيِّده (يقصد دوارتى فرنانديث) ويتعين أن يكون متعلقا باليواقيت البالايسية المذكورة، كما هو ثابت من نسخة الخطاب التـــالى فى الدفتر المذكور، الذى كتبه للمذكور دوارتى فرنانديث، حماه.

نسخ مسماة رقم٤.

بعد ذلك بسؤال المذكور إينريكي غارثيس عن السبب الذى جعله يستخدم ذلك الاسم المستعار لإيمانويل دياس عندما كتب خطابًا إلى المذكور صمويل باياتشى، بينما لم يكن لديه أسرار معه، ولم يكن فى حاجة لاستعمال هذا الاسم المستعار، فقال غارثيس إنه فعل ذلك فقط لأنه كان ولايزال يهوديًا، ولكى لا يكون معروفًا عنه أن له علاقة معه، على أنه أثناء رده على الاستجواب المذكور غضب كثيرا وتغير لونه.

وبسؤاله كذلك عن سبب استخدامه الشفرات فى خطاباته المذكورة، أو لحروف كانت تعنى الأسماء السرية المعروفة بينهم، قال إنه فعل ذلك بغرض اختصار الأسماء المعروفة كما هى العادة، وليس لسبب آخر.

واتفق غارثيس مع المذكور خوان مينديث إينريكيث فى أقوال كثيرة تتعلق بأن المذكور أسحاق كان يريد أن يخلق سندًا على أنّ المذكور غارثيس، ابن عمه، أراد أن يكون خائنًا وعدوًا لأصحاب السمو، ولصاحب الجلالة الكاثوليكية، بينما كانوا هم أعداءً للبرابرة وغير مخلصين، ولكونهم كذلك فقدوا ويفقدون كل يوم بضائع كثيرة بسبب قراصنتهم، ولو كانت لديهم ثروة من صمويل، لسارعوا بإرسال خطابات جيدة أو بالتبليغ عن تلك الثروة إلى صاحب الجلالة أو أصحاب السمو السابق ذكرهم، للحصول على مكافأة وأخذ نصيب منها، دون الانتظار حتى يقوم شخص آخر بذلك.

استمرت إذن كل هذه المسألة وتقرر إرسال الموضوع كله إلى صاحب السمو مع الإخطار التالى.

للعلم أنّه من كل ما سبق ذكره تتبين بعض الدوافع والدلائل ضد المذكور إينريكى غارثيس، لأنه يعترف ومن الواضح أنّه كانت له علاقة مع البرابرة الخائنين، وهو من رعايا أصحاب السمو المتقدم ذكرهم ومن سكان مدينة أمبيريس هذه، واشتغل ببعض الأمور أو المشروعات التى أراد لها أن تكون سرّية، بانتحال اسم غير معروف، وأيضًا لأنّ الحقيقة تبدو كذلك من خلال تلك الخطابات وأنّ

تجارة اليواقيت البالايسية كانت هى الموضوع الخاص الذى كتبه فى ذلك الخطاب إلى إيمانويل دياس، قاصدًا صمويل بايانتشى، طبقًا للاعتراف المتقدم ذكره، ويقول إنه كان يكتب للمذكور دوارتى فرنانديث بطريقة أخرى، إذا لم تكن تخصه تلك التجارة، ما أرسل بخصوصها للمذكور صمويل وخاصة لأنه تعين عليه أنّ يراعى أنْ توضع تلك اليواقيت البالايسية برقم خمسة، ومن ثم يحتمل أن تكون هناك أعدادٌ أخرى كثيرة قد تسلمها من تلك اليواقيت وأنه تناول فى حوزته بضائع أخرى وجواهر وذهب وعنبر، أو أشياء أخرى.

من ناحية أخرى ينبغى الأخذ فى الاعتبار أنَّ من كل القرائن المذكورة لا يوجد دليل قاطع يمكن به أو بمقتضاه أن يُدان المذكور إينريكى غارثيس فى محاكمة حضورية، واضعين فى الاعتبار ما يقول من أنه لم يرَ السفير المذكور، سوى بدافع الفضول مثل آخرين كثيرين، وأنه فى طريق عودته مع المذكور صمويل من أمستردام إلى لاهاى، كان قد وعده أن يرسل إليه خطاباً يطمئنه فيه على سلامة وصوله إلى أمبيريس، ويقول أيضًا إن الخطاب سالف الذكر الذى كتبه إلى صمويل تحت اسم إيمانويل دياس، لم يكن يحتوى سوى على عبارات المجاملة وعبارات أخرى مشابهة، ولم يكن فيها جُرمٌ مع أنها كانت موجهة إلى رجل بربرى أو يهودى، وأنه بالنسبة لباقى الموضوعات الخاصة بالصفقة لم يكن هناك دليل على أنَّ اليهود والبرابرة الخائنين المذكورين أرادوا أن - يأتمنوا على صفقة ذات أهمية كبيرة – رجلاً كاثوليكيًا ومسيحيًا مثل المذكور إينريكى غارثيس، وأنه كان يمتهنها كما كان يقول، وحيث أنه كان قد أعاد قبل ذلك بأيام كثيرة تلك اليواقيت البالايسية إلى المذكور دوارتى فرنانديث، كما بدا من خلال الخطابات فى كتاب النسخ المذكور الخاص به، وكأنه كان يحاول هكذا أن يقول بأنه لم يكن مسئولا عنها لأصحاب السمو المذكورين الذين كان لهم خادمًا وراعيًا مجتهدًا.

تعد هذه الاعتبارات فى رأينا ذات وزن ولا يمكن أن يُدان المذكور إنريكى غارثيس فى محاكمة حضورية على القرائن والافتراضات المذكورة. من الممكن

جعل ضامنه مُلزمًا وأن يظل ملتزمًا، حتى يحقق المُبلِّغ مقصده ببعض الدلائل الأخرى، ويتوجب عليه أن يعمل فى ذلك، حيث أننا هنا ليست لدينا دلائل أخرى ولا شهود، سوى الذين استطاع أن يحددهم لنا، وإنه إذا لم يفعل ذلك يُمكن أن يُظن، أنه مُفتر طبقًا للقانون، وبشهادة بعض الشهود الذين أمدنا هو نفسه بهم، ولم يعرف أن يقول شيئًا عن التجارة الأساسية. يبدو أن المبلغ المذكور هو غلام سيئ التربية جدا، غير مطيع لأبيه، الذى أودعه السجن لهذا السبب بضعة أشهر هنا، والآن بعد خروجه من السجن بقليل يجيء ليطارد هذه التجارة فى الواقع ضد أبيه وعمه المتداخلين كما يزعم فى تلك التجارة، إذا كان يوجد شيء من ذلك يشوبه الشك فهو كما قيل.

مع كل ذلك فإننا نرسل كل شيء ليتفضل صاحب السمو بالأمر والحسم.

[توقيع:] أنطونيو دى بيرتشيم، خوان دى اسيمبور.

(١٤)

خطاب من أحمد بن عبدالله المرينى وصمويل باياتشى إلى محمد بن موسى، قائد صافى وآخرين، ١٩ ذو الحجة ١٠١٩/ ٤ من مارس ١٦١١ (الأرشيف العام لسيمانكاس. الدول، ربطة رقم ٤٩٤ن بدون ترقيم.)

الحمد لله وحده ! إلى محبوبنا قائد صافى، والخطيب النبيل، السيد محمد بن موسى، الإمام التقى، سيدنا محمد بن عبدالكريم وإلى أمناء سيدنا مولاى زيدان، نصره الله. رعاكم الله وسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

نحن، خُدام سيدنا، أحمد بن عبدالله الحايتى المارونى، والشيخ صمويل باياتشى، خادماه المتواضعان، نُعرِّفكم... أن حامل خطابنا هذا هو القبطان كَبْدْرَى[٦]، أعانه الله.

إذا قدر الله وافترقنا لسبب يتعلق بسفرنا بحرًا، ووصل قبلنا ثغر صافى، عَمَّرَه الله، فاعلموا أنه وكل طاقم السفينة المباركة هم من خدم مولانا، نصره الله،

وأن مرتبات الشهور التالية دُفِعَتْ، أى رمضان وشوال. إن السفينة وكل ما فيها تم شراؤه بأموال السلطان. وعلى السفينة غنيمة، أمسكنا منها جزءا كبيرا. اعلموا أنه ينبغى عليكم إعلام السلطان عن وصول السفينة إلى صافى. يتوجب عليكم أيضًا أن تستلموا كل الحمولة باسم السلطان، نصره الله. إذا احتاج الطاقم شرابًا أو طعامًا، فأعطوه، فهم خُدام السلطان، نصره الله، وإذا حدث تأخير، فسوف نعتبره ذنبكم، وليس ذنبنا، لأن كل شيء ينتمى إلى السلطان.

١٩ذو الحجة ١٠١٩ [٤ من مارس ١٦١١]،

[وقع عليه:] أحمد بن عبدالله المارونى، خادم القصر العالى لمولاى زيدان، نصره الله، وصمويل باياتشى، أعانه الله.

[باللغة الإسبانية:] هذه الورقة عُثِرَ عليها مكتوبة باللغة العربية فى la almiranta de Cidan

(١٥)

خطاب تعليمات من أحمد بن عبدالله المارونى وصمويل باياتشى ومارتين فان ريجسبيرجين إلى القبطان كوبيندرايير، ٤ من مايو من عام ١٦١١. (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٤٩٤، بدون ترقيم.)

نحن الموقعون أدناه، حامدى بن عبدالله، سفير ملك بلاد البربر، مولاى زيدان، حماه الله، وصمويل باياتشى، وكيل صاحب الجلالة الملكية، نطلب من القبطان كلايس جاكوبسين كوبيندرايير[٧] أنْ يأتى برفقتنا فى خدمة الملك المذكور أى بسفينة اسمها القمر الذهبى، والتى نتعهد بأن لا تنفصل [كذا] عن أسطولنا ما لم يكن لظرف عارض أو أن يكون قد حدثت فتحات تسريب أو أن يكون قد حدث خطأ ما، وتبحروا رأسا إلى حاجز أو ميناء صافى وترسوا هناك وتظلوا مستعدين حتى تتجمع كل السفن، وهذا ما نكلفكم به ونأمركم بتنفيذه، وإذا وجدتم بعض السفن التابعة لإسبانيا أو للتاج البرتغالى فسوف تستطيعون بحرية الاستيلاء عليها

للحصول على غنيمة كبيرة. مع ذلك فالأشياء والثروات التى سوف تعثرون عليها في هذه السفن لا تلمسوها ولا تنتقصوها بل احملوها إلى تلك المنطقة من صافى، وهناك سلموها إلى القائد ريجسبيرجين لكى ينظر المذكور ما إذا كانت غنيمة طيبة، وعليه يتصرف طبقًا لأمر الملك ووفقًا للبنود التى وضعناها فى أمستردام. ونأمركم كذلك بوضوح بألا تتوقفوا عن القرصنة ولا تأووا أية سفينة بل ابحروا بكل همة إلى بلاد البربر إلى الميناء سالف الذكر، وبنفس الشيء نأمر كل الضباط والبحارة أن ينفذوا ذلك كما قيل، حسب القسم الذى أقسموه فى أمستردام والذى ينص على تنفيذ كل ما يُطلب منهم خدمةً للملك مولاى زيدان، الذى بأمره عملنا ووقعنا هذا التكليف المؤرخ فى ٤ مايو من عام ١٦١١. صموويل باياتشى. أنا مارتين فان ريسبيرجين، مفتش السفن المذكورة آمر بتنفيذ ما سبق قوله.

(١٦)

رسالة خطية من صمويل باياتشى إلى الأمير ماوريتيو دى ناساو، ٢٠ ديسمبر ١٦١٤ (مصنف غانز، صفحة رقم ١١أ).

الأمير صاحب الرفعة

أنا ممتن كثيرًا لتفضل معاليكم علىَّ وإيفاد سكرتيركم لزيارتى ولا أزال آمل فى أفضال أخرى كثيرة من أمير عظيم النبل، وأنا أقوم بعمل خدمات فى شركة شقيقى، وكلانا نتطلع إلى تقبيل أيادى معاليكم.

بالنسبة لموضوع السكر: أرسلتُ لأخطر معاليكم والآن أعود وأقول لكم إنهم ثلاثون صندوقًا أبيض. قمت بعمل خدمة صغيرة لمعاليكم عن طريق ريندال كينتال سميث والذى قال لى إنه لم يكن يوجد إلا ثمانية وعشرون صندوقًا أبيض وفى مقابل الصندوقين الناقصين لإكمال الثلاثين أعطيتكم أربعة، بحيث أنهم اثنان وثلاثون. مُر معاليكم بالتكرم علىَّ بأن يعيدوا إلى سبعة عشر صندوقًا أخذها منى المذكورين ولم يدفعوا لى سوى ثلاثين جنيهًا، لقد أعطيت صناديق فى مناسبات

أخرى، أعطيتها بشكل إرادى وأنا مسرور لأنى أعطيتها. يتعين على معـــاليكم أن تنعموا علىّ بدفع ما أعطيته بإرادتى حيث أننى شخصية عامة وخادم للأمير، وهذا هو جوهر الموضوع. أمد الله معاليكم بسنوات الحياة. فى لندن الموافـــق ٢٠ مـــن ديسمبر ١٦١٤. خادم معاليكم. صمويل باياتشى.

(١٧)

مركيز غوادالبستى يكتب إلـــى الملـــك، فـــى ٢٦ أغـــسطس عـــام ١٦١٥ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطـــة رقـــم ٦٢٩، رقـــم ١١٧). الراهـــب غريغوريو دى فالنسيا، راهب بأجر جاء إلى هذه الولايات بسبب قضية، وعنـــدما علم أنه كان فى هولندا شاهدٌ كان يهمه الحضور ذهب إلى هناك، وفى أمـــستردام تعرف إليه رجل أعمال من سكان أمبيريس يُدعى إينريكى غارثيس، صهرٌ لرجـــل يهودى يُدعى دوارتى فرنانديث، يهودى متنصر لكنه رجـــلٌ ذو رأى ســـديد. لـــذا تُصغى إليه الولايات، ومن خلال الحديث معه عَلِمَ كيف أن صمويل باياتشى كـــان فى هولندا سفيرًا لملك المغرب وأن الولايات كانت تعمل له حسابًا وقال له دوارتى فرنانديث إنه كان بإمكانه تحويل صمويل باياتشى إلى خدمة عظمتكم، ويمكـــن أن ينتج منها فوائد عظيمة للتاج الملكى، وإنَّ باياتشى هذا كان سجينًا فى لنـــدن بنـــاءً على طلب من السيد دييغو سارمييتو وأفرجوا عنه وقد طلب السيد دييغو بعد ذلك ألاَّ يُفرجوا عنه لأنه كانت لديه أمور أخرى يريد اتهامه بها وأفرجوا عنه بشرط أن يدفع كفالة قدرها ثلاثون ألف دوقية، وقد دفعها عميل هولنـــدا بـــأمر تلقـــاه مـــن الولايات من أجل ذلك، لقد كانوا يرغبون كثيرًا فى حصوله على الإفراج. كتبـــتُ إلى السيد دييغو لكى يخبرنى ما إذا كان الأمر هكذا، وقد رد فى خطاب فى الثالث عشر من هذا الشهر بأن ذلك حقيقة، وأضاف أنه يبدو له مناسبًا تحويـــل باياتـــشى هذا لخدمة جلالتكم.

كذلك قال له، إنه بأمر من دوق إينفانتادو كان غرابييل دى روبى قد سافر من كولونيا، حيث يقيم، إلى هولندا ليحاول ضم المذكور صمويل باياتشى إلى خدمة جلالتكم وأنه لم يخرج بشيء ولا حتى برسالة إلى الدوق تَسرُّه، وأنَّ دوارتى فرنانديث سوف يخبر عن ذلك الأمر وعن أمور أخرى شفاهةً إذا ما أُرسل إليه جواز سفر من أجل ذلك. أخْطَرتُ صاحب السمو بكل ذلك، وتفضّل بالموافقة على عودة الراهب إلى هولندا حاملاً خطابًا منى إلى دوارتى فرنانديث ليستخدمه كجواز سفر جاء به - وبدون ضمانة أخرى - إلى بروكسل وقد سُررت كثيرًا لرؤيته وجاملته بقدر ما استطعت. وفيما يتعلق بالأمور التى يأتى منها ضرر إلى الجزر، يقول إنه ليس بمقدوره أن يتكلم، لكنه بوسعه أن يتكلم عن الأمور التى تخص ملك فاس، لكون صمويل باياتشى مقربًا جدا منه، وهو يعرض ما سوف ترونه عظمتكم لهذا الدور دون أن يرغب فى أجر آخر حتى يفى بما يعد به سوى مائتى إسكودو كل شهر بشرط أنه فى أى وقت يبدو لعظمتكم أو للشخص الذى سيتعين عليه الحضور بالإخطارات أن صمويل لا يعمل كما ينبغى فلا تعطوه ثانيةً، ولكون شقيقه مصدر قلق كبير له من أجل ما يتوجب عمله فى خدمة صاحب العظمة، فمن المناسب إبعاده عنه، وهو أمرٌ لا يمكن عمله بدون مساعدته بألفى دوقية ويطلبهم هكذا معطيًا ضمانة كافية هنا فى أمبيريس أنه وقتما تريدون عظمتكم استرداد المبلغ فسوف يعيده. أخبرت بذلك أيضًا صاحب السمو ومركيز إسبينولا، وبموافقتهما يذهب الراهب غريغوريو دى فالنسيا للتفاوض على كل هذه الأمور. سوف تتفضلون جلالتكم بأن تأمروه أن ينصت وأن يخطرنا بما هو مفيد حيث أن ذلك سيكون هو الأصوب، حفظ ربنا الشخصية الكاثوليكية لجلالتكم كما يشاء، فالمسيحية فى حاجة إليها. أمبيريس، فى ٢٦ من أغسطس من عام١٦١٥

مركيز غوادالبيستى

(١٨)

مركيز غوادالبيستى يكتب إلى الملك، فى ٢٦ من أغسطس من عام ١٦١٥

(الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٦٢٩،رقم ١١٨-١١٩).

من أمبيريس، يبعث مركيز غوادالييستي برسالة إلى صاحب الجلالـــة، فـــي السادس والعشرين من أغسطس، تسلمها جلالته في التاسع عشر من ســـبتمبر مـــن عام ١٦١٥.

بحضور الراهب غريبغوريو دى فالنسيا (من رهبانية نويسترا ســـينيورا دى لا ميرثيد) الذى سوف يتوجب عليه أن يدرس البنود الموضـــحة لمـــا تـــم بحثـــه والاتفاق عليه مع صمويل باياتشي، وهو يهودى مُقيم في هولندا وهو مـــا ســـوف يُرى من خلال الدور المدرج. هذا الدور وصفه هنا الأب غريغوريو دى فالنـــسيا الذى جاء بناء على استدعاء من مركيز غوادالييستي وما يُقال في الهـوامش هـــي ملاحظات دونها الراهب.

ـ البند الأول ـ

بما أن صمويل باياتشي خضع لخدمة صاحب الجلالة فسوف يتعين عليه أن يخدمه بكل إخلاص وبكل ما يعرفه، وأن يقوم بتنفيذ هذا العمل الأشخاص الذين تم الإعلان عنهم إلى الأب غريغوريو دى فالنسيا وليس أشخاص آخرون.

[في الهامش] ولكونه خضع... إلخ، فينبغي لكي يخضع أن يُضمن له دفـــع مبلغ مقابل خدماته وهو يطلب ذلك لأن الخدمات التي قدمها في السنوات الماضـــية لم يعطوه أجرًا عنها. الأشخاص هم: صمويل باياتشي، وابن أخيه موسى باياتشي، ودوارتي فرنانديث الذى سوف يأتي إلى لاهاى أو إلى أمبيريس أو إلـــى المكـــان الذى سوف آمره به وأن يظهر بالشكل الذى يناسب خدمة صاحب الجلالة. يريد أن يتلقى مراسلاته في أمبيريس عن طريق الراهب غريبغوريو ووفقًا لذلك فهو يطيع وسوف يطيع بحق لأن لا دوارتي فرنانديث ولا صمويل باياتشي سوف يثقون في شخص آخر حسبما أخبرا شفاهةً وتداولا في حضورى.

ـ البند الثانى ـ

عندما يدرك صاحب الجلالة أن صمويل باياتشي يقوم بتقديم خدمات له وأنه نال جواز سفره وتصريح مرور وسُدد إليه أجره أو بالتأكيد يجب أن تُسدّد إليه مستحقاته عن الخدمات السابقة كل ذلك بالشكل المتفق عليه والذى تم التداول بشأنه مع الأب غريغوريو، يمكنه فعلاً أن يخدم فى الأمور التالية.

[فى الهامش] عندما يتأكد صاحب الجلالة قبل أى شىء إذا ما كان شخص صمويل باياتشى وما يقترحه مفيدًا لصاحب الجلالة، يعطيه جواز سفره وعفوًا وترضية عما مضى ستكون بإعطائه مبلغ مائتين إسكودو كل شهر وذلك مع التأكيد على أنه إذا لم ينفذ ما اتفق عليه بأفضل شكل ممكن فإنه سوف يرد ما تلقاه من تلك المبالغ.

ـ البند الثالث ـ

عن طريق الأشخاص المذكورين سوف يدلى صمويل بمعلومات عما سيتوصل إليه حقيقةً وعن نوايا الدول المجاورة من أجل علاج الضرر والحصول على منفعة يُعلم منه أنها يمكن أن تأتى.

[فى الهامش] عن طريق... إلخ، سوف يُبلِّغ أسرار هولندا عن طريق أرثين وسوف يتجنب الأضرار بكل صدق. هذان الشخصان مشهوران بحيث أن قول ص.ب. ود.ف. يُفهم منه ما يجب أن يكون.

ـ البند الرابع ـ

معًا يستطيع أن يعلن عن محاولات فرنسا وإنجلترا مع ملك المغرب كما توضح بشكل قاطع الخطابات التى يراجعها الأب غريغوريو ويحمل النسخ وباقى الأشياء التى قيلت له شفاهةً فى ذلك الخصوص.

[فى الهامش] معًا عن طريق المذكور أرثين سوف يعرف أسرار هذه

الجهات وأسرار المغرب مع حلفائها وأسرار الإمبراطورية العثمانية التى تأتى إليه كل يوم، كما هو ثابت ومعلوم فى لاهاى وأمستردام وكل هولندا. من هنـا سـوف يستمر عمل ما هو مناسب أكثر لصاحب الجلالة.

ـ البند الخامس ـ

ربما باتباعه أكثر الأمر الذى أصدره أن ينشأ اتحاد بين صـاحب الجلالـة وملك المغرب، إما بإرادته أو ضدها ويأمر بأن تستبعد من ممالكه الاتفاقات والتجارة الخاصة بمملكتى فرنسا وإنجلترا وبهذه الولايات، بهـذا وبأشـياء أخرى تأتى فى هذا الصدد سوف يعلنها يبقى المضيق آمنًا بالنسبة لصاحب الجلالة بحيث لا تستطيع أن تبحر السفن ولا أناسٌ من الولايات ومملكتـى فرنسا وإنجلترا وجهات أخرى بدون أمر وموافقة مـن صـاحب الجلالـة، وبحيث أنه بإبرام الاتفاق بين صاحب الجلالة وملك المغرب يبقى كل شىء آمنًا.

[فى الهامش] ربَّما يعد هذا الفصل ذا مضمون عظيم جدا أؤكد أنه البند الذى يمكن لصمويل باياتشى وحلفائه أن ينفذوه بسهولة أكثر إذا كان صـمويل باياتـشى متأكدًا من وصول الراتب.

يراعى الانتباه لهذه النقطة لأنها مهمة.

ـ البند السادس ـ

بوسعه أن يكشف التعاملات بين الإمبراطورية التركية عن طريـق سـليم باشا، أمير بحر الإمبراطورية التركية مع دول أخرى تابعة.

[فى الهامش] بوسعه أن يكشف etts المذكور صمويل باياتشى لـه صـداقة وثيقة مع أمير بحر الإمبراطورية التركية.

ـ البند السابع ـ

يمكن لصمويل باياتشى عمل المراسلات الضرورية مع أولئك الأشخاص وتوظيفهم فيما يأمره به صاحب الجلالة، بأن يعين لكل وظيفة وزيرًا مخلصًا.

[فى الهامش] يمكن لصمويل... إلخ، سوف يذهب إلى حيث يُطلب منه أن يذهب، وسوف يعمل متسترا خلف وظيفته كسفير للمغرب، وهو ما سوف يناسب أكثر خدمة صاحب الجلالة ويحافظ على النظام الذى أعطى له دون أن ينسى نقطة واحدة كما سوف يرى من خلال العمل.

ـ البند الثامن ـ

غير ذلك من الأمور التى تم بحثها شفاهة مع الأب غريبغوريو فإنه سيتم سداد مقابل الخدمات السابقة وتأخير دفع مقابل الخدمات الحالية وفقًا لما أُتفق عليه مع الراهب المذكور. إن سداد أجر الخدمات التى سوف يقوم بها صمويل ستكون حسب تلك الخدمات وحسب النية الصادقة لصاحب الجلالة [...] فسوف تكون هناك عطايا كبيرة مقابل الخدمات.

[فى الهامش] غير ذلك من الأمور...إلخ، يُحال إلى البند الثامن فقط أنه بخصوص المكافأة على ما حقق رضا صاحب الجلالة من الخدمات، فإن المكافأة ستكون وفقًا لنوع الخدمة.

ـ البند التاسع ـ

بناء على الإرادة الصادقة التى يبديها صمويل باياتشى من الضرورى أن يخطر صاحب الجلالة بما يدور حول كتب ملك المغرب وحول ملك فرنسا والذى تم التباحث بشأنهما شفاهة مع الأب غريبغوريو دى فالنسيا وأن يتحاور مع الملكة دون أن يعطيها بأى شكل من الأشكال وعدا برد تلك الكتب وأن يبدو قبل ذلك غليظًا ويوقف المداولة لأن ذلك مهم جدا من أجل مقصدنا كما صرّح شفاهة للراهب نفسه.

[فى الهامش] بناءً على...إلخ، من المهم أن يعطى هذا الإخطار كأساس لأمور كثيرة ليس لديهم فى إسبانيا خبر عنها...إلخ.

ـ البند العاشر ـ

وحتى يمكن لكل الأمور أن تبلغ الهدف المنشود فمن الضرورى أن يُلقَى بشقيق ص.ب. وأسرته خارج هولندا بعيدًا كما قال شفاهة للراهب وحيث أنه كان من الضرورى لأجل هذا الهدف أن يبقى صمويل باياتشى هنا وحده مع ابن شقيقه م. ب. والذى يعد على نفس القدر من أهمية صمويل نفسه، وليكن هذا هو أول حجر يُلقى لأن عكس ذلك سيكون ذا ضرر كبير.

[فى الهامش] وحتى يمكن لكل الأمور...إلخ، من أجل طرد عدو كبير لصاحب الجلالة وواشٍ للذين يحكم هو عليهم بأنهم يحبون خدمته الملكية، من أجل طرده من هولندا ينبغى إعطاء ألفى إسكودو، وسيقوم دوارتى فرنانديث بإعطاء ضمان مقابل هذا المبلغ هنا أو فى مدريد يتوجب أن يكون ذلك فيما بعد.

ـ البند الحادى عشر ـ

للبدء بحماس فى هذه الأمور من الضرورى الإعلان عن كونه موفدًا إلى إسبانيا لأن التأخير سوف يسبب ضررًا، ومع هذا الإعلان أمر بخروج الشقيق من هنا، ولكون هذين الأمرين متلازمان فسوف يشرع بعد ذلك فى وضع يده على العمل ويرسل التقارير الضرورية.

[فى الهامش] للبدء... إلخ، اُتفق مع دوارتى فرنانديث على أن يكون الإيفاد إلى إسبانيا فى الثامن من أغسطس، وهكذا قال هو لصمويل باياتشى الذى يعرّض نفسه للخطر من قِبل السفن التى يتعين أن تكون قد خرجت وهو معها ولأنه يرى أن الشقيق يطرد من موطنه ويحاول أن يخبر صاحب الجلالة بقراره حتى يمنح المكافأة ومن أجل أن يخدم بحق يقول إن لديه تقارير تعرّض للخطر إذا تأخر العلم بها.

ـ البند الثانى عشر ـ

أن يأتى جواز السفر بشكل لائق، وواجب وخلال وصوله فإن المذكور ص.ب. سوف يستمر يكتب بيده ويخطر بما هو ضرورى بالصيغة المذكورة.

[فى الهامش] أن يكون جواز السفر حقيقيًا. كتب صمويل باياتشى هذه البنود بخطه وأعطاها ـ بعد أن وقَّع عليها ـ إلى دوارتى فرنانديث، وأنا رأيتها وأمسكتها بيدى وشهد على صحتها هيكتور مينديث وهو تاجر صاحب نفوذ من لشبونة ذو قدر كبير عند دوق ليرونا، وفى ذلك قال لى شفاهة ما ينبغى. قال د.ف. [دوارتى فرنانديث] إن له ابنًا فى مدريد وآخر فى لشبونة سيكونان مسئولين عن الثروة التى سوف يسلمها إليه صاحب الجلالة.

وقع عليه الراهب غريبغوريو دى فالنسيا.

(١٩)

مجلس الدولة فى ٢٣ من نوفمبر من عام ١٦١٥. حول ما كتبه مركيز غواداليستى مع الراهب غريبغوريو دى فالنسيا (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٦٢٩، رقم ١١٦).

السيد:

كتب مركيز غريبغوريو لجلالتكم فى خطاب بتاريخ ٢٦ من أغسطس أن الراهب غريبغوريو دى فالنسيا من رهبانية لاميرثيد ذهب إلى هولندا فى عمل كان له هناك، وفى أمستردام تعرّف إليه رجل أعمال من سكان أمبيريس اسمه إنريكى غارثيس، صهر اليهودى دوارتى فرنانديث، وهو شخص ذو رأى سديد وتصغى إليه الولايات، وبالحديث معه علم المذكور الراهب غريبغوريو أن صمويل باياتشى كان هناك كسفير لملك المغرب وأن الولايات كانت تعمل له حسابًا. قال دوارتى فرنانديث لرجل الدين هذا أن بإمكانه أن يجعل صمويل باياتشى يعمل فى خدمة جلالتكم وأنه من الممكن أن يثمر ذلك عن فوائد عظيمة لتاج جلالتكم، وقال له

كذلك إنه بأمر من دوق إنفانتادو كان قد ذهب إلى هولندا رجلُ يـدعى غابرييـل روبى من أجل إقناعه ولم ينجح فى مسعاه، وأن دوارتى فرنانديث سوف يخبر عن كل ذلك شفاهةً إذا أُرسل إليه بهذا الغرض جواز سفر وأن المركيز شارك فى كـل الموضوع المذكور وحسنا فعل بالموافقة على عودة هذا الراهب إلى هولنـدا مـع رسالة إلى دوارتى فرنانديث الذى تقابل مع المركيز وأعطاه الورقـة المتـضمنة للأمور التى يعرض فيها باياتشى خدمته دون أن يطلب تعويـضًا سـوى مـائتى إسكودو فى الشهر حتى يُرى ما يَعِد به وبشرط أن صاحب الجلالة ـــ أو الشخص الذى يتعين عليه الحضور بالتعليمات ـــ حينما لا يبدو له أنه يعمل كما ينبغى فـلا يعطوه مكافأة. ولكون شقيقه الموجود هناك معه يعدُّ مصدر قلق كبير له لما ينبغى أن يقوم به باياتشى فمن المناسب إبعاده عنه ولن يكون من الممكن عمل ذلـك إلا بمساعدته بمبلغ ألفى إسكودو، وهو مبلغ يطالب بإعطائه له ويقدم ضمانًا كافيًا فـى أمبيريس على أنه وقتما ترغبون جلالتكم فى استرجاع المبلغ فسوف يُرد لكم. أخبر المركيز الأرشيدوق بكل ذلك وبموافقته يأتى رجل الدين هذا لتتفـضلوا جلالـتكم بالاستماع إليه.

ولأن المجلس رأى كيف أن جلالتكم أرسلتم واستمعتم إلى المذكور الراهـب غريغوريو دى فالنسيا فيبدو أنه سيكون من الممكن إيفاد الراهب غريغوريـو مـن جديد فيما بعد وإعطائه خطابات للأرشيدوق البرتو وإلى مركيز إسـبينولا وإلـى مركيز غواداليستى فأمرهم بأنه إذا كانت الأعمال التى يتحدث عنهـا ذات جـودة وملائمة فمن المناسب استئنافها وأن يعملوها ويبحثوها بالمواصفات التـى يطلبهـا وأن يبلغوا ما يفيد به وأن يدفعوا لهذا الأب هناك ما يرونه فى هذا الـصدد حتـى يرى مجرى تلك الأمور ويعطى له هنا بعد ذلك مائتى دوكادوس مصاريف انتقـال ويُقال له أنه حسب ما يحصلون عليه سيكون هناك اعتبار لشخصه.

يبدو كذلك أنه يُقال له بأنه سوف يُرسل إليه جواز السفر الذى يطلبه مـن أجل جوزيف باياتشى ومبلغ الألفى دوقية الذى يطلبه من أجـل رحيلـه، متنـاولاً الضمان الذى يعرضه، وأن صمويل باياتشى سوف يمكنه أن يضمن مبلغ المـائتى

دوقية فى الشهر الذى يرغبه وأنه ستكون له مراسلات مع الشخصين اللذين يحددهما هذا المجلس، وأنه فيما يتعلق بالإذن لفرانثيسكو لوبيث،فسوف يُنظر فيما يمكن عمله لأنه بالعجلة لا يمكن اتخاذ قرار فى ذلك ويجب على مركيز إسبينولا ومركيز غواداليستى أن ينظرا بشكل خاص جدا فيما يمكن أن يخدم مانويل [بدلاً من صمويل] باياتشى ويبلغون ذلك بسرعة(٨).

(٢٠)

صيغة ثانية من الاتفاق المبرم بين غريغوريو دى فالنسيا وصمويل باياتشى، بعد شهر سبتمبر من عام ١٦١٥ (الأرشيف العام لسيمانكاس، الدولة، ربطة رقم ٢٣٠٠).

تذكرة للأمور التى بُحثت واتُفق عليها مع صمويل باياتشى

ـ البند الأول ـ

بما أنه خضع لخدمة صاحب الجلالة فسوف يخدمه بكل إخلاص فى كل ما يعهد إليه وأن يجرى العمل على أيدى الأشخاص الذين صرح بهم إلى الأب غريغوريو دى فالنسيا وليس على أيدى آخرين.

ـ البند الثانى ـ

عندما يدرك صاحب الجلالة أن صمويل يعمل فى خدمته ويحصل صمويل على جواز سفره وعلى تصريح مرور ويُسدد إليه أجره أو يكون متأكدًا من تسديد مستحقاته عن الخدمات السابقة، كل ذلك بالشكل المتفق عليه والذى تم التداول بشأنه مع الأب غريغوريو ويبدأ بالفعل يمكنه أن يخدم فى الأمور الآتية.

ـ البند الثالث ـ

[غير مذكور]

ـ البند الرابع ـ

عن طريق الأشخاص المذكورين الذين أُعلن عنهم إلى الأب غريبغوريــو، سوف يصرح بما سوف يتوصل إليه حقيقةً ونوايا دول الجوار مــن أجــل عــلاج الضرر والحصول على فائدة يمكن أن تتأتى من معرفة ذلك.

ـ البند الخامس ـ

يستطيع صمويل والعميل الآخر أن يُعلنا عن محاولات فرنسا وإنجلترا مــع ملك المغرب كما يتبين بشكل غامض من الخطابات التى رآهــا الأب غريغوريــو والتى يحمل نسخاً منها وعن باقي الأمور التى قيلت له شفاهةً حول هذا الموضوع.

ـ البند السادس ـ

يمكنه كذلك أن يتبع الأمر الذى أصدره بحيث يعقب ذلك اتحاد بين صاحب الجلالة وملك المغرب، إما بإرادته أو ضدها، ويــأمر أن تُــستبعد مــن ممالكــه الاتفاقات والمشاريع التجارية لمملكتى فرنسا وإنجلترا ولهذه الولايــات، وبهــذا - وبأمور أخرى سوف يعلنها بالفعل - يبقى المضيق بالنسبة لصاحب الجلالة آمنــاً بحيث لا تستطيع السفن أن تُبحر ولا أُناس من مملكتى فرنسا وإنجلتــرا وأمــاكن أخرى دون أمر وموافقة من صاحب الجلالة لأنه بالتوافق الحادث بــين صــاحب الجلالة وملك المغرب يبقى كل شيء آمناً.

ـ البند السابع ـ

يمكنه أن يكشف العلاقات بين الإمبراطورية التركية وملك المغــرب عــن طريق سليم باشا أمير بحر الإمبراطورية التركية، مع دول خاضعة أخرى.

ـ البند الثامن ـ

يمكنه القيام بالمراسلات الضرورية عن طريــق الأشــخاص المــذكورين

ويمكنه استخدامهم فيما يأمر به صاحب الجلالة، بتعيين ممثل مخلصٍ فى كل أمر.

ــ البند التاسع ــ

باقى الأمور، ما اتفق عليه شفاهة مع الأب غريغوريــو، ســداد الخــدمات السابقة وتأخير سداد الخدمات الحالية، وطبقًا لما تم التفــاوض بــشأنه مــع الأب المذكور فإن سداد الخدمات التى يقوم بها ستكون وفقًا لتلك الخدمات وللنية الملكيــة لصاحب الجلالة الذى يؤمل منه دفع أجور فائقة عن الخدمات.

ــ البند العاشر ــ

انطلاقًا من الإرادة الصادقة التى يبديها صمويل باياتشى، من الضرورى أن يبلغ صاحب الجلالة بما بُحِثَ شفاهة مع الأب غريغوريو حول كتب ملك المغــرب وحول ملك فرنسا وأن يتفاوض مع الملكة دون أن يعطيها بأى شكل من الأشــكال وعدًا بإعادة تلك الكتب، وأن يبدو قبل ذلك غليظًا ويوقف المداولة لأن ذلــك مهــم جدا من أجل مقصدنا كما صُرِّح بذلك شفاهة للبابا نفسه.

ــ البند الحادى عشر ــ

وحتى يمكن لكل الأمور أن تبلغ الهدف المنشود فمن الضرورى أن يُطــرد شقيق صمويل باياتشى وأهل بيته خارج هولندا بعيدًا كما قيل شفاهة للراهب، حيث أنه من الضرورى لأجل هذا الهدف أن يبقى صمويل باياتشى هنا وحده مــع ابــن شقيقه موسى باياتشى والذى يعد على نفس القدر من أهمية صمويل نفــسه ولــيكن هذا هو الحجر الأول الذى يُلقى لأن عكس ذلك سيكون ذا ضرر كبير.

ــ البند الثانى عشر ــ

للدخول بحماس فى هذه الأمور من الضرورى الإعلان عــن أنــه موفد إلى إسبانيا لأن التأخير سوف يسبب ضررًا، وأن يصدر مع هــذا الإعلان أمر بخروج الشقيق من هنا، ولكون هذين الأمــرين متلازمــين

فسوف يشرع بعد ذلك فى وضع يده علـــى العمـــل ويرســـل التقـــارير الضرورية.

أن يأتى جواز السفر بشكل لائق، وعند وصول الجـــواز المـــذكور ســـوف يستمر صمويل باياتشى يكتب بيده ويبلغ بما هو ضرورى وبالطريقة المتفق عليها.

(هذه نسخة من الورقة التى حملها إلى إسبانيا الأب غريغوريو دى فالنـــسيا وأصل النسخة مع صاحب السمو مركيز غوادالييستى).

(٢١)

شهادة الطاقم ضد صمويل باياتشى، نوفمبر ١٦١٥ (تقويم قديم عام ١٦١٤) (الوثيقة التاسعة فى مصنف غانز).

فى اليوم الثالث من شهر نوفمبر من عام ١٦١٤، كورنيليوس كلايسون من هورن بهولندا، بائع، استُجوِبَ أمام المحترم العادل سير دانييل دون، فارس قاضى لأصحاب الجلالة المحكمة العالية لإمارة البحر، بترجمة من لويس مالابيرت، الذى يتحدث اللغتين الألمانية والإنجليزية، وأقسم على أن يترجم بصدق بنودًا معينة تمد صاحب الجلالة بالفائدة بناءً على طلب اللورد سفير إسبانيا، يقول علاوة على ذلـــك مايلى.

بالنسبة للبند الأول هو يقول إنه قد أُجيب عنه سابقًا، باستثناء أن كل ملاحى السفينة الذين تم استجوابهم فى رحلتهم الأخيرة كانوا مسيحيين، باســـتثناء قائـــدهم، الذى كان يُدعى صمويل باياتشى، فهو يهودى، وخدمه الذين يطهـــون لـــه اللحـــم الخاص به.

وفى رده على البند الثانى يقول إن باياتشى كان هو صاحب السفينة الحربية المصادرة، وإن قبطانها، المدعو جون جونسون[٩] من هورن قد تزود بالمؤن هنا. ويقول إن نفس السفينة الحربية ذهبت من روتردام بترخيص مـــن الولايـــات، وإن

أفراد طاقمها قد حُشدوا جميعهم بقرع الطبول وإنهم ذهبوا من روتردام إلى ساحل إسبانيا للبحث عن غنائم.

عن البند الثالث يقول إن المذكور باياتشى وملاحيه، الذين أُجرى معهم هذا الاستجواب وجدوا على ساحل إسبانيا وذهبوا إلى صافى فى بلاد البربر حيث مكثوا لفترة ثلاثة أسابيع، وفى هذا الوقت ذهب المذكور باياتشى إلى قصر ملك المغرب وحصل على تفويض منه بالإبحار والاستيلاء على كل السفن الإسبانية التى يمكن أن يصادفها.

عن البند الرابع يقول إن المذكور باياتشى عندما حصل على التوكيل المذكور من ملك المغرب أمر ملاحيه بالإبحار على الفور، وبعد مرور حوالى ثلاثة أو أربعة أشهر استولوا بالقرب من فيال فى بحر بيل على مركب شراعى برتغالى متجه إلى البرازيل، ومحمل بالسكر. قام ملاحو ذلك المركب بالقفز إلى الشاطئ عند جزيرة سانتا ماريا، وبعد ذلك بثلاثة أو أربعة أيام استولوا أسفل القلعة عند فيال على سفينة إسبانية متجهة إلى الوطن قادمة من غرب أمريكا، محملة بجلود حيوانات وبضائع أخرى. قفز ملاحو تلك السفينة أيضًا إلى الشاطئ فى جزيرة سانتا ماريا مع ملاحى المركب البرتغالى.

عن البند الخامس يقول إن السفينة الشراعية البرتغالية المذكورة كان عليها مائتان وستة صندوقًا من السكر وبرميل أو برميلان من الشراب، والسفينة الإسبانية المذكورة كان عليها ثلاث آلاف قطعة من جلود حيوانية، وستون صندوقًا مزدوجًا من السكر، أربعة غليونات للتدخين وأربعة أو خمسة أطنان من الزنجبيل وبضائع أخرى لايستطيع تحديدها. كل تلك البضائع كانت تخص الإسبان والبرتغاليين، والكثير حول هذا البند لا يمكنه الإجابة عليه.

عن البند السادس يقول: إنه على ظهر السفينة الشراعية فى وقت الليل قام المذكور باياتشى وملاحوه بقتل واحدٍ من البرتغاليين الذين كانوا فيها. ومع ذلك فقد أنكر التهمة.

عن البند السابع يقول إن المذكور باياتشي وملاحيه أحضروا السفينة المذكورة والسفينة الشراعية كارويل إلى بليماوس، والسبب الذى جعلهم يرسون فى بليماوس هو أن ملاحى المذكور باياتشى كانوا فى شدة الإعياء حتى أنهم كانوا غير قادرين على قيادة سفينتهم، ويقول إن هذا الاستجواب لكونهم في شدة الإعياء تمَّ إجراؤه على الشاطئ فى بليماوس، وإن الكثير حول هذا البند لا يستطيع الإجابة عليه.

عن البند الثامن يقول إن بعض أفراد طاقمه أخبروه أنه كان هناك ٥٧ صندوقًا من السكر تمَّ إنزالها من على ظهر السفينة كارفل فى بليماوس، غير أن هذا الاستجواب وهم مرضى على الشاطئ لايمكن أن نعلم منه إلى منْ أُعطيت تلك الصناديق أو بيعت.

عن البند التاسع يقول إن الغنائم المذكورة ذهبت من بليماوس وقت النهار وحصلت على إذن بالمغادرة من كل الضباط هناك، وهو ما يُفهم من الاستجواب. وهذا المستجوَب والآخرون الموجودون الآن فى السجن تُركوا وهم مرضى على الشاطئ. والكثير عن هذا البند لا يستطيع أن يقول عنه شيئًا باستثناء أن الغنائم المذكورة كما يعتقد هذا المستجوب ذهبت إلى أمستردام. كلايز كلايزون وسيمون كورنيليزون وكرين جارِّيتسون وبرنارد كورنيليزون وهنرى كلايزون: أدلوا بأقوال فى نفس هذا المضمون، باستثناء أنَّ كلايز كلايزون فى ردِّه على الاستجواب الثانى يقول إنهم ذهبوا من روتردام في البداية ليأخذوا قراصنة، وكذلك بمقتضى توكيل كان صمويل باياتشى قد حصل عليه من ملك المغرب والذى كان قد أظهره للولايات قبل مجيئه من روتردام للاستيلاء على أى سفن إسبانية أو بضائع ربما يصادفونها.

وسيمون كورنيليزون يقول فى رده على الاستجواب الثانى إنهم ذهبوا من روتردام للبحث عن قراصنة والاستيلاء على سفن إسبانية بمقتضى توكيل من ملك المغرب.

وكرين جارينسون فى رده على الاستجواب الثانى يقول إن المذكور باياتشى عند مجيئه من روتردام حصل على توكيل من ملك المغرب للاستيلاء على سفن إسبانية، وهو ما كان معروفاً عموماً فى روتردام قبل مجيئه إلى هناك.

و[هنرى كلايزون] يقول إنه عندما حُشِدَ الملاحون بقرع الطبل فى هولندا كان هناك استدعاءٌ عام جعل أن كل منْ سيخدم القبطان (كابتن جونسون) من أجل ملك المغرب ضد السفن الإسبانية فإنه سوف يأتى إلى منتجع الأمير فى روتردام وهناك سوف تكرم وفادته. على هذا النحو يبدو أنهم فى البداية بدأوا رحلة للاستيلاء على سفن إسبانية عندما انطلقوا من روتردام. وأيضا يعتبر أن السفن التى انطلقت فى البداية لم تكن سفن ملك بلاد البربر بل أنها كانت سفن باياتشى.

[فى الهامش الأيمن: استجواب الهولنديين].

(٢٢)

الملك يكتب إلى مركيز غواداليستى، فى ١٤ من ديسمبر من عام ١٦١٥ (وثيقة فى مصنف غانز).

السيد صاحب السمو/

الراهب غريغوريو دى فالنسيا، الذى سيقوم بتسليم هذه الرسالة إلى سموكم والذى جاء إلى هنا حاملاً خطابات من مركيز غواداليستى، اقترح أن يعيد إلى خدمتى صمويل باياتشى، وهو يهودى المولد، بالشروط المدونة فى الورقة المرفقة هنا وهى رد على خطاب سترونه سموكم فى ورقة أخرى وقَّع عليها خوان دى ثيريثا سكرتير دولتى، ومع أن مركيز غواداليستى كتب إلىَّ أنه أخبر سموكم بهذا الأمر إلا أننى أردتُ أن أخطركم بذلك لكى تأمروا بالاستماع إلى رجل الدين هذا، وإذا كانت الأعمال التى يتحدث عنها ذات جودة، وملائمة، بحيث يتوجب متابعتها فلتفعلوا سموكم ذلك بالاعتبار الذى انتظره من فطنتكم مؤكدًا على الضمانات التى تُقدَّم لما يتوجب إعطاؤها، وأن تخطرونى سموكم بإيجاز عما يعرض عليكم

ويتراءى لكم في كل الأمور وفيما يمكن أن يخدم باياتشي. وبالنسبة لرجـل الـدين هذا فيمكن لسموكم أن تأمروا بتأخيره هناك بالقدر الذى يتراءى لكم في هذا الصدد حتى تستبين هذه الأمور ولقد أعطى له هنا مؤقتًا مائتا دوقية لمصاريف انتقال.

اكتبُ أيضًا إلى المركيز أمبروسيو إسبينولا والى مركيز غواداليستى أبلغهما بهذا القرار من أجل أن يكون مفهومًا لديهما وأن يستمعا إلى رجـل الـدين هـذا وسوف أبتهج أن سموكم تخطرونهما بكل ما يتم عمله في العمل حيث أنهما يفهمانه جيدًا. حمى الرب سموكم كما أرغب.

دَل باردو في ١٤ من ديسمبر من عام ١٦١٥

أخوكم المخلص لسموكم. أنا الملك

.....خوان دى ثيريثا.

(Verso) Pardo, Su Md a 14 de Diziember 1615. R. con fray Gregorio de Valençia. Al ser[mo] señor el Archiduque Alberto, mi her[ma]no.

هــوامش الملاحق

1 Ms.:Samuel.

2 كان موسى يبلغ من العمر تسعة عشرة سنةً فى عام ١٦٠٧.

3 لم نستطع العثور على هذه الوثائق

4 i.e. desde 1603.

5 رسالة ناقصة

6 i.e. Capitán Claes Jacopse Coppedraaijer.

7 مات قبل الرابع والعشرين من عام ١٦١٢. كوبيندرايير والبحارة عُوملوا معاملة سيئةً على الشاطىء واجبروا على تسليم أنفسهم إلى الإسبان الذين جعلوهم عبيدًا،

SIHM, PB, II, pp. 52 y ss.

8 رسالة مشفَّرة جزئيًا فى نصها ومفكوكة الشفرة فى الهوامش

9 Jan Jansz. Slobb.

المراجـــع

الأرشيفات

Antigua Colección de M.H. Gans.	أمـــستردام
Archives Générales du Royaume	بروكسل
Archivo Ducal de Medinasidonia (ADM)	سان لوكار دى بارّاميدا (قادش)
Arquivo Nacional da Torre do Tombo (AN/TT)	لشبونة
Archivo Histórico Nacional (AHN)	مـــدريـــد
Archivo General de Simancas (AGS)	سيمانكاس (وادى الوليد)

مطبوعـــات:-

Aa, A.J.van der, Biographisch Woordenboek der Nederlanden, Haarlem [1852] - 1878,12vols.

Abrahams, L.B., "Two Jews before the Privy Council and an English Law Court",Jewish Quarterly Review, XIV (1902), pp.354-358.
"A Jew in the Service of the East India Company in 1601", The Jewish Quarterly Review, IX (1897), pp.173-175 Álvarez de Toledo.L.I., Alonso Pérez de Guzmán. General de la Invencible, Cádiz, 1994, 2 vols.

Alvares Vega, L., Het Beth Haim van Quderkerk Beelden van een Portugees- Joodse Begraafplaats, Ouderkerk aan de Amstel, 1994.

Baer, F., Die Juden im christlichen Spanien, Berlín, 1936.

Bakker, J.C. de, Slaves, Arms, and Holy War. Moroccan Policy vis-à-vis the Dutch Republic during the establishment of the «Alawî dynasty (1660-1727)(tesis doctoral), Amsterdam,1991.
Beinart, H., "Fez as a Center of Return to Judaism in the 16th Century (en hebreo)", Sefunot VIII (1963-4), pp.319-24.

Beinart, H., "La ruta de los judíos de Marruecos a España a comienzos del siglo XVII (en hebreo)», Salo Wittmayer Baron Jubilee Volume on the occasion of his Eightieth Birthday. Nueva York y Londres,1974.

Benbassa,E. (ed.), Memoires juives d'Espagne et du Portugal, París,1996.

Bernáldez, "Historia de los Reyes Católicos", Crónicas de los Reyes de Castilla III (BAE,LXX), Madrid,1953 Bertí.S., "At the roots of Unbelief", Journal of the History of Ideas, 56 (1995), pp.555-575.

Bodian, M., Hebrews of the Portuguese Nation Conversos and Community in Early Modern Amsterdam, Bloomington, 1997.

Bouzineb. H., «Plática" en torno de la entrega de Salé en el siglo XVII», Al-Qantara, XV (1994), pp.47-73.

Bouzineb, H. y Wiegers, G.A. "Tetuán y la expulsión de los moriscos", Titwân jilâl al-qarnayn 16 wa 17, Tetuán, 1996, pp.73-108.

Boyajian, J.C. "The New Christians Reconsidered: Evidence from Lisbon's Portuguese Bankers, 1497-1647", Studia Rosenthaliana XIII,2 (1979), pp.129-156.

Cabanelas. D., "El problema de Larache en tiempos de Felipe II", Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos,9 (1960), pp.19-53.

Cabrera de Córdoba, H., Relaciones de las cosas sucedidas en la Corte de España dede 1595 hasta 1614, Madrid, 1857.

Cansino, J., "Relación de los servicios de Iacob Cansino y los de su padre", Extremos y Grandezas de Constantinopla compuesto por Rabi Moysen Al-mosnino, Madrid, 1638.

Cantera,F. (trad.), Chebet Yehudá (La vara de Judá) de Salomón ben Verga, Granada, 1927.

Cantera, F. (trad.), El Libro de la Cabala de Abraham ben Salomon de Torrutiel, Salamanca, 1928.

Cantera, F., «El "Purim" del Rey Don Sebastián", Sefarad, V (1945), pp.219-225.

Caro Baroja. J., «El último Abencerraje», J. Caro Baroja, Vidas poco paralelas (con perdón de Plutarco), Madrid, 1981, pp. 51-68.

Caro Baroja, J., Los judíos en la España moderna y contemporánea, Madrid, 2a ed., 1978, 3 vols.

Caro Baroja, J., Las falsificaiones de la historia (en relación con la de España), Madrid,1991.

Castries, H, de, "Les relations de la France avec le Maroc de 1631 á 1635. Les Pallache. Introduction critique", SIHM, France, 1ere série, III, pp. 391-397

Catálogo comentado Exhibición de facsímiles de libros de autores judíos y Judaizantes españoles (s. XVI-XVIII), realizado por Fernando Díaz Esteban con los fondos de la Biblioteca Nacional de Madrid, Madrid, 1992.

Catalogue of an exhibition of Anglo-Jewish Art and History in Commemoration of the Tercentenary of the Resettlement of the Jews in the British Isles, held at the Victoria and Albert Museum London, 6 January- 29 February. 1956, Londres, 1956.

Cohen, G.D., A Critical Edition with a Translation and Notes of the Book of Tradition (Sefer ha-Qabbala) by Abraham Ibn Daud,

filadelfia, 1967.

Cohen, M., (ed., y trad.), The Autobiography of a Seventeenth entury Venetian Rabbi, Leon Modena, Princeton, 1989.

Coleman, D.C., revisions in Mercantilism, Londres, 1969.

Contreras, j., "Cristianos de España y judíos de Amsterdam: Emigración, familia y negocios", J. Lechner y H. den Boer (eds.), España y Holanda Ponencias Leídas durante el Quinto Coloquio Hispanoholandés de Historiadores, celebrado en la Universidad de Leiden del 17 al 20 de noviembre de 1993, Amsterdam, 1995, pp.187-213.

Corcos Abulafia, D., "Samuel Pallache and his London Trial" (en Hebreo),Studies in the History of the Jews of Morocco, Jerusalén, 1973

"Correspondencia oficial de Don Diego Sarmiento de Acuña, Conde de Gondomar", Documentos Inéditos para la historia de España, 1-4 Ts., Madrid, 1936-1945.

Cruz, Bernardo da, Chronica de El Rei D. Sebastião, Lisboa, 1837.

Crónica de Almançor, sultão de Marrocos (1578-1603), Estudo

crítico,
introd. e notas, A. Dias Farinha, Lisboa, 1997.

Dakhlía, J., «Réinscriptions linagéres et redéfinitions sexuelles des Convertis dans les cours maghrébines (XVIe - XVIIe siècles)», M. García Arenal (ed.), Conversion religieuse en Islam Mediterranéen (en prensa).

Denison Ross, E., Sir Anthony Sherley and his Persian Adventure, Londres, 1933.

Dictionary of National Biography, Oxford,1885 y ss.

Domínguez Ortiz, A., La clase social de los conversos en Castilla en la Edad Moderna, Madrid, 1955.

Eekhof, A., De Theologische Faculteit te Leiden in de 17 e eeuw, Utrecht, 1921.

Encyclopaedia of Islam, second edition, Leiden, 1960vv.

Encyclopaedia Judaica, Jerusalén, 1970 vv.

Figueras García, T. y Rodríguez Jouliá, C., Larache, datos para su historia en el siglo XVII, Madrid, 1973.

Fischel, W. J., «Abraham Navarro,Jewish Interpreter and Diplomar in the Service of the English East India Company (1682-1692)», Proceedings of the American Academy for Jewish Research, XXV (1956), pp. 39-62.

al-Fishtali, Manahil al-safa fi ajbar mawali-na al-shurafa',Tetuán, 1964

Fruin, R. (ed), «Uittreksel uit Francisci Dusseldorpii Annales», Werken uitgegeven door het historisch genootschap gevestigd te utrecht, 3e serie, n.o1, La Haya, 1893.

Gans, M.H., Memorbock Platenatlas van het leven der joden in Nederland van de middeleeuwen tot 1940, Baarn, 1971.

Gans, M.H., «Don Samuel Pallache als moré en zeerover, grodlegger onzer gemeenschap», Opstellen opperrabbijn L. Vorst aangeboden, Rotterdam, 1959, pp. 15-23.

García Arenal, M. (ed.), Diego de Torres, Relación del origen y suceso de los xarifes y del estado de los reinos de Marruecos, Fez y Tarudante. Sevilla, 1568, Madrid, 1980.

García Arenal, M."Les bildiyyin de Fes: un groupe de neo-

musulmans d'origine juive", Studia Islamica, LXVI (1987), pp. 113-144.

García Arenal, M., "Vidas ejemplares: Sa'îd Ibn Faray al-Dugâlî (m.987/1579), un granadino en Marruecos", M. García Arenal y M.j. Viguera (eds.), Relaciones de la penísula Ibérica con el Magreb, s. XIII-XVI, Madrid, 1988, pp. 453-486.

García Arenal, M. y M. de Bunes, Los españoles y el Norte de África, siglos XV- XVIII, Madrid, 1992.

García Arenal, M., "Los judíos de Fez a través del proceso inquisitorial de los Almosnino (1621)", Judíos en tierras de Islam, II, Entre el Islam y Occidente: Los judíos magrebíes en la edad moderna (en prensa).

García Fuentes. J. M., La Inquisición en Granada en el siglo XVI: Fuentes para su estudio, Granada,81.

Genot-Bismuth, J., "Le mythe de l'Orient dans l'eschatologie des Juifs d'Espagne à l'époque des conversions forcées et de l'expulsion", Annales E.S.C., 45, no.4 (1990), pp.819-838 Gerber, J.S., Jewish Society in Fez, 1450-1700, Leiden, 1980.

Glick, T. F., "Moriscos and Marranos as Agents of Technological

Diffusion", History of Technology, 17 (1995), pp.113-125.

Gozalbes Busto, G., Los Moriscos en Marruecos, Granada, 1992.

Groot, A.H. de, The Ottoman Empire and the Dutch Republic. A History of the Earliest Diplomatic Relations, 1610-1630 (tesis doctoral), Leiden, 1978.

Hajari, A. b. Qasim al-Kitab Nasir al-din alà al-qawm al-Kafirin (The supporter of religion against the infidel), Historical Study, Critical Edition and Annotated Translation by P.S. van Koningsveld, Q. Samarrai y G.A. Wiegers, Madrid, 1997.

Heeringa.K., "Een bondgenootschap tusschen Nederland en Marokko", Onze Eeuw, VII, n.o3, (1907), pp.81-119.

Heeringa, K., Brunnen tot de greschiedenis van den levantschen handel.I (1590-1660), en II vols. (Rijks Geschiedkundige Publicatiën,9,10), La Haya, 1910.

Henriques de Castro.D., Keur van Grafsteenen op de Nederl-Portug-Israil Begraafplaats te Ouderkerk aan de Amstel, Leiden, 1833. Hildesheimer,

F., "Une créature de Richelieu: Alphonse López, le seigneur Hebreo",

L'honneur de Bernhard Blumenkranz Les Juifs au regard de l'Histoire. Mélanges en l'honneur de Bembard Blumenlzauz. París. 1985, pp.293-299.

Hirschberg.H.,Z. A History of the Jews of North Africa. vol.II. Leiden, 1974.

Huussen, A. J., "The legal position of Sephardi Jews in Holland circa 1600", Dutch Jewish History III (J. Michman ed.), Assen, Maastricht, 1993, pp.1941.

Israel,J.I., "A conflict of Empires Spain and the Netherlands. 1618-1648", Past and Present, 76 (1977), pp.34-74.

Israel,J.I.,"Spain and the Dutch Sephardim", Studia Rosenthaliana, 12 (1978), pp.1-61.

Israel,J.I., "The Jews of Spanish North Africa.1600-1669", Transactions of the Jewish Historical Society of England, XXVI (1979), pp. 71-86.

Israel,J.I., Empires and Entrepots. The Dutch, the Spanish Monarchy and the Jews, 1585-1713, Londres, 1990.

Israel,J.I., La judería europea en la era del mercantilismo (1550-1750),

Madrid, 1992.

Justel, B., La Real biblioteca de El Escorial y sus manuscritos árabes, Madrid, 1978.

Juynboll, W.M.C., Zeventiende-eeuwsche Beoefenaars van het Arabisch in Nederland, Utrecht, 1931.

Kaddouri, A., "Ibn Abi Mahalli: a propos de l'itineraire psycho-social d'un mahdi", A. Kaddoùri (ed.), Mahdisme, crise et changement dans l'histoire du Maroc, Rabat, 1994, pp.119-125.

Kaplan, Y., From Christianity to Judaism: Isaac Orobio de Castro, Oxford, 1989.

Kaplan, Y., "De Joden in the Republiek tot omstreeks, 1750. Religieus, cultureel en sociaal leven", J.H.C. Blom (eds.), Geschiedenis van de Joden in Nederland, Amsterdam, 1995, pp.129-173.

Kaplan, Y., Judíos nuevos en Amsterdam, Madrid, 1996.

Koen, E.M., "Notarial Records relating to the Portuguese Jews in Amsterdam up to 1639", Studia Rosenthaliana, múltiples entregas en los volúmenes desde 1970 hasta el present.

Koen, E.M., "Durante Fernandes, Koopman van de Portugese Natie", Estudia Rosenthaliana 2 (1968), pp.178-193.

Koningsveld, P.S. van, «Mijn Kharûf: Over de Arabische leermeester van Nicolaas Cleynaerts», Sharqiyyâdt 9/2 (1997), pp.139-161.

Lapeyre, H., Céographie de l'Espagne Morisque, París, 1959.

Laredo, A., Les noms des juifs au Maroc, Madrid, 1978.

Laredo, A., «Les "Purim"de Tanger», Hespéris, XXXV (1948), pp. 193-203 Lechner, J., y den Boer, H., España y Holanda Ponencias leídas durante el Quinto Coloquio Hispanoholandés de Historiadores, celebrado en la universidad de Leiden del 17 al 20 de noviembre de 1993, Amsterdam, 1995.

Le Tourneau. R., "Notes sur les lettres latines de Nicholas de Clenard relatant son sejour dans le royaume de Fès (1540-1541)", Hespéris, XIX (1934), pp. 45-63.

López Belinchón. B., Estudio de la minoría judeoconversa en Castilla en el siglo XVII. El caso de Fernando Montesinos. Tesis doctoral leída en la Universidad de Alcalá de Henares,1995 (Próxima publicación).

López Belinchón, B., "Aventureros, negociantes y maestros Dogmatizadores; Judíos norteafricanos y judeoconversos ibéricos en la España del siglo XVII", Judíos en tierras de Islam, II, Entre el Islam y Occidente: los judíos magrebíes en la edad moderna (en prensa).

Marcos Guadalajara y Xavier, Fr., Prodición y destierro de los moriscos de Castilla hasta el valle de Ricote con las disensiones de los hermanos Xarifes y presa en Berbería de la fuerça y puerto de Alarache, Pamplona, 1614.

Mármol, Luis del, Descripción general de África, Málaga, 1599.

Mediano, F.R., "Portugueses en Marruecos: cautivos de la batalla de Alcazarquivir", M.García- Arenal (ed.), Conversión religieuse en Islam Méditerranéen (en prensa).

Mendes da Costa, M.B., Catalogus der handschriften, Bibliotheek der Universiteit van Amsterdam, VII.Amsterdam, 1899.

Mendoça.J.de, Jornada de África del rey Don Sebastián. Lisboa, 1613.

Nahon, G., "Les rapports des commmunautés judéo portugaises avec celle d'Amsterdam au XVIIe siècle", Studía Rosenthaliana 10 (1976), pp. 37-78.

Offenberg. A. K., "Spanish and Portuguese Sephardi Books Published in the Northern Netherlands before Menasseh Ben Israel (1584-1627)", Dutch Jewish History (J.Michman, ed.) Vol.III, Assen, maastricht, 1993, pp. 7-90, pp. 82-83.

Orozco, A., Discurso historial de la presa que del puerto de la Maarmora hizo el armada real de España en el año 1614, Madrid, 1615, Biblioteca de Autores Españoles. Vol. 36.

Perez Zágorin, J., Ways of Lying: Dissimulation, Persecution and Conformity in Early Modern Europe, Cambridge, Massachusetts, 1990

Pieterse. W. Chr., Daniel Levi de Barrios als geschiedschrijver van de portugees- Israelietische gemeente te Amsterdam in zijn Triumpho del govierno popular, (tesis doctoral), Amsterdam, 1968.

Pieterse, W. Chr. (ed.), Livro de Beth Haim do Kabal Kados de Bet Yahacob. Original Text Introduction, notes, and index, Assen, 1970.

Ravid, B., "The first Charter of the Jewish Merchants in Venice, 1589", ASJ Review, 1 (1976), pp. 187-222.

Resolutën der Staten-Generaal van 1576 tot 1609, XVII (1607-1609), bewerkt door H.H.P. Rijperman, La Haya, 1970.

Resolutën der Staten-Generaal. Nieuwe Reeks, 1610-1670,I (1610-1612), bewerkt door A. Th. Van Deursen, La Haya. 1971.

Resolutën der Staten-Generaal. Nieuwe Reeks, 1610-1670,II (1613-1616), bewerkt door A. Th. Van Deursen, La Haya, 1984.

Ricard, R., "Baptême d'un Juif de Fés á l'Escorial (1589)", Hespéris, XXIV (1937), p.136.

Ricard, R., "Bastião de Vargas, agent de Jean III de Portugal au Maroc", Al-Andalus, X (1945), pp. 53-77.

Ricard, R., "Datos complementarios sobre Bstião de Vargas, agent de Jean III de Portugal en la corte de Fez", Al-Andalus, X (1945), pp. 383-386.

Roersch. A. (trad.). Correspondence de Nicolas Clenard, 3 vols., Bruselas, 1940-1941.

Rojas,J.L., de, Relación de algunos sucesos postreros de Berbería, salida de los moriscos de España y entrega de Alarache, Lisboa, 1613.

Roth, C., "Quatre lettres d'Elie de Montalte. Contribution â l'histoire des Marranes", Revue des Etudes juives, 87 (1929), pp. 137-165.

Roth, C., "The Strange Case of Hector Mendes Bravo", Hebrew Union College Annual, 18 (1944), pp.221-245.

Rudeman, D.B., "Hope Against Hope: Jewish and Christian messianic Expectations in the Late middle Ages", Exilio y Diáspora. Homenaje al Prof. H. Beinart, Madrid, Jerusalén, 1991, pp. 185-202.

Salomon, H.P. Os primeiros Portugueses de Amesterdão. Documentos do Arquivo Nacional da Torre do Tombo, 1595-1606. Introdução, Leitura, notas e cartas genealógicas, Braga, 1983.

Salomon, H.P., "Mendes, Benveniste, de Luna, Micas, Nasci: the state of the art (1532-1558)", The Jewish Quarterly Review, LXXXVIII (1998), pp. 135-211.

Samuel, E.R., "Portuguese Jews in Jacobean London", Transactions of the Jewish, Historical Society of England, XVIII (1958), pp.177-230.

Santoni,p.,"Le passage des Morisques en Provence (1610-1613)", provence Historique, 185 (1996), pp. 333-383.

Saraiva, A., J., Inquisição e cristãos-novos, Oporto, 1969.

Sasson, B.H. "Exilio y redención a ojos de la generación de exiliados de Sefarad" (en hebreo), Yitzhak Baer Jubilee Volume, Jerusalén,

1961, pp.216-227.

Scaraffia, L., Rinnegati Per una storia dell'identità occidentale, Roma, 1993.

Sémach, Y. D., "Une chronique juive de Fès: le Yahas Fes de Ribbi Abner Hassafaty", Hespéris, XIX (1934), pp.79-94.

Les sources inédites de l'histoire du Maroc par le lt. Colonel H. de Castries et autres. Première série-dynastie sá dienne. L'Espagne, France, Angleterre, Pays-Bas.

Swetschinski, D.M., The Portuguese Jewish Merchants of Seventeenth Century Amsterdam A Social Profile (Tesis doctoral inédita), Ann Arbor, Michigan, 1979.

Swetschinski, D.M., "Kinship and Commerce: the Foundations of Portuguese Jewish Life in Seventeenth Century Holland", Studia Rosenthaliana 15 (1981), pp.52-74.

Swetschinski, D.M., "Tussen Middeleeuwen en Gouden Eeuw, 1516-1621", J.H.C. Blom et al (eds.), Geschiedenis van de Joden in Nederland, Amsterdam, 1995, pp.53-94.

Swetschinski, D.M., "Un refus de mémoire. Les juifs portugais

d'Amsterdam et leur passé marrane", E. Benbassa (ed.), Memoires juives J'Espagne et du Portugal. París, 1996, PP. 69-79

Tavares, M.J. Pimenta Ferro, Los judíos en Portugal, Madrid, 1992.

Tavares, M.J. Pimenta Ferro "Judeus de sinal em Portugal no século XVI", Cultura- História e Filosofía, V (1986), pp. 339-363.

Tavim, J.A. Rodrigues da Silva, "Os judeus na expansão portuguesa na India durante o século XVI. O exemplo de Isaac do Cairo", Arquivos do Centro Cultural Calouste Gulbenkian, 33 (1994), pp.137-260.

Tavim, J.A. Rodrigues da Silva, Os judeus e a expanão portuguesa em Marrocos durante o século XVI. Origens e actividades duma comunidade, Braga, 1997.

Tavim, J.A. Rodrigues da Silva, "Uma "estranha" tolerância da Inquisição Portuguesa: Belchior Vaz de Azevedo e o interesse das potências europeias no Marrocos, na segunda metade do século XVI ", Judíos en tierras de Islam, II. Entre el Islam y Occidente los judíos magrebíes en la edad moderna (en prensa).

Tedghi,J., "Books, Manuscripts and Hebrew Printing in Fez" (en hebreo), Pe'amim, LII, pp.47-74.

Valensi, L., fables de la mémoire. La glorieuse bataille des Trois Rois. París, 1992.

Vajda, G., "Un recueil de textes historiques judéo-maocaines", Hespéris, XXXV (1978).

Vlessing, O. "New light on the Earliest History of the Amsterdam Portuguese Jews", Dutch Jewish History III (J. michman, ed.) (1993), pp.43-75.

De Ware Bekeringe en Violent vervolgingen Van Eva Cohen. Nu genaemt Elisabeth. Nu getranslateert in het Nederduyts. Etc. 1681.

Webster, W., "Hebraizantes portugueses en San Juan de Luz en 1619", Boletín de la Real Academia de la Historia, 15, (1889), pp.347-360.

Weiner, J.M. Fitna. Corsairs, and Diplomacy: Morocco and the Maritime States of Western Europe, 1603-1672, tesis doctoral, Columbia University. Nueva York, 1976.

Wiegers, G. A., "Learned Moriscos and Arabic Studies in the Netherlands, 1609-1624", J. Lüdtke (ed.), Romania Arabica. Festschrift für Reinhold Kontzi zum 70 Geburtstag, Tubinga, 1996, pp.405-417.

Wiegers, G.A., "The Andalusi Heritage in the Maghrib: the Polemical Work of Muhammad Alguazir (d. 1610)", Orientations, IV (1997), pp.107-132.

Wilke, L. C., "Conversion ou retour ? La métamorphose du nouveau chrétien en juif portugais dans l'imaginaire sépharade du XVII siècle", E.Benbassa.(ed.), Memoires juives d'Espagne et du Portugal, París, 1996. PP.53-67.

Wolf. L., The Jews in the Canary Islands, Londres, 1926.

Yahya, D., Morocco in the Sixteenth century.Problems and Patterns in African Foreign Policy, Londres, 1981.

Yerushalmí, Y.H., From Spanish Court to Italian Ghetto: Isaac Cardoso, a Study in Seventeenth Century Marranism and Jewish Apologetics. Londres, 1971.

Yerushalmí, Y.H., "Professing Jew in Post- Expulsion Spain and Portugal", Salo Wittmayer Baron Jubilee Volume at the occasion of his Eightieth Birthday, English section vol.II, Nueva York y Londres, 1974, pp.1023-1058.

Zimmels, H.J.Die Marranen in der Rabbinischen Literatur.
Forschungen und Quellen zur Geschichte und Kulturgeschichte der

Anussim. Berlin, 1932.

Zwarts,J., "De eerste rabbijnen en synagogen van Amsterdam naar Archivalische bronnen".Bijdragen en Mededeelingen van hetgenootschap voor de joodsche wetenschap in Nederland IV (1928), pp.147-271.

المؤلفان في سطور

١ــ مرثيديس غارثيا أرينال (مدريد، ١٩٥٠)

– أستاذة بالمجلس الأعلى للبحث العلمى بإسبانيا ورئيسة قسم الدراسات العربية به لعدة دورات.

– من أبرز المتخصصين فى مجال الدراسات الموريسكية

– لها العديد من الكتب والمقالات المنشورة فى إسبانيا وغيرها حول العلاقة بين إسبانيا والمغرب

– أشرفت على العديدج من الرسائل الجامعية المقدمة إلى جامعة مدريد المركزية

٢- جيرارد ويغرس

– أستاذ تاريخ الأديان بجامعة رابود (هولندا)

– له دراسات عديدة حول الأقليات المسلمة فى إسبانيا والبرتغال.

– ترجم وحقّق كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين» لأحمد بن قاسم الحجرى.

– له دراسات حول العلاقة بين الإسلام والغرب.

المترجم فى سطور

ـ ممدوح البستاوى

ـ الدراسات التمهيدية للدكتوراة من جامعة سلمنكا (إسبانيا)

ـ مدرس اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر)

المراجع فى سطور

- جمال أحمد عبد الرحمن
- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط)
- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩) من كلية اللغات والترجمة ـ جامعة الأزهر.
- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومدريد
- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩)
- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة.
- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومــى للترجمــة مشــروع تنميــة ثقافيــة بالدرجــة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحيـاز إلى كل مـا يؤسس لأفكار التـقـدم وحضـور العلم وإشـاعـة العـقـلانيـة والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمـة الأصول المعرفيـة التى أصبـحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقـافـة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	الن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت ديناً وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	الكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين للمسرح الإسبانوامريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادى بلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	چوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندروفنا دولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد ڤاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر	بول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣- عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً	چيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧- ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتازار	على إبراهيم منوفى
٢١٩- بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى پاركر	على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراى	نسيم مجلى
٢٢٣- العلم فى مجتمع حر	پاول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديڤيد هربت لورانس	طاهر محمد على البربرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	چوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جايبجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ووابيرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الروف البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٣)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديڤيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	چورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روچر آلن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فتجنشتين	چون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
٣٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٤٣- العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤- الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٣٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦- سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	چان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٣٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٣٥١- مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٤- الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٣٥٥- التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٣٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧- متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
٣٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	الان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧- القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادى رضا
٣٦٨- المصطلح السردى: معجم مصطلحات	چيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩- المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠- الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١- المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٣٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٣٧٩-	ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣-	هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات (شعر)	جون دن	بهاء چاهين
٣٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٣٨٩-	تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٣٩٧-	أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	أقدم لك: سارتر	فيليپ تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	أقدم لك: كامى	ديڤيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١-	أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديڤيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	چوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	چينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليڤى بروڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣-	أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوڤا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥) رينيه ويليك مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨- سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية جين هاثواى عبد الرحمن الشيخ
٤١٩- العصر الذهبى للإسكندرية جون مارلو نسيم مجلى
٤٢٠- مكرو ميجاس (قصة فلسفية) فولتير الطيب بن رجب
٤٢١- الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول روى متحدة أشرف كيلانى
٤٢٢- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١) ثلاثة من الرحالة عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣- إسراءات الرجل الطيف نخبة وحيد النقاش
٤٢٤- لوائح الحق ولوامع العشق (شعر) نور الدين عبدالرحمن الجامى محمد علاء الدين منصور
٤٢٥- من طاووس إلى فرح محمود طلوعى محمود علاوى
٤٢٦- الخفافيش وقصص أخرى نخبة محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧- بانديراس الطاغية (رواية) باى إنكلان ثريا شلبى
٤٢٨- الخزانة الخفية محمد هوتك بن داود خان محمد أمان صافى
٤٢٩- أقدم لك: هيجل ليود سپنسر وأندزجى كروز إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- أقدم لك: كانط كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- أقدم لك: فوكو كريس هوروكس وزوران جفتيك إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- أقدم لك: ماكيافللى پاتريك كيرى وأوسكار زاريت إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- أقدم لك: جويس ديڤيد نوريس وكارل فلنت حمدى الجابرى
٤٣٤- أقدم لك: الرومانسية دونكان هيث وجودى بورهام عصام حجازى
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة نيكولاس زربرج ناجى رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١) فردريك كوبلستون إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى شبلى النعمانى جلال الحفناوى
٤٣٨- بطلات وضحايا إيمان ضياء الدين بيبرس عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابى (رواية) صدر الدين عينى محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية الحديثة كرستن بروستاد محمد طارق الشرقاوى
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة (رواية) أرونداتى روى فخرى لبيب
٤٤٢- حتشبسوت: المرأة الفرعونية فوزية أسعد ماهر جويجاتى
٤٤٣- اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها كيس فرستيغ محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤- أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة لاوريت سيجورنه صالح علمانى
٤٤٥- حول وزن الشعر پرويز ناتل خانلرى محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود الكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير أحمد محمود
٤٤٧- ملحمة السيِّد تراث شعبى إسبانى الطاهر أحمد مكى
٤٤٨- الفلاحون (ميراث الترجمة) الأب عيروط محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩- أقدم لك: الحركة النسوية نخبة جمال الجزيرى
٤٥٠- أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية صوفيا فوكا وربيكا رايت جمال الجزيرى
٤٥١- أقدم لك: الفلسفة الشرقية ريتشارد أوزبورن وبورن فان لون إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- أقدم لك: لينين والثورة الروسية ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت محيى الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة جان لوك أرنو حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عامًا من السينما الفرنسية رينيه بريدال سوزان خليل

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
-٤٥٥	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
-٤٥٦	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
-٤٥٧	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
-٤٥٨	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
-٤٥٩	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
-٤٦٠	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
-٤٦١	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
-٤٦٢	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
-٤٦٣	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
-٤٦٤	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
-٤٦٥	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
-٤٦٦	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
-٤٦٧	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
-٤٦٨	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
-٤٦٩	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
-٤٧٠	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد الننة
-٤٧١	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
-٤٧٢	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
-٤٧٣	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
-٤٧٤	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
-٤٧٥	صوت مصر: أم كلثوم	فرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
-٤٧٦	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
-٤٧٧	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
-٤٧٨	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
-٤٧٩	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
-٤٨٠	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
-٤٨١	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
-٤٨٢	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
-٤٨٣	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
-٤٨٤	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
-٤٨٥	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
-٤٨٦	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
-٤٨٧	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
-٤٨٨	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
-٤٨٩	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
-٤٩٠	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
-٤٩١	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
-٤٩٢	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	آرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديسًا (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١- ما الذي حَدَثَ في «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢- المغامرُ والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣- تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤- الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥- مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦- الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقي جلال
٥٣٧- للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوي
٥٣٨- النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلر	محمد الحديدي
٥٣٩- خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠- توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١- هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢- قصص مختارة من الأدب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣- أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤- أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- أقدم لك: بارت	فيليب تودي وآن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨- أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩- أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلي وليتاجانز	جمال الجزيري
٥٥٠- أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدي الجابري
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندي	سمحة الخولي
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دي ثربانتس	على عبد الرءوف البمبي
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر في عهد محمد على	عفاف لطفي السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادي والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالي
٥٥٦- أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧- أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحي أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١- جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٤- عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتي	صبري محمدي التهامي
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولي في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومی بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسی	سير رويرت های	يوسف الشارونی
٥٧١-	تاريخ النقد الإسبانی المعاصر	إيميليا دی ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب فی زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتی	جمال الجزيری
٥٧٤-	مصر القديمة فی عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعی
٥٧٥-	الاقتصاد السياسی للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشری محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودی	محمد قدری عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومی ميزوكوشی	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكی	چون ماهر وچودی جرونز	محيی الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف الدولية (مج١)	چون فيزر وپول سيترجز	بإشراف: محمد فتحی عبدالهادی
٥٨١-	الحمقی يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا علی الذات (رواية)	هوشنك كلشيری	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادی	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيری	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروی آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصينی	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدی
٥٨٨-	أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتی
٥٨٩-	تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدی عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	علی عبدالتواب علی وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبری السوربونی	مجدی عبدالحافظ وعلی كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	پول ڤاليری	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانی فوزی
٥٩٥-	الحكم والسياسة فی أفريقيا (جـ٢)	إكوابو بانولی	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية فی العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومی علی قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوی
٦٠٠-	الإسلام فی التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلی
٦٠٢-	ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣-	النقد الثقافی	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسی
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج١)	پاتريك ل. آبوت	توفيق علی منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكی (الصغير)	مصطفی إبراهيم فهمی
٦٠٦-	قصة البردی اليونانی فی مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنی

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٩٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	الكسياد	الأميرة أناكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سيهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	چون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	چى دى موپاسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روچر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساستري	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالدييار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	پول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	چيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانڤيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانڤيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غربال
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

٦٨٣- سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤- الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥- الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦- امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧- محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨- الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩- الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠- محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١- ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢- أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣- أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاثيم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
٦٩٤- أقدم لك: دريدا	چيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥- أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وچودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦- أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧- أقدم لك: أرسطو	روبرت ودڤين وچودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨- أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩- أقدم لك: التحليل النفسى	إيڤان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
٧٠٠- الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١- الذاكرة والحداثة	وليم رود ڤيڤيان	منى البرنس
٧٠٢- مدونة چوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	چوستينيان	عبد العزيز فهمى
٧٠٣- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانڤيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤- فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥- فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦- الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	چونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧- أقدم لك: ڤالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨- فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩- معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠- الأطفال والتكنولوچيا والثقافة	إيان هاتشباى وچوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١- درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢- الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣- الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤- حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥- سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
٧١٦- جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧- جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨- جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩- مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠- مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام چونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١- فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢- الصفيحة وقصص أخرى	بشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣- تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤- اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥- الاضطراب النفسى	چون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦- الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧- حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨- العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩- الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠- حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١- النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢- قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣- مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤- بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥- فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧- الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٧٣٨- دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	چيرار دى چورچ	محمد عواد
٧٣٩- دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	چيرار دى چورچ	محمد عواد
٧٤٠- خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١- الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢- أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣- الثقافة: منظور دارويني	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤- ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥- المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	چوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧- الاستعارة فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨- تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩- إيكولوچيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠- الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١- الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢- ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروري
٧٥٣- التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤- الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥- تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. ديبكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦- ذات العيون الساحرة	إنريكى خاردييل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧- تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨- الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

٧٥٩- النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠- الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرچينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢- المسلم عدواً و صديقًا	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣- الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥- ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦- الشرق المتخيل	تييرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧- الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨- حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩- أنباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠- السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١- السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢- بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣- دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	چون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤- الديموقراطية الامريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥- مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧- الانفجار الأعظم	چيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨- صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠- من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١- الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢- المسرح المسكون	مارفن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣- العولمة والرعاية الإنسانية	فيك چورج وبول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤- الإساءة للطفل	ديفيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥- تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦- المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧- العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨- سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩- الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبى
٧٩٠- الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢- دراسات حول القصص القصيرة لإدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣- ثلاث رؤى للمستقبل	چون جريفيس	رءوف وصفى
٧٩٤- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥- مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف البمبى
٧٩٦- آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

٧٩٧-	الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨-	الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد وداڤيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩-	سلم السنوات	آن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠-	قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١-	نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢-	مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣-	التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس باترسون	عزة الخميسى
٨٠٤-	سوسيولوجيا الدين	دانييل هيرڤيه-ليجيه وجان بول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥-	من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦-	الطبقة العليا المتوسطة	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧-	يحيى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨-	الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديڤيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١٠-	تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١١-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢-	تأمل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣-	لم أخرج من ليلى (رواية)	آنى إرنو	نورا أمين
٨١٤-	الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥-	فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦-	العدو الأمريكى	فيليب روچيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧-	مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨-	الصرافيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨١٩-	الصرافيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨٢٠-	هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١-	هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢-	فن الرباعى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣-	وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤-	لغة الدراما	داڤيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥-	عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦-	عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧-	أهل مطروح: البدو والمستوطنون والذين يقضون العطلات	دونالد پ.كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨-	النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين	رمسيس شحاتة
٨٢٩-	مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠-	رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١-	تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين وليوپولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢-	تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٣)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨٣٣-	الفلسفة الألمانية	فرنر شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤-	كنز الشعر	ذبيح الله صفا	محمد علاء الدين منصور

٨٣٥- تشيخوف: حياة فى صور — بيتر أوربان — علاء عزمى

٨٣٦- بين الإسلام والغرب — مرثيدس غارثيا — ممدوح البستاوى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٣١٦٤ / ٢٠٠٦

هذا الكتاب هو ثمرة بحث دءوب فى الأرشيفات الأوروبية لرسم صورة شخص كان يمكن ألا يلتفت إليه أحد، وهو نموذج لما يمكن أن يثمر عنه التعاون بين باحثين من بلاد مختلفة.

ويتضمن الكتاب وثائق لم يلتفت إليها أحد من قبل على حد علمنا، وتتعلق بتاريخ المغرب العربى، وتوضح بعض الحقائق التى يمكن من خلالها أن نصحح بعض المعلومات الخاطئة.

الغلاف: محمود مراد